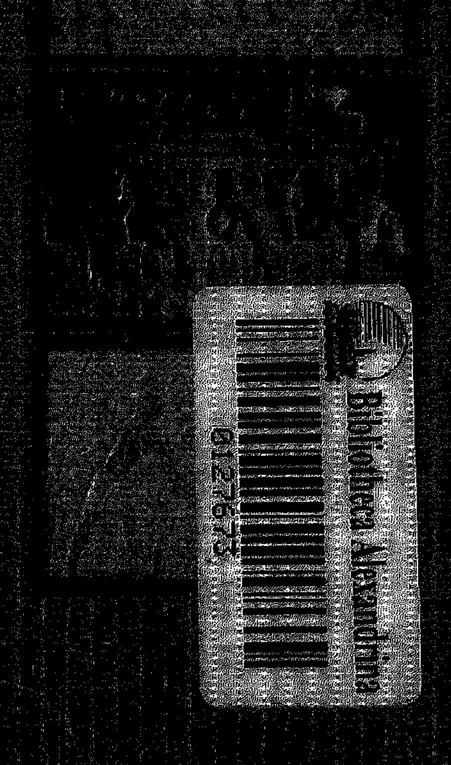
مصر والشرق الأدنى القديم

الثورة الاجتماعية الأولى
فى
مصر الفراعنة

الأستاذ الدكتور
محمد بيومى مهران
أستاذ تاريخ وحضارة مصر والشرق الأدنى القديم
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية



دار المعرفة الجامعية
٤٠ ش سوتير . الأزاريطة ت : ٤٨٣٠١٦٣
٣٨٧ ش قنال السويس . الشاطبى ت : ٥٩٧٣١٤٦



مصر والشرق الأدنى القديم

الثورة الاجتماعية الأولى
فى
مصر الفراعنة

الأستاذ الدكتور
محمد بيومى مهران
أستاذ تاريخ وحضارة مصر والشرق الأدنى القديم
كلية الآداب ـ جامعة الإسكندرية

١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م

دار المعرفة الجامعية
٤٠ ش سوتير ـ الأزاريطة ت ٤٨٣٠١٦٣
٣٨٧ ش قنال السويس ـ الشاطبى ت ٥٩٧٣١٤٦



بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين
والصلاة والسلام على
المبعوث رحمة للعالمين
سيدنا ومولانا وجدنا محمد وآله
الطيبين الطاهرين

اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على
إبراهيم وآل إبراهيم، وبارك على محمد وآل محمد،
كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم
فى العالمين ـ إنك حميد مجيد



إهـــداء

إلى أساتذتى الأجلاء ـ طيَّب الله ثراهم ـ :

١ ـ الأستاذ الدكتور نجيب ميخائيل إبراهيم

أستاذ التاريخ القديم، ورئيس قسم التاريخ
كلية الآداب ـ جامعة الإسكندرية

ـ المشرف على الرسالة ـ

٢ ـ الأستاذ الدكتور عبد المنعم أبو بكر

أستاذ الآثار المصرية ـ وعميد كلية الآداب
جامعة القاهرة

ـ عضو لجنة المناقشة ـ

٣ ـ الأستاذ الدكتور رشيد الناضورى

أستاذ التاريخ القديم، وعميد كلية الآداب
جامعة الإسكندرية

ـ عضو لجنة المناقشة ـ

أهدى هذه الدراسة



تقـــــديم

(١)

مصـــــر:

اسم حملته مصر الفرعونية، ومصر الإسلامية، ومصدر الحديثة ـ على مدى عدة آلاف من السنين ـ.

مصر أم العروبة، ومنارة الإسلام، وقلب العالم العربى، وواسطة العالم الإسلامى، وحجر الزاوية فى العالم الأفريقى.

مصر كنانة الله فى أرضه، ودرته الخالدة فى الشرق، ومحور التاريخ العالمى.

مصر «أول أمة» فى التاريخ، نمت فيها عناصر الأمة، بمعناها الكامل الصحيح، وبعدها كانت «أول دولة» بالمعنى السياسى المنظم، نجحت فى أن تؤسس «أول ملكية» عرفها التاريخ القديم.

ثم «أول إمبراطورية» حققت لنفسها نطاقًا ممتدًا من السيطرة والنفوذ، وصل بسرعة إلى شمال سورية، وإلى مشارف النهرين، كما وصل غربًا إلى برقة، وجنوبًا حتى «أثيوبيا» ـ بمعناها الواسع القديم، وظلت تلك الإمبراطورية المصرية، أعظم حقيقة سياسية فى الشرق الأدنى القديم، قرابة ألف متتالية من الأعوام ـ أو ألفين متقطعة ـ .

مصر: اسم قدسته الأديان، وكرمته السماء، وشرفه الله تعالى بذكره فى التوراة ـ كما فى سفرى التكوين والخروج[1] على سبيل المثال ـ

---

(١) انظر: سفر التكوين ١٢/١٠، ١١، ١٤، ١٣/١، ٣٧/٣٦، ٣٩/١، ٤١/٤٣، ٤٦، ٤٦، ٤٨/٥٣، ٥٤، ٥٥، ٥٦، ٥٧، ٤٢/١، ٢، ٣، ٤٣/١، ١٥، ٤٥/٤، ٩، ١٣، ١٨، ١٩، ٢٠، ٢٣، ٢٥، ٢٦، ٤٦/٣، ٤، ٧، ٨، ٢٠، ٢٦، ٢٧، ٢٧، ٤٧/٦، ١١، ١٣، ١٤، ١٥، ٢٠، ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٤٨/٥١، ٥٠/٧، ١٤، ٢٢، ٢٦؛

سفر الخروج ١/١، ٥، ٨، ١٥، ١٧، ١٨، ٢/٢٣، ٣/٧، ١٠، ١٦، ١٧، ١٨، ١٩، ٢٠، =

وذكرها الله تعالى فى الإنجيل - كما فى إنجيل متى وأعمال الرسل[١] - وأسبغ الله على مصر من فضله وكرمه، فشرفها بذكرها فى القرآن الكريم - كما فى سورة البقرة ويونس والزخرف -.

ويذهب بعض الباحثين إلى أن القرآن الكريم، إنما فرّق بين كلمتى «مصر» التى جات فى سياق قصتى يوسف وموسى - عليهما السلام - ففى قوله تعالى - على لسان موسى عليه السلام - ﴿اهبطوا مصراً، فإنّ لكم ما سألتم﴾[٢]: أن كلمة «مصراً» فى هذه الآية الكريمة لا تدل على بلدنا الكريم (مصر وادى النيل)، وإنما تعنى «المدينة المتحضرة» - أى مدينة متحضرة فى أى مكان - ودليلنا أن كلمة مصر فى الآية الكريمة، جاءت «مفعولاً به» منصوباً، وهى منونة «مصراً» - أى ليست ممنوعة من الصرف -.

وفى موضع آخر، يقول تعالى - على لسان يوسف عليه السلام - ﴿ادخلوا مصر، إنْ شاء اللهُ آمنين﴾[٣]، فجاءت الكلمة هنا تدل على وطننا مصر، وهى «مفعول به» أيضاً، ومنصوب، ولكن بدون تنوين، لأنها ممنوعة من الصرف، حيث تدل على «مصر» - وادى النيل.

= ١٨/٤، ١٩، ٢٠، ٢١، ٤/٥، ١٢، ١١/٦، ١٣، ١٣، ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣/٧، ٤، ١١، ١٩، ٢١، ٥/٨، ٦، ١٦، ١٧، ٢٤، ٩/٩، ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٢/١٠، ٧، ١٢، ١٢، ١٣، ١٤، ١٥، ٢١، ٢٢، ١/١١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦، ٩، ١/١٢، ١٢، ١٣، ١٧، ٢٩، ٣٩، ٤٠، ٤١، ٤٢، ٥١، ٣/١٣، ٨، ٩، ١٤، ١٥، ١٦، ١٧، ١٨، ٥/١٤، ٦، ٧، ١١، ١٢، ١/١٦، ٣، ٦، ٢٢، ١/١٨، ١/١٩، ١/٢٠، ١٥/٢٣، ١/٣٢، ٤، ٧، ٨، ١١، ١/٣٣، ٣٤، ١٨، وغيرها.

(١) إنجيل متى ١٣/٢، ١٤، ١٥، ١٩؛ أعمال الرسل ٩/٧، ١٠، ١٠، ٣٤، ٣٤، ٣٦، ٣٩، ٤٠.

(٢) سورة البقرة، آية: ٦١؛ وانظر: تفسير الطبرى /١٣٢-١٣٣؛ تفسير المنار /٢٧٣-٢٧٦؛ تفسير القرطبى، ص ٣٦٥-٣٦٨؛ تفسير النسفى ٥١/١-٥٢؛ فى ظلال القرآن ٧٤/١-٧٥؛ تفسير الكشاف ١٠٧/١-١٠٨؛ صفوة التفاسير ٦٢/١؛ تفسير ابن كثير ١٥٢/١-١٥٤.

(٣) سورة يوسف، آية: ٩٩؛ وانظر: تفسير الطبرى ٢٦٥/١٦-٢٦٦؛ تفسير ابن كثير ٧٥٨/٢-٧٥٩؛ تفسير القرطبى، ص ٣٤٨٨-٣٤٩٢؛ تفسير النسفى ٢٣٧/٢-٢٣٨؛ فى ظلال القرآن ٢٠٢٨/٤-٢٠٢٩؛ صفوة التفاسير ٦٨/٢؛ تفسير البحر المحيط ٢٤٨/٥.

وهذه التفرقة اللغوية الدقيقة بين كلمة «مصر» فى الآيتين، إنها توضح أن لكلمة «مصر» معنيان: الواحد: معنى الوطن الذى يعيش فيه المصريون، بحدوده المعروفة جغرافيا، وهذا هو المعنى الذى ورد فى القرآن ، ممنوعاً من الصرف ـ أى بدون تنوين فى أربعة مواضع.

والثانى: معنى المدينة المتحضرة، وفى القاموس ـ فى معانى كلمة مصر ـ : مصروا المكان تمصيراً، جعلوه مصراً، فتمصر، و«مصر» ـ(أى المدينة التى تتميز عما حولها من بوادى ـ.

وقد قالوا عن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ (١٣-٢٣هـ/٦٣٤-٦٤٤م) أنه «مصّر الأمصار» ـ أى أنشأ الأمصار، أو أنه بعث العمال أو الولاة على «الأمصار» ـ أى الولايات ـ وقد أطلقوا على الكوفة والبصرة، لقب «المصران» ـ مثنى مصر ـ.

هذا وقد بدأ «التمدن» فى العالم، ببناء المدن فى مصر ـ فى عصور ما قبل التاريخ ـ مثل «نخن» (البصيلية) فى الصعيد، بوتو (إبطو) فى الدلتا ـ ومن ثم فقد نحتت اللغة العربية كلمة «مصر» لتدل بها على قيام الدولة ـ أو المدينة المتحضرة ـ التى تحيط بها البوادى[١].

وفى قصة يوسف عليه السلام، قوله لإخوته ـ وهو فى سلطانه فى مصر ـ ﴿وقد أحسنَ بى، إذْ أخرجنى من السِّجنِ ، وجاءَ بكم منَ البدوِ﴾[٢]، فجعل الشام بدواً، بالمقابلة بمصر، وقد كان شرق مصر، وقت ذاك، رعوياً بدوياً.

وهكذا ، فإن موسى ، عليه السلام، حين قال لقومه ﴿اهبطوا مصراً، فإنَّ لكم ما سألتم﴾، إنها تفيد «مصراً» هنا، أى مدينة، وليس الوطن المصرى (مصر) على الخصوص[٣].

(١) أحمد صبحى منصور، مصر فى القرآن الكريم، القاهرة ١٩٩٠ ، ص ١٥-١٦ .

(٢) سورة يوسف، آية: ١٠٠ .

(٣) الكندى، فضائل مصر، القاهرة ١٩٧١ ، ص ٢٥ ؛ أحمد صبحى منصور، المرجع السابق، ص١٦-١٧.

هذا وقد قال الله تعالى - حين وصف مصر، وما كان فيه آل فرعون من النعمة والملك، بما لم يصف به مشرقاً، ولا مغرباً، ولا سهلا ولا جبلا، ولا براً ولا بحراً - ﴿كم تركوا من جنَّاتٍ وعيونٍ، وزروعٍ ومقامٍ كريمٍ، ونَعْمَةٍ كانوا فيها فاكهين﴾[1].

وكلمة «مصر» - بمعنى البلد المتمدن أو الدولة - إنما هى اعتراف من اللغة العربية بقدم العمران المصرى، والحضارة المصرية، فالعرب - حين عرفوا النطق باللغة العربية - استعاروا كلمة «مصر» لتدل على المدينة والحضارة، ثم جاء القرآن الكريم - فيما بعد - يسجل هذا المعنى ويميزه بفارق لغوى دقيق، حين يجعل كلمة «مصر» الوطن، ممنوعة من الصرف، باعتبارها علماً، وذلك فى أربعة مواضع (سورة يونس، آية: ٨٧؛ سورة يوسف، آية: ٢١، ٩٩؛ سورة الزخرف، آية: ٥١)، ثم تكون كلمة «مصر» الدالة على المدينة منونة فى موضع وحيد فى القرآن الكريم (البقرة، آية: ٦١)

ولعل من الجدير بالإشارة أن ذلك إنما كان على أيام موسى، عليه السلام[2]، والذى شهد «عصر الدولة الحديثة» - أو كما يسمى عند المؤرخين «عصر الإمبراطورية المصرية» (١٥٧٥-١٠٨٧ق.م) - حيث سادت مصر العالم المعروف وقت ذاك.

وهناك أهمية أخرى، يضيفها القرآن الكريم على مصر، عندما يعبر عنها بلفظ «الأرض»، هذا والنسق القرآنى إنما يضفى وصف الأرض على وطن ما، إذا ما بلغ قومه درجة كافية من القوة، نفهم ذلك من قول الله تعالى ﴿فأمَّا عادٌ فاستكبروا فى الأرضِ بغيرِ الحقِّ، وقالوا مَنْ أشدُّ مِنَّا قوةً، أوَ

(١) سورة الدخان، آية: ٢٥-٢٧؛ وانظر: تفسير القرطبى، ص ٥٩٥٨-٥٩٥٩؛ تفسير ابن كثير ٢١٤/٤-٢١٦؛ تفسير النسفى ١٢٩/٤-١٣٠؛ صفوة التفاسير ١٧٣/٣-١٧٤؛ التفسير الكبير للرازى ٢٤٦/٢٧؛ تفسير البحر المحيط ٣٦/٨؛ فى ظلال القرآن ٣٢١٤/٥.

(٢) انظر عن عصر موسى وتاريخ الخروج ببنى إسرائيل من مصر: محمد بيومى مهران، بنو إسرائيل ٢٦١/١-٤٤٢، طبعة ثالثة، الإسكندرية ١٩٩٩م.

لَمْ يروْا أنّ اللهَ الّذى خلقهُم ، هو أشدُّ منْهُم قوة﴾[١].

ولنقرأ هذه الآيات التى تتصل بمصر وفرعون، قال تعالى ﴿إنّ فرعونَ علا فى الأرضِ﴾[٢] وقوله تعالى ﴿ونريدُ أنْ نمنّ على الذينَ استضعفوا فى الأرضِ﴾[٣]، وقوله تعالى ﴿قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا، إنّ الأرضَ لله﴾[٤]، وقال تعالى ﴿عسى ربُّكم أنْ يهلكَ عدوكم، ويستخلفكم في الأرضِ﴾[٥]، وقال تعالى: ﴿فلنْ أبرحَ الأرضَ حتّى يأذنَ لى أبى أوْ يحكمَ الله لى﴾[٦] وقال تعالى : ﴿وقال الملأُ منْ قومِ فرعون[٧] أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض﴾[٨] وقوله تعالى ﴿إنْ تريدَ إلا أنْ تكونَ جبّاراً فى الأرض، وما تريدَ أنْ تكون من المصلحين﴾[٩]

وقوله تعالى : ﴿قال أجئتنا لتُخْرجنا منْ أرضِنَا بسحركَ يا موسى﴾[١٠]، وقوله تعالى: ﴿قالوا إنْ هذَانِ لَساحرانِ يريدانِ أنْ يخرجَاكم من أرضكم﴾[١١].

وفى قصة يوسف عليه السلام ، يقول تعالى ـ عن تطور مكانة يوسف

---

(١) سورة فصلت، آية : ١٥.

(٢) سورة القصص، آية: ٤.

(٣) سورة القصص، آية: ٥.

(٤) سورة الأعراف، آية: ١٢٨.

(٥) سورة الأعراف، آية: ١٢٩.

(٦) سورة يوسف، آية: ٨٠.

(٧) فرعون: جاءت كلمة فرعون فى القرآن الكريم حوالى ٧٠ مرة: البقرة (٤٩—٥٠)، آل عمران (١١)؛ الأعراف (١٠٣، ١٠٤، ١٠٩، ١١٣، ١٢٣، ١٢٧، ١٣٠، ١٣٧، ١٤١)؛ الأنعام (٥٢، ٥٤)؛ يونس (٧٩، ٨٣، ٨٨، ٩٠)؛ هود (٩٧)؛ إبراهيم (٦)؛ الإسراء (١٠١-١٠٢)؛ طه (٢٣، ٢٤، ٦٠، ٧٨، ٧٩)؛ المؤمنون (٤٦)؛ الشعراء (١١، ١٦، ٢٣، ٤١، ٤٤، ٥٣)؛ النمل (١٢)؛ القصص (٣، ٤، ٦، ٨، ٩، ٣٢، ٣٨)؛ العنكبوت (٣٩)؛ ص (١٢)؛ غافر (٢٤، ٢٦، ٢٨، ٢٩، ٣٦، ٣٧، ٤٥، ٤٦)؛ الزخرف (٤٦، ٥٦)؛ الدخان (١٧، ٣١)؛ ق (١٣) الذاريات (٣٨)؛ القمر (٤١)؛ التحريم (١١)؛ الحاقة (٩)؛ المزمل (١٥، ١٦)؛ النازعات (١٧)؛ البروج (١٨)؛ الفجر (١٠).

(٨) سورة الأعراف، آية: ١٢٧.

(٩) سورة القصص، آية: ١٩.

(١٠) سورة طه، آية: ٥٧.

(١١) سورة طه، آية: ٦٣.

في مصر- ﴿وكذلك مكنّا ليوسف في الأرض﴾[1]، وحين طلب وظيفة من الملك قال له ﴿اجعلني على خزائن الأرض﴾[2].

وهكذا كانت «خزائن مصر» هي خزائن الأرض، وروى «أبو بصرة الغفارى» - وهو صحابي نزل مصر مع الصحابة[3] - «مصر خزانة الأرض كلها، وسلطانها سلطان الأرض كلها، ولم تكن الخزائن بغير مصر، فأعان الله بمصر وخزائنها، كل حاضر وباد، من جميع الأرض[4]».

وقال سعيد بن أبى هلال الليثي: مصر أم البلاد، وغوث العباد، وقال عمرو بن العاص: ولاية مصر جامعة، تعدل الخلافة[5]، وقال يحيى بن سعيد: جلت البلاد، فما رأيت الورع ببلد من البلدان أعرفه، إلا بالمدينة وبمصر[6].

هذا وقد نقل علماء المصريات، ما سجله القرآن من قبل عن اعتزاز المصريين ببلدهم، وذلك بعد أن عرفوا أسرار اللغة المصرية القديمة، وعرفوا أن من أسماء مصر: اسم «كمت» - أي الأرض السوداء - مشيرين بذلك إلى الطمى الذى غمرت به الفيضانات - التى لا حصر لها، والتي تدين لها مصر بخصبها الفذ، الذى لا نظير له - ومفرقين بذلك - في الوقت نفسه - بينها وبين الصحراوات المحيطة بها، والتى عرفوها تحت اسم «دشرت» - أى الأرض الحمراء -.

هذا وكثيراً ما كان القوم يرددون اسم «كمت» بروح التكريم والتقدير، والفخر والإعزاز، ومن ثم فقد رأينا أحد الفراعين يقول «عملت على أن تكون «كمت» بأهلها، فوق كل أرض»، ويقول آخر بأنه «ثمرة من ثمرات كمت».

---

(١) سورة يوسف، آية: ٥٦. (٢) سورة يوسف، آية: ٥٥.

(٣) الإصابة فى معرفة الصحابة، ١٦٢/١. (٤) الكندى، فضائل مصر، ص ٤٤.

(٥) حسن المحاضرة، ٢١/١، ٢٧٤، ٣٢٩/٢-٣٠٠؛ نهاية الأرب، ٣٤٨/١.

(٦) الكندى، فضائل مصر، ص ٤٦.

هذا وقد تعددت أسماء مصر ـ بجانب اسم «كمت» ـ ولعل من أقدمها، وأكثرها شيوعاً في نصوص الفراعين اسم «تاوى» ـ بمعنى الأرضين ـ أرض الصعيد (تا ـ شمعو) وأرض الدلتا (تا ـ مجو).

وقد ابتدع المصريون اسم «تاوى» هذا، منذ أخريات الألف الرابعة قبل الميلاد – على أقل تقدير ـ متأثرين في ذلك بالفوارق الإقليمية بين الصعيد والدلتا، وباستقلال الواحد منهما عن الآخر ـ فيما قبل عصر التأسيس ، وقيام الملكية.

وهناك كذلك اسم «تا ـ مرى» ، وهو اسم لم يتضح معناه بعد ، فقد يكون بمعنى «أرض الفلاحة» أو «أرض الحياض» ، وربما بمعنى «أرض النباتين المقدسين» ـ رمزى الصعيد والدلتا ـ هذا ولم يكتف القوم بالتعبير عن بلدهم «مصر» بأوصافها الطبيعية، فأضافوا عليها نعوتاً شعرية، فوصفوها بأنها «إيزة رع» ـ أى عين الشمس، وربما ربّ الشمس ـ وسمّوها «وجات» ـ بمعنى السليمة ـ و«جات تثرو» بمعنى عين الأرباب السليمة ـ ودعوها كذلك «إترتى» بمعنى ذات المحرابين ـ و«باقة» ـ بمعنى الزيتونة ـ كناية عن خضرتها الدائمة.

على أن هناك اسمين، ذاع أمرهما واشتهرا في العالم الخارجي، أكثر مما ردده المصريون القدامى أنفسهم، وهما اسم «مصر» ومترادفاته، واسم «إيجوبتوس» ومترادافاته[١].

هذا وقد كتب الخليفة الراشد عمر بن الخطاب إلى واليه بمصر، عمرو بن العاص:

(١) انظر: عبد العزيز صالح، حضارة مصر القديمة وآثارها، ١/١–١٧، وكذا:
M.G. Daressy, les noms de L'Egypte, Bulletin de'L'Institut d'Egypte, X, 1916, p. 2F, 368; W. Spiegelbierg, Veria, Rec, Trav., 12, 1899, p. 39-40; H.Gauthier, Dictionaire des noms Geographique, VI, Paris, 1928, p. 16; Pierre Montéte, Geographi de L'Egypte Ancienne, I, Paris, ZAS, 35, p. 73; Urk, IV, p. 102.

«بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عمرو بن العاص: سلامٌ عليك، فإنّنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو، أما بعد: فإنّى فكرت فى بلدك، فإذا أرضك أرض واسعة عريضة رفيعة، قد أعطى الله أهلها عدداً، وجلداً وقوة، فى برٍّ وبحرٍ، قد عالجتها الفراعنة، وعملوا فيها عملاً محكماً ـ مع شدة عتوهم ـ فعجبت من ذلك، فأحب أن تكتب إلىَّ بصفة مصر، كأنّى أنظر إليها».

فكتب عمرو بن العاص : بسم الله الرحمن الرحيم، لعبد الله عمر، أمير المؤمنين ، من عمرو بن العاص، سلامٌ عليك، فإنّى أحمدُ إليك الله، الذى لا إله إلا هو، أما بعد:

فقد بلغنى كتابك وقرأته وفهمته، وأما ما ذكرت فيه من صفة مصر، فإن كتابى سيكشف لك عمى الخبر، ويرمى على بالك بنافذ البصر.

«إنَّ مصر، وما أحببت أن تعلمه من صفتها، تربة سوداء، وشجرة خضراء، بين جبل أغبر، ورمل أعفر، قد اكتنفها معدن رفقها، ومحط رزقها، ما بين أسوان إلى منشأ البحر، فى سح النهر، مسيرة الراكب شهراً، كأن ما بين جبلها ورملها بطن أقب، وظهر أجب، يخط فيه نهر، مبارك الغدوات، ميمون البركات، يسيل بالذهب ، ويجرى بالزيادة والنقصان، كمجارى الشمس والقمر، له أيام تسيل إليه عيون الأرض، وينابيعها مأمورة بذلك، حتى إذا ربا وطما، واصلخم لججه، واغلولب عبابه، كانت القرى بما أحاط بها كالربا، لا يوصل من بعضها إلى بعض ، إلا فى السفائن والمراكب، ولا يلبث إلا قليلا، حتى يكون كأول ما بدا من جريه، وأول ما طما من شربه، وحتى تستبين فنونها ومتونها».

«ثم تنتشر فيه أمة (!!!) قد رزقوا على أرضهم جلداً وقوة، لغير ما سعوا به من كدهم، بلا حمد ينالهم من ذلك، يسقون سهل الأرض

وخرابها وروابيها، ثم يلقون فيها من صنوف الحب، ما يرجون به التمام من الربّ، وما يلبث إلا قليلا حتى يشتد، ثم تسيل قنواته وتصفر، يسقيه من تحته الثرى، ومن فوقه الندى، أو سحاب منهمر، بالآرائك مستدر، ثم في هذا الزمان من زمانها، يغني ذبابها، ويبدأ في صرامها، فبينما هي مدرة سوداء، إذا هي لجة زرقاء، ثم غوطة خضراء، ثم ديباجة رقشاء، ثم فضة بيضاء، فتبارك الله أحسن الخالقين ، الفعال لما يشاء، وإن خير ما اعتمدت عليه في ذلك، شكر الله عزّ وجل، يا أمير المؤمنين، على ما أنعم عليك منها، فأدام الله لك النعمة والكرامة في أمورك كلها، والسلام»[1].

(٢)

هذا وكان كثير من الناس يظنون ـ إلى عهد قريب ـ أن حضارة مصر الفراعنة، ليست إلا حضارة مادية، في الدرجة الأولى، وأن هذه الشوامخ الراسيات في أرض مصر ـ من الأهرامات والمعابد والمسلات، وغيرها من الآثار المصرية ـ ليست إلا رمزاً ، ودليلا على السخرة والاستعباد، وأن الشعب ـ كل الشعب ـ إنما كان مسخراً لخدمة فرد واحد، ذلك الذى نطلق عليه لقب «الملك ـ أو الفرعون»، والذى كانوا يسمونه «الإله العظيم» أو «الإله الطيب».

وأما جماهير الشعب في مصر ، فلم يكن لها في الحياة من نصيب، سوى العمل على سعادة هذا الملك أو الفرعون في الدنيا والآخرة، سواء بسواء، وهكذا ظنّ هؤلاء النفر من الناس أن مصر لم تسهم بنصيب كبير في المجالين ـ الإنساني والاجتماعي ـ.

ويعلم الله أن الباحث ما كان يظن يوماً ما ، أن دراسته سوف تكون في التاريخ الفرعوني، لما لقنوه إياه خطأ ـ منذ طفولته المبكرة ، حيث حفظ القرآن الكريم، ولم يتجاوز العاشرة من عمره ـ أن هذه الشوامخ الراسيات في

(١) الكندى، فضائل مصر، ص ٦١-٦٢.

أرض الكنانة ، إن هى إلا أنصاب يحرم الإسلام بقاءها - فضلا عن بنائها - وأن حكام مصر وقت ذلك ، فراعين طغاة، وقد وصف القرآن الكريم فرعون موسى بالتجبر والطغيان، وقد رسب ذلك فى نفسه حينا من الدهر، نتيجة عوامل كثيرة، حتى كتب الله له أن يلتحق بالجامعة - وفى قسم التاريخ بالذات - وكأن القدر أراد أن يغير اتجاهه منذ اليوم الأول، فكان أول درس له فى التاريخ القديم، ولم تمض أسابيع ، حتى كان التاريخ الفرعونى من أحب الدراسات التاريخية إلى نفسه، وما أن تخرج فى الجامعة، حتى أصبحت دراسته - فضلا عن عمله - فى التاريخ الفرعونى.

ويشاء القدر - مرة أخرى - أن يختار له موضوعا جديدا، لرسالته للماجستير بعيدا عن الميادين التى اشتهرت بها حضارة الفراعين المجيدة، موضوع - الثورة الاجتماعية الأولى فى مصر الفراعنة - وعاش الباحث فترة فى موضوع البحث، أدرك بعدها أن «عصر الثورة الاجتماعية الأولى، إنما يعتبر - من وجهة نظر معينة - من أهم العصور التاريخية فى مصر الفرعونية.

كان عصر الثورة الاجتماعية الأولى، هو العصر الوحيد فى التاريخ الفرعونى، الذى صور فيه «الملك الإله أو المؤله» على أنه إنسان - شأنه شأن غيره من بنى البشر - يخطىء ويصيب، وهو العصر الوحيد الذى تجرأ فيه رجل - من رعايا الفرعون - على التشهير به، فقد سمحت روح الديمقراطية فى ذلك العصر، بأن يتقدم رجل من عامة القوم، ليقول بملء فيه فى حضرة «الفرعون الإله»، بأن حكمه كان نموذجا للفناء.

وفى ذلك العصر، كان مسموحا لأقل الناس فى أن يتقدم ويطالب بحقه، رأينا ذلك فى «قصة القروى الفصيح» ، الذى وجه إلى كبير الحجاب أشنع التهم، مطالبا إياه بتحرى العدالة ونصرة المظلوم، وينتهى الأمر إلى أن يكتب له النجح فى مسعاه، وأن ينال حقه كاملا.

وفى ذلك العصر، استطاع المصريون أن يكتشفوا أن القيم الخلقية

العليا، يجب أن تحل محل القيم المادية المحطمة، وهنا ـ كما يقول المؤرخ الأمريكى الكبير «جون ويلسون ـ يجب علينا أن نكيل المديح لمصر، لأنها اقتربت كثيراً جداً من المستوى الأخلاقى الأعلى، بدلا من التحسر على أنها لم تحقق «قدسية حق الفرد» ، وبدلا من أن نتباكى على أنها لم تصل إلى شىء يشبه ما نسميه «الديمقراطية» ، يجب أن نصفق لما حققته من نفع عام، لعدد أكبر من الناس، فقد وصلت مصر ـ أو كادت ـ إلى المناداة بأن لكل فرد حقه الشخصى فى معاملة عادلة، وذلك حوالى عام ٢٠٠٠ قبل ميلاد المسيح عليه السلام، وقبل أن يولد الأنبياء «موسى» (حوالى القرن الثالث عشر قبل الميلاد)، ويوشع (يشوع) بقرون كثيرة، وأجيال طويلة.

كان ذلك العصر «عصر الطريق إلى الديمقراطية» فالناس فى مصر ـ فى هذا العصر ـ متساوون فى الحقوق ، ومتساوون فى الواجبات، فالإله خلق كل إنسان مثل أخيه الإنسان، وجعل الهواء مشاعاً بينهم، كما جعل للفقير، ما للغنى، من حق فى مياه الفيضان العظيمة.

والفيضان ـ كما هو معروف ـ مصدر الثروة، وعماد الحياة فى مصر، ومن هنا كان لهذا النص أهمية كبرى، ذلك لأنه إنما يعنى أن الإله قد أعطى فرصاً اقتصادية متساوية لجميع المواطنين، ولعمرى: إنّ هذا هو الطريق السليم للديمقراطية السياسية.

هذا وقد نادت الثورة الاجتماعية الأولى فى مصر الفراعنة (حوالى القرن الثانى والعشرين قبل الميلاد) بأن الناس خلقوا متساوين بالفطرة، ومن ثم يجب أن يطبق «مبدأ تكافؤ الفرص» تطبيقاً عملياً، وأن يفتح الباب أمام كل المواطنين فى جميع المجالات، ومن هنا رأينا الملك الإهناسى ـ من ملوك عصر الثورة ـ ينصح ولده وخليفته على عرشه من بعده ، بقوله : «لا تفرق بين ابن الرجل النبيل، وبين ابن غير النبيل، بل اتخذ لنفسك الرجل من أجل كفاءته» .

وقد اهتم عصر الثورة الاجتماعية، بالشباب، فهم الطليعة التى ستتولى أمر البلاد، وتحمل المسئولية فى المستقبل، ومن هنا نرى الملك الإهناسى ينصح ولده بأن يهتم بالجيل الجديد، وأن يحسن تربيتهم، وأن يزيد من أتباعه منهم، ثم يوجه نظر ولده إلى أن بلاده مليئة بالشباب الغض فى سن العشرين، وأن هذا الشباب يمكن ـ إن أحسنت قيادته وتربيته ـ أن يكون درعاً يحمى حكمه، على أن يتم اختيارهم على أساس من كفاءتهم الشخصية، وعلى أن يزودهم بحاجتهم من الأملاك والحقول والماشية، وهنا سوف يقدم له ربُّ كل أسرة أبناءه، فيستطيع أن يكون منهم جيشاً، يسنده فى الخطوب الجسام، فهم جيل لم تلوثه أدران الماضى، وفىّ استطاعته أن يستغل ضمائرهم النقية فى خدمة البلاد.

هذا وقد نادت الثورة الاجتماعية الأولى «بمبدأ الثواب والعقاب» ـ محكمة الموتى ـ فكانت رائدة فى هذا الميدان، ومن المعروف أن الكتب السماوية جميعها، إنما تؤكد هذا المبدأ، وأن المرء سوف يحاسب عما قدمه فى دنياه، وسيكون جزاؤه من جنس عمله، قال تعالى: ﴿مَنْ عمل صالحاً فلنفسه، ومَنْ أساءَ فعليها﴾[١].

وقد حثت الثورة الاجتماعية الأولى على الخلق الكريم، وأنه طريق السعادة فى الآخرة، وهو أفضل عند الله من قرابين يقدمها الأشرار.

هذا ويرجع إلى عصر الثورة الاجتماعية تشبيه العدالة بالميزان، ولا ريب فى أن ذلك إنما كان للمرة الأولى فى تاريخ آداب العالم، ثم ساد هذا التشبيه بعد ذلك فى كل لغات الدنيا، وإن لم يظهر بصورة واضحة إلا فى القرآن الكريم[٢].

---

(١) سورة فصلت، آية: ٤٦؛ سورة الجاثية، آية: ١٥.

(٢) سورة الأنعام، اية: ١٥٢؛ سورة الأعراف، آية: ٨٥؛ سورة هود، آية: ٨٤-٨٥؛ سورة الشورى، آية: ١٧؛ سورة الرحمن، الآيات ٧-٩؛ سورة الحديد، آية: ٢٥؛ وانظر: سورة الأنبياء، آية: ٤٧؛ سورة الأعراف، آية: ٨، ٩؛ سورة المؤمنون، آية: ١٠٢-١٠٣؛ سورة القارعة، آية: ٦، ٨.

أما بعـــــد

فهذه رسالتي للماجستير - بإشراف أستاذى الأستاذ الدكتور نجيب ميخائيل - وقد تمت مناقشتها فى كلية الآداب - جامعة الإسكندرية ، بعد عصر يوم الأربعاء الموافق ٢٠ جمادى الثانية من عام ١٣٨٦هـ (٥ أكتوبر ١٩٦٦م) ، وقد أجيزت بتقدير «جيد جداً».

وبدهى أن النص الحـالى، ليس هو النص الأصلى - الذى أجيـزت الرسالة بموجبه - زيد عليه، ولم ينقص منه شيئاً، فلقد مضى على هذا النص الأصلى، أكثـر من اثنين وثلاثين عـاماً، ظهـر فى هذه الفـترة، الكثيـر من الأبحاث والاتجاهات العلمية، كان لابد من الرجوع إليها - أو أكثرها - عند كتابة هذا النص الحالى، ومن هنا كان بعض الاختلاف القليل بين النصين فى التفصيلات، وإن كانت الأفكار الرئيسية فى كليهما واحدة، لم تتغير، وإن زادت المادة العلمية بعض الشىء.

والله - سبحانه وتعالى - أسأل، أن يكون فى هذه الدراسة بعض النفع. و﴿لله العزةُ ولرسولِه وللمؤمنين﴾. ﴿وما توفيقى إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب﴾

وصلى الله على سيدنا ومولانا وجدنا وشفيعنا محمد رسول الله، وعلى آله الطيبين الطاهرين؛

دكتور
محمد بيومي مهران
أستاذ تاريخ وحضارة مصر والشرق الأدنى القديم
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

بولكلى - رمل الإسكندرية [الثالث عشر من رمضان من عام ١٤١٩هـ
الأول من يناير من عام ١٩٩٩م]


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الباب الأول

دراســـات تمهيديـــة



الفصل الأول

مقدمة جغرافية

(١) موقع مصر الجغرافى:

يمتاز موقع مصر الجغرافى بأهميته، فمصر تقع عند مجمع قارتى آسيا وأفريقيا، هذا ـ ومن خلال قناة السويس[1] ـ تعتبر مفرق بحرين داخليين، الواحد: البحر الأحمر، ويمتد إلى المحيط الهندى ومناطقه الحارة، والآخر: البحر المتوسط، ويمتد إلى المحيط الأطلسى ومناطقه الباردة، ومن ثم فقد كانت مصر ـ وماتزال ـ أرض الزاوية التى تجتمع عندها مسالك الشرق والغرب.

هذا وتعتبر مصر ـ أيضاً ـ «بوابة أفريقيا» نحو القارة الأوروبية، ومعبراً للقارة الآسيوية نحو القارة الأفريقية، حيث تشغل الركن الشمالى الشرقى من

---

(١) تمتد قناة السويس من بورسعيد إلى بورتوفيق، لتربط البحر المتوسط بالبحر الأحمر، وتمثل أهم شريان مائى فى العالم، وطولها ١٧٣ كيلا، ومتوسط عرضها ٦٠ متراً، وعمقها ١٣ متراً، وتسير مع الحافة الشرقية لبحير المنزلة فى خط مستقيم حتى بحيرة التمساح، ثم تنحرف إلى البحيرات المرة، فخليج السويس، وفكرة ربط البحر المتوسط بالبحر الأحمر فكرة قديمة، بدأت منذ القرن ١٩ق.م، ثم على أيام «نخاو» الثانى (٦١٠-٥٩٥ق.م)، وأتمها «دارا الأول» (٥٢٢-٤٨٦ق.م) ملك فارس لمصلحة بلاده.

وكانت القناة تبدأ من الفرع البوباسطى، شمال الزقازيق بقليل، ثم تمتد فى وادى طميلات، حتى تنتهى إلى البحيرات المرة، وفى عهد بطليموس الثانى (٢٨٤-٢٤٦ق.م)، تراجع خليج السويس قليلا، مما اضطره إلى مدها، وأعاد «تراجان» (١١٧-١٣٨م) تطهيرها، وعند فتح العرب لمصر (٢١هـ/٦٤٢م) كانت القناة ردمت، فأعاد عمرو بن العاص حفرها، وسماها «خليج أمير المؤمنين» ثم ردمها الخليج العباسى أبو جعفر المنصور (١٣٦-١٥٨هـ/٧٥٤-٧٧٥م) عام ٧٧٠م.

وأما قناة السويس الحالية، فتصل البحرين ـ الأحمر والمتوسط ـ مباشرة، وحفرها المهندس الفرنسى «دى ليسبس» فى عهد الوالى «سعيد باشا» (١٨٥٩-١٨٦٩م)، ثم سيطرت عليها بريطانيا عندما اشترت أسهم مصر فيها من الخديو إسماعيل (١٨٦٣-١٨٧٩م) عام ١٨٧٥م، ثم أممها الرئيس جمال عبد الناصر فى ٢٦ يوليو ١٩٥٦، وبسببها قامت حرب ١٩٥٦.

القارة الأفريقية، وبذا تمثل «حلقة الوصل» بين أفريقيا وآسيا ـ عبر شبه جزيرة سيناء[1] ـ.

ومصر إنما تمثل كذلك «همزة الوصل» بين عالم المناطق المعتدلة والباردة، وبين عالم المناطق المدارية، وشبه المدارية. فضلاً عن أنها إنما تعتبر حلقة وصل، ومركزاً لكل مناطق العالم المختلفة في الشرق والغرب، وفي الشمال والجنوب.

هذا وتشغل مصر حيزاً جغرافياً يقدر بحوالي ١,٠٠٢,٠٠٠ كيلا مربعاً، وتمتد فلكياً، فيما بين دائرتي عرض ٢٢°، ١٥َ ٣١°، وخطي طول ٢٥°، ٣٥°، شرق جرينتش، ويمر «مدار السرطان» في جنوبها ـ ماراً ببحيرة السد العالي، عند منطقة كلابشة، على مبعدة ٧٥ كلا جنوبي أسوان ـ ومن ثم فإن ربع الأرض المصرية إنما تقع جنوبه ـ أي مدار السرطان ـ والباقي شماله، وقد أدى هذا الموقع الفلكي إلى أن تتوزع مصر بين العروض المدارية في الجنوب، إلى العروض شبه المدارية، وشبه المعتدلة في الشمال.

هذا فضلاً عن سيادة مائية أمام سواحلها البحرية، حيث يمتد الساحل الشمالي ـ على البحر المتوسط ـ قرابة ٩٩٥ كيلا، ويمتد ساحلها الشرقي ـ على البحر الأحمر وخليج العقبة، قرابة ١٩٤٠ كيلا مربعاً.

وهناك السواحل الشمالية، كدلتا نهر النيل، وما يتخللها من بحيرات

---

(١) تقع شبه جزيرة سيناء شمال شرق مصر، يحدها شمالاً البحر التوسط، وتنتهي جنوباً عند «رأس محمد»، ويحدها شرقاً الحدود السياسية بين مصر وفلسطين والساحل الغربي لخليج العقبة، ويحدها غرباً قناة السويس والبحيرات المرة والساحل الشرقي لخليج السويس.

وتشغل سيناء ٦٪ من مساحة الأرضين المصرية، ومساحتها ٦٠ ألف كيلا مربعاً، تمثل وتتخذ شكلا مثلثياً، تتفق قاعدته مع ساحل البحر المتوسط شمالاً، ورأسه عند رأس محمد جنوباً، عند مفرق خليج العقبة والسويس.

وكانت أيام الفراعنة مليئة بالمناجم والمحاجر ـ وخاصة النحاس والفيروز ـ حيث كثرت حملات الفراعنة إليها، بغية الحفاظ على مناجمها، والعمال الذين يعملون بها.

مصر الشمالية، وهي من الشرق إلى الغرب: البردويل والمنزلة ـ في شرق الدلتا ـ والبرلس ـ في وسط الدلتا ـ وإدكو ومريوط ـ في غرب الدلتا.

هذا ويمتد ساحل البحر المتوسط حتى «السلوم»، حيث تنتهى عند «بئر الرملة» ـ على مبعدة ١٠ كيلا شمال غرب السلوم ـ الحدود المصرية

وتمثل سواحل البحر الأحمر الحد الجغرافى الطبيعى لمصر شرقاً، حيث يكون فاصلا طبيعياً بين مصر والسعودية، ثم تبدأ الحدود الشرقية البرية، وتبلغ قرابة ٢٠٠ كيلا ـ من رأس خليج العقبة، عند رأس طابا، فى اتجاه عام نحو الشمال الغربى، حتى البحر المتوسط ـ على مبعدة كيلا واحداً شرق «رفح»، ويفصل هذا الخط بين مصر وفلسطين.

هذا وتمتد سواحل البحر الأحمر جنوباً ـ فى موازاة سلاسل جبال البحر الأحمر ـ حتى «حلايب» وأما الحدود الإدارية، فطبقاً لاتفاقية عام ١٨٩٩م، فقد حدث انثناء شمال وادى حلفا، بنحو ٣٥ كيلا، فأصبحت «أدندان» فى مصر، و«فرس» فى السودان.

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن الحدود المصرية الجغرافية ـ الشمالية الشرقية والجنوبية والغربية ـ ليست حدوداً جغرافية فاصلة، وإنما هى حدود سياسية، رسمتها العوامل السياسية ـ وخاصة الإنجليزية ـ مما أدى إلى عدة نزاعات حدودية بين مصر وجيرانها، فضلا عن الدول التى وضعت هذه الحدود السياسية ـ كما حدث فى مسألة طابا وجغبوب[1].

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن مصر ـ وخاصة على أيام الفراعين، عصر الدراسة ـ إنما كانت تتميز بعزلتها ـ فى إطار من صحراوات لا تحد ـ ربما تستطيع القوافل الصغيرة أن تخترقها، ولكنها مواقع

---

(١) محمد فريد فتحى، فى جغرافية مصر، الإسكندرية ١٩٩١م؛ إبراهيم زيادى، ملامح جغرافية جمهورية مصر العربية، الإسكندرية ١٩٩٣؛ وانظر: إبراهيم رزقانة، قمة دلتا النيل، مجلة كلية الآداب، العدد الرابع، الإسكندرية ١٩٤٨م.

لا يمكن التغلب عليها، إذا ما أرادت قوة حربية كبيرة أن تشق طريقها فى فيافيها، وهكذا حبت الطبيعة مصر وسائل طبيعية للدفاع عنها، ففى الجنوب كانت الشلالات (الجنادل) بمثابة حواجز طبيعية تصد هجوم الأقوام الساكنة فى جنوبها، كما تصد الصحارى ومياه البحر المتوسط هجمات من يسكنون إلى الشمال وإلى الشرق والغرب منها.

ولئن اتجهنا إلى خارج الحدود المصرية لنرى إلى أى مدى كان ذلك صحيحاً، وبدأنا من الجنوب، لرأينا أنه فى وسط الطريق بين إدفو والمناخى الضيقة لجبل السلسلة ـ على مبعدة ٤٢ كيلا إلى الجنوب من أسوان ـ أن شكل الأرض يتغير تماماً، فهناك تمر من إقليم الحجر الجيرى الذى يشكل الكتلة الضخمة لمصر، إلى إقليم خشن من الحجر الرملى، يمتد جنوباً إلى مسافة ألف ميل من ناحية السودان، ولا يعوق هذه المرحلة سوى خط قصير قبل الجندل الأول، وراء الجزيرة الكبيرة المعروفة باسم «إليفانتين» (جزيرة أسوان) مباشرة، ويتكون الجندل من تيارات نهرية، بسبب وجود كتل ضخمة من الجرانيت الأحمر أو الأسود تعترض الطريق، وقد جعلت هذه لمصر الفرعونية حدودها الطبيعية[1]، وأما الرقعة الغربية من مصر، فتكاد أن تكون صحراء تماماً، ولكن علينا أن نقدر مدى الجفاف الذى حل بها خلال الخمسة آلاف عام الماضية. فقد كان هناك على طول البحر الأبيض المتوسط إقليم مأهول بالسكان، تشغل جانباً منه المراعى، وتشغل جانباً آخر منه أرض صالحة للزراعة[2]. وعلى أى حال، فإن مصر لم تتعرض لأخطار جسيمة من هذه الجهة، إلا على أيام الأسرتين، التاسعة عشرة والعشرين، بسبب هجمات «شعوب البحر» وقد كتب لمصر نجحاً بعيد المدى فى القضاء على هؤلاء الغزاة على حدود الدلتا الغربية[3].

(1) A.H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxfrod, 1964, p. 33.

(2) Ibid., p. 43-45.

(٣) انظر عن «شعوب البحر»: محمد بيومى مهران، مصر والعالم الخارجى فى عصر رعمسيس الثالث، (رسالة دكتوراة)، الإسكندرية ١٩٦٩، ص ١١٥، ١٢٨، ١٩٨-٢١٩.

أما من ناحية البحر الأبيض المتوسط، الذى يكون الحد الشمالى لمصر فليس هناك من كثير يقال، سوى أن البلاد قد أصبحت مكشوفة من هذه الناحية، وذلك حين أصبح مغامرون من أبناء البحر أكثر جرأة، ولابد أن الاتصال بكريت كان قائماً منذ زمن بعيد، ذلك لأن الثقافة المينوية تقدم دلائل قوية على التأثير المصرى، أما الاتصال البحرى المباشر من هذه الناحية، فليس لدينا عليه من دليل مؤكد[1]؛ وإن كنا نعرف أن أول هجوم بحرى تعرضت له مصر، كان فى العام الثامن من عهد «رعمسيس الثالث» (حوالى عام ١١٧٤ق.م)، وقد كتب لها نجحاً بعيد المدى فى القضاء عليه[2].

أما من ناحية الشرق، فقد كانت مصر مكشوفة، وعرضة للهجوم، وإن كان ذلك فى بقعة محددة بالذات، كان الطريق من وإلى فلسطين، يمر بشمال شبه جزيرة سيناء مسيرة قرابة تسعين ميلا (من القنطرة إلى العريش) على أرض شاسعة رملية محرومة من الماء، ولكن هذه المسافة لم تكن كافية لتعوق أولئك الذين تشدهم الحاجة، أو الطمع، إلى خيرات مصر، ولقد سارت فى الطريق نفسه، أو عن طريق «بلوزيوم» على مقربة من البحر، جيوش «إسرخدون» و«قمبيز» و«الإسكندر» الغازية، كما سار فى عكس الاتجاه العديد من فراعين مصر نفسها - أمثال أحمس وتحوتمس ورعمسيس[3] - وهناك إشارات عن مدى الخطر الذى يتهدد مصر من هذه الناحية، يتردد حوالى عام ١٩٧٠ق.م، فى الحديث عن «أسوار الحاكم» التى شيدت لترد «الستيو» ولتقضى على «المتنقلين فوق الرمال»[4].

(1) A. H. Gardiner, op.cit., p. 46.

(٢) انظر : محمد بيومى مهران، المرجع السابق، ص ٢٢٥-٢٣٤.

(3) A.H. Gardiner, The Ancient Military Road Between Egypt and Palestine, JEA, 6, 1920, p. 89.

(4) A.H. Gardiner, The Prophecy of Naferti, JEA, I, 1914, p. 105.

وأما بعيداً إلى الجنوب، فقد كانت مصر آمنة تماماً ضد أية فرصة للعدوان، ذلك لأن خليج السويس ومن ورائه البحر الأحمر، إنما كان بمثابة خط دفاع، بل إنها أكثر من ذلك، كانت تفصلهما عن طريق النيل قنن من الجبال، ترتفع أحياناً إلى أربعة آلاف قدم، ولم يكن يعيش في هذه الناحية قوم لهم من القوة ما يكفي لشق طريقهم إلى مصر[1].

ومجمل القول أن مصر في عصورها الفرعونية، يسرت لها الطبيعة عزلة ناعمة كأية دولة أخرى، ترزق حسن الطالع، حتى تستطيع أن تطور ثقافتها الفردية العالية، ولم تقلل هذه الظروف السعيدة من فكرتها الطيبة عن ذاتها، فقد كان المصريون يعدون أنفسهم «الرجال» الحقيقيين وحدهم، والشعب الوحيد حقاً الذى يستطيع أن يحمل عن جدارة اسم «رومى»[2] ومن الطبيعى أنها تزدرى جيرانها الأقربين، الذين كانت تطلق على رؤسائهم لقب «وغد»[3] ذلك لأن القوم إنما كانوا يعتقدون أنهم وحدهم المتمدينون، أما الأجانب فلا، كما كانوا يعتقدون أن لبلادهم مكانة ليست لغيرها من البلاد.

وأيا ما كان الأمر، فلقد حبت القدرة الإلهية مصر عوامل طبيعية، جعلت أمر الدفاع عنها - فى عصورها التاريخية المبكرة - لا يتطلب منها طول نضال أو كبير جهد، ولعل هذا هو السبب فى أنها لم تشترك فى حرب طويلة - قبل أيام الهكسوس - تصرفها إلى الاهتمام بالسياسة الخارجية، وإن كان هذا لا يعنى - فى الوقت نفسه - أنها لم تجرد حملة، أو أن قتالاً لم يقع عند حدودها، إذ أن ذلك قد حدث، وإنما يعنى أن ذلك لم يكلفها أكثر من غزوة، أو عدة حملات، لتأديب تلك القبائل الطاعنة أو المرتحلة

(1) A.H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, p. 36-37.

(٢) كلمة «بيروميس» أى «رومى» مسبوقة بأداة التعريف أوردها هيرودوت بمعنى يقارب كلمة «جنتلمان» اليوم.
Op.cit., p. 37; Herodotus, II, 143.

(3) A.H. Gardiner, op.cit., p. 37.

حول الحدود، وهو أمر كان فى مقدور أية حكومة مصرية تعالجه كإحدى معضلات الأمن العادية، فلم يكن هناك أى تحد لمصر فى داخل حدودها، بل إنه حتى ذلك الحين، كان تفوق مصر الحضارى على جيرانها كبيراً، ومن ثم فلم تكن فى حاجة إلى غزو وإنما كان يكفيها اتخاذ بعض إجراءات لحماية مصالحها، ولا يتطلب الأمر أكثر من ذلك ليستمر وصول التجارة إليها، وهكذا كانت مصر ـ حتى ذلك الحين ـ مضطجعة فى هدوء على طول مجرى النيل، واثقة من أن الآلهة إنما جعلتها أعظم من غيرها من بلاد الدنيا، وسيدة ـ دون منازع ـ لكل مكان تصل إليه[١].

وهكذا كانت مصر ـ فى أوائل أيامها ـ بلداً آمناً لا يهدده خطر الغزو، ومن هنا فلم يمكن ضرورياً للمصريين أن يحتفظوا بقوة عربية كبيرة بصفة مستمرة، لتصد ما عساه أن يحدث من هجوم، فقد كانوا يستطيعون أن يروا أى خطر محتمل من مسافة بعيدة، فضلاً عن أنه كان شيئاً بعيد الاحتمال أن يتمكن أى شخص مهاجم ومعه قوة كبيرة من أن يصل إلى مصر نفسها[٢].

(٢) مناخ مصر:

لا ريب فى أن موقع مصر الجغرافى إنما قد أثر فى مناخها ـ إلى حد بعيد ـ ومن ثم فهو ـ بصفة عامة ـ إنما يتصف بالجفاف، مع الارتفاع النسبى لدرجة الحرارة، وخاصة فى فصل الصيف، وأما فى فصل الشتاء، فيتصف المناخ بالدفء، حيث لا تصل درجة الحرارة إلى التجمد، ويعتبر شهر يناير من أبرد شهور السنة نسبياً.

وعلى أية حال، فمناخ الدلتا، إنما يتميز بفصل شتاء، معتدل الحرارة قليل الأمطار، مع فصل صيف حار نسبياً، وشمس ساطعة.

(1) J.A. Wilson, The Culture of Ancient Egypt, p. 154.

(2) J. A. Wilson, op.cit., p. 13.

وأما الصعيد، فشتاؤه دافئ وجاف، مع صيف شديد الحرارة نسبياً، ونادر الأمطار[١]. ولعل من الجدير بالإشارة : أن الصعيد ـ وخاصة الجنوبى منه ـ إنما قد تغير مناخه نسبياً ـ بعد بناء السد العالى وبحيرته ـ فلقد أصبح جنوب الصعيد خاصة، يصاب بكثير من الأضرار بسبب السيول التى تجتاحه ـ فى أواخر أيام الشتاء، وأوائل الربيع، حتى أصبح إنشاء «مخرات السيول» من أولى اهتمامات الإدارة المحلية فى محافظات الصعيد الجنوبية.

(٣) النيـــل:

كان المصرى القديم ـ فى عصور الفراعين ـ يطلق على «النيل» اسم «إيترو ـ عا» ـ أى النهر العظيم ـ وأما لفظة «النيل» فهى تصحيف للفظة «نيلوس» التى أطلقها اليونانيون على هذا النهر، أما النيل كإله فقد أطلق المصريون عليه ـ منذ عصور ما قبل الأسرات ـ اسم «حعبى» ولم يكن «حعبى» هذا هو النهر المقدس، وإنما هو ذلك الإله والروح التى تكمن وراء هذا النهر العظيم، والتى تدفع بمياه فيضه حاملة الخصب والنماء، واعتبرت عبادته حيوية، ورفعه عبدته أحياناً حتى فوق رع، وقيل إنه منح الحياة للمراعى التى يرعى فيها قطيع رع ـ أو الجنس البشرى ـ وذلك بتزويده وواحات الصحراء بالماء، كما أمدهم بالندى من السماء، وأطلق على «حعبى» والد الآلهة، فأصبح سيد الآلهة على الأرض، وسيد الخصب والخلق، وهو الذى يمدهم بالقرابين التى تقدم لهم فى معابدهم ومن ثم فقد غذى الإنسان، وأيد الأمر الإلهى، وقد صور القوم إلههم «حعبى» فى هيئة بشرية تجمع بين الأنوثة والذكورة فى هيئة صياد السمك، يلتحى باللحية التقليدية للآلهة، وله ثديا امرأة وبطن مترهل.

ومن عجب أن هذا الإله، رغم ما أطلق عليه من صفات وألقاب، قد تبوأ منصب الخادم للآلهة، فكان يصور على جدران المعابد فى صورته هذه

(١) إبراهيم زيادى، المرجع السابق، ص ١١٩.

يقدم خبراته إلى الآلهة الكبرى، وكانت ترتل له الأناشيد فى المناسبات الخاصة، وفيها يمجد وتعدد أفضاله على مصر، ومن ذلك : «الحمد لك يا نيل، يا من تخرج من الأرض وتأتى لتغذى مصر أنت النور الذى يأتى من الظلام، عندما تفيض يقدمون لك القرابين وتذبح لك الأنعام، ويقام لك حقل كبير»، وقد أطلق القوم كثيراً من الصفات على الإله «حعبى» فقد كان ربّ الرزق العظيم، ورب الأسماك وخالق الكائنات، وواهب الحياة، وغير ذلك من ألقاب التمجيد والتعظيم.

هذا وكان لانتشار عقيدة أوزير وملحمته المشهورة أثر فى التوحيد بين النيل كإله وبين أوزير، وكان من بين ما أطلقوا عليه من أسماء «ونن نفر»، وهو من الأسماء المثيرة، كما وجد القوم بين النيل وبين بعض الآلهة الأخرى التى كانت لهم صلة بخصوبة الأرض أو المياه مثل ««خنوم» والذى كان يدعى «رب المياه الطاهرة» ولعل السبب اعتقاد القوم أن النيل ينبع من وراء الشلال الأول، من «إقليم آبو»، إقليم البداية بالنسبة لأرض مصر، حيث تخرج مياهه من كهفين تحت الأرض فى الصخور الجرانيتية هناك.

وأما صلته بأوزير، فلعل سببها اعتقاد القوم أن النيل يأتى من العالم السفلى، وأن كهفيه يستمدان مياههما من «نون» (الماء الأزلى)، مياه العالم السفلى التى تمثل معيناً لا ينضب، ومن ثم فقد آمن القوم بأن «أوزير» هو ماء النيل أو المصدر الذى يستمد منه النيل ماءه فيهب الحياة للكائنات والنبات، وقيل كذلك أن حعبى هو الذى يخلق مياه النيل، وأن «أوزير» هو قوة الخصب فيها، واعتبرت المياه فى العقيدة الأوزيرية عرق يدى «أوزير»، وأن دموع «إيزه» هى سبب الفيضان السنوى، وأن «حعبى» قد ساعد فى بعث «أوزير» بإرضاعه من صدره.

ومن عجب أن القوم رغم أنهم كانوا على يقين ــ منذ الأسرة الخامسة والعشرين ــ (٧٥٠-٦٦٤ق.م) من أن أمطار السودان لها دخل فى فيضان

النيل، فقد ظلوا على عقيدتهم من أنه ينبع من وراء الشلال الأول (من جزيرة بيجه)، وإن كانت عقيدة التوحيد على أيام مؤسسها «إخناتون» إنما نادت بأن الفيضان إنما يرجع إلى أسباب طبيعية يسيطر عليها الإله آتون، وهو الذى خلق كذلك نيلا آخر فى السماء (أى المطر) لغير مصر من الأوطان[1]، على أن القوم رغم أنهم اعتقدوا بأن النيل هو مصدر الحياة فى مصر وقوتها، لم يشيدوا للإله «حعبى» المعابد والمحاريب، وإن أقاموا الاحتفالات والأعياد التى كانت للإله «أوزير» أكثر منها للإله «حعبى» الذى كانوا يرون فيه ذلك الذى يقدم خيراته للبشر والآلهة سواء بسواء، بل رأوا فيه «أبا الآلهة» و«خالق الكائنات الحية»، ولعل لقب «المحيى» (مخصب البرارى) مناسب له بصفة خاصة، هذا وقد كان من مظاهر «حعبى» كذلك أنه كان يعتبر من صور أوزير، مما يجعل «إيزة» (إيسه) بالتالى امرأته وشريكته، وربما كان من المحتمل عند تقديم القرابين أنها كانت تقدم لأوزير، أعنى «أوزير - أبيس» أو «سيرابيس» فى العصور المتأخرة، عندما كان قدس الأقداس لهذا الإله المزدوج يسمى «سرابيوم».

وهناك من النصوص المتأخرة ما يشير إلى أن هناك عيداً سنوياً كان يقام فى كل أرجاء البلاد بصورة مهيبة وعظيمة جداً، احتفالا بفيضان النيل، كانت تحمل فيه تماثيل إله النيل عالية فى كل المدن والقرى، وعندما يكون الفيضان وفيراً، فإن السعادة إنما تملأ قلوب القوم جميعاً، وتؤدى الصلوات للإله العظيم فى مهابة وإجلال، وفى ١٧ يونية من كل عام يحتفل القوم بما كان يسمى «ليلة النقطة»، حيث كانوا يعتقدون أنه فى هذه الليلة تسقط نقطة معجزة من السماء فى النيل تسبب ارتفاع مياهه.

هذا وقد كان القوم، كما ذكر آنفاً، وقد وحدوا «حعبى» بـ «أوزير»، ومن ثم فإن إيزة تصبح صنواً لأنثى «حعبى»، وإن كان هناك بعض الشك

(1) W Macquity, Island of Isis, Philae. The Temple of The Nile, London 1976.

فى أن آلهات أخرى قد أصبحن فى عصور الأسرات المبكر كزوجات وأخوات لـ «حعبى» ، وهكذا كانت «نخبت» القرينة النسائية لـ «حعبى» الخاص بالجانبو، ولكنها سرعان ما تحولت فى عصور الأسرات إلى صورة من «إيزة» ، وفى الشمال أصبحت «وأدجيت» الصورة المقابلة للإلهة «نخبت» فى الجنوب، هذا وقد اعتبر «حعبى» كذلك صورة من الإله «نون» ، التل الأزلى العظيم، الذى انحدرت منه كل الكائنات، وكانت «نوت» ، أو إحدى صورها العديدة، شريكته، ويظهر أقدم صورة لهذه الإلهة على أنها «موت» التى ذكرت فى نصوص الملك «وناس» ، وتبين هذه النصوص أن الملك المتوفى إنما كان يعتبر صورة من «حعبى» إله النيل، ومن ثم يصبح سيداً لآلهات النيل فى الجنوب والشمال[1] .

هذا وينبع «نهر النيل» من درجة العرض ٤ جنوباً، وتنتهى الدلتا ـ حيث مصب النيل ـ عند درجة العرض ٣٠° ٣١° شمالا ـ أى أن النيل يخترق أكثر من ٣٥° درجة عرضية، وهى ظاهرة فريدة، قلما كان لها مثيل فى أنهار أخرى مما أدى إلى امتداد أقاليم طبيعية مختلفة فى حوض النيل ـ من النطاق الاستوائى فى الجنوب، إلى حافة النطاق المعتدل (حوض بحر متوسط) فى الشمال ـ ماراً بأقاليم السافانا، والإقليم الصحراوى.

ومن ثم فقد ربط النيل عدة دول من شرق أفريقيا إلى شمالها الشرقى (تانزانيا ـ بوروندى ـ رواندا ـ الكنغو ـ كينيا ـ أوغندا ـ أثيوبيا ـ السودان ـ مصر) .

هذا ويبلغ طول نهر النيل ٦٦٧١ كيلا ـ ثانى أطول أنهار العالم، بعد

(1) F. Daumas, Le Civilization de L'Egypt Pharaonique, Paris, 1965, p. 326; Veronica Lons, op.cit., p. 109; E.A.W. Budge, The Gods of The Egyptians, II, 1969, p. 46-48; R. Pool, The Cities of Egypt, London, 1882, p.. 8; G. Maspero, Histoire des Peuples des L'Orient Classique, Paris, 1897, p. 16-19;

وانظر: الموسوعة المصرية ٢١٥/١-٢١٦.

نهر المسيسبي ـ وطوله في مصر ١٥٣٠ كيلا، وطوله في النوبة ـ من أدندان حتى أسوان ـ ٣٢٠ كيلا، وطوله من أدندان حتى القاهرة ١١٨٨ كيلا، ومن أسوان إلى القاهرة ٩٦٥ كيلا، وأما طول فرع دمياط ـ من القناطر الخيرية حتى البحر المتوسط ـ ٢٤٢ كيلا، وطول فرع رشيد ٢٣٦ كيلا، هذا ويبدأ نهر النيل في التفرع من نقطة تدعى «قمة الدلتا» ـ على مبعدة ٢٠ كيلا شمالي القاهرة ـ فيما بين شمال جبل المقطم شرقاً، وجبل أبو رواش غرباً ـ .

ويعتبر فرعا رشيد ودمياط، بقية أفرع الدلتا المندثرة، ويروى «هيرودوت» أن نهر النيل إنما كان يتفرع إلى سبعة أفرع، منها خمسة طبيعية، واثنتان محفورتان، وهذه الأفرع المندثرة ـ التي يعنيها هيرودوت هي:

١ ـ الفرع البوبسطي ـ نسبة إلى تل بسطة، ويعرف الآن باسم «ترعة أبو النجا»، وكان قديماً يصب عند الفرما.
٢ ـ الفرع المنديسي ـ نسبة إلى منديس ـ فيما بين تل الربعة والبقلية، ويعرف الآن باسم «بحر أشمون الرمان»، ويصب في بحيرة المنزلة.
٣ ـ الفرع التانيتي: ويعرف الآن باسم «بحر مويس».
٤ ـ الفرع الفاطميتي: ويعرف الآن باسم «فرع دمياط».
٥ ـ الفرع السبنيتي: نسبة إلى «سمنود» ـ ويعرف الآن باسم «ترعة مليج».
٦ ـ الفرع البلبتيني: وكان جزءاً من الفرع الكانوبي، ويخرج منه عند «الرحمانية»، ثم يجرى فيصب في البحر الأبيض.
٧ ـ الفرع الكانوبي: وهو المعروف الآن بفرع رشيد، مطلعه عند رأس الدلتا، ومجراه إلى الشمال، فإذا ما بلغ الرحمانية تفرع إلى فرعين ـ أحدهما : البلبتيني ـ وقد مرَّ ذكره ـ والثاني : يتجه إلى الشمال الغربي، حتى يدنو من هضاب ليبيا، فيصب في البحر، وكان مجراه مكان «ترعة المحمودية» الحالية.

وأما «سترابو» (زار الإسكندرية حوالى ٢٥ق.م) فقد ذكر أفرع النيل السبعة - بما يكاد يتفق مع هيرودوت، مع تغيير فى المسميات والاتجاهات - وهى:

١ - الفرع البيلوزى. ٢ - الفرع التانيسى.
٣ - الفرع المنديسى. ٤ - الفرع الفانتينى.
٥ - الفرع السبنيتى. ٦ - الفرع البلوبيتى.
٧ - الفرع الكانوبى.

وهكذا يتبين أن الحال قد تغيرت كثيراً، عما كانت عليه أيام هيرودوت (٤٨٤-٤٣٠ق.م). وأن أكثر المصبات التى ذكرها قد عطلتها الرمال فانسدت، ثم انتشرت فيما بين ذلك قنوات صغيرة، لتصريف المياه من الفرعين الرئيسيين - رشيد ودمياط - ولإمداد الأرض بالمياه[١].

هذا، وتشير كتابات العرب أن أفرع النيل قد اندثرت - ماعدا رشيد ودمياط، واللذين بقيا بشكلهما الحالى، منذ القرن العاشر الميلادى، فقد انطمر الفرع المنديسى، وتحول إلى ما يسمى بـ «البحر الصغير»، واضمحل الفرع التانيسى، وأخذ «بحر حادوس» - من أجزاء لمجراه القديم - مجرى له، والأمر كذلك بالنسبة إلى بقية أفرع النيل فى الدلتا، فقد توقف امتدادها شمالا لتصب فى البحر المتوسط، وأصبحت تصب فى فرعى رشيد ودمياط.

هذا وقد تغير موقف «رأس الدلتا» - أو «قمة الدلتا» - حيث تقع الآن عند الطرف الجنوبى لجزيرة الشعير، إحدى الجزر النيلية، حيث يتفرع عندها مجرى النيل إلى فرعيه رشيد ودمياط - وكان يتفرع من مدينة «منف» - على أيام الفراعنة، وعلى مبعدة ٢٢ كيلا من القاهرة - وقد أصبح الآن عند

(١) أحمد بدوى، هيرودوت يتحدث عن مصر، القاهرة ١٩٦٦، ص ٩٢-٩٣؛ علي شافعى، أعمال المنافع العامة الكبرى فى عهد محمد علي الكبير، دار المعارف، القاهرة ١٩٥٠.

الطرف الجنوبى لـ «جزيرة الوراق» فى القرن الخامس الميلادى.

ثم تغير ـ خلال القرون الماضية ـ وأصبح فى القرن الخامس عشر الميلادى عند بلدة «شطانوف» .

وقد عمل المصريون الآن على تثبيت موضع «قمة الدلتا» عند الطرف الجنوبى لـ «جزيرة الشعير» ، على مبعدة ٢٥ كيلا شمال القاهرة[١].

وعلى أية حال، فإن الجغرافيين إنما يطلقون على نهر النيل فى المنطقة فيما بين الخرطوم[٢] وأسوان اسم «النيل النوبى» حيث يتخذ مساراً معقداً نتيجة ظروف التركيب الصخرى والتضاريسى، وهو فى الواقع يكاد يرسم حرف S الإفرنجية، ماراً بعقبات ملاحية عديدة تسمى «جنادل» هى : (أسوان ـ حلفا ـ دلجو ـ مروى ـ بربر ـ سيلوكة) (سيلوقة) وهذه الجنادل عبارة عن صخور جرانيتية صلبة تعترض مسار النهر، مما يجعل النهر يتخذ عشرات المسالك الصغيرة حولها فى مسافات تتراوح بين بضع كيلو مترات

(١) إبراهيم زيادى، المرجع السابق، ص ٧٧-٨٠.

(٢) الخرطوم: عاصمة السودان الحالية، وقد أنشأها المصريون فى عام ١٨٢٢م، على أيام «محمد علي باشا» (١٨٠٥-١٨٤٩م) على الضفة اليسرى للنيل الأزرق عند التقائه بالنيل الأبيض، وقد خربت عام عام ١٨٨٥م على أيام الثورة المهدية (١٨٨١-١٨٩٩م) بقيادة زعيمها «محمدأحمد المهدى» (١٨٤٤-١٨٨٥م) ثم أعيد تعميرها بعد الثورة، هذا وتتكون العاصمة من الخرطوم، وخرطوم بحرى، وأم درمان، ومن ثم فقد عرفت باسم «العاصمة المثلثة» ويربطها جسران، الواحد على النيل الأبيض، والآخر على النيل الأزرق، ولكل من المدن الثلاث وظائف مميزة، ففى الخرطوم مركز الحكم والتجارة الحديثة، وفى أم درمان التجارة التقليدية والحرف اليدوية، وفى خرطوم بحرى الورش والصناعة، هذا وقد قام «أركل» فى الفترة (١٩٤٤-١٩٥٠م) بحفائر فى الخرطوم وفى منطقة «شهيناب» ، على مبعدة ٤٨ كيلا شمالى أم درمان، حيث عثر على آثار تنتمى إلى العصر الحجرى الحديث، وفى القرن السادس الميلادى قامت فى منطقة الخرطوم مملكة «علوة» المسيحية، وعاصمتها «سوبا» وامتدت فى كبوشية إلى جنوب الخرطوم. انظر:

A.J. Arkell, Shaheinab, Oxford, 1953, p. 105; L.P. Kirwan, in SNR, XX, part 2, 1937, p. 290.

وعشرات الكيلو مترات، باستثناء «سيلوقة» ـ شمالي الخرطوم ـ الذى يتخذ شكل خانق صخرى، ظروف تكوينه لم يقطع فيها برأى حاسم حتى الآن(١).

ويجرى النيل النوبى فى منطقة صحراوية داخل واد ضيق تحف به الهضاب الصحراوية من الشرق والغرب، وعند مدينة «عطبرة» يلتقى النيل بآخر روافده، هو نهر العطبرة، الذى ينبع من شمال الحبشة إلى الشمال قليلا من بحيرة «تانا» ، ويلتقى عند الحدود السودانية برافده العظيم «كازى» ويسير بعد ذلك إلى الشمال الغربى حتى يلتحق بالنيل، وإلى الشرق منه مجرى نهر صغير يسمى «خور القاش» يمكن أن يلحق طبيعياً بحوض العطبرة، وإن كان فى غالب الأحايين إنما كان يصب فى الصحراء بدلتا مروحية، وبعد التقاء النيل بالعطبرة يواصل مساره إلى الشمال حتى مدية «أبو حمد» ثم ينحرف فى زاوية حادة إلى الجنوب الغربى حتى «الدبة» ، ويعود بعدها إلى الاتجاه شمالا ، حتى الحدود المصرية(٢) ، عند «أدندان» ، حيث يجرى فى اتجاه شمالى شرق، حتى يبلغ بلدة «الدر» ـ على مبعدة ٢٠٨ كيلا جنوبى أسوان ـ .

وعند بلدة «الدر» ينحرف النيل صوب الجنوب الشرقى، إلى أن يصل إلى بلدة « كورسكو» ، التى ينحنى بعد أن يتجاوزها انحناءة خفيفة، يغير فيها اتجاهه مرة ثانية إلى الشمال الشرقى حتى يبلغ بلدة «ماريا» التى يجرى بعدها صوب الشمال تقريباً، حتى مدينة «إدفو»(٣).

وفى هذه المنطقة ـ فيما بين أدندان وأدفو ـ يجرى النيل فى واد ضيق، ينحصر بى حافتين مرتفعتين من الصخور الرملية النوبية، أو «الخرسان

(١) محمد رياض وكوثر عبد الرسول، أفريقيا: دراسات لمقومات القارة، القاهرة ١٩٧٣، ص ١٢٥.

(٢) محمد رياض وكوثر عبد الرسول، المرجع السابق، ص ٣٩٨.

(٣) محمد صفى الدين، المرجع السابق، ص ١٤٣.

النوبى» Nobian Sandstone، وقد استطاعت أمواه النيل أن تحفر لها فى هذا الصخر واديا عميقاً، ذلك لأن الحجر الرملى النوبى يتآكل بسرعة بفعل المياه الجارية، ويمتاز وادى النيل فى المنطقة جنوبى أسوان ـ وعلى مدى ٣٤٥ كيلا ـ (النوبة السفلى) بأنه ضيق جداً، بحيث لا يزيد اتاسعه فى بعض الجهات عن مجرى النهر نفسه[1].

ولعل من أفضل الأمثلة على ذلك «منطقة خانق كلابشة» ـ على مبعدة ٥٧ كيلا جنوبى أسوان ـ حيث يضيق مجرى النيلى ضيقاً شديداً، بحيث لا يزيد اتساعه فيها عن ٢٠٠ متراً، وتبدو أشبه ما تكون بـ «المخنق المائى» Water Gap أو «المزراب»، ذلك لأن مجرى النهر إنما يبدو فيها على شكل «خانق» Gap ولمسافة تبلغ زهاء ٥ كيلا، غير أن اتساعه يبلغ حوالى ٦٠٠ متراً، إلى الشمال منها، ونحو ٥٧٠ متراً إلى الجنوب منها، ويخترق النهر فى خانق كلابشة (٥ كيلا) منطقة من الصخور النارية والمتحولة، ولهذا يتكون سفحا واديه من هذه الصخور، كما يتكون منها قاعه كذلك، ويبدو ـ فيما يرى البعض ـ أن منطقة خانق كلابشة كانت، فيما مضى موضعاً لجندل قديم، ثم أزالها جريان النهر[2].

هذا ويشق نهر النيل مجراه ـ إلى الشمال من خانق كلابشة ـ وسط الصخور الرملية، لمسافة ٢٠ كيلا، تعود بعدها التكوينات النارية والمتحولة إلى الظهور مرة أخرى، يشق النهر طريقه خلالها لمسافة تزيد على ٣٥ كيلا يعرف الجزء الشمالى منها باسم «الجندل الأول» ـ على مبعدة ٧ كيلا جنوبى أسوان[3]، وطوله ١٢ كيلا، ويمثل العقبة الأخيرة للملاحة فى

(١) محمد فريد فتحى، فى جغرافية مصر، الإسكندرية ١٩٩١، ص ١١٢-١١٣.

(٢) محمد عوض، نهر النيل، ص ١٢٤؛ محمد صفى الدين، المرجع السابق، ص ١٦٧-١٦٨.

(٣) لعل من الأهمية بمكان الإشارة هنا إلى «السد العالى»، ذلك أنه فى ١٨٨٩م بدأ بناء خزان أسوان، مما أدى إلى ظهور بحيرة صناعية منسوبها نحو ١٠٦ متراً فوق مستوى سطح البحر

مجرى النهر، حتى البحر المتوسط[١].

هذا وتضم بلاد النوبة السفلى - غربى وادى النيل - إقليماً واسعاً، يضم أرضين واسعة، تزيد مساحتها على ١٥ ألف كيلا، وتنحصر بين خطى عرض ٢٢، ٢٤ شمالا، وتقع فى مواجهة وادى النيل، فيما بين وادى حلفا وأسوان، ورغم أنها فى وقتنا الحالى من أشد جهات العالم جفافاً وقحولة، إلا أن أغلب ملامحها «الجيوفورفولوجية» إنما ترجع فى تكوينها أساساً إلى أثر عمليات النحت المائى، مما يدل على أن هذا الإقليم إنما كان يشهد عصراً مطيراً، يرجع إلى أخريات الزمن الثالث وأوائل الرابع[٢].

=

المتوسط، وقد طغت مياهها على أشرطة الأرض الزراعية الضيقة فى النوبة، ووصل مستوى الغمر إلى «الدكة»، واضطر الأهالى إلى نقل نجوعهم إلى مناسيب أعلى من ١٠٦م، وفى عامى ١٩١٢/١٩١٣م تمت التعلية الأولى لسد أسوان، وزادت مساحة البحيرة الصناعية، واضطر سكان النوبة - حتى توشكى، إلى هجرة قراهم، أو إلى بنائها على مناسيب أعلى، تعصمهم من الماء، ولكن لا تسمح بمزاولة نشاط زراعى، ثم تكررت التعلية فى عام ١٩٣٤م بكافة نتائجها، فارتفع منسوب البحيرة إلى ١٢١م، كما امتدت مساحتها جنوباً حتى «كاجنارتى» فى السودان، ولمسافة ٣٦٠ كيلا، وإن تمتعت المنطقة ثم توماس، وحتى الحدود السودانية بزراعة نيلية، فضلا عن المنطقة التى أنشئت بها جسور واقية (أبو سمبل وبلانة وأدندان وقسطل) فاعتمدت على الرى بالسواقى والمنطقة التى أنشئت بها مشروعات الرى الدائم كمنطقة الكنوز.

وأما إنشاء السد العالى فقد أدى إلى إنشاء بحيرة ضخمة تبلغ مساحتها الإجمالية (٥٢٣٧) كيلا، عند منسوب ١٨٠ متراً، وتأخذ شكلا طولياً على نفس النهج الذى كان يتخذه مجرى النيل قبل السد العالى، ويصل امتداد البحيرة إلى ٥٠٠ كيلا (منها ٣٥٠ كيلا فى مصر، ١٥٠ كيلا فى السودان) ويتراوح اتساع البحيرة، ما بين كيلو متر واحد، كما فى خانق كلابشة، وعشرين كيلا، بمتوسط يربو قليلا على ثمانية كيلو مترات. (محمد صفى الدين، المرجع السابق، ص ١٥٩-١٦٠)؛ وكذا:

M.F. Akiel, New Light on The Racial Geography of Lower Nubia, Ramses Press, 1956, p. 204-206.

(١) محمد صفى الدين، المرجع السابق، ص ١٦٩.

(٢) محمد صفى الدين، المرجع السابق، ص ١٦٢؛ وكذا:

M.A. Abdel Salam, Soil of The Lower Nuba Area, in BSGE, 36,1963, p. 5-28.

ولعل من أهم السمات التى تسترعى الأنظار فى النوبة السفلى أن هيئة الأرض الطبيعية فيها، إنما تبدو مقطعة بعدد كبير من الأودية الجافة التى ينتهى أغلبها إلى وادى النيل فى الشرق، مثل «وادى كركر» (طوله حوالى ٥٠ كيلا) و«وادى كلابشة» (طوله حوالى ١٠٠ كيلا)، ويستمدان مياههما من الهضبة الجيرية التى يبلغ منسوبها فوق سطح البحر أكثر من ٥٠٠ متراً، كما تتميز سفوحها بوجود سلسلة من المدرجات تقع على مناسيب أعلى بكثير من قاعهما، هذا فضلا عن مجموعة من الأودية تنحدر صوب النيل شرقاً، وإن كانت لا تعدو أن تكون مجرد مجار قصيرة قليلة المياه، تكاد لا تصل إلى وادى النيل، إلى جانب مجموعة أخرى تنصرف داخلياً، إما إلى منخفض الخارجة أو إلى بحيرات من نوع الشطوط الملحية، تقع على طول حضيض الهضبة الكلسية فى الغرب[1].

وأما فى النوبة العليا، وعلى حدود السودان الشمالية، فهناك فى «فرس»[2] كثبان رملية يصل ارتفاعها إلى ٩٠ قدماً، وتعتبر عائقاً للملاحة،

(١) محمد صفى الدين، المرجع السابق، ص ١٦٣.

(٢) فرس: (باخوراس القديمة) وتقع على مبعدة ٤٠ كيلا جنوبى الجندل الثانى، وقد عثر فيها على آثار مصرية فى مقابر المجموعة الأولى، وترجع إلى عهد الملكين «جر» و«جت» من الأسرة الأولى المصرية، مما يشير إلى اتصال بمصر منذ العصر العتيق، كما عثر فيها على أبنية كبيرة من الدولة الوسطى، وعلى جعارين باسم الملك «كاموزا»، كما شيدت فيها الملكة «حتشبسوت» (١٤٩٠-١٤٦٨ق.م) معبداً للمعبودة «حاتحور»، كما بنى «تحوتمس الثالث» (١٤٩٠-١٤٣٦ق.م) معبداً فى فرس أيضاً، وقد عثرت البعثة البولندية (١٩٦١/١٩٦٤م) على أطلال معبد «تحوتمس الثالث» أسفل الكنيسة التى عثر عليها هناك وتبين أن هذا المعبد قد أقيم على أنقاض معبد آخر من الدولة الوسطى، كما تدل النقوش التى عثر عليها فى «تحنوت ـ سرة» أن تلك المنطقة كانت مقراً لأسرة حاكمة هناك، كما بنى «حوى» نائب الملك فى النوبة على أيام «توت عنخ آمون» (١٣٤٧-١٣٣٩ق.م) معبداً ومستوطنة مسورة.

وكانت فرس العاصمة الإدارية لمقاطعة «أكين»، وتقابل النوبة السفلى اليوم، وقد أظهرت الحفريات بعض المبانى الرسمية هناك مثل «القصر الغربى»، وقد قامت فى فرس مملكة «النوباديين»، التى أسسها «سلوكو» (حوالى ٥٣٠م)، وتمتد من أسوان إلى قرب الجندل

=

خاصة أثناء فترة انخفاض المياه، وفى منطقة وادى حلفا، على الضفة الشرقية للنيل (من دبيرة وحتى الشلال الثانى)، منطقة خصبة.

وهناك ـ على مدى ١٤٤ كيلا إلى الجنوب من وادى حلفا ـ توجد منطقة «بطن الحجر» The Belly of Rocks ـ أكثر مناطق بلاد النوبة جدباً ـ حيث لا يصلح النيل فيها للملاحة، بسبب اعتراض الصخور الجرانيتية لمجراه، حيث تكون أرخبيلا من أكثر من ٣٥٠ جزيرة، خمسون منها مأهولة بالسكان، ولهم فيها زرع وضرع[1].

وأما المنطقة التى تقع عند التقاء النيل بالعطبرة ـ على مبعدة ٣٠٠ كيلا شمالى الخرطوم ـ وعلى مدى ٢٥٠٠ كيلا فى اتجاه الشمال، يسير النيل وسط صحراء تعد من أجف وأقحل صحراوات العالم، حتى ينتهى إلى البحر، والحقيقة أن استمرار سريان الماء فى النيل هذه المسافة الهائلة، دونما أية روافد أو أمطار، إنما يعد شيئاً فريداً، ولا ريب فى أن النيل إنما يفقد الكثير من مياهه بالبخر والتسرب، عبر هذه المسافة الشاسعة، فتصرف النيل الأبيض والأزرق والعطبرة جميعاً فى شهر سبتمبر يساوى قرابة ١٠,٠٠٠ متر مكعب/ ثانية، يصل منها مصر ٧,٦٠٠ متر مكعب/ثانية، ويهبط هذا الرقم فى أوقات التحاريق إلى ٥٣٠ متر مكعب فى الثانية فقط.

ومع ذلك، فالنيل كان ـ ومازال وسيظل ـ محور الحياة فى هذا الجزء من حوض النيل، ومن ثم فقد أنشئت المشروعات الهندسية العديدة لضبط مياه النيل وتخزينه، وهى مشروعات تمتد، دونما ريب، إلى عهد بعيد، ومن هنا كان وجود خط منسوب مياه عال على صخور الجندل الثانى لم يجد له

= الثالث، وقد عثرت البعثة البولندية على عدة مبانى مسيحية، ومن المؤكد أن فرس كانت وقت ذاك مركزاً للنشاط الفنى بالنسبة للنوبة الشمالية على الأقل. انظر:
T.G.H. James, CAH, II, part 2, 1973, p. 296-298' W.B. Emery, in Kush, 8, 1960, p. 7-10; L, Habachi, ASAE, 53, 1955, p. 201-202; F. I. Griffith, Oxford Excavations Nubia, LA.A.A, 8, 1921, p. 83.

(١) والتر أمرى، مصر وبلاد النوبة، ترجمة تحفة حندوسة، القاهرة ١٩٧٠، ص ١٧.

الباحثون تعليلا منطقياً، سوى أن الفراعين إنما قد أنشأوا سداً فى «سمنة» و«قمة»(١).

والواقع أنه من المعروف أن الملك «أمنمحات الثالث» (١٨٤٣–١٧٩٧ق.م) قد اهتم كثيراً بتنظيم فيضان النيل، ومن ثم فقد أمر بتسجيل ارتفاع النهر عند القلاع التى أنشأها أبوه «سنوسرت الثالث» (١٨٧٨–١٨٤٣ق.م)(٢) فى «سمنة» و«قمة» ولا تزال مسجلة فى أعوام حكمه (٤، ٥، ٦، ٧، ٩، ١٤، ١٥، ٢٢، ٢٣، ٢٤، ٣٠، ٣٢، ٣٧، ٤٠، ٤١)، وهى التى تزيد فيما بين عامى الحكم ٢٦، ٣٠، قدماً عن متوسط مستويات ارتفاعه اليوم(٣).

---

(١) محمد رياض وكوثر عبد الرسول، المرجع السابق، ص ١٢٥–١٢٦.

(٢) سمنة: تقع على مبعدة ٧٠ كيلا جنوبى وادى حلفا، ٣٠ كيلا جنوب حصن «أورو – نارتى» ، وفيها حصن يدعى «خع كاو رع – المبجل – قوى» على الضفة الغربية للنيل، والحصن يقف مهيمناً على النيل، مع الحصن التوأم «قمة» (كمة) على الشاطىء الشرقى ، فالنيل فى هذه المنطقة يشق طريقه فى جبل من الصخر القوى فى أضيق منطقة للجندل الثانى، والحصن بدئ فى بنائه فى عهد الملك «سنوسرت الأول» (١٩٧١–١٩٢٨) ق.م) وأتمه «سنوسرت الثالث»، كما ينسب إلى «أمنمحات الأول» بناء حصن فى سمنة أيضاً، كما بنى «سنوسرت الثالث» معبداً من الطين للمعبودين «ديدون» و«خنوم» والملك المؤله «سنوسرت الثالث»، وهو أكثر المعابد القائمة وحدها صمود أمام البلى منذ ما قبل البطالمة فى وادى النيل بأسره.

وهناك نقش فى سمنة من العام الثامن من حكم «سنوسرت الثالث» يتحدث عن الإجراءات المشددة التى اتخذت لمنع تسرب النوبيين نحو ملك مصر العليا والسفلى، «خع كاو رع» ، سنوسرت (الثالث)، الذى يعطى الحياة أبداً، لمنع أى «نوبى» من المرور شمالا – براً أو بقارب – وكذا قطعان ماشية النوبيين، ما عدا أولئك الذين يأتون للتجارة فى «أيكن» – على مبعدة ٤٠ كيلا شمالى حصن سمنة – أو لعمل مشروع يتفق عليه فسوف يقدم لهم كل شىء طيب، على ألا يسمح لأية سفينة بأن تعبر «سمنة» (حح) نحو الشمال».

R.A. Caminos, Kush, 12, 1964, p. 85; J.H. Breasted, ARE, II, p. 293; G. Reisner, Excavations at Simna, and Uronarti, SNR, 21, p. 143-161; G. Reisner, The Egyptian Forts From Halfa To Semna, Kush, 8, 1960; D. Dunham, Semna - Kumma, Boston, 1960.

(٣) جيمس بيكى، الآثار المصرية فى وادى النيل، الجزء الرابع، القاهرة ١٩٨٧، ص ١٨٠ (مترجم) ؛ وكذا:

J. Vercontter, Semna, South Fort and The Records of Nile Levels at Kumma, Kush, 14, 1966, p. 125-164

وكان يظن أنه أقام هناك خزانا رفع من المستوى إلى ذلك الحد، ولسنا نعرف سبباً لانخفاض مستويات النهر خلال الثلاثين قرناً الماضية[1].

وهناك من يعلل ذلك بأن الفيضان في تلك السنين، ربما كان أعلى منه اليوم، أو أن مجرى النيل هناك قد انخفض من جراء التعرية والتآكل وشدة الانحدار وسرعة المياه، وكانت هناك صلة بين تدوين هذه المناسيب وبين «سد الفيوم»[2] الذى أنشأه «أمنمحات الثالث»، ذلك لأن هذه المناسيب الموجودة على مبعدة ٧٠٠ كيلا من الفيوم، كان لها أثرها في تقوية هذا السد، وتقدير المياه قبل وصولها إليه وتنظيمها[3].

وعلى أية حال، فلئن كان النيل وسيلة يعتمد عليها في اجتياز هذه المناطق الصحراوية، فإن المرحلة ليست بالسهولة التي تبدو عليها لأول وهلة، لأن الجنادل المتتابعة من أسوان حتى مشارف «أم درمان» تجعل رحلة الصعود في النهر من الشمال إلى الجنوب صعبة لدرجة تستحيل معها الملاحة تماماً في بعض الأحايين، فضلا عن انحناءتي النهر الهائلتين في تلك المنطقة تزيد من طول المسافة زيادة كبيرة، وقد تمثلان أحيانا صعوبة كبرى وعلى سبيل المثال: فإن النيل فيما بين «أبو حمد» و«وادى الملك» (الملك) يجرى نحو الجنوب الغربى بدلا من الشمال، بحيث تضطر حركة الملاحة الصاعدة في النهر إلى مجاهدة الرياح والتيار معاً، قسطاً كبيراً من العام، وإن كانت رحلة الهبوط في النهر أيسر كثيراً بطبيعة الحال.

ومع ذلك فإن النيل كان ومايزال طريقاً ملاحياً ممتازاً ـ باستثناء منطقة الجنادل ـ وهذا يعنى أن هناك طريقاً ملاحياً لمسافة ألف كيلو من المصب حتى الجندل الثاني، وحوالى ألف وخمسمائة كيلو، أو أكثر، من الخرطوم

(١) نجيب ميخائيل، مصر ٣٤٩/١.

(٢) انظر عن «سد الفيوم»: محمد بيومى مهران، مصر، (الإسكندرية ١٩٨٨م)، ٢/٣٦٩-٣٧٣.

(٣) عبد الحميد زايد، مصر الخالدة، القاهرة ١٩٦٦، ص ٣٩٥.

إلى «جوبا»[١] ـ عاصمة المديرية الاستوائية.

بقيت الإشارة إلى الجملة التى نسبت خطأ إلى «هيرودوت» (٤٨٤-٤٣٠ق.م) والتى تقول «إن مصر هبة النيل» Egypt is The Gift of The Nile، والخطأ فى العبارة أن «هيكاتة الميليتى» (زار مصر حوالى ١٥٠ق.م) هو صاحب هذه العبارة المشهورة «مصر هبة النيل» أو «هبة النهر» والتى رددها «هيرودوت» من بعده، ثم نسبت إليه[٢].

هذا فضلا عن أن مصر، ليست هبة النيل وحده، وإنما هى هبة المصريين كذلك، وإلا فالنيل يمر بثمان دول ـ غير مصر ـ فلماذا لم تصبح هذه الدولة «هبة النيل» كمصر؟

وعلى أية حال، فلقد كان النيل ـ عند المصريين القدامى ـ إنما يكوّن العنصر الثانى ـ بجانب تربة مصر ومناخها ـ الذى كان سبباً فى إيمان القوم بالبعث والخلود فقد كان فيض النيل يأتى دائماً فى موعده، فما أن تقبل شهور الصيف حتى ترتفع مياهه وتفيض وتمد الحقول بالمياه والطمى الجديد، وكان النيل دائماً يبر بوعده ولم يقصر فى مد تلك الحقول بما يبعث فيها الحياة، فكان انتظامه سبباً فى غرس شعور الثقة فى نفوس القوم، وبث مولده المتكرر فى نفس المصرى عقيدة راسخة، إنه فى استطاعته هو الآخر أن ينتصر على الموت ويحيا حياة أبدية، ولا يمكننا أن ننكر أن كثيراً ما حدث أن النيل قد قصر فى مجيئه وهبط عن معدله الطبيعى، وحينئذ تكون الشدة التى قد تصل إلى المجاعة، ولكنه لم يقصر أبداً إلا لفترة محدودة، كان يعود بعدها وقد حمل فى وطابه الخير العميم، وهكذا كان القوم يرون فيضان النيل كل عام فى موسم لا يخلفه، فيخصب التربة وينبت البذرة، ودفع دورة الحياة الزراعية دفعة جديدة، وسرعان ما تتابع الدورات إلى ما لا

(١) محمد رياض وكوثر عبد الرسول، المرجع السابق، ص ١٢٧، ٤١٩.

(٢) إبراهيم زيادى، المرجع السابق، ص ٧٧-٨٠؛ عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص ٣٤١.

نهاية، وقد وجد القوم أن ذلك إنما قد ينطبق كذلك على بعض الجزر التى تغطيها المياه ثم سرعان ما تنحسر عنها فتحيا وتزدهر، ثم تعود فتغرقها (أى تميتها) من جديد، ثم سرعان ما يتكرر الأمر كله مرة ثانية.

ولم يتوهم القوم أن ذلك كله قد يحدث تلقائياً من غير علة أو غاية، وإنما آمنوا معها بربٍّ كريمٍ يدفع الفيضان من باطن الأرض، ويدفع النبات من الحب المدفون فى التربة ويحيى الحقول الجافة بعد الموت كلما مسها بفيضه ورحمته، ومع طول التدبر وعمق التدين قدروا أن من يتعهد طبيعتهم بالحياة المتجددة ويدفع عنها موتها، قادر من غير شك أن يتعهد أهلها بالحياة بعد وفاتهم، طالما أحبهم، وطالما تقربوا إليه وقدسوه، وقد حدث بالفعل أن المعبود الذى تخيله نفر منهم رباً للفيضان والخصب والزراع وقد سموه باسم «أوزير»، كان هو نفس المعبود الذى نسبوا إليه ربوبة البعث والآخرة، وجعلوا مملكته تحت الأرض، وامتد تقديسهم له فى طول البلاد وعرضها، وأحاطوه بأساطير وتخيلات، وهو غير «حعبى»[1].

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن مصر إنما كانت ـ فى بعض الأحايين ـ عرضة للمجاعات، وفترات من التدهور فى الإنتاج الزراعى والحيوانى ـ على مرِّ العصور ـ وذلك من اضطراب النيل وامتناع فيضه، وإخلاله بالوفاء ـ كما تعود وتعود منه الناس كل عام ـ فإذا تدهور وأقام على نقائصه لم تكد مياهه لتصل إلى الأرض التى تتحرق شوقاً إليه، وتنتظر العام كله أو جله للقائه، فعندئذ فلا ريّ ولا استنبات، ثم لا زرع ولا ضرع، فتكون الكارثة التى تنزل بالبلاد والعباد[2]، والتاريخ يحدثنا أنه ما من بلد فى العالم تتوقف حياته ووجوده، مصيره، ومستقبله، فى السلم أو فى الحرب، أو يرتبط سكانه وتاريخه بنهر، مثلما تفعل مصر والنيل، ومن ثم فإذا بالغ النيل

(١) عبد العزيز صالح، الشرق الأدنى القديم، الجزء الأول (مصر والعراق)، ص ٣١٥.

(٢) أحمد عبد الحميد يوسف، المرجع السابق، ص ٥٥.

فى فيضه أحياناً، فتعظم أمواهه وتضرى أمواجه، فإذا هو يندفع طوفاناً عنيفاً مدمراً مغرقاً كل شيء، ثم لا يكاد ينحسر عن الأرض إلا وقد انقضى من أوان البذر وقت قد يكون على الإنتاج أيام الحصاد سيء المغبة، وإن لم يبلغ ذلك فى سوئه مبلغ نقص الماء، ذلك أن النهر إن هبط عن معدله الطبيعى، فهى «الشدة» التى قد تصل إلى «المجاعة»، وإذا كان الفيضان المغرق يعنى «الطاعون»، فإن المجاعة، كانت تعنى «الموتان»، الذى يصل إلى حد ينشر معه الطاعون بدوره، بعد ذلك حتى يتناقص السكان بدرجة مخيفة[1].

على أن انحباس النيل ونضوب موارد الدولة، إنما كان وثيق الصلة بما كان ينزل بها من الضعف السياسى، وتحلل السلطة المركزية، وتدهور الأمن واضطراب النظام، فيكون شيوع الفساد وانتشار الجريمة مع القحط والجوع شراً مستطيراً، وشقاء متصلاً، يحل بالناس فيترك فى نفوسهم وعقولهم أثراً لا يمحى أو لا يكاد يمحى[2].

ويحدثنا المتنبىء «نفرتى» عن عدم فيضان النيل على أيام الثورة الاجتماعية الأولى فى مصر الفراعنة، فيقول: «لقد جف نيل مصر حتى ليخوضه الناس بالقدم، وسوف يبحث الناس عن الماء لتجرى عليه السفن، فيجدون أن الطريق قد صار شاطئاً، وأن الشاطئ قد صار ماء»[3]، ومن ثم فقد رأينا من نفس الفترة، شريفاً من الصعيد، هو «عنخ - تيفى» حاكم «نخن» (البصيلية، مركز إدفو، بمحافظة أسوان) - يتحدث عن سنى المجاعة[4]

---

(١) جمال حمدان، شخصية مصر، القاهرة ١٩٧٠، ص ٢٤١-٢٤٥.

(٢) أحمد عبد الحميد يوسف، المرجع السابق، ص ٥٦.

(٣) Adolf Erman, The Literature of the Ancient Egyptians, London, 1927, p. 113.

(٤) تعرضت مصر لكثير من المجاعات فى العصور الوسطى، كالتى حدثت فى ولاية عبد الله بن مروان فى عام ٨٧هـ/٧٠٦م، وكالتى حدثت فى عهد الإخشيديين فى أعوام (٣٢٩هـ/ ٩٤٠-٩٤١م)، (٣٣٨هـ/٩٤٩م)، (٣٤١هـ/٩٥٢م)، (٣٤٣هـ/٩٥٤م)، (٣٥١هـ/ ٩٦٢م)، ولعل أشهر وأبشع المجاعات ما سجله البغدادى (١١٦٢-١٢٣١م) أثناء «الشدة المستنصرية» =

فى مقبرته بالمعلا[1]، فيقول أنه أمد خلالها مدناً أخرى - إلى جانب مدينته - بالهبات والقمح، وقد امتدت دائرة نشاطه حتى مدينة «دندرة» - فى مقابل قنا عبر النهر - وبذا أنقذ الصعيد الجنوبى الذى كاد يموت جوعاً، وكان كل رجل فيه يغتال أطفاله[2].

على أن المصريين قد اكتسبوا من ذلك حكمة التجربة وحسن التدبير، إذ كانوا يدخرون غلة الأرض من أيام الرى لأيام الجفاف، ومن يسرهم لعسرهم، ومن رخائهم لشدتهم، وكانت حكمة الملوك وحكام الأقاليم وحسن تدبيرهم خليقاً أن يخفف عن الرعية بما كانوا يصنعون[3]، ومن ثم فقد رأينا «خيتى» أمير أسيوط، على أيام الأهناسيين (حكام الأسرتين التاسعة والعاشرة) يتحدث عن جهوده فى القضاء على الأزمة الاقتصادية، بأن قدم هدية لمدينته، وذلك بأن حفر ترعة ليروى الفلاحون منها أرضهم ويسقوا زرعهم، ثم يقول: إننى غنى بقمح الشمال حيث كانت الأرض فى جفاف، وعندما شحت أقوات البلاد أمددت المدينة بالحبوب والخبز، وسمحت لكل مواطن بأن يأخذ نصيبه ونصيب زوجته، وقد أعطيت الأرملة وولدها،

= التى بدأت عام ٤٥٧هـ واستمرت سبع سنين متصلة فى أخريات الدولة الفاطمية، وبلغ من قسوتها أن أكل الناس القطط والكلاب ثم الجيف، ثم أكلوا بعضهم بعضاً، حتى انتهت بفناء رهيب للسكان، لا يملك قارئ البغدادى إلا أن يتصوره فناء كاملاً، أو شبه كامل (انظر: جمال حمدان، المرجع السابق، ص ٢٤٤-٢٤٥، محمد حمدى المناوى، مصر فى ظل الإسلام، ١/١٧١-١٧٥ ، (القاهرة ١٩٧٠)؛ المقريزى، إغاثة الأمة ، ص ١١ وما بعدها؛ الكندى، كتاب الولاة وكتاب القضاء، ص ٥٩، بيروت ١٩٠٨؛ السيوطى، حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة، ٢/١٥٤ ، القاهرة ١٣٩٩هـ.

(١) تقع بلدة المعلا على شاطئ النيل الشرقى فى منتصف المسافة تقريباً بين إسنا وأرمنت. وعلى مبعدة ٣٢ كيلا جنوبى الأقصر، وكان صاحب المقبرة هو «عنخ - تيفى» حاكم نخن، فهل هذا يعنى أن مقاطعة نخن كانت حدودها الشمالية تمتد حتى المعلا شمالاً؟.

A. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, 1961, p. 111.

(٣) أحمد عبد الحميد، المرجع السابق، ص ٥٧-٥٨.

وتجاوزت عن الضرائب التي فرضها أبي، وملأت المراعي بالماشية»[١].

ويتحدث «إميني» أمير بني حسن - في مقابل أبو قرقاص عبر النهر - عن دوره في القضاء على هذه المجاعة، فيقول: «وعندما حلت سنوات المجاعة حرثت جميع أراضي الإقليم، من حده الجنوبي إلى حده الشمالي، وأبقيت الأهالي أحياء وأعطيتهم طعاماً، حتى لا يوجد بينهم جائع واحد، وقد أعطيت الأرملة كما أعطيت المتزوجة»[٢]، وعلى نفس طريقة «إميني» يقص علينا أمراء «حتنوب» من أن الواحد منهم إنما كان قد «أنقذ الأرملة وواسى المتألم وأطعم الطفل، وعال مدينته في زمن القحط، وأطعمها أيام المجاعة، وهو الذى زودها بسخاء بلا تفرقة، فكان عظماء مدينته كغيرهم في ذلك»[٣].

وفي مدينة الكاب - مقابل نخن على ضفة النيل الشرقية، وعلى مبعدة ١٩ كيلو متراً شمال إدفو - نرى أميرها «بيى» من الأسرة الثالثة عشرة، التي سبقت قليلا عصر يوسف الصديق والهكسوس، يقول: لقد كنت أكدس القمح الجيد المطلوب، وكنت يقظاً في فصل البذر، فلما وقعت المجاعة على مدى الكثير من السنين أعطيت مدينتي القمح في كل مجاعة»[٤].

على أن العلماء على كثرة ما قرأوا من أخبار المجاعات في مصر القديمة، إنما يقفون خاصة موقف الفاحص المتأمل من مجاعة أخرى نقشت أخبارها على الصخر من جزيرة سهيل جنوبي أسوان، ولئن كان الخبر

(١) محمد بيومي مهران، الثورة الاجتماعية في مصر الفراعنة، ص ١٢٨-١٢٩. وكذا:
J.H. Breasted, Ancient Records of Egypt, Chicago, 1906, I, p. 181; J. Vandier, La Famine dans L'Egypte Ancienne, Le Caire 1936, p. 101 F.

(2) P.E. Newbery, Beni Hasan I, London, 1883, PL. 8, p. 27; J.Vandier, op.cit., p. 111.

(3) J.H. Breasted, The Dawn of Conscience , N.Y., 1939, p. 214.

(4) J. Vandier, op.cit., p. 114.

منسوبا إلى حكم الملك «زوسر» - ثاني ملوك الأسرة الثالثة - فالذي لاشك فيه أنه إنما نقش في تلك الجزيرة بعده بعشرين قرنا من الزمان، نقشه كهان «الإله خنوم» على عهد البطالمة في مصر، ولعلهم نقشوه في عهد بطليموس العاشر في أكبر الظن.

هذا، وقد وقف العلماء على ما ورد في هذه المجاعة من أنها حلت بمصر سبع سنين، وفي أن الملك «زوسر» دعا وزيره الحكيم، «إيمحوتب» ليستفتيه في تلك النازلة التي أحزنته، وليعلم علم هذا الذي أصاب النيل فحبسه عن المجيء في عهده سنين سبع، فذوت الحبوب وصوحت الثمار، وقلت الأقوات، حتى لكأن الناس قد حرموا الأنفاس، فلم ترفأ لطفل أدمعه، وأقام الشباب على الانتظار، على حين امتلأت القلوب أسى، فانحنوا على أطرافهم مدقعين، واشتدت الحاجة برجال الحاشية، وغلقت المعابد، وعمّ الحزن الناس.

ويروى النص أن الملك «زوسر» كتب إلى حاكم أسوان يستشيره فيما يجب عليه للخلاص من هذا الخطب، وأي الآلهة أولى باستدرار العطف، فأشار الحاكم بأن «الإله خنوم» هو الذي يأتي بالنيل الطيب والنيل الرديء، ويأتي الملك إلى «أسوان» ليشهد «خنوم» الذي يقرر في رؤيا للملك أن إهمال شأنه إنما كان سببا لما حاق بالبلاد من مصائب، ووعد بالخير إن عنى بشأنه، ويصدر الملك أمره بأن توقف عليه الأراضي الواقعة على ضفتي النيل، فيما بين جزيرة سهيل والدكة في بلاد النوبة - أي على مدى مرحلة طولها فيما بين ١٢٨، ١٤٤ كيلا[1].

(١) نجيب ميخائيل، مصر والشرق الأدنى القديم، الجزء الأول، ص ١٥٠، الإسكندرية ١٩٦٦؛ أحمد عبد الحميد يوسف، المرجع السابق، ص ٥٩-٦١؛ وكذا:
P. Barguel, La Stele de la Famine a Sehel, Cairo, 1954 ; J. A. Wilson, The Tradition of Seven Lean Years in Egypt, in ANET, p. 31-32; A. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, 1964, p. 76; J. Vandier, op.cit., p. 132F.

فالنص إذن، إنما يتحدث عن مجاعة امتدت سبع سنين، وعن مشورة استشارها الملك من وزير عرف بالحكمة والموعظة الحسنة، وعن حلم رآه، وغير بعيد أن يكون هذا النص صوتاً من واقع بعيد، وأن كهان خنوم حين كتبوه على عهد البطالمة إنما كانوا تحت تأثير ما كان شائعاً يومئذ من أصداء الماضي السحيق، وبما ورد في التوراة من أصداء السنين السبع الشداد التي جرت بها ألسنة من كان بمصر يومئذ من يهود بخاصة وأن الترجمة السبعينية للتوراة إنما كانت قد تمت بمصر على أيام بطليموس الثاني (٢٨٤-٢٤٦ق.م)، وأن هناك جالية من يهود إنما كانت تقيم في اليفانتين (جزيرة أسوان)، وتطل من حيث الموقع على سهيل، وإن كان كهنة «إيزة» في فيلة إنما يقدمون نصاً آخر يقررون فيه أن الملك «زوسر» قد وهبهم نفس البقعة التي يزعم أصحاب «خنوم» أنها إنما كانت هدية الملك لهم ومنحته لإلههم[1].

(١) نجيب ميخائيل، المرجع السابق، ص ١٥٠؛ أحمد عبد الحميد، المرجع السابق، ص ٦١؛ محمد بيومي مهران، مصر ٢/١١٠-١١٢.

الفصل الثاني

مصادر الدراسة

لا ريب في أن المصادر هنا، إنما تنقسم إلى قسمين: الواحد: مصادر عامة تتصل بالتاريخ المصرى القديم، والثانى: مصادر خاصة تتصل بموضوع البحث ـ الثورة الاجتماعية الأولى فى مصر الفراعنة ـ.

أولا ـ المصادر العامة

تعتمد الدراسة في تاريخ مصر الفراعنة على مصادر أربعة أساسية هي: الآثار المصرية، وما كتبه الرحالة والمؤرخون من الأغارقة والرومان، الذين زاروا مصر، وكتبوا عنها كتباً كاملة، أو فصولا من كتب، ثم المصادر المعاصرة في منطقة الشرق الأدنى القديم، وأخيراً ما جاء في التوراة والقرآن الكريم عن مصر وأحوالها، ولنحاول الآن أن نتحدث بشيء من التفصيل عن هذه المصادر الأربعة:

١ ـ الآثار المصرية:

لا ريب فى أن الآثار التى تركها لنا المصريون القدامى، وما تمد به الباحث في تاريخ الكنانة من معرفة، سطرت على جدران المعابد والمقابر والأهرامات، والتماثيل ولوحات القبور والتوابيت وقراطيس البردى وغيرها، إنما هى المصدر الأول لتاريخ مصر القديمة، فهى تتحدث عن الكثير من أخبار القوم، وتروى معلومات هامة عن عقائدهم وفنونهم.

وفي الواقع، فإن الآثار المصرية ـ التى تتضاءل بجانبها آثار أى بلد آخر ـ إنما تمتاز بوفرة هائلة، ترجع (أولا) إلى العقيدة الدينية التى قضت أن يتزود القوم لحياتهم الأخرى، على نحو ما كانوا يفعلون فى حياتهم الدنيا، وترجع (ثانياً) إلى تقدم المصريين في الفنون والصناعات والبناء، مما أتاح لهم أن يشيدوا تلك الثروة الهائلة من التراث القومى المنقطع النظير، وترجع

(ثالثا) إلى جفاف مناخ مصر الذى ساعد على حفظ تلك الآثار، فضلا عن صيانة الأجساد، صيانة لا يمكن أن توجد فى الأحوال الطبيعية فى أى جزء آخر من العالم[١].

على أن الباحث إنما يلاحظ على هذا المصدر الأصيل عدة نقاط ضعف، منها (أولا) أن كثيراً من الآثار إنما هو صادر عن المقابر أو المعابد، ومن هنا فقد كان المظهر السائد لمعظم ما يعثر عليه فيها دينى، ومنها (ثانياً) أن كثيراً من هذه الآثار، إنما قد كتب بأمر من الملوك ـ أو بوحى منهم ـ فإذا تذكرنا أن الملك فى العقيدة المصرية إنما كان إلهاً أكثر منه بشراً، وجب علينا أن نكون على حذر فيما ترويه عن الحروب بين مصر وجيرانها، ذلك أن المصريين كانوا لا يستسيغون أن يهزم «الملك الإله» فى حرب خاض غمارها، ومن ثم فإن النصر يكاد يكون حليفه فيها دائماً، وقد تكون الحقيقة غير ذلك[٢].

وهنا وجب على الباحث أن يقارن هذه النصوص بما يعاصرها من نصوص الدول الأخرى، ذات الصلة بهذه الأحداث، حتى يتبين وجه الحق فيها ـ قدر استطاعته ـ ومن أمثلة ذلك، موقعة قادش التى دارت رحى الحرب فيها حوالى عام ١٢٨٥ قبل الميلاد، بين الفرعون «رعمسيس الثانى» والملك الحيثى «مواتيلا» وزعم فيها كل منهما أن النصر كان من نصيبه، غير أن الحقائق التاريخية ـ فيما أظن ـ إنما هى فى جانب فرعون، وليس مع الملك الحيثى[٣].

---

(١) جيمس هنرى برستد، تطور الفكر والدين فى مصر القديمة، ترجمة زكى سوسن، القاهرة ١٩٦١، ص ٨٥؛ محمد جمال الدين مختار، تاريخ الحضارة المصرية، العصر الفرعونى، مصادر التاريخ الفرعونى، المجلد الأول، القاهرة ١٩٦٢، ص ٨٣.

(٢) محمد بيومى مهران، الثورة الاجتماعية الأولى فى مصر الفراعنة، الإسكندرية ١٩٦٦، ص ٢.

(٣) محمد بيومى مهران، حركات التحرير فى مصر القديمة، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٦، ص ٢٣٢-٢٣٧، وكذا:

=

ومنها (ثالثاً) أن هذه المصادر تتفاوت فيها المعلومات المتصلة بشطرى الوادى، ذلك لأن جلها إنما هو صادر عن الصعيد، بعكس الدلتا التى قدمت القليل، ومع ذلك فإن هذا التعميم عرضة للاستثناء بالنسبة لمدينتى تانيس وبوباسطة، اللتين قدمتا نتائج هامة، وإن كان معظمها آثار من الحجر، الذى استطاع أن يقاوم عامل الماء، شأنه فى ذلك شأن المعابد الرائعة فى الصعيد، التى تقوم على الأرض الزراعية على مرمى حجر من النيل.

ومنها (رابعاً) أن هذا المصدر الوطنى إنما يعيبه كذلك أن تسعة أعشار الحفائر إنما تمت فى الصحراء، حيث شاد القوم «مساكن الأبدية»، حيث يحفظ الرمل الجاف أكثر الأشياء عرضة للتلف، ومن هنا كان المظهر الجنزى السائد لمعظم ما يعثر عليه، وأما مساكن الأحياء التى كانت تبنى عن قصد من مواد أقل قدرة على الاحتمال، فكانت تقوم فى وسط الأرض الزراعية، فالمدن والقرى النائية اليوم مبنية فوق أنقاض العصور السابقة، وعندما كانت تنهار المنازل المبنية من اللبن كانت تحل محلها منازل أخرى تقام قوتها، وهكذا يرتفع مستوى الأرض مرة بعد أخرى فوق منسوب الفيضان، وقد أدى ذلك إلى ندرة الآثار المتعلقة بالحياة اليومى، ونواحى النشاط الدنيوى، ومع ذلك فإن جزالة التعبير، والثراء فى اللمسات الإنسانية فى المستندات المصرية، تفوق نظائرها كثيراً من بلاد الشرق الأدنى القديم[1].

ومنها (خامساً) أن السجلات الرسمية من أعمال الفراعين فى الدولة القديمة تكاد تكون غير قائمة، ذلك لأن الملوك كانوا آلهة متعالين إلى أبعد الحدود، وأقوياء بصورة تجعلهم لا يهتمون برواية أعمالهم حتى تصل إلى

=

A. Burn, JEA, 1921, p. 194-195; A.H. Gardiner, The Kadesh Inscriptions of Ramesses II, Oxford, 1960, p. 6-9; H. Goedick, Consideration on The Battle of Karesh, JEA, 52, 1960, p. 72-80.

(1) A.H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1964, p. 52-53.

رعاياهم، وكانت الأهرامات كافية لتقوم شاهداً على عظمتهم. ونفس الشيء - مع درجة أقل - يمكن أن يقال عن الأسرة الثانية عشرة(١).

ومنها (سادساً) ندرة الاثار التى ترجع إلى بعض العصور المظلمة، ولعل أسوأ المراحل جميعاً ما عرف باسم «العصر الوسيط الأول» (الأسرات من السابعة إلى العاشرة) والثانى (الأسرات من الثالثة عشرة إلى السابعة عشرة)، ثم ما بين الأسرات، من الحادية والعشرين إلى الرابعة والعشرين، مما يجعل تسلسل الأحداث فى التاريخ الفرعونى غير مضطرد، تتخلله فجوات لابد من الاستعانة فى مثلها بمصادر أخرى ومنها (سابعاً) أن زادنا من النصوص التاريخية إنما يتوقف - قلة وكثرة - على مدى النجاح الذى استمتعت به مصر من وقت لآخر، وعلى مدى استقرار الأمور، وسطوة الحاكمين فيها.

ومنها (ثامناً) أن النصوص المصرية - فى غالبيتها - صعبة الترجمة، عسيرة التأويل، لم ينشر الكثير منها، أو لم يترجم ترجمة دقيقة، وهى، على أية حال، مبهمة بصفة خاصة، فيما يتعلق بالعقائد الدينية والطقوس الجنزية، ومنها (تاسعاً) أن المصريين - شأنهم فى ذلك شأن غيرهم من الشعوب القديمة - لم يعرفوا التواريخ المطلقة، ولم يتفقوا على بداية زمنية ثابتة يردون إليها الأحداث، مما جعل مهمة الباحث صعبة وشاقة فى تاريخ العصور الفرعونية، بخاصة إذا ما تذكرنا أننا نتناول حضارة تمتد لآلاف السنين، لم يبق منها سوى مخلفات ضئيلة.

ومع ذلك كله، فإن الآثار - مصدرنا الأول - إنما تمتاز عن غيرها من المصادر الأخرى، بأنها المصدر الوحيد الذى عاصر الأحداث والذى أشركه المصريون - عن قصد أو غير قصد - فى الكشف عن تاريخهم وتخليد حضارتهم(٢).

---

(1) Ibid., p. 55.

(٢) محمد جمال الدين مختار، المرجع السابق، ص ٨٣، ٩١؛ وكذا:
A.H. Gardiner, op.,cit, p. 56.

هذا ولعل أهم ما عثر عليه بين تلك الآثار - من وجهة النظر التاريخية - ما عرف بقوائم الملوك، وهي كشوف أرخت لبعض الفراعين، ولما سبقهم من عصور[١]، فمنذ الأسرة الخامسة (حوالى ٢٤٨٠ - ٢٣٤٠ق.م) نرى آثاراً تسجل عليها أسماء الملوك وسني حكمهم وأهم أعمالهم، وكانت آثارهم لم يقتصروا فيها على ترتيب الملوك ترتيباً زمنياً وحسب، بل ذكروا مدة حكمهم بالسنة والشهر واليوم، كما أنهم لم يقتصروا فيها على العصر التاريخي، بل أرخوا كذلك لملوك فجر التاريخ، رغبة في تخليد الملكية المقدسة، وليصلوا الفراعين بأسلافهم من الأرباب الذين أورثوهم عرش الكنانة.

غير أن المعلومات التي أعطتها هذه القوائم متباينة أحياناً، كما يعوزها الطابع العلمي أو التاريخي، هذا فضلا عن أنها لم تقدم لنا شيئاً عن النواحي الحضارية أو الثقافية، مما جعلها محدودة الفائدة، وربما كان السبب في ذلك أن معظمها إنما يتصل باحتفالات دينية تتصل بالملكية، وأخيراً فإنها لم تقدم لنا إلا القليل عن التاريخ السياسي كالحروب والغزوات، وذلك لأن الحوادث التي كانت تحتل المكانة الأكثر أهمية فيها إنما كانت أوجه النشاط السلمية كالشعائر الملكية والرحلات وتشييد المباني[٢].

وأما أهم هذه القوائم الملكية فهي: حجر بالرمو، وقوائم الكرنك وأبيدوس وسقارة، وبردية تورين.

---

(١) بدأ التاريخ للفراعنة في بادئ الأمر، على بطاقات صغيرة من العاج أو الخشب، ثم ما لبث أن تحول إلى التفصيل والإسهام على اللوحات الحجرية وعلى أوراق البردى وفوق جدران المقابر والمعابد، وقد هدفت هذه التسجيلات إلى تخليد ذكرى الملوك، فوصفت الأعياد الملكية، وما قام به الفراعين من جلائل الأعمال، وما قدموه لآلهتهم من قرابين، فضلا عما تناولته من الأحداث السياسية، كحادث توحيد البلاد، وطرد الهكسوس من مصر، كما أسهمت نصوص المعابد وأوراق البردى في تسجيل حروب الفراعين العظام من أمثال تحوتمس الثالث ورعمسيس الثاني والثالث. (محمد جمال الدين مختار، المرجع السابق، ص ٨٧).

(2) J.A. Wilson, op.cit., p. 63.

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى مؤرخنا الوطنى «مانيتو» آخر المؤرخين المصريين القدامى المعروفين، والذى يعدّ، أعظم مؤرخ أنجبته مصر القديمة.

ومن أسف أن أصل اسم «مانيتو» المصرى لم يعرف بعد، وإن عرفنا أن المتأغرقين دعوه «مانيتون»، ويفترض «الكسندر موريه» (١٨٦٨-١٩٣٨م) أنه كان اسماً يتداخل فيه اسم المعبود مونتو، رب الحرب، ويظن البعض أنه بمعنى «الراعى» أو «السائس»، وأنه قد ولد فى «سمنود» (ثب نتر = سيبينتوس) وعاش فى الفترة (٣٢٣-٢٤٥ق.م)، وربما قد وصل فى السلك الكهنوتى إلى منصب الكاهن الأكبر فى «أون» (هليوبوليس)، وأنه قام بدور هام فى نشر عبادة «سرابيس» ليكون معبود المصريين واليونانيين على السواء[1].

وكان مؤرخنا الوطنى ملماً باللغة المصرية القديمة، وعلى معرفة تامة باللغة اليونانية، ثم هو متمكن من تاريخ وديانة بلده، مما ساعده على كتابة تاريخه حوالى عام ٢٨٠ قبل الميلاد، على أيام بطليموس الثانى (٢٨٤-٢٤٦ق.م) بصورة أفضل كثيراً ممن سبقوه، ولعل الذى دفع «مانيتو» إلى القيام بهذا العمل هو الرغبة فى إظهار الحقائق التى مسخها المؤرخ الإغريقى «هيرودوت» فى كتابه الذى كتبه قبل «مانيتو» بما يقرب من قرنين من الزمان، أو أن «بطليموس الثانى» أراد أن يستفيد من علمه، فكلفه بكتابة تاريخ مصر.

وأيًا ما كان السبب، فإن مانيتو قام بكتابة تاريخ بلاده فى ثلاثة أجزاء باليونانية تحت عنوان «أجبتياكا أيبو منيماتا» وخلص منه بموجز يحوى قائمة بأسماء الملوك، مصحوبة بملاحظات قصيرة عن بعض العهود، معتمداً فى

(١) أحمد فخرى، الموسوعة المصرية ٣٥٨/١؛ عبد الحميد زايد، مصر الخالدة، القاهرة ١٩٦٦، ص١١٤؛ عبد العزيز صالح، حضارة مصر القديمة وآثارها، الجزء الأول، القاهرة ١٩٦٢، ص٢٣٦.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ذلك على بعض الأسانيد المكتوبة، والقصص المروية، مستفيداً في الوقت نفسه بأساليب أسلافه، مجدداً فيها.

ويقسم مانيتو مؤلفه ـ التاريخ الكامل لمصر ـ بعد حكم الآلهة وأنصاف الآلهة، إلى إحد واثنين أسرة، من العائلات الملكية، تبدأ بالملك «مينا»، وتنتهي بغزو الإسكندر الأكبر في عام ٣٣٢ق.م، ورغم عيوب هذا التقسيم إلى أسرات، فإنه اتخذ جذوراً ثابتة في دراسة «علم المصريات» Egyptology، ورغم أن بعض المؤرخين المحدثين ينتقدونه كثيراً، إلا أنه لا يوجد تقسيم آخر أكثر منه صلاحية.

هذا فضلا عن أن «مانيتو» في تقسيمه للأسرات التي تشتمل التاريخ الفرعوني كله، قد اعتمد على معلومات صحيحة وصلت إليه من مصادر مصرية قديمة لها قيمتها، وذلك لأنها تتفق وما جاء في بردية تورين، كما أشرنا من قبل.

وفوق ذلك كله، فإن تاريخ مانيتو إنما يمتاز بأنه يمدنا بأسماء الملوك الذين حكموا مصر في عصورها الفرعونية، مدونة بنطقها الإغريقي الذي كان سائداً على أيام مانيتو، كما أنه لم يقتصر في تاريخه على الحياة السياسية، وإنما أرخ كذلك للحياة الاجتماعية، ما استطاع إلى ذلك سبيلا، فأصاب الحقيقة في كثير من الأحايين. وإن كان قد ضل عنها، وكساها بثوب المبالغة والأساطير، في أحايين كثيرة[١].

هذا فضلا عن أن تاريخ مانيتو، لم يبرأ من فترة حكم الأرباب، هذا إلى جانب المبالغة أحياناً في سني حكم الملوك، كما تبدو فيه خلافات كثيرة في الأسماء المؤكدة تماماً، ففي الصورة التي وصل إلينا بها الكتاب،

---

(١) عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص ٢٣٦-٢٣٧؛ وكذا:
J. Balkie, A History of Egypt, I, London, 1929, p. 54; W. G. Waddlle, Manetho, With an English Translation, Cambridge, London, 1940; A. H. Gardiner, op.cit., p. 46-48.

إنما نلتقي بأشياء غير مضبوطة بدرجة واضحة، تصل إلى ذروتها خلال الأسرة الثامنة عشرة، حيث الأسماء والتسلسل التاريخي أصبح معروفًا لدينا من مصادر أثرية لا يرقى إليها الشك، ومع ذلك فإن كتاب مانيتو مايزال يسيطر على دراساتنا، ولا يمكن الاستغناء عنه، وربما يخبئ لنا بعض المفاجآت، كما حدث منذ بضع سنوات، حين عثر فجأة على اسم ملك مجهول يدعى «نفر خيرس» ـ كان قد وضعه فى الأسرة الحادية والعشرين ـ على إناء صغير من تانيس[1].

وأيًا ما كان الأمر، فمما يؤسف له حقًا، أن تاريخ مانيتو الأصلى قد فقد فى حريق مكتبة الإسكندرية عام ٤٨ قبل الميلاد، على يد «يوليوس قيصر»، ولم يعثر حتى الآن على أية نسخة منه ـ كاملة كانت هذه النسخة أو ناقصة ـ وكل ما وصلنا منه مقتطفات مختصرة أحيانًا، ومبتورة أحيانًا أخرى، ذلك لأن كتاب الإغريق لم يهتموا كثيرًا بكتاب «مانيتو»، نظرًا للروح الوطنية التى تميز بها، ومن هنا لم نعثر على أى صدى له فى كتابات المؤرخين الإغريق.

هذا هو المصدر الأول ـ الآثار ـ لدراسة تاريخ مصر القديم، ولكنه ـ فى أغلب الأمر ـ تاريخ سياسى، وهو لا يساعدنا فى كل الأحوال على معرفة ما كان عليه الشعب، أو ما كان من تطورات فى المجتمع أو فى الفنون المختلفة أو فى المظاهر الثقافية والدينية بوجه عام، وهى جميعًا على أكبر جانب من الأهمية لفهم الحضارة المصرية، ولدينا ـ ولله الحمد ـ مصادر لا حصر لها تساعدنا على تلك الدراسة، وتمدنا بالكثير من المعلومات، فالمتاحف فى جميع أرجاء العالم تمتلئ بما خلفته الحضارة المصرية القديمة، من تماثيل ولوحات وتوابيت وحلى وأوان وأدوات منزلية، وأدوات الصناع، وذوى الحرف المختلفة، هذا فضلا عن التعاويذ والتمائم وقراطيس البردى وغيرها، وعليها

(1) P. Monter, Tanis, Paris, 1942, p. 164; A.H. Gardiner, op.cit., p. 47.

الكتابات المختلفة، بعضها قطع أدبية، والآخر نصوص دينية أو سحرية، وبعضها يحتوى على نصوص طبية (بردية أدوين سمث الجراحية ، بردية أبرس، بردية برلين الطبية، بردية تشستر بيتي الطبية، بردية كاهون، بردية لندن، بردية هرست)[١] أو رياضية (بردية رند) أو هندسية.

ثانياً - كتابات المؤرخين القدامى من اليونان والرومان

تميزت الفترة فيما بين القرنين - السادس قبل الميلاد، والثانى بعد الميلاد - بزيارة عدد كبير من الأغارقة لمصر - مؤرخين كانوا أم رحالة - وشجعهم على ذلك : أن مصر قد بدأت منذ الأسرة السادسة والعشرين (٦٦٤-٥٢٥ق.م) تستخدم كثيراً من الأيونيين والكاريين والإغريق كجنود مرتزقة في جيوشها، وزيادة العلاقات التجارية بينهم وبين مصر، هذا فضلا عما سمعوه عن حكمة مصر وثرائها وآثارها إلى جانب ما تواتر عن صلات أسلافهم فى آسيا الصغرى وجزر بحر إيجة بمصر، فضلا عن الامتنان والاحترام الشديد للبلد الذى ذكرت «أوديسة هوميروس» أنها «بلد الأطباء» أحكم أهل العالم، وما تواتر إليهم ورووه من أن حكمتها كانت الملهمة للمشرع «سولون»، والفلاسفة طاليس وبيتاجوراس وأفلاطون ويودكسوس وغيرهم.

على أن الباحثين إنما يلاحظون على كتابات المؤرخين من الأغارقة والرومان عدة نقاط ضعف، منها (أولا) أن البعض منهم قد تحروا الصدق فيما قالوا أنهم رأوه بأنفسهم، إلا أن كثيراً منهم إنما قد أساءوا فهم ما رأوه، أو ذهب بهم خيالهم كل مذهب فى تفسير أو تعليل ما سمعوه، أو وقعت عليه أبصارهم، ومن هنا فإن المؤرخين المحدثين إنما ينظرون إلى هذه

---

(١) انظر: حسن كمال، الطب المصرى القديم، أربعة أجزاء، فى مجلدين، القاهرة ١٩٦٤.

الكتابات بعين الحذر، ومنها (ثانياً) أن أصحاب هذه الكتابات إنما قد زاروا مصر في أيام ضعفها، وفي عصور تأخرها واضمحلالها، ولو أتاحت لهم الظروف زيارتها خلال عصور نهضتها وفي أيام مجدها، لتغير الكثير من آرائهم وانطباعاتهم.

ومنها (ثالثاً) أن إقامة هؤلاء الكتاب كانت في أغلب الأحايين في مدن الدلتا، حيث اتخذت الحياة طابعاً خاصاً، به مسحة أجنبية، ومن ثم فلم يتبينوا أوجه الحياة المصرية الصادقة، كما كانت في الصعيد، ومن ثم فقد أخطأوا في الكثير مما صوروه، من مظاهر الحضارة المصرية القديمة[١].

ومنها (رابعاً) أن هؤلاء الكتاب إنما قد اعتمدوا في الكثير من معلوماتهم على الأحاديث الشفوية التي كانوا يتبادلونها مع من قابلهم من المصريين، وبخاصة صغار الكهنة والتراجمة الوطنيين، وخدم المعابد والأغارقة المتمصرين، الذين حدثوهم عن عصور موغلة في القدم لا يعرفون عنها الكثير، كما كانوا يفسرون لهم النصوص الهيروغليفية، تفسيراً لا يتفق والحقيقة في الكثير، ومنها (خامساً) أن كثيراً منهم قد كتب ما كتبه من وجهة النظر اليونانية، وكثيراً ما كانت كتاباتهم في وقت اختلفت فيه مصالح بلادهم مع مصالح مصر.

ومنها (سادساً) روح التعصب التي عرفت عن الغربيين لحضارتهم، وإظهارها وكأنها أرقى من غيرها، وذلك عن طريق عرض نواحي الغرابة في الحضارات الشرقية التي عاصرتها أو سبقتها، ومنها (سابعاً) عدم معرفة كتاب اليونان والرومان للغة المصرية القديمة، مما أدى إلى سوء فهمهم للكثير مما ذكره المصريون ونقلوه عنهم محرفاً.

ومنها (ثامناً) أن كثيراً من هؤلاء الرحالة والمؤرخين قد وفدوا على مصر، كما يفد إليها السائح العادي يلتمس الشوادر والنوادر، أكثر مما

(١) محمد جمال الدين مختار، المرجع السابق، ص ٨٢.

يلتمس الحقائق، ومنها (تاسعاً) أن كثيراً منهم احتفظ بذكرياته عن مصر في ذاكرته، وبملاحظات دونها في إيجاز، ولم يكتب بإسهاب، إلا بعد أن طوف في بلاد أخرى، وبعد أن عاد إلى وطنه، فاختلط عليه بعد ما شاهده واحتفظ في ذاكرته وعمم أموراً ما كان ينبغي له أن يعممها[1].

وبدهي أن تكون النتيجة الطبيعية لذلك كله، أن كتابة هؤلاء المؤرخين قد امتلأت بالكثير من الأخطاء والأراجيف والتناقضات، وبالتالي فقد أدت إلى خلق الأساطير والخرافات عن الحياة في مصر الفراعنة.

ولعل أشهر هؤلاء المؤرخين هم:

١ ـ هيكاته المليتي:

كان من أوائل الأغارقة الذين زاروا مصر (حوالي عام ٥١٠ق.م)، وكان أكثر اهتماماً بفيضان النيل، وتكوين الدلتا، ومزروعات البلاد، منه بالسكان وتاريخهم، وقد ضاع كتابه «تخطيط الأرض» الذى ناقش فيه كل هذه الأمور، وقد ضمنه خريطة للبلاد التى زارها.

وربما كان «هيكاته» هذا، هو صاحب العبارة المشهورة «مصر هبة النيل» أو «هبة النهر» التي رددها هيرودوت من بعده، ثم نسبت إليه[2].

٢ ـ هيرودوت (٤٨٤-٤٣٠ق.م):

كتب هيرودوت كتابه الضخم في «توريم» (ثورى)، وفي العصر الذهبي من التاريخ اليوناني وكان هيرودوت من أسرة معروفة، وربما قد شارك في أحداث بلده السياسية، ومن ثم فقد تعرض لألوان من المحن التى أثرت في حياته، ودفعته إلى الهجرة إلى «ساموس»، ومنها قام برحلاته العديدة، حيث زار مصر وسورية، بل وجاوز بابل وهمدان، ثم تنقل بين شواطئ البحر

(١) عبد العزيز صالح، حضارة مصر القديمة وآثارها، الجزء الأول، ص ٢٤٠.

(٢) عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص ٣٤١؛

A.H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1964, p. 3.

الأسود وجنوب روسيا، وفى عام ٤٤٤ قبل الميلاد، توجه إلى بلدة «توريم» (ثورى) بجنوب إيطاليا مع فئة من المستعمرين الذين أرسلهم «بيريكليس» إلى إيطاليا ومن ثم فقد صار من أوائل مستوطنى «توريم» التى بقى فيها حتى وافاه أجله، ودفن فى سوق المدينة التى كان يحبها حباً دفع بعض المؤرخين إلى نسبته إليها فدعوه «هيرودوت الثورى».

وهناك فى «ثورى» عكف هيرودوت على كتابة سفره الضخم الذى قسمه النحويون السكندريون إلى تسعة أجزاء، كل جزء منها لإحدى عرائس العلوم والفنون من بنات «زيوس»، أما هيرودوت فقد كان عندما يشير إلى أجزاء كتابه لا يسميها بغير عبارات عامة، كالأحاديث الليبية، أو الروايات الآشورية... وهكذا[1].

كانت زيارة هيرودوت لمصر إبان الحكم الفارسى لها، وبعد ثورة «إيناروس» فى عام ٤٦٠ ق.م، ذلك لأنه إنما يقرر أنه رأى جماجم القتلى فى معركة «بابريمس» التى انتصر فيها الثائر المصرى، واستولى على الدلتا[2]، ولكن يجب ألا تكون هذه الزيارة بعد هذه المعركة بوقت طويل، وإلا لما استقبل فى مصر بهذا الترحاب الذى سمح له بحرية دخول المعابد المصرية والاطلاع على سجلاتها.

وليس هناك من شك فى أن الحكم الفارسى، وانتشار الإغريق فى مصر، قد سهلا الزيارة أمامه، وسمحا له بحرية التنقل بين أقاليم البلاد ومشاهدتها، بل إن هناك من يرجح أن هيرودوت إنما قد زار مصر بتوصية من الفرس[3]، وإن رأى آخرون أنه لم يعتمد عليهم، فقد كان الفرس ينظرون إلى اليونان بعين الريبة والتوجس، بل إن هيرودوت إنما كان يتجنب

(١) أحمد بدوى، المرجع السابق، ص ١٣-١٧.

(2) Herodotus, III, 12, VII, 7.

(٣) أحمد بدوى، المرجع السابق، ص ٢٩.

الأوساط الحكومية، حتى أنه لم يعلم أن اللغة الرسمية فى الدواوين الحكومية إنما كانت وقت ذاك هى اللغة الآرامية[١].

وأيا ما كان الأمر، فإن هيرودت استطاع أن يزور الكثير من مدائن الدلتا، كما تجول في الصعيد، حتى الجندل الأول عند أسوان، كما شاهد إقليم الفيوم، وإن رأى نقاده من المؤرخين المحدثين أن رحلته، التى كانت حوالى عام ٤٦٠ ق.م[٢]، لم تستغرق أكثر من ثلاثة أشهر، وربما أربعة، وأنها قد تمت فى أيام الفيضان، وأن إقامته فى مصر إنما كانت مقصورة على الدلتا وإقليم الفيوم.

ولعل هذا يفسر لنا عدم الاستطراد فى الوصف لمدينة «طيبة» واثارها، حتى خلا كتابه من وصف مقابر الملوك وتمثالى «ممنون» (وكانا يمثلان أمنحتب الثالث عند مدخل معبده الجنائزى فى طيبة الغربية)، وربما كان جهله باللغة المصرية القديمة، وكثرة اليونانيين فى الدلتا، سبباً فى أن تكون زيارته للصعيد عابرة.

وعلى أى حال، فلقد استطاع هيرودوت أن يزور أهم المدن المصرية، وأن يسجل كل ما رآه وسمعه فى الجزء الثانى من كتابه المشهور[٣]، فتحدث عن جغرافية مصر ومدنها، والحوادث التاريخية التى مرت بها، وأعمال ملوكها ومظاهر الحياة فيها، دونما تدقيق أو تمحيص، فضلا عن

(١) وهيب كامل، المرجع السابق، ص ١٦-١٧.

(٢) هناك خلاف على تاريخ زيارة هيرودوت لمصر، فمن يجعلها عام ٥٤٩ق.م، ومن يجعلها عقب عام ٤٥٠ق.م، ومن يجعلها فيما بين عامى ٤٤٨، ٤٤٥ق.م، ومن يجعلها عام ٤٣٠ق.م، ومن يجعلها ما بين عامى ٤٦٠، ٤٥٥ قبل الميلاد.

(٣) انظر: هيرودوت يتحدث عن مصر، ترجمة محمد صقر خفاجة، تقديم وشرح أحمد بدوى، القاهرة، ١٩٦٦؛ وكذا:
The History of Herodotus, Translated by G. Rowltson, 2 Vols., London 1920; Herodotus, The Histoires, Translated by A. de Selincourt, Penguin Classics, 1954; W.C. Waddel, Herodotus, Book II, (The Loeb Classical Library, London, 1939.

سرده لكثير من القصص الساذج، ومن هنا جاء كتابه جامعاً الغث والثمين، حاوياً الكثير من الحقائق والمفتريات في آن واحد، ولهذا يجب أن نكون على حذر مما يوضع أمامنا بحسبانه تاريخاً، وهو من التراث الشعبي في معايير غير دقيقة الرواية، وتأكيدات بها نواة الحقيقة وإن غلفت بالمبالغة والتحريف(١).

ومن هنا فقد اختلف المؤرخون في الحكم على هيرودوت، وعلى كتبه، اختلافاً بيناً، فعلى حين رأى «سيشرون» (١٠٦-٤٣ق.م) أنه أول من استطاع أن يميز بين فن التاريخ والرواية الشعرية، حتى لقبه «أبو التاريخ» اتهمه «بلوتارك» (٤٦ -١٢٠م) بالتحيز لأعداء بلده، وبأنه صديق البرابرة، وسماه بعض المؤرخين المحدثين «أبو الأباطيل»، وأنه كان عاجزاً عن إدراك الحقائق، كما كان ينقل عمن سبقوه، دون الإشارة إليهم، وإن وقف آخرون موقف التأييد له(٢).

وعلى أي حال، فليس هناك من شك في أن هيرودوت، إنما قد بذل الكثير من الجهد في إخراج كتابه عن «مصر»، وليس هناك من ريب كذلك في أن الرجل لم تفته دقة الملاحظة وبراعة التحليل فيما كان يشهده ويكتب عنه، من الظواهر البيئية والاجتماعية، وأنه قد أنصف المصريين في كثير مما كتبه عنهم، يبدو ذلك واضحاً حين نراه يعترف بتفوقهم وعظمتهم في ميادين العلوم والمعارف، ثم يمتدح فضائلهم ونزواتهم، ويثبت لهم الفضل في الكثير من العلوم والمعارف التي أفادت الإنسانية منها بعامة، وأفاد منها قومه الإغريق بخاصة.

---

(1) A.H. Gardiner, op.cit., p. 3.

(٢) انظر: هيرودوت يتحدث عن مصر، ص ٩-١٢، ١٩-٢٤؛ وكذا:
W.A.Heidel, Hecatheus and The Egyptian Priests in H. Book, II, Boston, 1935, p. 113F; Save - Soderbergh, Zuden Aethiopischen Episoden Hei Herodotus, Eranos, 44, 1946, p. 68-80; De Meulenaere, Herodotus Over de 26 te Dyn. Leuven, 1951.

على أن هناك أموراً كثيرة تجعلنا ننظر بعين الحذر والحيطة، بل والشك كذلك، في كل ما كتبه هيرودوت، ومنها (أولاً) أنه لم يكن يعرف من لغة المصريين كثيراً ولا قليلا، ولا نستطيع أن نزعم أن من بين المصريين من كان يعرف لغة الإغريق، إلا أن تكون قلة نادرة لن يلقاها الرجل فى كل ما زار من مكان، ومن ثم فلم يكن هناك من سبيل إلى إدارة الحديث بين هيرودوت وبين من زعم أنه لقيهم من كهان، إلا بين يدى ترجمان، أو واحد من بنى قومه، يلم بشيء من لغة المصريين على الأقل.

أما التراجمة فقد كانوا ـ كما هم اليوم ـ ولعين بالإغراب والمبالغة، معتمدين فى ذلك على جهل الأجانب بلغة النقوش واستعدادهم للتصديق، بسبب فرط إعجابهم بالآثار المصرية، وأما الأغارقة من بنى قومه، والذين لا نشك كثيراً فى أنه اعتمد عليهم، فهم قوم ـ مهما طال مكثهم فى مصر ـ أجانب عن البلاد، لا يستطيعون فهم حضارتها، ولا هضم تقاليدها، ولا الإيمان بعقائدها.

ومنها (ثانياً) أن هيرودوت يقرر فى مواطن كثيرة، أن مصدر أخباره كهنة منف، بل إنه إنما يزعم أن ثبتاً بأسماء الملوك قد قرئ عليه فى معبد بتاح بمنف، ولو كان ذلك صحيحاً لما زل هيرودوت زلته الكبرى، حين اعتبر بناة الأهرام (الدولة القديمة) تالياً لعصر الدولة الحديثة، ولما جهل ترتيب المشاهير من الملوك، ولما جاء كتابه خلواً من الملاحم التاريخية الهامة، وخاصة ملحمة الهكسوس وثورة المصريين ضدهم وطردهم من البلاد.

وهو أمر لا نظن أن المصريين قد نسوه، مهما طال العهد عليه، ولو جاز ذلك لما وقع على تلك الملحمة مؤرخنا الوطنى «مانيتو» بعد ذلك بما يقرب من قرن ونصف القرن، وليس لذلك كله من تعليل، سوى أن يكون هيرودوت قد اتصل بصغار الكهنة، أو أن يكونوا قد ضنوا عليه بأسرارهم[1]،

(١) أحمد بدوى، المرجع السابق، ص ٢٧-٢٨، ٣٢-٣٤؛ وكذا:
Herodotus, II, 100, 125, 154, 164.

وإن كان أول التعليلين أفضل، فيما نميل إليه ونرجحه.

ومنها (ثالثًا) أن رغبة هيرودوت في إظهار علمه، وإرضاء قرائه قد دفعه إلى وصف ما لم يكتب له رؤيته من الآثار المصرية، وإلى أن يكتب فيما لا علم له به، مع أن إقامته في مصر لم تتجاوز أشهراً أربعة، وهي فترة قصيرة في حدود إمكانات وسائل انتقالات عصره[1] ومنها، (رابعًا) أن هيرودوت[2] لم يكن يختلف كثيراً عن سائر بني قومه، أو عن غيرهم من الغرباء الطامعين في مصر، بدليل أنه لم يستسغ ثورة المصريين ضد الفرس في سبيل الحرية، بل ظل يمتدح الفرس، ويشيد بنبل مسلكهم، إزاء من أخضعوا من شعوب الأرض.

وبدهي أن تلك أمور أقل ما يمكن أن يقال فيها أنها تقلل من قيمة ما كتبه، ذلك الذي ادعى العلم والمعرفة والثقافة والتقوى وحصافة الرأي، حتى خدع قراءه دهراً، وحتى بات لديهم «أبو التاريخ» فأكثر الحقائق كانت يومئذ ماثلة أمامه، وأمور البلاد كانت عارية غير مستورة، والاحتلال الفارسي قد مهّد له سبيل الزيارة، وأتاح له ما لم يتح لغيره.

وهكذا يمكننا القول أن كتاب هيرودوت في جزئه الأول الذي ينتهي عند مطلع العهد الصاوي، يكاد يخلو من الحقيقة التاريخية، ومن ثم فلا يمكن الاعتماد عليه، سواء من ناحية ترتيب الأحداث التاريخية، أو من ناحية عدد الملوك وسني حكمهم، أما الشطر الثاني الذي افتتحه بعصر «بسماتيك الأول» (٦٦٤-٦١٠ق.م) فقد ظاهره فيه التوفيق، ذلك لأن رواته كانوا من الإغريق، وكانوا على صلة بفرعون الذي احتضنهم وأشركهم في بعض أموره، هذا فضلا عن أن هناك روايات كانت متداولة، يمكن الاعتماد عليها ـ مع كثير من الحذر ـ وفوق ذلك كله، فإن ما كتبه

(١) عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص ٢٤٢.

(٢) أحمد بدوي، هيرودوت يتحدث عن مصر، القاهرة ١٩٦٦، ص ٢٩-٣٠، وكذا:
Herodotus, II, 12.

هيرودوت عن مشاهداته الشخصية، وعن عادات المصريين وتقاليدهم، ووصف آثارهم، لذو قيمة كبيرة، إن نحن تناولناه بمزيد من الحذر[١].

أما فيما يتصل بالجغرافية، فإن هيرودوت يقدم بعض المعلومات القيمة، بخاصة فيما يتصل بالدلتا، أما فيما وراء الفيوم جنوباً، فإنه لا يذكر سوى مدن قليلة، مثل أخميم[٢]، وطيبة وسيين[٣]، وإليفانتين (جزيرة أسوان)، ثم «ثينوبوليس» الغامضة، ومن بين الأقاليم الثماني عشرة التي ذكرها، لا نستطيع تحديد أكثر من نصفها بسهولة، ومع ذلك فإن قائمته تحوي أسماء لا نجدها في غيرها من المصادر، وربما كان مرجع ذلك سوء فهم الواحد أو الآخر.

وأما روايته عن الديانة المصرية، فرغم ما تتسم به من إفاضة، فإنها تدعو لليأس، وقد ذكر بعض المعلومات عن الآلهة ـ آمون وبوباستس وإيزة وأوزير، بأسمائها المصرية، وإن فضل مقابلاتها اليونانية، لأنه إنما كان يعتقد أن الهيلينيين قد استقوا آلهتهم وأخيلتهم الدينية من مصر.

---

(١) أحمد بدوى، المرجع السابق، ص ٣٧، وكذا: Herodotus, II, 147-157.

(٢) أخميم: أو خمين عن أصل قديم يعني وجه المعبود «مين» أو واجهة معبده، وكان «مين» إلهاً لإخميم وقفط، وحامياً للقوافل، ورباً للسيول في الصحراء الشرقية، وهي الآن مدينة كبيرة في مقابل سوهاج عبر النهر، وكانت عاصمة الإقليم التاسع من أقاليم الصعيد، واسمها بالمصرية «آبو»، كما سميت «خنت مين» نسبة إلى معبودها «مين»، وهو أصل اسمها في القبطية «شمين» وسماها الإغريق «خميس» و«بانو بوليس» وعلى مقربة منها عدة جبانات على حافة الهضبة كمقابر الحواويش، وتنتمي إلى الدولة القديمة والوسطى، ومقابر «السلاموني» من العصر البطلمي والروماني، حيث يوجد في أعلى المقابر معبد منحوت من الصخر، يرجع إلى عهد «تحوتمس الثالث» على الأقل، ثم قام الملك «آي» بترميمه، فنسب إليه خطأ. (عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص٣٥؛ الموسوعة المصرية، ١/٨٥).

(٣) سين أو سوينى أو سيينى، وهو الاسم الإغريقي لمدينة أسوان الحالية، وكانت تدعى بالمصرية، منذ الأسرة العشرين «سونو» ثم تحور في القبطية إلى «سوان» و«سويان»، والاسم بمعنى السوق، إشارة إلى دور أسوان التجارى بين مصر والنوبة والسودان. (عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص٣٣).

(4) A.H. Gardiner , Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1964, p. 4.

وأما عن العادات المصرية القديمة، فقد أخطأ في الكثير منها، فمثلا ادعى أن النساء المصريات اعتدن أن يخرجن إلى الأسواق دون الرجال، وعلى أن يحملن البضائع فوق رؤوسهن دون الرجال، ولم يكن في ذلك الحكم العام شيء من الصحة، وإنما حدث اللبس عنده عندما شاهد صور النساء في مناظر المقابر والمعابد يحملن الهدايا والقرابين فوق رؤوسهن ويمشين بها في صفوف، فظنها تعبر عن الحياة الفعلية في عصور تصويرها، بينما لم تكن في حقيقة أمرها غير رموز مجسمة لأسماء الضياع والقرى والمدن التي امتلكها أصحاب المقابر والمعابد، وتمنوا أن تشترك بخيراتها في أداء القرابين الضرورية لمقابرهم ومعابدهم، ولما كانت أغلب الضياع والقرى والمدن أسماء مؤنثة، عبر المصريون عنها بصور الإناث، كما عبروا عن أسمائها القليلة المذكرة بصور الرجال[1].

٣ ـ هيكاتة الإبدري:

ينسب هيكاتة الأبدري إلى بلدة «أبديرا» في بلاد اليونان، وقد زار مصر حوالي عام ٣٢٠ق.م، على أيام «بطليموس الأول» (٣٢٣-٢٨٤ق.م) وقام بوضع كتاب عن مصر، فقد معظمه، تحدث فيه عن مصر بصفة عامة، وعن العقائد والأساطير الدينية المصرية بصفة خاصة، وقد اتسمت كتاباته بروح التعصب والتحيز لوطنه.

٤ ـ ديودور الصقلي:

قام ديودور الصقلي في عام ٥٩ قبل الميلاد برحلة سياحية لمصر، ولفترة قصيرة، ثم ألف كتاباً عن «التاريخ العام» منذ فجر التاريخ حتى حملة «يوليوس قيصر» على بلاد الغال في عام ٥٨ق.م، وقد أفرد الجزء الأول منه لتاريخ مصر، وهو يروى مرة أو اثنتين من تجاربه الشخصية، وأما مصادره

---

(١) عبد العزيز صالح، حضارة مصر القديمة وآثارها، الجزء الأول، القاهرة ١٩٦٢م، ص ٢٤٢.

الأصلية فكانت الكتاب الذين سبقوه مثل «هيكاته الأبدرى» و«أجاثارخيدس السفودى» الجغرافى المؤرخ (القرن الثانى قبل الميلاد)، ولم يستطع «ديودور» أن يتجنب الاستعانة بهيرودوت على نطاق واسع، وإن انساق وراء جمهرة نقاده[1].

هذا وقد تناول ديودور أوضاع مصر السياسية والاجتماعية والدينية، كما تناولها هيرودوت، ولكنه كان أكثر منه إنصافًا للمصريين، وأكثر فطنة فى تفسير عقائدهم وأساطيرهم، فكتب عما تواتر إليه من آرائهم فى نشأة الوجود وتعاقب المعبودات وعمران الكون، ثم يتبع هذا قسم مستفيض عن أرض مصر ونهرها والحياة الزراعية والحيوانية بها، وعن الفيضان وأسبابه، ثم يتحدث عن تاريخ مصر، فيسلم بأن «مينا» هو أول ملوكها، ثم يتحدث عن «طيبة» حديثًا مدعمًا بالمعالم القديمة البالغة الدقة لآثار «أوزيمانديا» (رعمسيس الثانى) المعروف اليوم باسم «الرمسيوم» فى طبة الغربية، وإن كان يؤخذ عليه أنه جعل تأسيس «منف» تاليًا لتأسيس طيبة ولحكم رعمسيس الثانى.

ومع ذلك فإن ما كتبه عن القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد يجعل كتابه بالغ الأهمية، فهو يقف فى هذا المضمار، جنبًا إلى جنب مع «ثيوسيديدس» و«إكسنفون» (٤٣٠-٣٥٥ق.م) كمؤرخ حجة، أما عن العصور القديمة فإن كثيرًا مما يرويه لا يمكن التحقق منه عن طريق مصدر آخر، ولما كان مؤلفه يعد تجميعًا، فإنه يصبح ذا قيمة لا تبارى.

وأيًا ما كان الأمر، فإن «ديودور» يمتاز باعتماده على الكثير من المصادر، وبحسن عرضه لآراء من سبقوه وبدقته ونزوعه إلى البحث عن الحقيقة، كما كانت له عبارات صائبة، مثل قوله «إن مصر حمتها الطبيعة من جميع جهاتها»، كما استطاع أن يقدر آثارها، ويقدر أصحاب الفضل

(1) A.H. Gardiner, op.cit., p. 5.

فيها تقديراً سليماً، فهو - مثلا - يرجع شهرة الأهرام إلى دقة مبانيها، ومهارة صناعتها وليس فقط إلى ضخامة مبانيها، وكثرة تكاليفها، ويعجب بمهندسيها أكثر من إعجابه بالملوك الذين أمروا ببنائها، ودبروا نفقات إنشائها، ذلك لأن الأولين إنما بذلوا من أرواحهم وجهودهم، وخلاصة أفكارهم، حتى تم إنجاز هذه الصروح الشامخة، بينما استغل الآخرون ذلك كله لمصلحتهم الخاصة[١].

٥ - سترابو:

سترابو، أو استرابون هذا من مواطني (بونتس) زار الإسكندرية حوالي عام ٢٥ قبل الميلاد، على أيام الإمبراطور «أغسطس» (٢٧ق.م - ١٤م) وأقام بها نحواً من خمس سنوات، ثم صحب صديقه الوالي الروماني «إليوس جالليوس» في حملة حتى الجندل الأول (حوالي عام ٢٥/٢٤ق.م)، وقد تحدث عن مصر في الجزء السادس عشر من مؤلفه «الجغرافية» Geographica[٢]، فوصف النيل ومصر، وإن اهتم كثيراً بالدلتا.

وكان اهتمام «سترابو» جغرافياً في الدرجة الأولى، فهو يبدأ بحديث موجز عن النيل، ثم يتابعه بوصف مفصل عن الإسكندرية والإقليم المتاخم لها شرقاً، ثم يتابع الكتابة بعد ذلك تبعاً للترتيب الطبوغرافي، وتنال أقاليم ومدن الدلتا حظاً من التفصيلات الكاملة، وهذا الضغط على الدلتا يستحق أكثر الترحيب، ذلك لأن الوثائق الوطنية عن الدلتا جد شحيحة في هذه

---

(١) عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص ٢٤٣؛ وهيب كامل، ديودور في مصر، القاهرة ١٩٤٧؛ وكذا:

A.H. Gardiner, op.cit., p. 5; A.F. Miot, Diodore de Sicile, Paris, 1834; W.G. Waddell, An Account of Egypt by Diodorus The Sicilian, in The University of Egypt, Bulletin of The Faculty of Arts, I, part I, 1933, p. 1-47, part 2, 1933, p. 161-28.

(2) The Geography of Strapo, Translated by Hamilton, London, 1912; The Geography of Strabo, Translated by H.L. Jones, 8 Vols., London, 1949.

لناحية، هذا وقد أشار «سترابو» كذلك إلى مقياس النيل فى «إليفانتين»[١]، وهو نموذج مشهور من طراز من الدرج كانت تسجل على جدرانها سنوياً لارتفاعات التى يصل إليها فيضان النيل، كما قدم لنا تفصيلات هامة عن المبانى والعبادات.

أما ملاحظاته على التاريخ والعادات الدينية فخاضعة للنقد الذى أشرنا إليه بالنسبة للمؤلفين السابقين، وإن كان يذكر له أنه أول من أشار إلى تمثالى ممنون، وإلى أن أحدهما كان يصدر عنه عند الفجر صوت كان يستطيع تمييزه الكثيرون من الزوار الإغريق والرومان، وأخيراً فلقد أفاد استرابو كثيراً من «أيراتو سثينيس» (٢٧٦-١٩٢ق.م) فى كتابه عن «الجغرافية»، وأما كتابه فى التاريخ الذى جمع مادته من كتابه فى الجغرافية، فلم يصل إلينا للأسف الشديد[٢].

٦ - بلوتارك الخيرونى:

يعد «بلوتارك الخيرونى» (٥٠-١٢٠م) من أصدق المؤرخين القدامى، وأكثرهم أمانة فى النقل، وقد ولد «بلوتارك» عام ٥٠م (وربما عام ٤٦م)

---

(١) إليفانتين: وتعرف الآن باسم جزيرة أسوان فى مقابل مدينة أسوان عبر النهر، ويعنى اسمها فى المصرية «فيل»، وقد نقل إلى اليونانية تحت اسم «إليفانتين» ونظر لتحكم جزيرة إليفانتين (يب) ومدينة أسوان فى مدخل مصر الجنوبى، أقيمت قلعة فى كل منهما، وكان «خنوم» سيد الشلال معبود إليفانتين (آبو = يب) الرئيسى، ومعه المعبودتان «عنقت» و«ساتت» وقد عثر فى خرائب المدينة على أطلال معابد كثيرة، أهمها معبد «خنوم»، ومعبد من الأسرة الثامنة عشرة، كما وجد خلفها مقابر حكام أسوان من عهد الدولة القديمة والوسطى. (انظر:
H. Goedick, ZAS, 81, 1956, p. 81-124; E.G. Kraeling, The Brocklya Museum Aramic Papyri, New Haven, 1963, p. 21.

(2) K. Baodeker, Egypt and Sudan, Leipzig, 1939, p. 345; A.H. Gardiner, op.cit., p. 6-7; B. Potter and R. L, B., Moss, Topographical Bibliography of Ancient Egyptian Hieroglyphic Texts Reliefs and Paintings, II, Oxford 1927, p. 160.

بمدينة «خيرونيا» في وسط بلاد اليونان، ثم أرسله أبوه حوالى عام ٦٦م إلى أثينا لدراسة الفلسفة وعلوم الطبيعة والخطابة، غير أنه برع في علم الأخلاق، ثم تنقل في بلاد كثيرة فزار روما وإسبرطة وكورنثة والإسكندرية وغيرها، وفي عام ٩٥م عين كاهناً بمعبد «أبو للون» بمدينة «دلفي» وبقي فيها حتى توفي عام ١٢٠م (وربما عام ١٢٧م).

وقد ألف بلو تارك (بلوتارخوس) كثيراً من الرسائل زاد عددها على الستين، سميت بالأخلاقيات. وتناول فيها موضوعات شتى في الأخلاق والدين والسياسة والفلسفة، كما ألف في الطبيعة والفلك والتاريخ الطبيعي والآثار والتراجم(١).

هذا وقد اهتم بلوتارك في كتاباته بالعقائد المصرية، واهتم بصفة خاصة بقصة «أوزير وإيزة» والتي كان قد رواها من قبل تيودور، فكتب كتابه «Die Iside et Osiride» الذي يروي فيه ـ بعد المقدمة ـ بلغة بسيطة، قصة «أوزير» الذي اغتاله أخوه الشرير «تيفون» (ست)، ثم انتقم له ولده «حور» الذي كانت أمه «إيزة» قد نشأته في عزلة خفية، وتتفق قصة بلوتارك هذه مع القصة التي يمكن بناء هيكلها من النصوص المصرية، وإن حملها بالكثير من التفصيلات التي استقى بعضها على الأقل من بعض مصادر مصرية لم تصل إلينا(٢).

وعلى أي حال، فقد كانت له ومضات طريفة في تفسير الديانة المصرية القديمة، وشطحات أخرى عنيفة، فمن الأولى ما رآه من أن القصة الأوزيرية لا ينبغي أن تؤخذ بحرفيتها، وأن لها كثيراً من الألوان كألوان «قوس قزح»(٣) المتعددة، وإن يكن في تصويره لهذه الألوان قد أصاب

(١) بلوتارخوس، إيزيس وأوزريس، ترجمة حسن صبحي البكري، ومراجعة محمد صقر خفاجة، القاهرة ١٩٥٨، ص ٣-٥.

(٢) بلوتارخوس، المرجع السابق، ص ٢٩-٣٩، وكذا: A.H. Gardiner, op.cit., p. 8-9.

(٣) ينشأ قوس قزح في السماء، أو على مقربة من مسقط الماء من الشلال ونحوه، وتكون في ناحية =

الحقيقة مرة، وأخطأها مرات، كما أننا آخر الأمر لا نستطيع أن نجزم بأن التفسيرات التي قدمها بلوتارك ليست من أصل مصرى[١].

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أنه ـ فضلا عمن ذكرنا من المؤرخين ـ إنما يوجد عدد كبير من الكتاب الذين اعتمدنا على كتاباتهم في دراسة التاريخ المصرى القديم، فهناك «أفلاطون» (٤٢٩-٣٤٧ق.م) الذى نلتقى في كتاباته من وقت لآخر ببعض الإشارات التي لا تخلو من أهمية فهو يعرف مثلا اسم «نيت» إلهة «سايس» (ساو = صا الحجر ـ مركز بسيون، بمحافظة الغربية)، كما يحدد تحديداً صحيحاً اختصاصات «تحوت» إله الآداب والعلوم والفلك، وكذا لعبة «الداما»[٢].

وهناك كذلك «بلينى الأكبر» (٢٣-٧٩م) صاحب موسوعة «Historia Naturalis»[٣]، وهى تجميع ضخم لقدامى المؤلفين، نالت مصر فيها نصيبها الوافى، وعلى أى حال، فالرجل يعد حجة في جغرافية مصر.

وهناك «كلوديوس بتولمايوس»، وهو من مدينة «بطلمية»[٤]، وقد قام

=

الأفق المقابل للشمس، وترى فيه ألوان الطيف متتابعة، وسببها انعكاس أشعة الشمس من رذاذ الماء، وقد أخطأت التوراة (تكوين ٩: ١٣-١٥) عندما رأت أن الله سبحانه وتعالى أنشأها لتكون تذكرة له بألا يعود إلى إغراق الأرض أبداً، بعد طوفان نوح المشهور، وقزح من أسماء الشيطان، ولهذا نهى رسول الله، ﷺ، عن هذه التسمية، مؤثراً تسميتها «قوس الله».

(١) عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص ٢٤٣-٢٤٤؛ بلوتارخوس، المرجع السابق، ص٣٩-٤١؛ وكذا: A.H. Gardiner, op.cit., p. 9.

(2) A. H. Gardiner, op.cit., p. 4.

(3) Pliny, Natural History, Translated by H. Rockham, London, 1967-1957.

(٤) بطلمية: ثانى مدينة إغريقية أقيمت في مصر بعد الفتح المقدونى (نقراطيس ـ الإسكندرية ـ بطلمية)، على أطلال مدينة مصرية تدعى «سوى» أو «بسا»، وقد أطلق عليها في عهد البطالمة «بسى بطليموس» أى «بسى» التي أنشأها بطليموس، وأصبحت في عهد «كلوديوس بتولمايوس» عاصمة مقاطعة ثنى، وكانت تتمتع بكافة مظاهر نظم المدن الإغريقية، وتقع أطلالها الآن تحت مدينة المنشأة، على مبعدة بضعة كيلو مترات جنوبى مدينة سوهاج. (Ptol, II, 5, 66)

بأبحاثه خلال النصف الأول من القرن الثانى الميلادى (١٢١-١٥٠م)، وقد أخرج كتابه فى الجغرافية، حوالى عام ١٥٠م، والمعروف باسم «جغرافية بطليموس»[١]، غير أن الأجزاء التى تناولت مصر والنواحى المتاخمة لها فى هذا الكتاب قصيرة، وتحوى أساساً قائمة من المقاطعات فقط، ومع كل مقاطعة دائرتها الإقليمية، وأخيراً كان «كليمنت السكندرى» (١٥٠-٢١٥م) والذى كتب فى الديانة المصرية وطقوسها ومواكبها، وفى الرموز الهيروغليفية ومفهوماتها[٢].

ثالثاً ـ المصادر الأجنبية المعاصرة

تمثل المصادر المعاصرة فى منطقة الشرق الأدنى القديم ـ وخاصة منذ نهاية الدولة القديمة وحتى نهاية التاريخ الفرعونى ـ ثالث المصادر التاريخية لتاريخ مصر القديم، ذلك لأن مصر إنما كانت لها علاقة ببلدان هذه المنطقة فى فترات من تاريخا، وخاصة فى عصر الدولة الحديثة، فتبادل حكامها مع الفراعين رسائل كثيرة، اختلفت فى عصور السلام عنها فى عصور الحرب، ففى الأولى نجد الود والاحترام المبالغ فيه، إن لم يكن الخضوع والتذلل، وفى الثانية نجد ادعاءات مبالغ فيها كذلك، وواجب الباحث إزاء هذه الكتابات مقارنتها بما يعاصرها فى مصر، فهى ـ شأنها فى ذلك شأن أمثالها فى مصر ـ تبالغ فى النصر التافه فتحيله إلى نصر عظيم، كما أنها تخفى الهزائم أحياناً، إن لم تحيلها إلى نصر مبين، ومن المقارنة بينها جميعاً يستطيع الباحث أن يتبين ـ ولو بقدر ـ الحقائق التاريخية.

هذا إلى أنها إنما تعين الباحث كذلك على تعيين عهود الفراعين بالنسبة إلى من عاصرهم من ملوك الشرق وأمرائه، كما أن هذه الرسائل المتبادلة إنما تعطى فكرة عن العلاقات الدولية والحالة الحضارية لهذه المنطقة

(1) Ptolemy , Geographia, Edited by C.F. Neibble, 3 Vols., 1843-1845.

(٢) عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص ٢٤٤؛ وكذا: A.H. Gardiner, op.cit., p. 8-9.

الهامة من العالم إبان كتابتها[١].

ولعل من أوضح الأمثلة على ذلك ما عرف باسم «رسائل العمارنة» التى عثر عليها عام ١٨٨٧م فى أطلال مدينة العمارنة، فى المبنى الذى كانت تحفظ فيه المراسلات الملكية، وهى مكتوبة بالخط المسمارى على لوحات من الطين المجفف، وليس من شك فى أهمية هذه الرسائل والمراسلات الملكية، ذلك لأنها إنما تعتبر من أهم المصادر الأساسية المعاصرة فى دراستنا لحالة الإمبراطورية المصرية فى أخريات أيام «أمنحتب الثالث» وطوال عهد ولده إخناتون[٢].

رابعاً ـ المصادر اليهودية

١ ـ التوراة.

٢ ـ كتابات المؤرخ اليهودى «يوسف بن متى».

وكلاهما لا يمثل قيمة تاريخية كبيرة فى موضوع دراستنا هذه «الثورة الاجتماعية الأولى» وذلك لأن التوراة[٣] ـ رغم كل ما فيها من عيوب كمصدر تاريخى ـ فإنها لم تكتب إلا بعد هذه الأحداث بأكثر من عشرين قرناً، وأن «يوسف بن متى» (حوالى ٣٧-٩٨ أو ١٠٠م) ـ أى بعد هذه الأحداث بحوالى ٢٥ قرناً، هذا فضلا عن أن كلا من المصدرين ليس مرجعاً عن هذه الثورة.

---

(١) انظر: محمد بيومى مهران، الثورة الاجتماعية الأولى فى مصر الفراعنة، الإسكندرية ١٩٦٦، ص٢-٣.

(٢) قدّم المؤلف دراسة مفصلة عن «رسائل العمارنة»، انظر: محمد بيومى مهران، إخناتون، القاهرة ١٩٧٩، ص ٢٣٣-٢٤٥.

(٣) قدّم المؤلف دراسة مفصلة عن التوراة» فى كتاب مستقل فى (٤٥٧ صفحة)، انظر: محمد بيومى مهران، إسرائيل، الكتاب الثالث، الحضارة، التوراة، الإسكندرية ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م؛ وانظر: الطبعة الجديدة التى صدرت فى عام ١٩٩٩م.

ثانياً ـ المصادر الخاصة بموضوع البحث
(الثورة الاجتماعية الأولى)

تنقسم مصادر تاريخ «الثورة الاجتماعية الأولى» إلى قسمين اثنين: المصادر الأثرية، والوثائق الرسمية والخاصة.

أولا ـ المصادر الأثرية:

من المعروف تاريخياً أن هذه العصر ـ عصر الثورة الاجتماعية الأولى ـ إنما يكاد ينفرد من بين عصور التاريخ المصرى القديم، بأنه عصر يغشاه الظلام المطبق، حتى أننا لا نكاد نعثر منه على أثر قوى واضح، ينير لنا السبيل، فالأثار المادية شحيحة ـ إن لم تكن نادرة ـ حتى أن الأسرتين ـ السابعة والثامنة ـ تكاد تمر الواحدة منهما تلو الأخرى، دون أن تخلف أثراً يشير إلى إحداهما، اللهم إلا بعض «الجعول» التى تحمل اسم «نفر كارع» ـ الذى يزعمون أنه من ملوك الأسرة السابعة ـ.

هذا فضلا عن أثر إسطوانى من «اليشم الأخضر»، عليه رسم سورى على الطراز المصرى، ويحمل اسم «خندو» ـ الذى يزعمون أنه من ملوك الأسرة الثامنة ـ فضلا عن «خاتم» باسم ملك، هو «نفر ـ كارع ـ تررو»، يصف نفسه بأنه «سيد الشمال»، الأمر الذى يدل على أن حكم هذا الملك لم يشمل مصر جميعاً، وإنما ظل حكمه فى شمال الوادى، دون سواه.

وهناك مرسوم أصدره الملك «نفر ـ كاو ـ حور» يقدم فيه الشكر جزيلاً، لموظف يدعى «شميع» ـ مما يشير إلى صلاته بسورية ـ عن رعايته لبعض الأوقاف فى الصعيد[1]، هذا إلى جانب آثار قليلة أخرى.

هذا وقد حفظت فى «معبد الإله مين» فى مدينة «قفط»[2] بضعة

---

(١) نجيب ميخائيل، مصر، (الإسكندرية ١٩٦٦م)، ١/٢٦٠.

(٢) قفط: كانت «قفط» آخر ثلاثة عواصم للإقليم الخامس «نتروى» ـ أولها «نبت» أو «نوبت»

=

مراسم منحها آخر ثلاثة من ملوك الأسرة الثامنة «واح» (كا رع، خع باوو)، و«نفر ـ كاو ـ حور» (نترى باوو)، و«نفر ـ كا ـ رع» (حور ـ دمج ـ إيب تاوى)، وقد صدرت هذه المراسم لمصلحة الأساس الجنزى لمعبد «الإله مين» فى مدينة قفط، فضلا عن مصلحة الأسرة المحلية الحاكمة فى قفط، على أن أكثر هذه المراسيم إنما كانت لمصلحة اثنين من الحكام، هما : «شيماى» وولده «إيدى»(١).

وهناك ـ من العصر الإهناسى ـ (الأسرتين التاسعة والعاشرة) ـ بعض آثار معاصرة ـ وإن كانت لا تمد الباحث بما يريد من معلومات عن هذا العصر ـ أو حتى بعض الذى يريد ـ بغية أن نرسم صورة واضحة عن الأحداث التاريخية فى مصر ـ إبان هذه الفترة ـ فهناك من عهد الملك «ختى الأول» (واح كارع) تابوت دقيق الزخرف، عثر عليه فى «البرشا»

=

ـ ربما بمعنى الذهبية لقربها من مصادر الذهب فى الصحراء الشرقية ـ لم سماها الأغارقة «أمبوس»، وقامت على أطلالها ـ أو قريبا منها ـ مدينة «طوخ» الحالية، وثانيهما: مدينة قوص، على مبعدة ٣٥ كيلا جنوبى «قنا». وسميت «قفط» فى المصرية «جبتو» ـ أو «جبتيو»، وفى الإغريقية «كوبتوس» وفى القبطية «قفط» و«قبط»، وعند العرب «قفط»، وتقع على مبعدة ٢٢ كيلا جنوبى قنا ـ فى مقابل مدينة «نوبت» عبر النهر تقريبا ـ وقفط الآن إحدى مراكز محافظة قنا.

وكانت قفط» ذات أهمية دينية واقتصادية طوال العصور الفرعونية، لأنها مركز رئيسى لعبادة الإله «مين» ولوقوعها عند بداية الطرق الموصلة إلى محاجر الصحراء الشرقية، وقد احتلت مركزا هاما فى بداية عهد الثورة الاجتماعية الأولى، حتى ذهب البعض إلى أن الأسرة الثامنة إنما قامت فى «قفط» ـ كما سنرى ـ . (انظر: محمد بيومى مهران، المدن الكبرى، العواصم الإقليمية، الإسكندرية ١٩٩٩م؛ مصر ١/٢٦٥-٢٦٦، ٣٢٣، ٢/٣٣٣؛ الحضارة المصرية القديمة ٢/١٥٩-١٦٠؛ جيمس بيكى، الآثار المصرية فى وادى النيل ٢/٢٠٩-٢١٩؛ وكذا:

A.H. Gardiner, Onom, II, p. 27-29; H.Gauthier, Dictionnaire des noms Geographiques, III, p. 83, 109, V, p. 173-175; P. Lacau et H. Chevrier, Une Chapelle de Sesostris, Ier a Karnak, 1956, p. 224; W.M. F. Petrte, Koptos, London, 1896.

(1) W.C. Hayes, The Coptes Decrees, JEA, 32, 1946, p. 3-33.

يبدو أن خراطيشه كتبت عليه فى مكان اسم صاحب التابوت الأصلى، وهو «مندوب خراج» يدعى «تفرى».

هذا وهناك من عهد «ختى الثانى» (مرى - إيب - رع) موقد نحاسى فى متحف اللوفر، وعصا من الأبنوس، عثر عليها فى «ميرا» - مركز القوصية، بمحافظة أسيوط - ثم أشياء أخرى قليلة، وعديمة الأهمية[1].

هذا ومايزال المتحف المصرى بالقاهرة، يملك تمثالا للملك «مرى - كا - رع» - من ملوك الأسرة التاسعة - وهو صاحب الوصية المشهورة التى تركها له والده.

ولعل من الجدير بالإشارة، أنه من بين الآثار الهامة التى تقترن بذلك العصر، ظهور «الجعارين»، هذا إلى أن توابيت هذا العصر - عصر الانتقال الأول، أو عصر الثورة الاجتماعية الأولى - إنما تعتبر من خير ما يستشهد به من آثاره - سواء من النواحى الفنية التى تمثلت فيها، وعبرت بها عن روح عصرها - أو من حيث النصوص التى تضمنتها، وعبرت عن عقائد أصحابها[2].

هذه هى أهم الآثار المعاصرة، التى تركها «عصر الانتقال الأول»، ومن هنا فقد اعتمد المؤرخون فى كثير من معلوماتهم - بجانب الوثائق الأدبية، والتى تأتى فى المرتبة الأولى، كمصدر تاريخى لهذه الفترة - على مقابر النبلاء، وحكام الأقاليم، ذلك لأن كثيراً من أمراء الأقاليم، إنما استمروا يدفنون على مقربة من بلادهم، ومن ثم فقد وجدنا كثيراً من مقابر ذلك العصر، منحوتة فى الصخر - فى مصر الوسطى والعليا - أى فى الصعيد.

ولعل أهم مقابر حكام الأقاليم، إنما نجدها فى مناطق: زاوية الأموات

---

(1) A.H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1961, p. 112.

(٢) عبد العزيز صالح، حضارة مصر القديمة وآثارها، الجزء الأول، القاهرة، ١٩٦٢، ص ٤١٩.

وبنى حسن والبرشا (بمحافظة المنيا) ودير الجبراوى وميروأسيوط (بمحافظة أسيوط) والهجارسة وأخميم (بمحافظة سوهاج)، فضلا عن «المعلا» (بمحافظة قنا)، والكاب وإدفو وشط الرجال، وأبو وأسوان (بمحافظة أسوان) ـ وهاك فكرة مختصرة عن بعضها:

١ ـ المعلا. ٢ ـ مير. ٣ ـ البرشا. ٤ ـ بنى حسن

(١) مقبرة المعـــــلا:

قامت هذه المقبرة فى مدينة «المعلا»، على الضفة الشرقية للنيل، وعلى مبعدة ١٦ كيلا شمالى إسنا ـ عبر النهر ـ ، ٣٢ كيلا جنوبى الأقصر.

وعرفت «المعلا» فى العصر الفرعونى باسم «حفات» ـ أى مدينة الحية ـ وقد أصبحت فى العصر اليونانى عاصمة لإقليم مستقل ـ بعد أن كانت تابعة لإقليم «نخن» الإقليم الثالث ـ ويسمى هذا الإقليم الجديد «مشرق حور»، تمييزاً له عن إقليم «غرب حور» الذى كانت عاصمته «حاس ـ فون» (أصفون المطاعنة) ـ وكانت هى أيضاً تتبع إقليم نخن ـ هذا وكان «عنخ ـ تيفى» ـ صاحب المقبرة ـ هو الرئيس الأكبر، حاكم إقليم نخن Ankhtify, The Great Chieftain (or Nomarch) of The Nekhen, The Third Nome of Upper Egypt (Hiera Conpolis)[1] ـ (البصيلية ـ إدفو ـ أسوان) ـ على مبعدة ١٧ كيلا شمالى إدفو ـ.

هذا وقد تأخر نشر هذه المقبرة، لأن نصوصها صعبة ومعقدة، فيها غموض يكاد يشبه غموض العصر الذى دونت فيه، ومن ثم فلم تتم ترجمة كاملة لها، وإنما مسها الناس مساً خفيفاً[٢]، حتى قام «جاك فاندييه» بنشرها فى عام ١٩٥٠م فى القاهرة[٣].

(1) A.H. Gardiner, op.cit., p. 111.

(٢) أحمد بدوى، فى موكب الشمس ٢/١١؛ وكذا: A.H. Gardiner, op.cit., p. 111.

(3) J.Vandier, La Tombe d'Ankhtifi a Mo'alla, Cairo, 1950.

يتحدث «عنخ - تيفى» - فى نصوص قبره هذا - عن حرب دارت رحاها بين أقاليم الصعيد الأعلى، فلقد انقسم الصعيد وقت ذاك على نفسه إلى فريقين متخاصمين، الواحد : بزعامة «عنخ - تيفى» ويضم الأقاليم الثلاثة الجنوبية (نخن وجبا وآبو = البصيلية وإدفو وأسوان : أى ما يعادل محافظة أسوان الحالية)، والثاني: أقاليم طيبة وقفط، وربما دندرة[1].

وهناك ما يشير إلى أن الحرب قد انتهت بانتصار طيبة - ومن والاها من إقليم قفط ودندرة - رغم أن نصوص مقبرة «عنخ - تيفى» فى المعلا، لم تشر إلى نتيجة الحرب، وربما كان هذا هو الدليل، على أن النصر لم يكن فى جانب «عنخ - تيفى»، وإنما كان فى جانب أعدائه.

هذا، وقد اختلف المؤرخون فى التأريخ لمقبرة المعلا هذه، وبالتالى فى التأريخ لهذه الحرب التى ذكرتها المقبرة، وهل سبقت التنافس الحربى بين إهناسيا وطيبة؟ أم تخللته؟، ومن ثم فقد رأى البعض أن الحرب قد وقعت على أيام الأسرة الثامنة، بينما يرى آخرون أنها وقعت على أيام الأسرة العاشرة الإهناسية.

يذهب الفريق الأول (بدوى، جاردنر، دريوتون وفانديبه) أن تاريخ المقبرة يجب أن يكون فى أيام الأسرة الثامنة، وأن نقوش المقبرة إنما تضع صاحبها «عنج - تيفى» بين أوائل وثائق ذلك العصر، لأن الأحداث التى تناولتها، إنما تقع فى عصر سابق لأسرة «أنيوتف»[2].

ويكاد «ونلوك» أن يضعها فى الأسرة الثامنة، ذلك أنه: إنما يتحدث عن «إيدى بن شيماى» وأن الفرعون «نترى باو» - من الأسرة الثامنة - قد أعطاه سبعاً من المقاطعات - من أسوان (إليفانتين) وحتى «ديوس بارفا» (هو - على مبعدة ٥ كيلا جنوب نجع حمادى) - ثم يقول : إننا لا نعلم عن

(١) أحمد فخرى، مصر الفرعونية، ص ١٦٩.

(٢) أحمد بدوى، فى موكب الشمس، ١١/٢.

هذه المقاطعات السبع (إليفانتين ـ جبا ـ نخن ـ طيبة ـ قفط ـ دندرة ـ هو) أكثر من أنها إنما كانت كتلة واحدة تحت حكم «قفط» (جبتيو) فى نهاية الدولة القديمة، وأن أقاليم أسوان (إليفانتين) وإدفو والبصيلية (نخن) قد ثارت ضد طيبة وجيرانها ـ كما نعلم من مقبرة المعلا ـ وقد أدى ذلك إلى تمزق شمل أرض الجنوب إلى ولايات صغيرة[١] ـ أى أن هذا التمزق إنما قد حدث فى أعقاب الدولة القديمة ـ أى فى الأسرة الثامنة ـ وإن لم يؤكد ذلك صراحة.

ويذهب الفريق الثانى إلى أن هذه الحرب إنما كانت فى العهد الإهناسى، ويذهب الدكتور أحمد فخرى إلى أن «عنخ ـ تيفى» إنما ظل ـ حتى بعد انتهاء هذه الحرب ـ واليًا على أقاليمه الثلاثة ـ وأنه ظل كذلك مواليًا لبيت إهناسيا، وأنه قد عاش فى أيام الأسرة العاشرة ـ فى عهد ثانى ملوكها «نفر كارع»، والذى ورد اسمه فى المقبرة ـ[٢] هذا ويذهب «جاك فانديبه» إلى أن الملك «نفر ـ كارع» ـ المذكور فى المقبرة ـ إنما يسبق مباشرة «خيتى» الثانى ـ من ملوك الأسرة العاشرة الإهناسية ـ وقد تولى العرش حوالى عام ٢١٥٠ق.م ـ أى بعد وصول «الحر سهر تاوى ـ أنيوتف الأول» إلى السلطة، بحوالى عشر سنوات.

وهكذا فإن البيانات التى يمدنا بها الخط، ودراسة الصيغ، يؤيدها «الإهليج» الوحيد الذى تحتويه نصوص المقبرة، ومن المحتمل ـ كل الاحتمال ـ أن «عنخ ـ تيفى» إنما كان يعيش، فيما بين عامى ٢٢٠٠، ٢١٤٠ق.م، تقريبًا، وفى هذه الفترة لم تكن الأسرة القفطية ـ الأسرة الثامنة ـ سوى ذكرى بعيدة، فلقد انتقلت السلطة من «قفط» إلى «طيبة» حوالى عام ٢٢٥٠ق.م.

---

(1) A.H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1961, p. 111.

(٢) إيتين دريتون وجاك فانديه، مصر، ترجمة عباس بيومى، القاهرة ١٩٥٠، ص ٢٤١.

هذا وتثبت لنا كتابات المعلا، أن القوم لم يتمكنوا من توحيد المملكة الطيبية، إلا مقابل حروب عنيفة بين ملوك طيبة - ذوى المطامع - وبين المقاطعات الثلاث التى هى أقصى مقاطعات مصر فى الجنوب (إليفانتين - جبا - نخن)[1].

هذا ويذهب «وليم هيز» (١٩٠٣-١٩٦٣م) إلى أن تاريخ المقبرة فضلا عن الحرب، إنما كان فى الأسرة العاشرة، لأنه يرى أن «عنخ - تيفى» إنما قد نجح فى لمّ شعث الأقاليم الثلاثة الجنوبية من مصر العليا (الصعيد) فى مصلحة الملك الإهناسى «نفر - كارع» - من الأسرة العاشرة[2].

والرأى عندى: أن أحداث المعلا، إنما تقع - كما يرى الفريق الأول - فى أوائل عهد الانتقال الأول، على أيام الأسرة الثامنة.

٢ - البرشـــا:

البرشا: جبانة الأشمونين - الإقليم الخامس عشر - وتقع البرشا على الضفة الشرية للنيل - حيث اختار أمراء الأشمونيين[3]، موقع مقابرهم فى

(1) H.E. Winlock, The Rise and Fall of The Middle Kingdom in Thebes, New York, 1947, p. 23.

(2) W.C. Hayes, The Scepter of Egypt, I, New York, 1953, p. 138.

(٣) الأشمونين: عاصمة الإقليم الخامس عشر (أونو - ونو - ونوت) - أى إقليم الأرنب - ويمتد حوالى ٤٨ كيلا شرق وغرب النيل، وتقع الأشمونين على مبعدة ١٠ كيلا شمال غرب ملوى (٤٥ كيلا جنوب المنيا، ٣٠٠ كيلا جنوب القاهرة.

وسميت الأشمونين فى المصرية «خمنو» أو «خمون» - بمعنى مدينة الثمانية - وهو أصل تسميتها فى القبطية «شمنو - أوشمون»، كما سميت فى المصرية كذلك «بر - جحوتى» - بمعنى مقر المعبود «جحوتى» (تحوت) - معبودها الرئيسى - وهو اسمها الدينى، واسمها المدنى فهو «ونوت» وأسماها الأغارقة «هرموبوليس ماجنا» - أى مدينة هرمس الكبرى - تمييزاً لها عن «هرموبوليس بارفا»، أى الصغرى، وهى دمنهور، عاصمة البحيرة - وذلك عندما ماثلوا بين «تحوت» - إله الحكمة والكتابة والعلم عند المصريين، وبين معبودهم «هرمس»، وقد عبدت فى هذا الإقليم - إلى جانب «تحوت» - المعبودة ونت - التى تنسب إليها تسمية الأشمونين «ونوت»، وكانت على شكل ثعبان.

=

الجهة البحرية من وادى صخرى فى التلال الواقعة خلف «دير البرشا» (دير النخلة) - على مبعدة ١١ كيلا من الأشمونين - عبر النهر - فى خط مستقيم.

هذا وأهم مقابر البرشا (مركز أبو قرقاص - محافظة المنيا) إنما هى «مقبرة تحوت حتب» - والى الأشمونين على أيام الملك «سنوسرت الثالث» (١٨٧٨-١٨٤٣ق.م)، وفيها المنظر المشهور، الذى يمثل نقل تمثاله الكبير، الذى أذن له الفرعون بإقامته فى مقبرته، وقد بلغ ارتفاعه قرابة سبعة أمتار، ووزنه ٦٠ طناً، وتكفل بنقله ١٧٢ رجلاً.

ويصف «تحوت حتب» نقل هذا التمثال الضخم، بأن الطريق من المحاجر إلى مكان إقامته، إنما كان صعباً، وأن قوى الرجال سوف تخور - إن استمروا فى نقله على هذا الطريق - ومن ثم فقد أنشأ طريقاً جديداً، وأن سكان المدينة قد تجمعوا عند نقل التمثال - راضين غير مكرهين - وأن ذلك قد أسعد «تحوت حتب» كثيراً، خاصة وقد كان من بين المتطوعين رجلا هرماً، كان يستند على طفل، وأن الجميع إنما كانوا يصفقون ويغنون[١].

وكانت الأشمونين مركزاً دينياً هاماً منذ فجر التاريخ، ونشأت فيها المدرسة الثانية من مدارس النشأة الأولى للخليقة فى مصر القديمة (مدارس عين شمس والأشمونين ومنف وطيبة). (انظر: جيمس بيكى، الآثار المصرية فى وادى النيل، ٨٢/٢-٨٦؛ محمد بيومى مهران، الحضارة المصرية القديمة ٣٠٣/٢-٣٠٦)؛ وكذا:

A. Gardiner, Onom,II, p.79-83; H. Gauthier, op.cit., IV, p.176; JEA, 28,p.23.

(١) محمد بيومى مهران، مصر، (الإسكندرية ١٩٨٨م)، ٣٦٥/٢؛ وكذا: جيمس بيكى، المرجع السابق، ص ٨٩-٩٠؛ وكذا:

A. Weigall, Guide to The Antiquities of Upper Egypt, p. 77-78; P.E. Newberry, El-Bersheh, London 1895, p. 15; P. Weill, Foiulles a Tounah et Zaouiet - Maietin, Paris, 1912.

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أنه فى العصر المتأخر أصبحت «تونا الجبل» (حسرت فى المصرية، حاسروا فى القبطية، ثم تونى فيما بعد) ـ وتقع على مبعدة ١٢ كيلا جنوب غرب الأشمونين، على حافة الصحراء ـ جبانة الأشمونين.

وقد كشفت الحفائر هناك عن مدينة كاملة للموتى، ترجع إلى الفترة، فيما بين العصر الفارسى، وحتى العصر البطلمى، ولعل أهم معالمها «الجبانة الكبيرة للطيور المقدسة والقردة» ـ رمز تحوت ـ حيث عثر على آلاف المومياوات للطائر «أبو منجل»، والقرود المحنطة، داخل توابيت حجرية صغيرة أو أوانى فخارية.

هذا وقد قام الأثريان الإنجليزيان «فرانسيس لولين جريفث» (١٨٦٢–١٩٣٤م) و«برسى إدوارد نيو برى» (١٨٦٩–١٩٤٩م) بنشر نصوص مقابرها فى لندن فى عام ١٨٩٥م فى (Archaeological Survey of Egypt (edited by F.L. Griffith) وذلك فى جزأين، قام «نيوبرى» بنشر الجزء الأول، واشترك الأثريان ـ نيوبرى ـ جريفث) فى نشر الجزء الثانى.

٣ ـ بنى حسن:

تقع «بنى حسن» ـ نسبة إلى قبيلة عربية، سكنت هناك، فسميت المنطقة باسمها ـ على مبعدة ١٠ كيلا جنوب زاوية الميتين، ٢٠ كيلا جنوب المنيا ـ عبر النهر ـ وأمام مدينة أبو قرقاص، وهناك على الضفة الشرقية للنيل تقع جبانة أمراء الإقليم السادس عشر (ما ـ حج ـ إقليم الوعل (الغزال)...

وكانت عاصمة الإقليم «حبنو»، وهى موضع خلاف على مكانها، فهى: إما مدينة المنيا، أو السوداء الحالية ـ على سفح المنحدر الذى يضم مقابر زاوية الأموات (زاوية الميتين) أو زاوية الأموات نفسها ـ على مبعدة ٢

كيلا شمال الكوم الأحمر ـ أو الكوم الأحمر نفسها، أو في مجاوراتها ـ وإلى الجنوب من زاوية الأموات، على الضفة الشرقية للنيل ـ على مبعدة ١٠ كيلا شمال شرق المنيا ـ عبر النهر ـ أمام قرية «المطاهرة» على الضفة الغربية.

وعلى أية حال، فمقابر بني حسن تتكون من سلسلة من المقابر الصخرية، التي تمتد لبضعة أميال على طول واجهات الهضاب، أمام شاطئ النيل الشرقي ـ فيما بين قريتي شرارة، وأتليدم.

ولعل أهم هذه المقابر، تلك التي ترجع إلى عهد الأسرة الثانية عشرة (١٩٩١-١٧٨٦ق.م) وتقع أمام أبو قرقاص مباشرة، وتعتبر في مجموعها أثراً رائعاً للحضارة المصرية في عصر الدولة الوسطى، ولعل من أهمها مقابر الأمراء: إميني، وخنوم حتب الثاني، وباقت، من أيام سنوسرت الأول (١٩٧١-١٩٢٨ق.م) وسنوسرت الثاني (١٨٩٧-١٨٧٧ق.م).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة هنا إلى «اسطبل عنتر» (سبيوس أرتميدس)، ويقع على مبعدة ٣ كيلا جنوب مقابر بني حسن، وهناك هيكل منحوت في الصخر، في مدخل واد هناك، وجدرانه مغطاة بنقوش ملونة.

هذا ويرجع كل من المعبد والهيكل إلى عهد الملكة «حتشبسوت» (١٤٩٠-١٤٦٨ق.م). وأما معبود الإقليم فهو «حور»، يظهر في العصر المتأخر، جاثماً فوق ظهر الوعل[1].

(١) محمد بيومي مهران، مصر ٦٠/٢؛ الحضارة المصرية القديمة ١٦٥/٢؛ جيمس بيكي، المرجع السابق، ص ٥٧-٨٠؛ زبيدة محمد عطا، إقليم المنيا في العصر البيزنطي، القاهرة ١٩٨٢، ص ١٣-١٤؛ الموسوعة المصرية ١٦٠/١، ٢٥٨؛ وكذا:

H.Gauthier, op.cit., III, 36-37; R. Weill, Fouilles a Tounah et a Zaouiet Maietin, Paris, 1912; Griffith (F.L.), Beni Hassan, 4 Vols, London, 1893-1900; E. Amelineau, La Geographie de L'Egypte a l'Epoque Copte, Paris, 1895, p. 140, 257; P. Lacau et H. Chevrier, Une Chapelle de Sesostris 1er, a Karnak, Le Caire, 1956, p. 229; A.H. Gardiner, Onom, II, p. 90-92.

٤ ـ ميـــــر:

مير ـ ميرية أو مرية ـ وهى فى القبطية «ميرا» بمعنى الشاطئ أو الجرف أو الجسر[(١)].

وفى العصور القديمة «مرية»، وذكرها المقريزى فى خططه باسم «ميرة»، وقال: إنّ ميرة غرب القوصية، هذا وقد وردت «ميرا» فى «معجم البلدان» باسم «مَسْيَرا» ـ وكذا فى تاج العروس، وفى الكشاف ـ وهذا خطأ، وكل ما خالف اسم «ميرا» فهو خطأ، ووردت «ميرا» فى قوانين «ابن مماتى»، وفى تحفة الإرشاد أنها من أعمال الأشمونين.

وتقع على مبعدة ١٢ كيلا، غربى القوصية ـ بمحافظة أسيوط ـ عند حافة الجبل، غربى «صنبو» وكذا قصير العمارنة ـ فى مقابل القوصية ـ عبر النهر ـ.

هذا وتتكون جبانة أمراء القوصية (قيس فى المصرية، كوساى فى الإغريقية، قوص قام فى القبطية) ـ على مبعدة ٦٠ كيلا شمال أسيوط ـ وتتكون من «ميرا» و«قصير العمارنة»، وذلك فى عصر الدولة الوسطى.

هذا وقد كشف فى الجبانتين ـ مير وقصير العمارنة ـ ١٧ مقبرة لحكام القوصية وموظفيها، منها ١٥ مقبرة فى «ميرا»، ومقبرتان فى «قصير العمارنة».

وتشير «مقابر ميرا» إلى أن نظام الوراثة فى حكم هذا الإقليم (الرابع عشر ـ نجفت بحت ـ وفى العصور المتأخرة ـ إتف بحو) إنما هو المتبع منذ إمارة «نكا ـ عنخ» ـ من أمراء الأسرة الخامسة ـ ثم تعاقب على حكم الإقليم ـ فى الأسرة السادسة ـ ستة أمراء بالوراثة، كان أهمهم «ببى عنخ الأوسط»، والذى وصل إلى منصب الوزارة ـ الأمر الذى سبقه إليه أخوه

---

(١) عبد العزيز صالح، حضارة مصر القديمة وآثارها ١/٣٦.

الأكبر «ببى عنخ الأكبر»، وإن كان لقب الوزارة إنما كان وقت ذاك، لقباً شرفياً أكثر منه فعلياً.

وفى أوائل عهد الأسرة الثانية عشرة (١٩٩١-١٧٨٦ق.م) زادت مكانة حكام القوصية، حتى قيل إن الملك «أمنمحات الأول» (١٩٩١-١٩٦٢ق.م) قد تزوج ـ عندما كان وزيراً لآخر ملوك المناخة ـ ابنة حاكم القوصية «سنوسرت ـ واح كا»، وأن «أمنمحات الأول» قد أعطى ولده «سنوسرت الأول» الانبم العائلى للأسرة الحاكمة فى القوصية.

بقيت الإشارة إلى أن «إقليم القوصية» («نجفت ـ بحت» ـ إتف بحو) ـ الإقليم الرابع عشر من أقاليم الصعيد، إنما كان يقع على ضفتى النيل ـ وطبقاً لمقاييس مقصورة «سنوسرت الأول» بالكرنك ـ فهو يمتد على مدى ٣٤ كيلا (٣ إترو، ٦٠ خا)، وإذا افترضنا أن حده الجنوبى عند قرية دمنهور ـ ١٠ كيلا جنوبى القوصية ـ فهذا يعنى أنه يمتد شمالا حتى مشارف مدينة «دير مواس» ـ وربما حتى آخر حدود محافظة أسيوط ـ أى على مبعدة ٢٤ كيلا شمال القوصية.

هذا مع ملاحظة أن منطقة العمارنة ـ وهى تتبع الإقليم الخامس عشر ـ قد تصل حدودها الجنوبية إلى شمالى «دير مواس» ـ بمحافظة المنيا ـ [1]

هذا وقد قام الأثارى الإنجليزى «بلاكمان» بنشر مقابر «ميرا» فى سبعة أجزاء، صدر الجزء الأول منها فى لندن عام ١٩١٤م، والسابع فى عام ١٩٥٣م[2].

(١) محمد بيومى مهران، الحضارة المصرية القديمة ١٦٤/٢-١٦٥؛ جيمس بيكى، المرجع السابق، ص ١٢٥-١٣٨؛ محمد رمزى، القاموس الجغرافى، الجزء الرابع، القسم الثانى، القاهرة ١٩٩٤، ص ٧٥-٧٩؛ وكذا:

A.H. Gardiner, Onom, II, p. 77; A. Fakhry, op.cit., p. 30-34; H. Gauthier, op.cit., I, p. 13, V, p. 164-165; P. Montet, op.cit., p. 135-136, 141-142; W. Helck, Die Altogyptishen gaue, Wiesbaden, 1974, p. 105-106.

(2) A.M. Blackman, The Rock Tombs of Meir, 7 Vols., London, 1914-1953.

ثانياً ـ الوثائق (النصوص)

يكاد يجمع المؤرخون على أن عصر الثورة الاجتماعية الأولى ـ أو عصر الاضمحلال الأول ـ إنما هو من أكثر عصور التاريخ المصرى القديم ظلمة، فالآثار التى اعتاد المؤرخون أن يستقوا منها معلوماتهم، نجدها هنا صامتة ـ أو تكاد ـ ومن هنا اختلف المؤرخون، فيما بينهم، أشد الاختلاف، فى أحوال هذه الفترة السياسية ـ سواء أكان هذا فى تتابع أسرها، أو فى تعاقب ملوكها، حتى وصل الأمر إلى أن كثيراً من أسماء الملوك أنفسهم، لا نكاد نعرفها.

وليت الأمر اقتصر على ذلك، وإنما تعداه إلى وثائق هامة، تنير للباحث الطريق، لمعرفة جانب آخر من أحوال ذلك العصر، غير أننا لا نستطيع ـ فى أحوال كثيرة ـ أن نحددلها تاريخاً معيناً، أو ملكاً ننسبها إلى عهده، دون أن يخالجنا ريب، فى أن ما نقول، هو القول الفصل.

على أننا ـ من ناحية أخرى ـ نستطيع القول: إن هذا العصر، بقدر ما ضنّ على الباحثين بمصادره الأثرية، فقد منحهم قدراً من النصوص الأدبية، تكاد تعطينا صورة عن الحياة الاجتماعية فى تلك الفترة من تاريخ الكنانة المجيد.

ولعل مما يزيد فى أهمية هذه المصادر الأدبية، أنها إنما تمثل تفكير الشعب كله ـ حاكمية ومحكومية ـ ذلك لأن الحاكمين إنما قد كتبوا بعضها، كما كتب المحكومون البعض الآخر، وإن كان للمحكومين النصيب الأكبر مما كتب، وتلك ميزة ينفرد بها عصر الثورة الاجتماعية الأولى، عن بقية عصور التاريخ الفرعونى.

وأما أهم هذه الوثائق ـ أو النصوص الأدبية ـ فهى :

١ ـ تحذيرات الحكيم «إيبو ـ ور».

٢ ـ نبوءة نفرتي.
٣ ـ صراع المتعب من الحياة مع روحه.
٤ ـ وصية اختوى ـ أو ختي لولده «مرى ـ كارع».
٥ ـ قصة الفلاح الفصيح.
٦ ـ أغنية الضارب على العود.

١ ـ تحذيرات الحكيم إيبو ـ ور

تقـــديم:

لا ريب في أن الأدب المصرى القديم لم يتخلف عن أداء دوره في النقد والسياسة، ووصف ما حل بالبلاد فى فترة من فترات تاريخها، ومن ثم فقد قدم لنا على سبيل المثال، وصف للحالة السيئة ـ من الناحية السياسية ـ التى وصلت إليها البلاد فى عصر الثورة الاجتماعية الأولى، هذا فضلا عن أن كثيراً من الملوك قدموا لأولياء عهودهم تجاربهم السياسية، حتى يكون لهم من تجارب الآباء ما يفيدهم فى إدارة شئون البلاد، ومن النوع الأول كان الحكيمان «إيبو ـ ور» و«نفرتى»، ومن النوع الثانى تلك النصائح التى قدمت للملكين «مرى كارع» و«سنوسرت الأول»، ولنقدم الآن نماذج مختلفة من أدب النقد والسياسة.

لاريب فى أن «تحـــذيرات الحكيـم المصـــرى «إيبـــو ـ ور» The Admonitions of An Egyptian Sage» إنما تعتبر من الوثائق التاريخية الهامة التى تسترعى النظر بين كافة مجموعة تلك المقالات الاجتماعية والخلقية التى كتبت فى عصر الثورة الاجتماعية الأولى (عصر الانتقال الأول)، وتوجد تلك الوثيقة الأدبية فى «متحف ليدن»، وتعرف باسم «بردية ليدن رقم ٣٤٤»، بعد أن نقلت إلى متحف ليدن فى عام ١٨٢٨م، وكان قد اشتراها هذا المتحف فى نفس العام من «أنستاسى» الذى اكتشفها فى «منف»[١].

هذا والبردية بحالتها الراهنة غير الكاملة تبلغ من الطول ٣٧٨سم، ومن العرض ١٨سم، وقد كتبت بالخط الهيراطيقى، كتبها حكيم مصرى يدعى «إيبو ـ ور» (أو إيبو العجوز)، وصور فيها حالة البلاد على أيامه، وما انتهت

(1) A.H. Gardiner, The Admonitions of An Egyptian Sage, Liepzig, 1909, p.1.

إليه من ضعف ودمار، وذلك في خطبة طويلة أمام فرعون عصره، الذي يكاد كثير من المؤرخين يجمعون على أنه «ببي الثاني» وإن كان «سير ألن جاردنر» يذهب إلى أنه ربما كان آخر خط الملوك المنفيين[١]، وهذا ما نميل إليه ونرجحه[٢].

ويرجع تاريخ هذه التحذيرات لفترة ليست أكثر قدماً من الأسرة التاسعة[٣]، ولكنه منقول عن نص لا يمكن أن يكون قد كتب إلا في فترة الاضطرابات نفسها، على أيام الثورة الاجتماعية الأولى، أي ربما في أخريات أيام الأسرة السادسة، وذلك اعتماداً على أجروميتها، فضلاً عن بعض المميزات الأدبية من كتابات ذلك العصر[٤].

ومن أسف أن البردية ـ شأنها في ذلك شأن كثير من المخطوطات المصرية القديمة ـ قد فقدت بدايتها، كما فقدت نهايتها كذلك، هذا إلى جانب فجوات في وسطها، ومن هنا لاقى الباحثون صعوبة في معرفة موضوعها، حتى ظنَّ البعض ـ بادئ ذي بدء ـ أنها ورقة تعليمية، فمثلاً نشر «لوث» في عام ١٨٧٢م ترجمة للصفحات التسع الأولى منها، إلا أنه نظر إليها كمجموعة من الحكم والأمثال التي قيلت للأغراض التعليمية أو الإرشادية[٥].

وفي عام ١٩٠٣م فتح «لنجه» الباب لعلماء الآثار للقيام بدراسات عن هذه الوثيقة، ومن ثم فقد قام بعد ذلك كثير من العلماء بأبحاث عنها[٦]،

---

(1) A.H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1961, p. 109.

(٢) انظر: محمد بيومي مهران، الثورة الاجتماعية الأولى في مصر الفراعنة، الإسكندرية ١٩٦٦م، ص ٥-٨.

(3) A.H. Gardiner, The Admonitions of An Egyptian Sage, p. 2.

(٤) أحمد فخري، مصر الفرعونية، ص ١٥٩.

(5) A.H. Gardiner, op.cit., p. 2.

(6) M. Pieper, Die Agyptische Literature, p. 23; T.E. Peet, A Comparative Study of The Literature of Egypt, Palestine and Mesopotamia, p. 118-119.

غير أن الدراسة الكاملة للوثيقة إنما قام بها «سير ألن جاردنر» بنشر هذه الوثيقة في كتاب مستقل تحت عنوان: «The Admonitions of An Egyptian Sage» وقد كانت دراسة جاردنر للوثيقة مثلا يحتذى، فهي دراسة كاملة لها، كما أنه قدم كذلك ترجمة دقيقة للوثيقة.

وفي عام ١٩٢٣م أخرج «أدولف إرمان» كتابه عن «أدب المصريين القدامى» باللغة الألمانية، ويحوى ترجمات كاملة لأهم القصص المصرية، وكتب الحكم والأناشيد والأغاني وغيرها مما كان معروفاً، وسبق أن ترجمه علماء الأبحاث الأثرية حتى ذلك الوقت، وقد ترجم فيه لهذه الوثيقة، هذا وقد نقل كتاب إرمان هذا إلى اللغة الإنجليزية الأثرى الإنجليزي «إدوارد بلاكمان» في عام ١٩٢٧[١].

وفي عام ١٩٣٣م أخرج المؤرخ الأمريكي الكبير «جيمس هنرى برستد» كتابه «فجر الضمير»[٢]، وقد حلل فيه الوثيقة تحليلا ممتازاً، وفي عام ١٩٥٠م قامت مجموعة من العلماء الأجانب بترجمة «نصوص الشرق الأدنى القديم»، وقد ترجم فيه «جون ويلسون» لهذه الوثيقة[٣]، ولعل من أحدث الترجمات والدراسات الحديثة عن «تحذيرات إيبو - ور» هذه، ما قام به «فولكنر»[٤] وLichtheim[٥].

(1) A. Erman, The Literature of The Ancient Egyptians, Translated into English by A.M. Blackman, London, 1927, p. 92-108.

(2) J.H. Breasted, The Dawon of Conscience, New York, 1933, p. 192-200.
وانظر: الترجمة العربية (جيمس هنرى برستد، فجر الضمير، ترجمة سليم حسن، القاهرة ١٩٥٦م، ص ٢٠٧-٢١٤.

(3) J. A. Wilson, in ANET, 1966, p. 441-444.

(4) R.O. Faulkner, in JEA, 50, 1964, p. 24-36; R.O. Faulkner, in JEA, 51, 1965, p. 53-62; R.O. Faulkner, in The Literature of Ancient Egypt, London, 1977, p. 210-229.

(5) M. Lichtheim, Ancient Egyptian Literature, London, 1975, p. 149-163.
وأما أهم الترجمات العربية فانظر: سليم حسن، المرجع السابق، ص ٢٩٤-٣١٧؛ أحمد فخرى، المرجع السابق، ص ٤٤٩-٤٥٠؛ عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص٣٥٨-٣٦٢؛ حضارة مصر القديمة وآثارها ٣٩٣/١-٣٩٥؛ محرم كمال، المرجع السابق، ص ٤٦-٥٣.

وتتلخص البردية فى أن الحكيم المصرى «إيبو - ور» إنما يتقدم فى خطبة طويلة، باتهام مرير يصف فيه حالة البلاد إبان عهد الثورة الاجتماعية، أمام فرعون عصره الذى أوقع عليه كثيراً من اللوم لضعفه وكسله، وقد ألقى إيبو - ور» اتهامه هذا أمام مليكه، وبحضور آخرين، ربما كانوا من حاشية ذلك الفرعون ورجال بلاطه، وربما كان ذلك فى اجتماع لأمر من الأمور عقد فى القصر الملكى، وينتهى الحكيم بالنصح والتحذير من الإهمال والأخذ بالإصلاح، ثم يلى ذلك رد قصير من جانب الملك، ثم ينتهى المقال بتعقيب قصير من الحكيم «إيبو - ور» على الرد الملكى[١].

هذا وتقع البردية فى أربعة عشرة صفحة، يشغل الاتهام منها ما لا يقل عن الثلثين، إذ يستمر النص فى نحو عشر صفحات فى صيغ متجددة لفكرة واحدة: «الأرض تدور كعجلة الفخار»[٢].

ويذهب الدكتور عبد العزيز صالح إلى أن «إيبو - ور» إنما كان على صلة بالدلتا، كما كان كذلك مصلحاً، وكان يدرك مفاسد الحكم فى عصره، ولكنه كان من طبقة أرستقراطية قديمة، وكان يتمنى إصلاحها من داخلها، أو بوحى من فرعون حازم مصلح، ولم يكن يهضم أن يفرض عليها التغيير فرضاً عن طريق طبقة أقل منها منزلة، أو عن طريق الشعب - فى حدود تعبيراتنا الحديثة - ولهذا اختلط الإخلاص فى روايته بالمبالغة واختلط التحسر بالأمل، واختلط الخيال بالواقع[٣]، ومع ذلك فإن روايته إنما تعبر عن الحالة السائدة وقت ذاك، من وجهة نظره - ذلك لأن كل الأحداث إنما تدل على أنه شاهد منصف، فإن حالة البلاد التى تناولها بالوصف لا يمكن أن تكون من وصف خيال قصاص أو راوية[٤].

(1) J.H. Breasted, op.cit., p. 194.

(٢) أدولف إرمان وهرمان رانكه، مصر والحياة المصرية فى العصور القديمة، ترجمة عبد المنعم أبو بكر ومحرم كمال، القاهرة ١٩٥٣م، ص ٤٢٨.

(٣) عبد العزيز صالح، حضارة مصر القديمة وآثارها، ١/٣٨٣-٣٩٤.

(4) A.H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, p. 109.

هذا ورغم الجهد الذى بذل فى تنسيق البردية، فلم يراع فى عناصرها الترتيب المنطقى، وقد قسمها صاحبها إلى فقرات تبدأ كل مجموعة من فقراتها ببدايات متشابهة.

وليس هناك من ريب فى أن «تحذيرات إيبو - ور» إلى جانب أنها قطعة أدبية ممتازة، فهى أيضاً مصدر من أهم مصادرنا التاريخية فى دراسة أحداث الثورة الاجتماعية الأولى، تلك الثورة التى قامت بدور هام فى تاريخ مصر الفرعونية، وفى تغيير كثير من معتقدات القوم وأفكارهم، فهى إذن واحدة من النصوص التاريخية الهامة، وذلك لأن صاحبها قد عاصر الأحداث المريرة التى كتب على كنانة الله فى أرضه أن تعيشها حيناً من الدهر، فهو شاهد عيان فى وصفه للفترة اللاحقة لانهيار الأسرة السادسة، وربما كان قد شارك بوسيلة أو بأخرى فى أحداث الثورة.

هذا فضلا عن أن الوثيقة ترسم لنا صورة عن مفكرى ذلك العصر (حوالى القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد) فصاحب البردية، حكيمنا «إيبو - ور» إنما يوجه نقده اللاذع المرّ إلى الملك نفسه، بشجاعة منقطعة النظير، لصدورها من مصرى يخاطب فرعون مصر ، ذلك الفرعون الذى كان يعتبر نفسه - كما كان يعتبره رعاياه - إلهاً فوق البشر، فيتهمه بأنه سبب البلايا التى حاقت بالبلاد، ثم يزيد من جرأته حتى نراه يتمنى للفرعون أن يتذوق بعض هذا البأس بنفسه، ثم يرسم بعد ذلك صورة للحاكم الأمثل الطاهر التقى، الذى يعز عشيرته ويحميها، ويسحق الأشرار، أضف إلى ذلك أن البردية، كما قلنا، قطعة أدبية ممتازة ، وأسلوبها قوى ممتاز يجمع بين النظم والنثر[1].

وتحذيرات إيبو - ور» هذه إنما تتكون من قول منثور، ومن ست قصائد شعرية فيها جوهر الموضوع نفسه، وهى تبدأ بوصف ما حلّ بالبلاد من فساد

---

(١) محمد بيومى مهران، الثورة الاجتماعية الأولى فى مصر الفرعونية، ص ٧-٨.

واضطراب، فيقول:

«يقول حراس الأبواب: فلننطلق ولننهب، ونتحى الغسال عن حمل حمله، وأعد صيادو الطيور أنفسهم للمعركة، وحمل آخرون من الدلتا الدروع، ومن يزاولون أهدأ الحرف، كصانعى الحلوى والجعة، ثاروا، وصار المرء ينظر إلى ولده نظرته إلى عدوه، وأصبح الرجل الكريم فى حزن وأسى لما أصاب البلاد، وغدا الأجانب مصريين فى كل مكان».

القصيدتان الأولى والثانية:

ويصف الحكيم المصرى «إيبو - ور» فى هاتين القصيدتين ما حلّ بالبلاد من فساد واضطراب، وكيف انقلبت الأمور، وتحول القوم إلى عصابات، وأصبح كل فرد مسلحاً بدرعه، لأن المجرمين قد انتشروا فى البلاد يعيثون فيها فساداً، وكل بيت من هذه القصيدة يبدأ بكلمتين هما: «حقاً لقد».

وليس فى وسعنا سوى أن نسوق إلى القارئ بعض آثار من تلك الصورة التى رسمها الحكيم المصرى من حياة الناس فى ذلك العصر، يقول الحكيم «إيبو - ور»:

«تدور البلاد كما تدور رحى الفخار، حقاً لقد تغيرت صورة البلاد، وتبدلت أحوالها، وامتلأت بالعصابات، ويذهب الرجل إلى حقله ومعه درعه، حقاً لقد شحب الوجه، وقد تنبأ الأجداد بذلك حقاً لقد شحب الوجه، وحامل القوس أصبح مستعداً، والمجرمون فى كل مكان، ولا يوجد رجل من رجال الأمس، حقاً إن الناهبين فى كل مكان».

«حقاً إن النيل يوافينا بفيضه مباركاً ميموناً، ولكن ما من أحد يحرث الأرض، لأنهم لا يعرفون ما يطالعهم به الغد من شرور وأهوال».

«حقاً لقد غدت النساء عاقرات، ألا ليت ذلك يكون نهاية الناس، فلا

يحدث حمل ولا ولادة، وليت الإله خنوم لا يشكل الناس بسبب ما أصاب البلاد».

«حقاً إن القلوب قد ثارت ، والوباء قد انتشر، والدم قد سال في كل مكان، ولفائف الموميات تتكلم، وإن لم يقترب أحد منها، حقاً لقد أصبح النهر قبراً لرجال كثيرين دفنوا فيه، وصار المكان الطاهر مجرى».

«حقاً إن الأرض تدور كعجلة الفخار، واللص أصبح صاحب ثروة، حقاً إن النهر قد امتلأ بالدم، فأصبح الرجل يعاف الشرب منه، حقاً إن البلاد قد أصابها الدمار، وأصبح الصعيد خاوياً».

«أنظر لترى قلائد الذهب والجواهر على نحور الجواري، على حين تشتهي الحرة كسرة من خبز، وتقول «أما من شيء نأكله».

«أنظر: لقد حدث هذا بين الناس، فمن لم يكن في قدرته أن يقيم في حجرة، أصبح الآن يملك فناءً مسوراً، انظر: إن الفضليات الشريفات يرقدن على الفراش الخشن، والأمراء ينامون في المخزن، ومن لم يكن ميسراً له أن ينام على الجدران، أصبح صاحب سرير، إن الرجل الغني أصبح يمضي الليل وهو ظمآن، ومن كان يستجدي منه الحثالة، أصبح يمتلك الجعة القوية، أنظر: إن أولئك الذين كانوا يمتلكون الملابس أصبحوا في خرق بالية، أنظر: إن الذي لم يصنع أبداً قارباً، أصبح الآن يملك سفناً، وأصبح صاحبها ينظر إليها، غير أنها لم تعد ملكاً له، انظر: إن الذي لم يكن يملك ما يظله من حرارة الشمس، أصبح الآن يملك ظلاً، والذين كانوا يملكون ما يأويهم، أصبحوا عرضة للعاصفة».

«انظر لترى المناصب وقد خلت من أربابها، ولترى الناس يهيمون كالأنعام ، بل هم أضل سبيلا، حقاً لقد عزّ الذليل، وذلّ العزيز، وطمع الغرباء في البلاد، فها هم ينتشرون في الأرض ، ويعيثون فيها فساداً».

«أنظر: لقد عمّ الحزن البلاد من أقصاها إلى أقصاها، والناس يستغيثون ولا مغيث، ويستجيرون ولا مجير، انظر: لقد أصبحت الحياة مرة حتى عافها الناس، رخيصة حتى هانت على الناس، يقول الكبير يا ليتنى متُّ قبل هذا، وكنت نَسْياً منْسياً، ويقول الصغير: ليت أمى لم تلدنى، انظر: كيف يضحك الوضيع من بكاء العظيم».

«انظر: لقد أصبح الناس يأكلون الحشائش، ويشربون الماء، ولا توجد فاكهة، كما لا يوجد عشب يأكل منه الحيوان والطير، وأصبحت القاذورات تختطف من أفواه الخنازير، ولم يعد أحد يقول: هذا لى فخذه بدلا عنى، لأن القوم صاروا جياعاً، انظر: لقد ضاع محصول القمح، وأصبح القوم لا يجدون لباساً أو عطوراً، أو زيوتاً، وأصبحت مخازن الحبوب خاوية، وألقى حارسها على الأرض».

«انظر لقد قلّ الودُّ، وانقطع الرجاء، وانعدمت الرحمة، وفقدت المروءة، حتى أصبح المرء لا يتورع عن قتل أخيه، انظر: لقد سلبت قاعة المحاكمة الفاخرة، وأصبح المكان السرى مكشوفاً، انظر: لقد فتحت الإدارات العامة، ونهبت قوانينها، وسلبت كشوف الإحصاء وأتلفت سجلات كتبة المحاصيل».

«أنظر: لقد ألقيت قوانين دار القضاء فى البهو، ووطئت بالأقدام فى الشوارع، ومزقها الغوغاء فى الأزقة، وأخذ العوام يروحون ويجيئون فى دار القضاء الكبيرة، ونفى القضاة فى الأرض، واحترقت البوابات والأعمدة والأسوار».

«أنظر: إن الناس يثورون ضد حية التاج التى كانت تهدئ الأرض، لقد عرف سر البلاد التى لا يعرف أحد حدودها، إنّ القصر الملكى يمكن أ[ن] يهدم فى ساعة، وتصبح أسرار ملك مصر العليا والسفلى معروفة».

«أنظر: ما عاد أحد يبحر إلى «جبيل»[1]، فما الذى سوف نفعله بأخشاب الأرز التى اعتدنا أن نصنع منها توابيتنا، والزيوت التى يحنط بها الأمراء، وكانت ترد من هناك، ومن مجاورات «كفتيو»، ما عاد يأتى من ذلك شيء، حتى أصبح مجيء أهل الواحات بمنتجاتهم البسيطة شيئًا ذا بال».

«أنظر ما الذى جعل الأرض الحمراء تنتشر فى طول البلاد وعرضها، خربت الأقاليم، وجاءت قبائل قواسة غريبة إلى مصر، ومنذ أن وصلوا لم يستقر المصريون فى مكان، وأصبح الأجانب مصريين فى كل مكان، وأولئك الذين كانوا مصريين أصبحوا غرباء، وأهملوا جانبًا».

«أنظر: حقًا لماذا لم تدفع إليفانتين وثنى ـ وهما من ممتلكات مصر العليا ـ الضرائب بسبب الحرب، وهناك حاجة إلى الفاكهة والقمح وكل أنواع التجارة، وكل ما ينتجه الصناع، فما فائدة الخزانة بدون دخل».

ويبلغ الأسى بالحكيم «إيبو ـ ور» نهايته، أسفًا على ما أصاب البلاد من اضطراب لا يعرف له علاجًا، فيفقد الأمل فى إنقاذ شيء، ويزداد تأثره بالكارثة التى لحقت بالبلاد حتى أنه يطلب من الإله أن تكون هذه نهاية الحياة نفسها، ثم يتجه بعد ذلك إلى نفسه فيوجه اللوم إليها، ويحملها جزءًا من الوزر الذى ارتكبه حين سكت على الشر، وامتنع عن أن يقول الحق، فينصح وينتصح، يقول: «ليتنى رفعت صوتى فى ذلك الوقت، حتى أنقذ نفسى من الألم الذى أنا فيه، فالويل لى، لأن البؤس قد عمّ فى هذا الزمان».

هذا وقد سادت البلاد فى تلك الفترة المظلمة موجة غير دينية، وإن لم تكن إلحادية، فقد تخلى المصريون إلى حين عن ألصق صفاتهم بهم ـ وأعنى بها صفة التدين والورع المطبوع فى نفوسهم ـ حتى وصل الأمر

(١) كانت تكتب فى الدولة القديمة «كبن»، وفى الدولة الوسطى «كبنى»، وفى الدولة الحديثة «كبنا»، وأسماها الآشوريون «جوبلا»، والإغريق «بيبلوس»، والعرب «جبيل»، وتقع على مبعدة ٤٠ كيلا شمال بيروت. (A.H. Gardiner, Onom, I, p. 257).

ببعضهم أن ينكروا وجود الإله نفسه، يقول الحكيم «إيبو - ور»:

«حقاً إن الرجل الأحمق يقول: إذا عرفت أين يوجد الإله ، فإنى أقدم له قرباناً».

وتسود المجتمع المظالم، ويفقد القوم ثقتهم فى العدالة، إذ تنحرف عن طريقها المستقيم، يقول «إيبو - ور»: «والعدالة موجودة باسمها فقط، وما يعمله الناس حين يلتجئون إليها هو الظلم»، ولم يكن لدى الثوار وازع من دين أو خلق يحميهم من نبش قبور الموتى، حتى قبر الملك الإله نفسه، كتب عليه ذلك المصير الأليم، يقول «إيبو - ور». «انظر الآن، فلقد حدث شيء لم يحدث أبداً منذ زمن بعيد، فإن العامة سرقوا الملك، انظر: إن الذى دفن كصقر إلهى، صار اليوم فوق خشبة نعش، وأصبح ما فى الهرم خاوياً».

القصيدتان الثالثة والرابعة:

لم يبق منهما سوى القليل، وأهم فقراتهما:

«إن الدلتا تبكى، ومخازن الملك أصبحت مشاعاً للجميع، ولا ضرائب للقصر مما هو مستحق له من شعير أو قمح أو سمك، وذلك بالرغم مما يستحق له من قماش أبيض وكتان رقيق ، ونحاس وزيت وحصير وسجاد وما عداها من المستحقات الجيدة».

القصيدة الخامسة:

تتضمن مقدمتها حديثاً عن عبادة الآلهة، وكيف كانت تعبد فيما مضى وكيف يجب أن تعبد فى المستقبل، وتبدأ بكلمة «تذكر» وقد جاء فى هذه القصيدة:

«تذكر كيف يضمخ بالطيب والبخور، وكيف يقدم الماء من أبريق فى بكرة الصباح».

تذكر كيف يجلب الأوز السمين، ويقدم هو والبط والقرابين المقدسة للآلهة.

تذكر كيف يمضغ النطرون (ليطهر الكاهن فمه)، ويجهز الخبز الأبيض في اليوم الذى يبلل فيه الرأس.

تذكر كيف تقام أعمدة الأعلام، وتنقش أحجار القربان، ويطهر الكاهن المعبد، ويبيض بيت الله كاللبن، ويعطر الأفق (أى المعبد)، ويخلد خبز القربان.

تذكر كيف تراعى القواعد، وتنظم أيام الشهر، ويعزل الكهنة الأشرار.

تذكر كيف تنحر الثيران، ويوضع الأوز على النيران، ويقدم قرباناً».

ثم يلى ذلك جزء كبير غامض تتخلله بعض الفجوات الكثيرة، وأهم ما هو ظاهر فيه عن الحاكم العادل المنتظر، والذى وصفه «إيبو - ور» بأنه:

«إنه يطفيء لهيب (الحريق الاجتماعى)، ويقال عنه أنه راعى الإنسانية، ولا يحمل فى قلبه شراً، وحينما تكون قطعانه (بمعنى رعيته) متفرقة فإنه يصرف يومه فى جمعها، وقلوبها محمومة ليته عرف أخلاقها فى الجيل الأول، فحينئذ كان فى مقدوره أن يضرب الشر، وكان فى قدرته أن يمد ذراعه ضده (أى الشر)، وكان فى مقدوره أن يقضى على بذرتهم هناك، وعلى ورثتهم، فأين هو اليوم، هل هو بطريق الصدفة نائم، انظر: بأسه لا يرى...».

ثم يستطرد «إيبو - ور» إلى بيت القصيد، وهو توجيه النذر إلى الملك نفسه فيقول:

«لديك الحكمة والبصيرة والعدل... ومع ذلك تترك الاضطرابات وضوضاء المتعاركين تنتشر فى البلاد، أنظر إليهم إن كل واحد منهم يضرب الآخر، ولا يعبأ بالأوامر، فهل تلقى راعياً يحب الفناء».

«لقد كذبوا عليك، فالبلاد تشتعل كالقش، والناس على شفا

الهلاك... وهذه كلها سنوات حرب أهلية، فالرجل يقتل على سطح منزله، حينما يكون مراقباً في حدود بيته، ولكنه إن كان قوياً، فإنه ينجي نفسه بنفسه، ويبقى حياً...».

«ليتك تتذوق بعض هذا البؤس بنفسك، وعندئذ يمكنك أن تقول...»

وعندما يرد الملك بأنه حاول حماية شعبه، نظر إليه وقال: إن الملك أحسن القصد، ولكنه لم يصل إلى الغرض بسبب جهله، وعدم كفايته «إذا كنت تجهل ذلك، فقد يكون الجهل شيئاً مريحاً للنفس، وربما فعلت شيئاً طيباً لقلوب الناس وأحببتهم، ولكنك تغطي وجوههم فزعاً من الغد».

القصيدة السادسة:

وفيها وصف للوقت السعيد الذى يدخره المستقبل.

«على أنه من الخير أن تسير السفن متجهة نحو الجنوب.

على أنه من الخير أن تنصب الشباك وتمسك الطيور

على أنه من الخير أن تبنى أيدى الرجال الأهرام، وتحفر البرك، وتقام للآلهة مزارع فيها أشجار

على أنه من الخير أن يكون الناس سكارى ، وأن يشربوا... فرحي القلب.

على أنه من الخير أن يبدو الفرح فى أفواه الناس

على أنه من الخير أن تكون الأسرة وثيرة، ومساند رؤوس العظماء تحميها التمائم، ويهيأ لكل إنسان سرير خلف باب مغلق، فلا يحتاج إلى النوم فى الأعشاب...».

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٢ - نبوءة نفرتى

كان اسم صاحب هذه البردية «نفرتى» ينطق إلى عهد قريب «نفر - روهو» (نفر - رحو)، وهو - فيما تروى البردية - كان مرتل من «بر - باست» (بوباستس، وهى تل بسطة الحالية، فى مجاورات مدينة الزقازيق، عاصمة محافظة الشرقية)، وعلى أية حال، فالبردية محفوظة فى «متحف لينينجراد» فى الاتحاد السوفيتى (برقم ١١١٦ ب)، وقد عثر عليها «فلاديمير ساميو نوفتش جولينشف» الذى قام بنشرها فى عام ١٩١٣م[١] ثم نشرها أيضاً «هلك» فى عام ١٩٧٠م[٢].

هذا وقد قام «سير ألن جاردنر» بترجمة البردية فى عام ١٩١٤م[٣]، ثم ترجمها «أدولف إرمان» فى عام ١٩٢٣م[٤]، كما قام «جيمس هنرى برستد» بتحليل البردية تحليلا ممتازاً[٥]، كما قام بترجمتها والتعليق عليها كثير من العلماء، من أمثال «جون ويلسون»[٦]، و«جوستاف لوفيفر»[٧]، و«وبوزنر»[٨] و«بارتا»[٩] و«فولكنر»[١٠] وغيرهم[١١]، هذا إلى جانب عدة

---

(1) V.S. Golenischeff, Les Papyrus Hieratiquees, N.9, PA, 1116B, de L'Ermitage Imperial, ast-Petersbourg, 1913, Pls. 23-25.
(2) W. Helck, Die Prophezeiung des Nfr-ti, Wiesbaden, 1970.
(3) A.H. Gardiner, in JEA, I, 1914, p. 100-106.
(4) A. Erman, LAE, 1927, p. 110-115.
(5) J.H. Breasted, op.cit., p. 200-206.
(6) J.A. Wilson, in ANET, 1966, p. 444-446.
(7) G. Lefebvre, Romans et Contes Egyptiens de L'Epoque Pharaonique, Paris, 1949, p. 95-105.
(8) G. Posener, Literature et Politique dans L'Egypte de la XII dynastie, Paris, 1956, p. 21-60 and 145-157.
(9) W. Barta in MDIK, 21, 1971, p. 35-45.
(10) R.O. Faulkner, The Literature of Ancient Egypt, London 1977, p. 234-240.
(11) B.Gunn, in JEA, 12, 1926, p. 250F; T.E. Peet, op.cit., p. 120F; M. Pieper, op.cit., p. 15; M. Lichtheim, op.cit., p. 139-145.

ترجمات عربية للبردية(1).

وترجع البردية إلى أوائل عهد الأسرة الثانية عشرة، وربما إلى عهد مؤسسها الملك «أمنمحات الأول» (١٩٩١-١٩٦٢ق.م)، أو على الأقل ليس بعد عهده بفترة طويلة، ولكن كاتبها نسبها إلى عهد قديم، فلقد زعم أنها ألقيت في حضرة الملك «سنفرو» مؤسسة الأسرة الرابعة، أي قبل عصر الأسرة الثانية عشرة بفترة طويلة.

ويذهب «برستد» إلى أن ذلك إنما هو مجرد وضع تمثيلي ليسبغ على كلمات «نفرتي» الهامة قوة التأثير، ومن حسن الحظ أن كاتباً من عهد الدولة الحديثة، ممن عاشوا في القرن الخامس عشر قبل الميلاد، قد ظهرت له أهمية هذه الوثيقة، حتى أنه عندما لم يجد بردياً جديداً ينقل فيه نص الوثيقة، أخذ جزءاً من بعض أوراق مستعملة في تدوين حساباته، ونقل تلك النبوءة على ظهرها، وهكذا بقيت «نبوءة نفرتي» في تلك الصورة التي وصلتنا عفواً، بما تحويه من غموض بسبب أغلاطها الكثيرة التي حدثت عند نقله لها بطريق المصادفة كما أشرنا آنفاً(2).

وليس هناك إلى سبيل من شك في أن الدافع إلى كتابة هذه النبوءة، إنما هي الدعوة إلى تمجيد الملك «أمنمحات الأول»، ووصفه بالصفات التي يتمناها الناس في العاهل الجديد، والذي كان الحكيم «إيبو - ور» ينتظر قدومه، وإفهام الناس أن «أميني» (وهو اختصار اسم أمنمحات) إنما سيتولى العرش بناء على إرادة الآلهة، وأن الحكماء قد تنبأوا بذلك أمام الملك «سنفرو»، ذلك الفرعون الذي كان له في قلوب الناس مكانة لا تعادلها مكانة فرعون آخر ممن سبقه من الفراعين، حتى أنه كان يوصف بأنه «الملك

(1) انظر: سليم حسن، المرجع السابق، ص ٣١٨-٣٢٤؛ أحمد فخري، المرجع السابق، ص٤٥٠-٤٥١؛ عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص ٣٦٥-٣٦٦؛ عبد الحميد زايد، مصر الخالدة، ص ٣٥٢-٣٥٤.

(2) J.H. Breasted, op.cit., p. 201.

المحسن»، و«الملك الرحيم» و«الملك المحبوب» و«الملك الفاضل»، كما صورته الوثائق متواضعًا، يميل إلى المعرفة، ويكرم العلماء ويحسن الاستماع، ويكتب بنفسه، ولا يبالي أن يسأل عما لا يعرفه(١).

وتشمل البردية على موضوعين رئيسيين، أولهما: الحالة السيئة التي آل إليها أمر البلاد، إبان الثورة الاجتماعية الأولى. شأنها في ذلك شأن تحذيرات إيبو ـ ور، وثانيهما: الإعلان عن مليكه الجديد الذي سيخلص البلاد مما نزل بها من شر، وسيسعد من يعيشون في عصره.

وفي الحقيقة أن كلا الموضوعين قد تحدث عنهما «إيبو ـ ور»، فلقد وصف الخراب والدمار الذي حل بالبلاد، كما تنبأ بقرب ظهور الملك الأمثل، وهكذا يأتي «نفرتي» فيتحدث عن ذلك كله، ولكنه يزيد على «إيبو ـ ور» بأن يحدد اسم المخلص الجديد، وأنه «إميني»، وهذا هو الهدف من البردية، ولهذا فهي دعاية للملك «أمنمحات الأول» (أميني) ما في ذلك من ريب، وأما ما جاء من وصف الخراب الذي حل بالبلاد، فصحيح يتفق وعصر الثورة الاجتماعية الأولى، ما في ذلك من ريب أيضًا، ومع ذلك فمكانة نبوءة نفرتي كوثيقة تاريخية ليست في مكانة تحذيرات «إيبو ـ ور»، لأن الأخير إنما كان شاهد عيان يدفعه إلى كتابة ما كتب دوافع عليا وأهداف سامية، حتى إننا نجده يلوم نفسه لتأخره في إسداء النصح لمليك عصره، «ليتني رفعت صوتي في ذلك الوقت، حتى أنقذ نفسي من الألم الذي أنا فيه، فالويل لي لأن البؤس قد عمّ في هذا الزمان(٢)، كما أنه لم يكن في دعوته هذه مدفوعًا إلى الدعاية لحاكم بذاته، وإنما كان يطلب الحاكم الأمثل فحسب، أيًا كان هذا الحاكم.

---

(1) G. Posener, op.cit., p. 32; B. Gunn, JEA, 12, 1926, p. 250-251.

(٢) أحمد فخري، المرجع السابق، ص ٤٥٠؛ وكذا: J.A. Wilson, ANET, p. 449.

وأما «نفرتي» فلم يكن شاهد عيان، وإنما ينسب تأليفها إلى عهد قديم، إلى عهد الملك «سنفرو»، كما يظهر في نبوءة نفرتي بوضوح مظهر الدعاية للملك «أمنمحات الأول»، بل إن بعض المؤرخين إنما يرى أنه لا يستبعد مطلقاً أن يكون الحديث (يعني النبوءة) من وضع الملك «أمنمحات الأول» نفسه[1]، وفي كلتا الحالتين إنما يعتبر كاتب هذه النبوءة شبه شاهد عيان، لقرب عهده من أحداث الثورة الدامية نفسها.

ولنقدم الآن صورة مجملة لهذه النبوءة التي جاءت في «بردية نفرتي».

١ ـ وصف حال البلاد:

يقول «نفرتي» في نبوءته بعد المقدمة: «لقد أصبحت البلاد خراباً، فلا من يهتم بها، ولا من يتكلم عنها، ولا من يذرف الدمع عليها، لقد حجبت الشمس فلا تضيء حتى يبصر الناس».

«لقد جفّ نيل مصر حتى ليخوضه الناس بالقدم، وسوف يبحث الناس عن الماء لتجرى عليه السفن، فيجدون أن الطريق صار شاطئاً، كما صار الشاطئ ماء».

«إن البلاد في كرب وعويل، لقد حدث ما لم يحدث من قبل، سيحمل الناس أسلحة الحرب، حتى تعيش الأرض في قلق واضطراب وسيصنع الناس أسلحة من النحاس حتى يلتمسوا الخبز بالدم، ويضحكوا ضحكة الموت، لن يبكي الناس من الموت، ولن يهتم أحد إلا بنفسه».

«لن يعني أحد بترجيل شعره، ويجلس المرء في مكانه لا يحرك ساكناً، بينما يرى الناس يقتل بعضهم بعضاً، سأريك حالة البلاد، وقد أصبح الأب خصماً، والأخ عدواً، الرجل يقتل أباه، واختفى كل شيء طيب، وخربت البلاد، وأصبحت أملاك الرجل تغتصب للغريب، وغدا المالك في حرمان، والأجنبي في شبع ورفاهية».

(١) أحمد بدوي، المرجع السابق، ص ٩٤.

«لقد أصبح للكلام في قلوب الناس وقع كوقع النار، ولم يعد أحد يصبر على النصيحة، لقد نقصت الأرض وتضاعف حكامها، وأصبحت الحقول عارية، غير أن ضرائبها كثيرة، وغلتها قليلة، مع أن المكيال صار كبيراً، وكانوا يملؤنه حتى يطفح، لقد ظهر الأعداء في الشرق، واقتحم القبليون مصر، ولكن ما من مدافع يسمع أو يجيب».

«لقد تباعد الإله رع عن الناس، وإذا ظهر أشرق ساعة، ولا يكاد أحد يعرف أوان الظهر لأنه ما من ظل يدل عليه، لم تعد الأبصار تبهر عند التطلع إليه، ولم تعد العيون تبلل بالماء، إذا أصبحت الشمس في السماء شبيهة بالقمر».

«سأريك البلاد، وقد أصبحت شذر مذر، لقد أصبح الكليل صاحب سلطة وسلاح، وصار القوم يبجلون من كان لا يبجل، سأريك البلاد، وقد أصبح في القمة من كان في الدرك الأسفل، وسيعيش الناس في الجبانة، وسيتمكن المعدم من الشراء، وسيأكل المتسولون خبز القرابين، بينما يبتهج الخدم بما حدث».

٢ ـ الدعوة إلى الملك الجديد:

وهنا يصل المتنبئ إلى هدفه ـ وهو الدعوة للملك الجديد (إميني):

«سيأتي ملك من الصعيد، يدعى «إميني» له المجد، ابن امرأة من «تاستي» (جزيرة أسوان)، ويولد في الصعيد في «خن نخن» (البصيلية مركز إدفو بمحافظة أسوان)، وسوف يتلقى التاج الأبيض، ويتوج بالتاج الأحمر، فاسعدوا إذن يا أهل عصره، ولسوف يعمل ابن الإنسان على تخليد سمعته إلى الأبد، أما الذين كانوا قد تآمروا على الشر، ودبروا الفتنة، فسيطبقون أفواههم خوفاً منه، وسوف يسقط الآسيويون بسيفه، والليبيون أمام لهيبه، وسيستسلم الثوار أمام غضبه، والعصاة أمام جلالته، وسيخضع المتمردون

للصل الذى على جبينه، وسوف يبنى حائط الأمير، ولن يستطيع الآسيويون أن يدخلوا مصر عنوة، وإنما سوف يستجدون الماء منها لتشرب ماشيتهم، كمألوف عاداتهم، وسوف تعود العدالة إلى مكانها، ويقضى على الظلم، ولسوف يسعد من يرى، ومن سيكون في خدمة الملك».

وهكذا يصف «نفرتى» مليكه المنتظر بأنه سيحقق كل ما فقده القوم أثناء الثورة، فهو سيقضى على الفتن الداخلية، وسيحمى البلاد من شر جيرانها الليبيين والآسيويين، وأنه سيبنى سور الحاكم لحماية الدلتا من تسلل البدو، وهكذا يستطيع المخلص الجديد أن يقضى على شرور الناس وأن يبدأ عصراً جديداً.

ومن الأهمية بمكان الإشارة إلى أن «نفرتى» إنما يصرح فى نبوءته بأن مليكه الجديد، ليس من سلالة البيت المالك القديم، فهو إذن ليس بإله كغيره ممن سبقوه من الفراعين المؤلهين، وإنما هو ابن إمرأة من جزيرة إسوان (إليفانتين) وأنه قد ولد فى البصيلية (نخن)، وربما قد دفعه إلى ذلك ضياع الهالة القديمة التى كان يتمتع بها الفراعين من قبل، وربما دعاه إلى ذلك كثرة المطالبين بالعرش أو المدعين له، تلك الكثرة التى جعلت ملكه الجديد، ليس بدعاً بين المدعين أو المطالبين، وربما كان «أمنمحات» (إمينى) نفسه قد لجأ إلى الدعاية لنفسه، فاخترع تلك النبوءة المعروفة، فأمر ذلك جائز، وقد دعا إليه بعض المؤرخين، ذلك لأن الظروف التى أحاطت به قد ألجأته إلى ذلك فهو لم يكن أميراً، ولم ينتسب إلى بيت إمارة، ولأنه إنما كان قد فطن بذكائه وسعة إدراكه وتجاربه الواسعة إلى أن الناس قد سئموا المدعين من فلول الأمراء الذين ينتسبون إلى بيت الملك، وكرهوا سلطانهم، وبذلوا ما فى وسعهم فى سبيل الخلاص من تلك الأسر التى رفعت نفسها إلى مجال التأليه، فكان من المنطق أن يلجأ «أمنمحات» إلى الدعاية لنفسه بما يصادف فى نفوس الناس هوى وارتياحاً، ومن ثم فقد أخذ يبشر بظهور مخلص

جديد، أسماه «إميني» تارة، وأسماه «ابن الإنسان» تارة أخرى وكان يقصد بذلك إلى إقناع الناس بأن مخلصهم وحاكمهم الجديد، ليس من بيوت الملك والإمارة، وإنما هو من الشعب، صديق الشعب وربيب الشعب[١]

وهكذا أصبح الانتساب إلى الشعب شرفاً يدعيه الطامحون إلى تبوأ عرش الكنانة، فها هو «أمنمحات» يذيع عن نفسه «إنه ابن امرأة من تاستي، وقد ولد في «خن نخن»، ولم يقل أنهـا، أو هو، من أصل ملكي، ومن البدهي أن ذلك لم يكن عن رغبة عن الانتساب إلى الأصل الملكي، ولكنها كانت رغبة العصر، ذلك العصر الذي أعطته الثورة الاجتماعية الأولى مبادأها، والتي كان منها أن الانتساب إلى الشعب ميزة يفخر بها من يحاول التقرب إليه[٢].

ولعل مما تجدر الإشارة إليه أن هذا المبدأ قد سرى بين أمراء الأقاليم كذلك، ومن ثم فقد ادعى بعضهم ادعاءات عريضة عما قدموه من خير لأقاليمهم، ثم يفخرون بعد ذلك أنهم إنما كانوا محبوبين من مدنهم، وهكذا رأينا الواحد منهم يفخر بأنه الحاكم المحبوب في مدينته»[٣].

---

(١) أحمد بدوي، المرجع السابق، ص ١٢٠ ؛ محمد بيومي مهران، الثورة الاجتماعية الأولى في مصر الفراعنة، ص ٢٠١-٢٠٣ ؛ وانظر عن تعبير «ابن الإنسان»، وقد استخدمه السيد المسيح عليه السلام عن نفسه في الأناجيل الأربعة (كمثال: متى ٢٨/١٩، ٦٤/٢٦ ؛ مرقس ٢٨/٢، ٦٢/١٤ ؛ قاموس الكتاب المقدس ١٢٤/١، بيروت ١٩٦٤).

(٢) محمد بيومي مهران، المرجع السابق، ص ٢٠٢.

(3) A.H. Gardiner, JEA, I, 1914, p. 105.

٣ ـ إرشادات إلى الملك مرى كارع

تعرف هذه البردية التى تحوى «إرشادات إلى الملك مرى ـ كارع» باسم «بردية بطرسبرج»، وهى محفوظة الآن فى «متحف لينينجراد» تحت رقم (1116A)، غير أن هذه النسخة ليست هى النسخة الوحيدة ذلك لأن النص إنما قد جمع فى ثلاث برديات، الواحدة فى لينينجراد، والثانية فى «موسكو» (برقم ٤٦٥٨)، والثالثة فى «كوبنهاجن» ويرجع تاريخها جميعاً إلى حوالى نهاية الأسرة الثامنة عشرة، وهى جميعاً معقدة بسبب الفجوات والغموض من كل نوع، ولو بقى الجزء الأول من النص، وكان أكثر تماسكاً وحفظاً، لكان أهمها جميعاً، مادام يقدم النصح بأنه من الأفضل حسن معاملة الموالى العنيدين الذين يستمتعون بشعبية ملحوظة[١].

هذا وقد اختلف المؤرخون فى صاحب هذه الإرشادات أو النصائح، لأن اسم الأب (صاحب النصائح) مفقود، ولكنه ربما كان «إختوى»، وإن لم يكن أول من يحملون هذا اللقب، ومن هنا قد ذهب فريق إلى أنه «إختوى» (خيتى) الثالث، بينما رأى آخرون أنه «خيتى الرابع»، هذا فضلا عن أن الخلاف لم يكن فى اسم الملك صاحب التعاليم، وإنما امتد كذلك إلى الأسرة التى ينتسب إليها، ومن ثم فقد ذهب فريق من الباحثين إلى أنه من الأسرة التاسعة، بينما ذهب آخرون إلى أنه من الأسرة العاشرة.

وعلى أية حال، فهناك فريق كبير من الباحثين يكادون يجمعون على أن «نب كاورع» إنما هو «خيتى الثالث»، وهو نفسه صاحب الإرشادات ـ موضوع بحثنا هذا ـ وأنه من ملوك الأسرة التاسعة، على أن هناك وجهاً آخر للنظر، يتزعمه بعض علماء المصريات، من أمثال الدكتور أحمد فخرى[٢]،

---

(1) M. Lichtheim, op.cit., p. 97; A.H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, 1961, p. 115.

(٢) أحمد فخرى، مصر الفرعونية، ص ١٦٨.

ووليم هيز[١]، ووينلوك[٢]، إنما يرى أن صاحب الإرشادات إنما هو «خيتي الرابع» (واح كا رع) من الأسرة العاشرة، على أن «الكسندر شارف» إنما يذهب إلى أنه «خيتي الثالث»، وأنه من الأسرة العاشرة، حيث وضع الأب والابن في هذه الأسرة العاشرة[٣]، وإننى لأميل إلى أن صاحب الإرشادات الموجهة إلى الملك «مرى كا رع» إنما هو «خيتي الرابع»، وأنه كان من ملوك الأسرة العاشرة الإهناسية، وليس من الأسرة التاسعة.

هذا وقد اكتشف هذه البردية في عام ١٨٧٦م، الأثرى الروسى «فلاديمير جولينشف»، وكان أول من قام بنشرها[٤]، ثم ظهرت لها بعد ذلك عدة ترجمات، كان من أهمها ترجمة «جاردنر»[٥] و«إرمان»[٦]، ثم تحليل «برستد» لها في «فجر الضمير»[٧].

وفي عام ١٩٣٦م، قام «الكسندر شارف» بأهم ترجمة للوثيقة، مع التحليل السياسى والنقد التاريخ لمحتوياتها[٨]، وفي عام ١٩٤٥م قام «فولتن» بنشرها مرة أخرى[٩]، كما قام بترجمتها أيضاً والتعليق عليها كل من

---

(1) W.C. Hayes, The Scepter of Egypt, I, New York, 1953, p. 144.

(2) H.E. Winlock, The Rise and fall of the Middle Kingdom in Thebes, New York, 1947, p. 20

(٣) الكسندر شارف، تاريخ مصر، ص ٧٣.

(4) Vladimir S. Golenischeff, Les Papyrus Hieratiques, Nos. 1115, 1116A et 1116B de L'Ermitage imperial a St -Petessbourg, St-Petessburg, 1916, Pls. IX-XIV.

(5) A.H. Gardiner, in LEA, I, 1914, p. 20-36.

(6) A. Erman, in IEA, 1927, p. 75-84.

(7) J.H. Breasted, The Dawn of Conscience, New York, 1939, p. 145-150.

وفي الترجمة العربية (جيمس هنرى برستد، فجر الضمير، ترجمة سليم حسن، القاهرة ١٩٥٦، ص ١٦٧-١٧٣.

(8) A. Scarff, Der Historische Abschnitt der lehre fur konig Merikare, in SPAW, 1936, Heft, 8, (Lines 69-110 and Most of Lines, 111-144).

(9) A. Volten, Zwei altagyptische Politische Schriften, Analecta Aegyptiaca, 4, Copenhagen, 1945, p. 3-82, Pls. 1-4.

«بوزنر»[١] و«دريوتون»[٢] و«وليامز»[٣] و«مولر»[٤] و«كيس»[٥] و«ردفورد»[٦] و«بيكرات»[٧] و«لوب»[٨] و«سمبسون»[٩] وغيرهم[١٠]، فضلا عن الترجمات العربية للوثيقة[١١].

وأما عن الظروف التاريخية للوثيقة، فمن المعروف أن مصر قد تعرضت في أخريات أيام الدولة القديمة لفترة ضعف سياسي، وهي الفترة التي يطلق عليها المؤرخون «عصر الانتقال الأول» أو (عصر الثورة الاجتماعية الأولى)، والتي تقطعت فيها أوصال البلاد، وتفرقت كلمتها، وقد بدأت تلك الفترة منذ أخريات الأسرة السادسة (حوالي عام ٢٢٨٠ق.م)، واستمرت حتى قيام الدولة الوسطى (حوالي غام ٢٠٥٢ق.م).

ولعل من أهم أحداث تلك الفترة سيطرة ملوك إهناسيا، مكونين الأسرتين التاسعة والعاشرة - على الشمال، ثم الصدام المرير بينهم وبين أمراء طيبة (الأقصر)، ذلك أن إهناسية إنما كانت تحس أن سلطانها على مصر لن

---

(1) G.Posener, Annuaire du College de France, 62, (1962, p. 290-295, 63, (1963), p. 303-305, 64, (1965), p. 305-307, 65, (1965), p. 343-346, 66, (1966), p. 342-345; G. Posener, RDE, 7, 1950, p. 176-180.

(2) E. Drioton, RdE, 12, 1960, p. 90-91 (Line 92).

(3) R. Williams, in Essays in Honou of T. J. Meek, Toronto, 1964, p. 16-19.

(4) D. Muller, in ZAS, 94,1967, p. 117-124.

(5) H.Kees, in MDIK, 18, 1962, 6, (Lines 88-89).

(6) D. Redford, in JEA, 51, 1965, p. 105-107.

(7) J. Von, Beckerath, in ZAS, 93, 1966.

(8) J. Lopez, in RdE, 25, 1973, p. 178-191.

(9) W.K. Simpson, The Literature of Ancient Egypt, 1977, p. 180-192.

(10) J.A. Wilson, in ANET, 1966, p. 414-418; M. Lichtheim, op.cit., p. 97-109; P. Seibert, Die Charakteristik, I, Wieshaden, 1967, p. 90-98, (Lines 91-94 and 97-98).

(١١) سليم حسن، المرجع السابق، ص ١٩٠-١٩٧؛ محرم كمال، المرجع السابق، ص٦١-٨٠؛ عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص ١٤١-١٤٢؛ أحمد فخري، المرجع السابق، ص ٤٤٠-٤٤٢؛ عبد الحميد زايد، المرجع السابق، ص ٣٠٥-٣٠٨؛ نجيب ميخائيل، مصر ٢٩٢/١-٢٩٤؛ أحمد بدوي، المرجع السابق، ص ٢٢-٢٨.

يتم، مادام هناك أسيوى فى الشمال، وطيبى فى الجنوب، وكل منهما يحتل جزءاً من البلاد، وكانت طيبة بدورها تحس أن استقلالها لن يمكنها من زعامة الصعيد والتحكم فى شئونه، مادامت تدين بالولاء لإهناسية وتدفع لها الجزية، وكان كل من الفريقين يتربص بالآخر الدوائر، ويعمل على تجميع أنصار له، وهكذا دارت رحى الحرب بينهما نحواً من ثمانين عاماً، وانتهت بانتصار طيبة على إهناسية، رغم أن عوامل النصر كانت فى يد إهناسية أكثر منها فى يد طيبة.

وعلى أية حال، فإن هذا النص لم يكن لأمراء طيبة، وإنما كان لمصر كلها، حين وسعها الله تعالى برحمته، فأعاد وحدتها، التى أضاعها عصر الثورة المضطرب، ومن ثم فقد بدأت مصر تتبوأ مكانها فى التاريخ الإنسانى من جديد، وذلك بقيام الدولة الوسطى، تحت زعامة سادة طيبة الجدد.

هذا ولم يزدهر الأدب فى أى عصر من عصور التاريخ المصرى القديم، كما ازدهر فى هذا العصر ـ عصر الثورة الاجماعية الأولى ـ فقد كتبت فيه كثير من البرديات ، التى وصل فيها فن الكتابة إلى قمة ازدهاره، مثل برديات: الفلاح الفصيح، وتحذيرات إيبو ـ ور، واليائس من الحياة، وغيرها، هذا فضلا عن أن هذه الفترة قد تميزت بالإعلاء من شأن الفرد واعتزازه بنفسه، وتحطيم تلك الهالة التى كانت تجعل الشعب يذوب فى شخصية «الملك ـ الإله»، والتى تجعل المجد فى الدنيا، والسعادة فى الآخرة لمن ينال رضى الإله وعطفه، وتكون له الثروة التى تمكنه من إنشاء قبر كبير يعين له من الكهنة من يقومون بالصلاة على روحه فى الأعياد، ويقدمون له القرابين فى كل يوم، ويوقف من أرضه ما يكفى للإنفاق على ذلك كله.

وتقوم الثورة الاجتماعية فى أخريات أيام الأسرة السادسة، وفيها لم يحطم الشعب دواوين الحكومة وقصور الأغنياء ومقابر الملوك وأصفائهم فحسب، وإنما يحطم كثيراً من التقاليد القديمة، ويصبح المصريون يؤمنون

بالمساواة الاجتماعية، ومن ثم لم يعد تقدم الفرد في حياته رهناً برضى الملك أو بنسبه أو ثرائه، وإنما أصبح متوقفاً على جده واستقامته، كما أصبحت الجنة لمن أحسنوا في الدنيا عملا، وجانبوا المعاصي، وصلحت سريرتهم، كما أنها لم تعد وقفاً على الملك ومن أحاطوا به من رجال بلاطه، ومن اشتروا بثرواتهم قرابين تقدم لأرواحهم بعد الموت، يبدو هذا واضحاً في أدب ذلك العصر، وبخاصة في النصائح الموجهة إلى الملك «مرى كا رع»، والتي سنحاول هنا تقديمها بإيجاز، مستدلين بفقرات منها على الأفكار النبيلة التي تحتويها، ونلاحظ أنه على الرغم من أنها نصائح سياسية في الدرجة الأولى، إلا أن أسلوبها الأدبي لا يقل جمالا وجودة عن أية قطعة أدبية أخرى، ولنحاول الآن أن نقدم أهم ما جاء في هذه الإرشادات الموجهة للملك «مرى كا رع» من أفكار.

تكاد تعاليم الملك الإهناسي هذه أن تكون مرآة لأيام عهده، فهو قد اصطدم في حروب مع أهل الجنوب دارت رحاها حول إقليم «ثني»، وعلى مقربة من «أبيدوس» (مركز البلينا - بمحافظة سوهاج)، إحدى عواصم البلاد الدينية العريقة، فقص علينا كيف انقض على المدينة المقدسة انقضاض الصاعقة، فخر عليها وأخذها كما تأخذ الغمامة الماطرة ما تحتها من أرضين، فإذا الديار خربت، وإذا القبور بعثرت، ثم سرعان ما يحدثنا الفرعون عن ندمه الذي آذى نفسه، ثم أخذ عواطفه فهزها هزاً، وهو يعود فيعتذر من هول ذلك الجرم، حين ينسبه إلى جهل عساكره، ويبدو لي أن أمير طيبة قد اهتبل الفرصة، فأخذ يؤلب القوم عليه، ويثير النفوس ضده، ويغرى به الناس، وذلك حين اتخذ من انتهاك حرمات القبور في أبيدوس، سبيلا للضرب على عواطف المؤمنين، وطرقها بمطارق من حديد.

وظاهر من تعاليم الملك الشيخ لولده «مرى كا رع» أنه كان يعاني من فعلته هذه كثيراً من المرارة والألم بين الفينة والفينة، ثم يعود فيعزى نفسه

عن هولها، معتذراً بأنها قد وقعت من وراء علمه، وأنه لم ينبأ بالأمر إلا بعد وقوعه، ولم يعلم بالكارثة إلا بعد أن تمت، ولم يعرف بأمر النكبة إلا بعد فوات الأوان، انظر إليه حين يقول لولده في إرشاداته:

«إن مصر تحارب حتى في الجبانة، إنّي فعلت ذلك، وحدث لى ما يحدث لمن يخالف أوامر الإله، انظر: لقد حدثت كارثة فى عهدى، غزى إقليم ثنى بسبب ما فعلت، غير أنّى لم أعرف إلا بعد حدوثه، انظر: إنّ ما فعلته هو السبب فيما جوزيت به، فالضربة ترد بضربة أخرى، مضى جيل من الناس، والله الذى يعرف القلوب لم يختبئ؛ تعس هذا الرجل الذى يطلب الحرب، لأن العدو وسط مصر، ونحن نريد جنداً لإخضاع المحاربين لكى تصدق النبوءة: هذه مصر تحارب وسط قبورها، لا تؤذ القبور بالحرب، لأننى فعلت ذلك، ولهذا أستحق ما حلّ بى من عقاب الله».

ثم يحمل الملك الشيخ هذه الحرب الأهلية، ما حلّ بالبلاد من مصائب فهى التى مكنت الأجانب من دخول البلاد، ثم ينصح ولده بأن يتخذ الإجراءات ضدهم: «إذا تعرضت حدودك للخطر، فاعلم أن هذا يعنى أن حمة القوس الذين فى الشمال، سيتمنطقون بعدة الحرب، ابن حصونك فى الشمال».

وحين يستعيد المصريون شعورهم بالسيادة على غيرهم من الشعوب نرى الملك الإهناسى يتحدث إلى ولده باحتقار شديد عن الآسيويين: «انظر إلى الاسيوى اللعين (يعنى البدوى)، إن الأمور سيئة فى بلاده، فماؤه آسن، وطرقاته وعرة، لذلك فهو دائم الترحال، لا يستقر فى مكان واحد، وإنما ظلّ يشاغب منذ عهد الإله حور، لا يغلب ولا يغلب، لا تهتم بأمره، فهو ليس إلا بدوياً، شخص منبوذ على الشاطئ، لا يغير إلا على الموطن المنعزل، ولا يجرؤ على مهاجمة مدينة عامرة بالسكان، أقم الحصون فى تخومك الشرقية، وابن مدناً، وعمّرها بالسكان».

ويصور الفرعون لولده «مرى كا رع» الطريقة التي اتبعها في إضعاف الاسيويين، وفي إجلائهم من الدلتا، ودعاه إلى أن يترسمها، وصور له هذه الطريقة في شقين:

أولهما: بث الروح الحربية في البلاد، والعناية بجندها الشبان، وقال له عنها: «إعل من شأن الجيل الجديد تحبك العاصمة، وزد أتباعك من الرعية، إن مصر بلد عامر بنشئ غض في سن العشرين، وأن الجيل الناشئ إنما يسعد بمن يستوحي ضميره، فإن فعلت ذلك قلدك العامة، وأتاك ربّ كل أسرة بأبنائه راضياً، فبهذه السياسة حارب القدماء من أجلنا، منذ رفعت أنا شأنهم، فارفع أنت شأن نبلائك، وعظّم محاربيك، واسبغ الخير على جيل الشباب من أتباعك، واحرص على أن يتزودوا بالعطايا، ويطمئنوا بامتلاك الأرض، ويكافأوا بالأنعام».

وثانيهما: التضييق على الآسيويين والحد من سبل نشاطهم، وذلك بإنشاء مدن محصنة على حواف الوادى، وتعميرها بخير الرجال، يسكنونها ويزرعون ما حولها، ويتحصنون بها حين الشدة، ويصدون منها غارات الآسيويين، وقال له في ذلك: «لا تتهيب البدوى فهو لا يغير إلا على الموطن المنعزل، ولا يغير على المدن الآهلة بالسكان».

ويحص الفرعون ولده على عمل الخير، فيقول له: «هدئ من روع الباكى، ولا تظلم الأرملة، ولا تحرم رجلا من ثروة أبيه، ولا تطرد موظفاً من عمله، وكن على حذر ممن ينتقم مما وقع عليه من ظلم، لا تقتل فإن ذلك لايكون ذا فائدة لك، بل عاقب بالضرب والحبس، فإن ذلك يقيم دعائم هذه البلاد، اللهم إلا من يثور عليك وتتضح لك مقاصده، فإن الله يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور، والله هو الذى يعاقب أخطاءه بدمه، ولا تقتل رجلا تعرف جميع مزاياه، رجلا كنت تتلو معه الكتابات (أى زميلا لك على أيام الدراسة).

ويوصى الشيخ الإهناسي ولده بتقريب ذوى المواهب، «لا تفرق بين ابن النبيل وبين ابن فقير الأصل، وتخير الفرد بكفاءته الشخصية»، ولا ينسى الفرعون أن يحذر ولده من الاعتداء على آثار السابقين فيقول له: «لا تحدث ضرراً لمبنى أقامه غيرك، اقطع أحجارك من طره، ولا تبن قبرك من أحجار قبور غيرك، انظر أيها الملك الذى أريد له دوام الصحة والسعادة والحياة، لاتتقاعس وتنم مطمئناً إلى قوتك، اعتماداً على ما فعلته أنا قبلك، افعل أنت بنفسك».

ولا ينسى الفرعون الشيخ أن يوصى ولده بالاهتمام بالفصاحة وحسن التعبير ولعمرى أنه لم يكن فى ذلك مجدداً، ففى «تعاليم بتاح ـ حتب» يظهر لنا مدى تقدير القوم للفصاحة تقديراً كبيراً، وقالوا بأنها من الجائز أن توجد عند الفقيرات اللاتى يعملن على أحجار المسن، وفى «قصة القروى الفصيح»، نرى أن هذه الفكرة مازالت سائدة عند القوم، وأن أقل المصريين شأناً إنما يستطيع أن يتكلم، وأن يكون لكلامه الأثر المرجو، وأنهم جعلوا هذا القروى يستمر فى حديثه مرة بعد أخرى ـ بعد أن أعجبوا بفصاحته ـ حتى بلغت شكاياته تسعاً، كما سنرى، وأن الملك ورجاله إنما كانوا جداً مسرورين من تلك الفصاحة، وأخيراً نرى هذا القروى غير المثقف، ينال ما يستحقه من تكريم، عندما أنهى كل ما فى جعبته من كلام، وهكذا نرى الملك الإهناسى إنما يقدم لابنه النصح قائلا:

«كن فناناً فى الحديث حتى تسود، فإن القوة فى اللسان، وهو كالسيف للرجل، والحديث أمضى من أى سلاح، اقتد بآبائك الذين ذهبوا من قبلك، انظر إن كلامهم الحكيم باق فى الكتب، فافتح واقرأ واقتد، كن فطناً فإن الرجل الفطن لا يجد من يفحمه، والذين يعرفون أنه أوتى الحكمة لا يعارضونه، وبذلك لا تحدث له مصيبة فى زمانه».

هذا وقد كانت عصور ما قبل عصر الثورة الاجتماعية تهتم كثيراً ببناء

وصيانة ضريح رائع يبقى خالداً على مر السنين، لأنه إنما كان ـ في نظر تلك الأجيال السالفة ـ ضماناً للخلود، بل إن فقدان القبر إنما كان في نظر المصريين القدامى أعظم كارثة تحل بمصرى، ولهذا فقد اتخذها الملوك كأقسى عقاب يمكن أن ينزله الفرعون بمن يشك في ولائه، حتى أن أحد الحكام حذّر أولاده هذا الجزاء الأليم لمن يخرج على الملك، حيث يقول: «لا قبر لإنسان خارج على الملك، بل إن جثته سيلقى بها في الماء».

ونقوم الثورة وتبقى على مثل هذه النصب، ومن ثم نرى الملك الإهناسى ينصح ولده قائلا: «زين مثواك الذى في الغرب، وجمّل مقعدك في الجبانة»، غير أن عصر الثورة الاجتماعية لم يقتصر على الوسائل المادية، كسبيل للسعادة في الحياة الثانية، وإنما أصبح للأخلاق في هذا العصر شأن عظيم في تقرير مصير الإنسان بعد مماته، وبذا أصبحت الأهمية الكبرى للوصول إلى الخلد إنما هى العمل الصالح، بعد أن كان ذلك من قبل، للثروة، والقربى من الإله الملك.

هذا ويحاول الملك الإهناسى في نصائحه لولده «مرى كا رع» أن يوازن بين تصوره السامى للزاد الخلقى، وبين التقاليد الموروثة الخاصة بقيمة الـ.ـسد المادى، ولذلك يقول لولده:

«أقم اثاراً خالدة للإله، لأنها تحيي ذكرى اسم بانيها، وعلى المرء أن يعمل ما فيه صلاح روحه، بإقامة الشعائر الدينية كل شهر، ولبس النعال البيضاء في زيارة المعبد، والكشف عن الأسرار المقدسة، والدخول في قدس الأقداس، وأكل الخبز في المعبد، املأ موائد القربان، وقدّم الخبز الكثير، وضاعف عدد القرابين الدائمة، فإن في ذلك الخير كل الخير لمن يقوم به، إعل من شأن آثارك ونمّها، مادمت تملك القوة على ذلك، وأن يوماً واحداً (أى من عمل مجيد) قد يؤدى إلى الخلود، وربّ ساعة واحدة تحقق نفعاً للمستقبل، إن الله عليم بمن يعمل من أجله».

على أن محاولة الموازنة بين ما يحتاج إليه الإنسان من مادة، وما يحتاج إليه من خلق كريم، جد ظاهر فى الكلام الذى اقتبسناه من قبل، عندما كان الملك الشيخ يقول «إن فضيلة الرجل المستقيم أحبّ عند الله من ثور الرجل الظالم، ومع ذلك افعل شيئاً للإله حتى يجازيك بالمثل، بقربان تمتلئ به المائدة، وبنقش يخلد به اسمك، والله عليم بكل ما يعمل شيئاً من أجله»، وهكذا يبدو واضحاً أن هناك اعترافاً صريحاً بقيمة الحياة الصالحة فى نظر الإله، وهو الذى لا يقبل أن تقوم القرابين والهدايا عنده مقام الأخلاق الكريمة.

هذا ومن الواضح أن الملك الإهناسى لا يريد أن ينتـــهى من تلك النصائح السياسية والخلقية والاجتماعية، دون أن يوصى ولده بقول الصدق، فيقول له: «قل الصدق فى قصرك يرهبك أمراء البلاد وحكامها فى الأقاليم، وأن من صلحت نيته صلحت أحواله، والبيت مرهوب بمن فيه».

ويبدو أن الملك الشيخ كان كلما تقدمت به الأيام، كلما كثر تفكيره فى ماضيه، وما أنفق فيه من تقتيل وتشريد، فى سبيل تأمين ملكه، وتحقيق ما كان يطمح إليه من نفوذ وسلطان، وكأنما كان يشعر أنه قتل كثيراً وظلم كثيراً، فأخذ يذكر الله كثيراً، ويحذر ولده من ارتكاب جريمة القتل، أو الوقوع فى خطيئة الظلم، لأن الله إنما يرقب الجانى فيملى له، ثم يأخذه من وراء ذلك بعذاب أليم، يقول الإله: «إنى المنتقم، وسآخذ كل بذنبه، فلكل امرئ ما سعى، وحسابه فى الآخرة، يوم يأخذ قضاؤها من الظالم للمظلوم»، ثم يمضى الرجل فى وصاياه فيختمها بمثل هذه النصائح التى تصور الرجل مستغفراً تائباً، خائفاً مترقباً، منتظراً مصيره عند قضاة يوم القيامة.

وأما أهمية البردية كوثيقة تاريخية، فهى تقدم لنا صورة عن الحكام الإهناسيين الذين كانوا يتمتعون بقسط وافر من الثقافة ـ أو على الأقل

تعطينا فكرة عن أن صاحب هذه الإرشادات إنما كان ملكاً حكيماً ـ وهو رجل ذو عقل راجح، وفكر قويم، وهو فى نفس الوقت رجل قلق، متعب أنهكته الشيخوخة، وأضعفته أحداث السياسة القاسية، التى مرّ بها فى حياته، والتى لم تعد سنه تطيق احتمالها، كما أنها تعطينا صورة عن الحالة السياسية على أيام الأسرتين التاسعة والعاشرة (العصر الإهناسى) أو على الأقل تعطينا فكرة ـ وإن كانت غير كاملة تماماً ـ عن الحرب الأهلية التى دارت رحاها بين ملوك إهناسية (إحدى مراكز محافظة بنى سويف) وبين أمراء طيبة (الأقصر)، على الأرض المقدسة فى أبيدوس، كما تعطينا فكرة عن مدى نجاح الملك الإهناسى فى طرد البدو الآسيويين من الدلتا.

هذا وتمدنا الوثيقة بأفكار نبيلة، وجديدة على التفكير المصرى القديم، لعل من أهمها: نغمة التواضع الجديدة فى حديث الملك المؤله، والمناداة باختيار الموظفين على أساس من الكفاءة الشخصية، وليس على أساس من حسب ونسب، وهى فى نفس الوقت تنادى بعدم إهمال الأسرة الشريفة القديمة، ثم هناك الدعوة إلى العمل الصالح، فهو ـ وليس الوسائل المادية التقليدية ـ طريق السعادة فى الآخرة، كما نادت الإرشادات بوجود محكمة بعد الموت لن ينقذ المرء منها ـ مهما كان منصبه وثراؤه ـ إلا عمل صالح، وخلق كريم، كذلك حثت هذه التعاليم الملك «مرى كا رع»، على أن يكون قدوة حسنة لموظفيه، وذلك بقول الصدق ليهابه أمراء البلاد والحاكمين فى أقاليمها.

ثم هى تحذر «مرى كا رع» من زعماء الحركات السياسية، وتغريه بمعاملتهم بمنتهى القسوة، تغريه بقتلهم، ومحو ذكراهم، وذكرى أنصارهم جميعاً، وأخيراً، فرغم أنها وثيقة سياسية فى الدرجة الأولى، غير أنها قطعة أدبية، لا تقل جمالا وجودة عن أية قطعة أخرى من قطع ذلك العصر الذى وصل فيه فن الكتابة درجة عالية، حتى أن الأدب فى ذلك العصر، إنما يعد أروع ما أنتجته مصر الفرعونية من أدب.

ولنقدم الآن ترجمة لأهم نصوص هذه الإرشادات الموجهة إلى الملك «مرى كا رع»:

«كن فنانًا في الحديث حتى تسود، فإن القوة في اللسان، واللسان للرجل كالسيف، والحديث أمضى من أى سلاح، اقتد بآبائك الذين ذهبوا من قبلك، انظر إن كلامهم الحكيم باق في الكتب، فافتح واقرأ واقتد، كن فطنًا فإن الرجل الفطن لا يجد من يفحمه، والذين يعرفون أنه أوتى الحكمة لا يعارضونه، وبذلك لا تحدث له مصيبة في زمانه، والصدق يأتى إليه طائعًا مختارًا مصفى، حسب ما جاء في كلام الأجداد السابقين».

«لا تكن شريرًا، فالصبر خير، من الخير أن تكون رحيمًا عطوفًا، اجعل بيت ذكراك خالدًا بحب الناس لك، وعندئذ يحمد الناس الله من أجلك، ويمتدح الناس طيبة قلبك، ويتمنون لك الصحة والعافية، مجد العظماء، واعمل على سعادة شعبك، فكم هو جميل أن يعمل المرء من أجل المستقبل، ولكن افتح عينيك، فقد يمتلئ المرء بالثقة، ثم ينكشف الأمر عن حسرة، لثقة جاءت في غير موضعها».

«ارفع من شأن مستشاريك، واغدق عليهم من الثروة ما يكفيهم، حتى يقوموا على تنفيذ قوانينك بالعدل، لأن الرجل الغنى في بيته لا يميل مع الهوى ولا يتحيز، إذ يكون عنده من المال ما يغنيه، إن الرجل الفقير (في وظيفته) لا يتكلم طبقًا للحقيقة، إن الذى يقول: إننى أريد، ليس عادلا، إنه متحيز للذى يحبه، إنه يميل للذى يملك الهدية (الرشوة)».

«العظيم من كان مستشاروه عظماء، والحاكم القوى من كانت حاشيته قوية، قل الصدق في قصرك يرهبك أمراء البلاد وحكامها في الأقاليم، وإن من صلحت نيته، صلحت أحواله، والبيت مرهوب بمن فيه».

«أقم العدل تخلد على الأرض، وهدئ روع الباكى، ولا تظلم الأرملة

ولا تحرم رجلا من ثروة أبيه، ولا تطرد موظفاً من عمله، وكن على حذر ممن ينتقم مما وقع عليه من ظلم، لا تقتل، فإن ذلك لا يكون ذا فائدة، بل عاقب بالضرب والحبس، فإن ذلك يقيم دعائم هذه البلاد، اللهم إلا من يثور عليك، وتتضح لك مقاصده، فإن الله يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور، والله هو الذى يعاقب أخطاءه بدمه، لا تقتل رجلا تعرف جميع مزاياه، رجلا كنت تتلو معه الكتابات (أى زميلا لك على أيام الدراسة).

«إن الروح تذهب إلى المكان الذى تعرفه، ولا تحيد فى مسيرها عن طريق أمسها، إن السحر لا يقوى على منعها، ولكنها تأتى إلى أولئك الذين يعطونها ماء».

«إنك تعلم أن القضاة يحاسبون المذنب، ولا يرحمون الشقى يوم المحاكمة، وتسود العاقبة إن كان المتهم هو الواحد العاقل (ربما تحوت رب الحكمة الذى سيدير المحاكمة يوم الحساب)، لا تضع ثقتك فى طول السنين، فهم ينظرون إلى مدى الحياة كساعة، ثم يبعث الإنسان ثانية بعد الموت، وترضع أعماله بجانبه كأكوام، لأن الخلود مثواه هناك (أى فى العالم الآخر)، والغبىّ من لا يهتم، أما من يأت إليهم دون أن يرتكب إثماً، فإنه سيثرى هناك، ويمضى مرحاً مثل سادة الأبدية (اسم للأبرار المتوقين).

«إعل من شأن الجيل الجديد تحبك العاصمة، وزد أتباعك من الرعية، إن مصر بلد عامر بنشئ غض فى سن العشرين، وأن الجيل الناشئ، إنما يسعد بمن يستوحى ضميره، فإن فعلت ذلك قلدك العامة، وأتاك ربُّ كل أسرة بأبنائه راضياً، فبهذه السياسة حارب القدماء من أجلنا، منذ رفعت أنا شأنهم، فارفع أنت شأن نبلائك، وعظّم محاريبك، واسبغ الخير على جيل الشباب من أتباعك، واحرص على أن يتزودوا بالعطايا، ويطمئنوا بامتلاك الأرض، ويكافئوا بالأنعام».

«لا تفرق بين ابن النبيل وبين ابن فقير الأصل، وتخيَّر الفرد لكفاءته الشخصية، إذا تعرضت حدودك للخطر، فاعلم أن هذا يعنى أن حملة القوس الذين في الشمال سيتمنطقون بعدة الحرب، ابن حصونك في الشمال».

«حسِّن علاقتك مع البلد الجنوبى (ربما يعنى طيبة) فيحضر إليك حملة الأكياس بالهدايا، لقد فعلت مثلما فعل الأجداد، وإذا لم يكن لديه من القمح ما يعطيه، فقابل الأمر بالرضى، ماداموا مستضعفين، واكتفي بخبزك وجعتك».

«إن الجرانيت الأحمر يأتيك دون عوائق، فلا تحدث ضرراً لمبنى أقامه غيرك، اقطع أحجارك من طره، ولا تبن قبرك من أحجار قبور غيرك، انظر أيها الملك الذى أريد له دوام الصحة والسعادة والحياة، لا تتقاعس وتنم مطمئناً إلى قوتك، اعتماداً على ما فعلته أنا قبلك، افعل أنت بنفسك، اعمل الفكر فيما فعلت، وانسج على منواله، فلا يكون لك عدو داخل حدودك».

«ثم قام رجل حاكم فى المدينة، وقد امتلأ قلبه بالأسى بسبب الدلتا»

«فنشرت السلام فى غربى الدلتا جميعه، حتى حدود البحيرة (ربما يعنى مستنقعات الدلتا)، كما كانت الأمور سيئة على شرقى الدلتا، فلقد انقسمت إلى أقاليم ومدن، وأصبحت سلطة رجل واحد فى أيدى عشرة، ولكنهم الآن يقدمون كشفاً كاملا بجميع أنواع الضرائب، ويدفعون الجزية إليك، كما لو كانوا عصبة واحدة، وسوف لايكون بينهم أعداء أشرار، ولا خوف عليك من أن لا يجرى النيل، فاطمئن على حصولك على حاصلات الدلتا، إن الحد الشرقى للمملكة أصبح الآن آمناً ضد البدو الآسيويين».

«انظر : لقد دققت أربطة السفينة وثبتها على الشاطئ فى الشرق (يعنى وصلت إلى الشرق)، وأصبحت الحدود من مدينة «حبنو» (فى مصر

الوسطى) إلى طريق حور (ويبدأ عند الفرع البيلوزى للنيل) عامرة بالمدن، ومليئة بقوم من خيرة أهل البلاد حتى يدفعوا أسلحة الأسيويين وغاراتهم، إننى أتوق إلى رجل شجاع يساوينى فى هذا، ويعمل أكثر مما عملت».

«انظر إلى الآسيوى اللعين (يعنى البدوى)، إن الأمور سيئة فى بلاده، فمأوه آسن، وطرقاته وعرة، لذلك فهو دائم الترحال، لا يستقر فى مكان واحد، وإنما ظل يشاغب منذ عهد الإله حور، لا يغلب ولا يُغلب، لا تهتم بأمره، فهو ليس إلا بدوياً، شخص منبوذ على الشاطئ، لا يغير إلا على الموطن المنعزل، ولا يجرؤ على مهاجمة مدينة عامرة بالسكان، أقم الحصون فى تخومك الشرقية، وابن مدناً وعمّرها بالسكان».

«انظر: لقد جعلت الدلتا تضربهم، وأسرت أهليهم، ونهبت ماشيتهم، فلا تجشم نفسك مشقة فى شأنهم».

«انظر: لقد عمرت مدينة «كموى» (ربما كانت تل أتريب فيما بعد)، إنها فى نقطة مركزية، لقد حصنت جدرانها للقتال، وزاد عدد جنودها، وكثر أهاليها».

«لقد كثر سكان إقليم «دد - أسوت» (ربما يقع على مقربة من منف)، حتى بلغ عدد سكانه عشرة آلاف رجل من المواطنين، يستمتعون بحق الإعفاء من الضرائب والمكوس، وقد تعود كبار رجاله على الذهاب إلى العاصمة، منذ عصر الإله حور».

«انظر: ماقاله الملك «إختوى» (رأس البيت الإهناسى) فى تعاليمه: إن من يسكت على إساءة المتبجح يضر بنفسه ضرراً بليغاً، وإن الله يهاجم من يسىء إلى المعبد».

«قدّم فروض الطاعة والإجلال لله، ولا تقل إنه ينسى».

«لا تقترب بضرر إلى الآثار التى أقامها الملوك الآخرون، حتى لا يجىء

ملك بعدك، فيضر بالآثار التى أقمتها، تذكر أنه لا يوجد إنسان ليس له عدو».

«انظر : إن حاكم شاطئ النهر عليم بكل شىء، وليس هناك ملك طائش، مادامت تقوم من حوله حاشية صالحة، وهو فطن حكيم منذ اليوم الذى خرج فيه من بطن أمه».

«إن الحكم مهنة شريفة وعظيمة، إن الحاكم إذا لم يكن له ولد، أو أخ، يحيى ذكراه ويخلده، فلا مانع من أن يقوم الحاكم بإحياء آثار غيره، فكل حاكم يجب أن يفعل ذلك لمن يسبقه، إذا أراد لما أقامه هو أن يعنى به الخلف الذين يأتون من بعده».

«انظر: إن مصر تحارب حتى فى الجبانة، إنى فعلت، وحدث لى ما يحدث لمن يخالف أوامر الله، انظر: لقد حدثت كارثة فى عهدى، غزى إقليم «ثنى» بسبب ما فعلت، غير أنى لم أعرف إلا بعد حدوثه، انظر: إن ما فعلته هو السبب فيما جوزيت به، فالضربة ترد بضربة أخرى، مضى جيل من الناس، والله الذى يعرف القلوب لم يختبئ، تعس هو الرجل الذى يطلب الحرب، لأن العدو وسط مصر، ونحن نريد جنداً لإخضاع المحاربين لكى تصدق النبوءة: هذه مصر تحارب وسط قبوها لا تؤذ القبور بالحرب، لأننى فعلت ذلك، ولهذا أستحق ما حل بى من عقاب الله».

«يمر الجيل متنقلا إلى جيل آخر بين الناس، والله العليم بالأخلاق قد أخفى نفسه... إنه الواحد الذى يبهر ما تراه الأعين، فاجعل الإله يخدم بالصورة التى سوى فيها ـ حجراً كريماً كان أم نحاساً ـ لأنه كالماء الذى يحل محله الماء، إنه لا يوجد مجرى يرضى لنفسه أن يبقى مختبئاً، بل يكتسح الذى يخفيه».

«زين مثواك الذى فى الغرب (عالم الآخرة)، وجمل مقعدك فى

الجبانة، ولكن إياك أن تكون شريراً، فالصبر خير، فاجعل ذكراك خالداً بحب الناس الك، اجعل الناس يحبونك في الدنيا، فالخلق الطيب ذكرى الإنسان، تذكر أن فضيلة الرجل المستقيم أحبُّ عند الله من ثور الرجل الظالم الشرير (أى الثور الذى يقدمه كقربان)، ومع ذلك افعل شيئاً للإله حتي يجازيك بالمثل، بقربان تمتلئ به المائدة، وبنقش يخلد به اسمك، والله عليم بكل من يفعل شيئاً من أجله».

«إنّ الله قد رعى الناس، وهم قطيع الله، وهو راعيهم، وقد خلق السماوات والأرض كما يرغبون، وخفّف من حدة الظمأ بالماء، وخلق الهواء لتحيا به أنوفهم، وإنهم لصورة منه خرجت من أعضائه، وهو يصعد إلى السماء حسب رغبتهم، وقد خلق لهم النبات والماشية والطيور والأسماك غذاء لهم، ولكنه يعاقب كذلك، فقد قتل أعداءه، وحارب أبناءه بسبب ما دبروه عندما انقلبوا عليه،وهو قد خلق النور حسب ما يرغبون، وجعلهم كذلك ينامون، وهو يسمعهم عندما يبكون، وجعل لهم حكاماً وهم فى البيضة (أى قد وهبوا الحكم قبل الولادة) ليحموا ظهور الضعفاء منهم، وجعل لهم من السحر سلاحاً يتقون به الحوادث، وهو الذى قتل عاتى القلب فيهم، كما يقتل رجل ابنه أو أخاه، إن الله عليم بكل اسم (أى بكل إنسان)».

ثم تنتهى الإرشادات بنصيحة عامة يفهم منها:

«ليتك تصل إلىّ (أى فى العالم الآخر) دون أن يتهمك أحد، لا تقتل أحداً ممن يقفون قريباً منك، بعد أن تكون قد امتدحته، والله يعرفه ــ دع الدنيا كلها تحبك».

«انظر: لقد حدثتك بخير ما فى نفسى من أفكار وآراء، فاعمل حسب ما تقرر أمامك».

٤ ـ صراع المتعب من الحياة مع روحه

لا ريب فى أن بردية «صراع المتعب من الحياة مع روحه» أو «بردية اليائس من الحياة» ، إنما تمثل نوعاً من «أدب الحوار» ، كما أنها تمثل واحدة من أهم وثائق عصر الثورة الاجتماعية الأولى فى مصر الفرعونية، وتسمى أحياناً «نزاع رجل مع روحه» ، وأحياناً «شجار بين إنسان سئم الحياة وبين روحه» ، وأحياناً «حديث نسر مع روحه» ، وعلى أية حال، فالبردية محفوظة فى متحف برلين تحت رقم (٣٠٢٤).

هذا، وكان «أدولف إرمان» أول من نشر البردية فى عام ١٨٩٦م[١]، ثم أعاد ترجمتها، مع إدخال تحسينات فى كتابه عن أدب المصريين القدامى الذى نشره بالألمانية عام ١٩٢٣م، والذى ترجمه إلى الإنجليزية «بلاكمان» فى عام ١٩٢٧م[٢]، كما نشر فولكنر فى عام ١٩٥٦م[٣]، و«بارتا» فى عام ١٩٦٩م[٤]، وهانز جدكه فى عام ١٩٧٠م[٥].

وقد اهتم أيضاً بترجمة البردية وتحليلها كثير من العلماء من أمثال: الكسندر شارف[٦]، وجيمس هنرى برستد[٧]، وهـ. هرمان[٨] ودى بك[٩] وريموند فيى[١٠]، وهرمان يونكر[١١]، وجاكبسون[١٢]، وفون بسنج [١٣]

(1) A. Erman, Gesprach eines Lebensmuden Mit Seiner Seele, APAW, Berlin, 1896.
(2) A. Erman, LAE, London, 1927, p. 86-92.
(3) R.O. Faulkner, JEA, 42, 1956, p. 21-40.
(4) W. Barta, Das Gespräch eines Mannes Mit Seinem Ba, Munchner Agyptologische Studien, 18, Berlin, 1969.
(5) H. Goedicke, The Report About The Dispute of A Man With His Ba, Baltimore, 1970.
(6) A. Scharff, SBAW, Munich, 1937.
(7) J. H. Breasted, The Dawn of Conscience, New York, 1939, p. 168-181.
(8) H Hermann, OLZ, 42, 1939, p. 141-153.
(9) A. de Buck, EX. Oriente Lux, 7, 1947, p. 9-32.
(10) R. Weill, in BIFAO, 45, 1947, p. 89-154.
(11) H. Junker, AOAW, Phi-hist, KI,1948, No. 17, Vienna, 1949.
(12) H. Jacobsohn, in Zeitlise Dokumente der Seele Studen aus dem C. G. Jung Institut Zurich, Vol. 3, 1952, p. 1-48.
(13) F.W. Von Bissing, Altagyptische Lebenweisheit, Zurich, 1955, p. 124-128.

وجون ويلسون[١] وس.هرمان[٢]، ور.وليامز[٣] وفولكنر[٤] وغيرهم[٥]، فضلا عن ترجمات عربية عدة[٦].

هذا ويرجع تاريخ النسخة التي تحت أيدينا إلى الأسرة الثانية عشرة (١٩٩١-١٧٨٦ق.م)، وهناك اتجاه إلى أنها منقولة عن نص أقدم، يرجع إلى ما قبل أيام الدولة الوسطى، وربما الأرجح إلى وقت الاضطرابات فيما بين الدولتين القديمة والوسطى، أي عصر الثورة الاجتماعية الأولى (نهاية الألف الثالثة قبل الميلاد[٧].

وتتكون البردية من مقدمة طويلة بليغة، ثم أربع قصائد شعرية، يذكر صاحبها في الأولى، كيف قل تقدير الناس للرجل الفقير، ثم يروى في الثانية بعضاً من مأساته، مبيناً مدى ضيقه بالناس وبدنياهم، ورأيه في هذا لا شك في أنه مليء بالتشاؤم، جدير بشخص يئس من حياته، وصمم على إزهاق روحه، وأما في الثالثة، فإننا نرى «نسو» (صاحب القصيدة) إنما يشيح بوجهه عن شرور الدنيا، ثم يتأمل الموت كمنجاة مباركة له، وهذا الجزء الثالث من القصيدة، إنما هو - فيما يرى الدكتور أحمد فخري[٨] -

---

(1) J.A. Wilson, ANET, 1966, p. 405-407.

(2) S. Hermann, Untersuchungen Zur Uberliefungsgestalt Mittelagyptischer Litereturwerke, Berlin, 1957, p. 62-79.

(3) R. Williams, JEA, 48, 1962, p. 49-56.

(4) R. O. Faulkner, The Literature of Ancient Egypt, London, 1977, p. 201-209.

(5) Miriam Lichtheim, Ancient Egyptian Literature, London, 1975, p. 163-169; E. Brunner - Traut, ZAS, 94, 1967, p. 6-15; G. Thausing, MDIK, 15, 1957, p. 262-267.

(٦) سليم حسن، المرجع السابق، ٢٨٢/٢-٢٨٩؛ نجيب ميخائيل، الحضارة المصرية، ص ٥١٨-٥٢٥؛ أحمد فخرى، المرجع السابق، ص ٤٤٧-٤٤٩؛ عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص ٣٤٤-٣٤٧.

(7) J.A. Wilson, op.cit., p. 405.

(٨) أحمد فخرى، المرجع السابق، ص ٤٤٨.

أجمل ما في البردية، وأما في القصيدة الرابعة فنرى «نسو» يضيف امتيازات الموتى الذين لهم القدرة على مقاومة الشر، وحرية الاتصال بالآلهة.

وأما أهمية البردية - كوثيقة تاريخية - فيرجع إلى أنها إنما تقدم للباحث صورة لهذا العصر - عصر الثورة الاجتماعية الأولى - الذي ساده الشك واليأس، فصاحب البردية (نسو) إنما يدعو إلى ترك الحياة، والاتجاه إلى الموت، نتيجة لما لاقاه في حياته من ظلم وقسوة، ومن ثم فهو في الواقع إنما يصف الحالة الفعلية والتجارب الباطنية لنفس معذبة، تتألم مما حاق بها من الظلم وسوء الطالع، وانطلاقًا من كل هذا، فإن «جيمس هنرى برستد»، إنما يذهب إلى أن هذا الموضوع، إنما يعد أقدم قطعة أدبية تتناول موضوع الخيرة، والتي تعد أقدم مثال يمثل لنا صورة مما ورد في سفر النبيّ «أيوب» - كما جاء في توراة يهود المتداولة اليوم[1] - وقد كتبت بردية «اليائس من الحياة» هذه، قبل أن تظهر التجربة المماثلة المتضمنة هذا الشعور في سفر مماثل بين العبرانيين بنحو ألف وخمسمائة سنة[2].

هذا ويدعو «نسو» كذلك إلى الاستغناء عن الطقوس الجنازية المعتادة، كما تدعو روحه إلى أن يعيش الإنسان ناسيًا حزنه، منغمسًا في السرور إلى أذنيه، ولعل هذه الدعوة التي تنادي بأن يأكل الإنسان ويشرب، وأن يكون فرحًا في يومه، لأنه سيموت في غده، إنما تتفق مع ما نادت به من قبل «أغنية الضارب على العود»، وإن اختلفت معها في أمر هام وخطير، إذ أخذت تبين أن الحياة فوق أنها ليست فرصة للسرور، والإسراف في الملذات، فهي عبء أثقل حملا من الموت، وهكذا دار حديث «نسو» حول السؤال الخالد عن معنى الحياة، وهو سؤال يبرز للمرة الأولى - فيما نعلم - في تاريخ الآداب عامة، وحديث الرجل، على أية حال، قطعة أدبية من خير

(١) انظر عن «سفر أيوب» - كما جاء في التوراة - : محمد بيومي مهران، بنو إسرائيل، طبعة ١٩٩٩م، ٦١/٣-٦٨؛ وانظر طبعة ١٩٩٩م.

(2) J. H. Breasted, op.cit., p. 168-169.

القطع الأدبية التي حفظت لنا من تاريخ مصر القديمة[١].

هذا فضلا عن أن قصيدة «نسو» هذه، والتي مدح فيها الموت، إنما هي أقدم صيغة وصلت إلينا، عبر الفرد فيها عما أصابه من العذاب ظلماً وعدواناً، وأول صرخة من متألم برئ وصلتنا في عصور ذلك العالم القديم، وهي تعد بحق ذات فائدة فريدة، ولا تخلو من جمال حقيقي بما احتوته من حرارة نفسية خلابة[٢].

وموضوع البردية حوار فلسفي بين «نسو» وبين روحه، ذلك أن «نسو» إنما قد يئس من حياته بعدما أصابه فيها من نكبات، وبعد أن تنكر له أقرب الناس إليه، وبعد أن حرم من الدفاع عن نفسه، وبعد أن حكم عليه ظلماً، وصار اسمه نتناً في أنوف الناس، وبعد أن خربت الذمم، وفسدت الضمائر، وكفر الناس بالله وصدوا عن سبيله، منصرفين عن جد الأمور لينغمسوا في الشهوات، وليتورطوا في كبائر الإثم، وقد قست القلوب وأنكر الناس ما قدم لهم ربهم من خير، وفي لجج هذه الغمرة النفسية أخذ الرجل يسبح في ظلمات اليأس، ويلتمس منها المخرج ويبحث عن أسباب الراحة، فلا يكاد يهتدى إليها إلا بالانتحار، والتخلص من هذه الحياة التعسة.

غير أن روحه قد التزمت جانب الرضا بدنياهم، والتغاضي عما وراءها ومن ثم فقد احتدم الجدل بينهما، حتى تحدثه بأن يقدم على الانتحار حرقاً، إن كان عازفاً عن الدنيا، راغباً في الموت، فما جرؤ صاحبها في بداية الأمر، ولما امتنع عليها في الحالتين ـ الرضا بالواقع أو الرضا بالموت ـ امتنعت هي الأخرى عن مناقشته، ولكنه سرعان ما عاود التفكير ثانية فيما دعته إليه، واعتزم أن ينتقل هو وإياها إلى عالم الآخرة، وبدأ يستدرجها في الحديث عساها تشجعه، وأشهد عليها جمعاً تخيله من الناس، فما جاوبته بغير رد مقتضب عاتبها في إثره قائلا:

(١) نجيب ميخائيل، مصر والشرق الأدنى القديم، ١/٢٧٥.

(2) J. H. Breasted, op.cit., p. 173-174.

«عـزيز على ألا تجـاوبنى روحى فى يومى هذا، إنهـا تهـرب فى يوم الشقاء، أى روحى إنه لغباء أن تصدى أمراً يملؤه الشجن ليحيا، خذينى إلى الموت قبل أن يأتينى، واجعلى من الغرب (عالم الآخرة) مكان سرورى، فقد يثيبنى فى الآخرة «تحوت»، مرضى الأرباب بقضائه، وينافح عنى «خونسو» الكاتب بعدالته، ويستجيب «رع» لابتهالاتى، فعنائى قد ثقل وطؤه».

وتصنعت الروح الغضب مرة أخرى، وأجابته مرة ثانية باقتضاب وهى تؤنبه «ألست رجلا؟ لقد ابتغيت الحياة من قبل، فماذا أنجزت، ثم تأخذ الآن تتأسى على الحياة شأن ربِّ النعمة؟ فأجابها: «إذا أصاخت لى روحى، ولا خطيئة بى، وكان فؤادها معى، فلسوف تهنأ، ولأجعلنها حينذاك تبلغ الغرب، شأن من أقام فى هرمه، ووسده وريثه...، فإذا حلت بينى وبين الموت على هذا الوضع، فلن تجدى ما تحطين عليه فى عالم الغرب، تجلدى إذن روحى، وقومى منى مقام الوريث، يقدم القربان، وينهض على مثواى يوم الدفن، ويهيئ مضجع الآخرة»[١].

وقد يبدو ذلك غير متوقع من رجل اتضح أنه يشك كثيراً فى فائدة المعدات المادية التى كانت تعمل للمتوفى، حين ينتقل إلى العالم الآخر، إلا أننا نكشف السر بعد ذلك، فنرى أن ذلك حيلة أدبية، أراد الكاتب عن طريقها أن يندد بالمعدات الجنازية[٢]، ثم أخذت روحه تتردد فى الموافقة على مرافقته، ثم تحاول أن تنفره عن الموت، فأخذت تصف له فظائع القبر، «ثم فتحت روحى فمها وأجابت: إذا تذكرت الدفن فإنه حزن، وذكراه تثير الدمع، وتفعم القلب حزناً... فهو ينتزع الرجل من بيته، ويلقى به على الجبل، ولن يصعد ثانية ليرى الشمس»[٣].

(١) عبد العزيز صالح، الشرق الأدنى القديم، ١/٣٤٤-٣٤٥.

(2) J. H. Breasted, The Dawn of Conscience, N.Y., 1939, p. 169.

(3) A. Erman, The Literature of the Ancient Egyptians, London, 1927, p. 87-88.

وهكذا لم تستقر الروح على رأى ثابت فى فكرة الخلود التى كانت تسيطر على القوم وقت ذاك، فنراها تشككه فى تلك الفكرة الخالدة فى أذهان الناس، فهؤلاء الذين بنوا لأنفسهم مقابر فخمة، إنماهم والذين لم يبنوها سواء بسواء، فالكل تحت حرارة الشمس، والكل تعقد معه الأسماك الأحاديث «عندئذ فتحت روحى فمها لتجيبنى: لن تعود ثانية لتشهد الشمس... إن من شادوا المبانى الفخمة من أحجار الجرانيت الصلبة، وخصصوا لأنفسهم قاعة فى الهرم، وقدمت لهم كل الخدمات الجيدة... أصبحت موائد قرابينهم خالية، بعد أن صاروا آلهة (أى ماتوا)، وأصبحوا سواء، والمتعبين الذين قضوا على ضفاف القنوات، نال الفيض مقصده منهم، وكذا حرارة الشمس... أما الأسماك على ضفة النهر، فتجلس إليهم تعقد معهم الأحاديث»[1].

وتتجه روحه إليه بعد ذلك، ناصحة إياه بأن ينس الهموم، ويأخذ من اللهو نصيبه «اصغ إلىّ وإنه لجدير بالناس أن يصغوا، تمتع بيوم المسرة، وانس الهموم»[2]، ولكنها بعد ذلك توافق على البقاء بجانبه - حتى ولو انتحر - ذلك أن الحياة - بجانب أنها فرصة للسرور والملذات - فهى عبء أثقل من الموت نفسه، وإنها سيئة لدرجة تجعل الموت خلاصاً للإنسان من سيئاتها، ولذا فهى ترحب بالموت، «مرحباً بالموت، إننى فى شوق للقائه، كشوق الرجل إلى بيته، بعد أن يقضى سنيناً طوالا فى الأسر والعناء».

وهكذا نرى الروح التى حاولت أن تبعد صاحبها عن الموت، لم يكتب لها نجحاً فى مسعاها، بل على العكس هو الذى نجح آخر الأمر فى أن يضمها إلى رأيه، مما يدل على مدى ضيقه بالحياة، ورغبته فى التخلص منها، ولكن علينا ألا نتوهم أن ما دفع «نسو» إلى كره الحياة ومحاولة

(1) R.O. Faulkner, in The Literature of Ancient Egypt, London, 1977, p. 203-204; M. Lichtheim, op.cit., p. 165; A. Erman, LAE, 1927, p. 88.

(2) R.O. Faulkner, op.cit., p. 204.

التخلص منها، إنماكانت آلامه الشخصية، وما لاقاه من عناء فى حياته، ذلك لأن الرجل إنما قد استطاع أن يسمو على آلامه الشخصية، ويلم بأطراف المجتمع إذ ذاك، ويحيط بأحواله، وبذا لم تكن آلامه الشخصية إلا نموذجاً لما يلاقيه المجتمع الذى يعيش فيه، ويؤيد ذلك قوله: لمن أتحدث اليوم، فليس هناك عدول، والأرض قد تسلمها الظالمون»[١]، وإن هؤلاء الظالمين قد أجرموا فى حق كل مقدس، وداسوا بأقدامهم القانون ووطئوا مجد وتاريخ مصر، ومن ثم فهو لا يود أن يعيش فى هذا الجو، ولعل فى هذا شبه بما جاء فى تحذيرات الحكيم المصرى «إيبو - ور» «آه لو يفنى الناس ولا يعود هناك حمل ولا ولادة، ليت العالم يتخلص من الغوغاء، وتنقضى المشاحنات»[٢].

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن هذا الحوار بين «نسو» وبين نفسه (روحه) إنما يتناول السؤال عن معنى الحياة من ناحيتين، تتعلق إحداهما بما إذا كان هناك معنى للحياة إذا اختفى كل ما كان من شأنه أن يجعل الحياة سعيدة، والأخرى أكثر عمقاً وأوسع مدى، فلم يكتف الكاتب فيها باستعراض ذلك العراك بين الأفكار والرغبات، وإنما عمد إلى موازنة بين وجهتى النظر المختلفتين اللتين سادتا الحياة فى ذلك العصر، بينما نجد روح «نسو» تلتزم الدفاع عن متع الحياة الرخيصة وتدعوه ألا يفكر كثيراً فى الآخرة، وأن يتقبل برضى كل ما تقدمه الحياة، ويمثل الكاتب ذلك الفريق من المصريين الذين احتفظوا بجأشهم، والذين محصتهم الآلام والنكبات، وطهرتهم من أدرانهم، فأكسبتهم بصيرة وزادتهم إيماناً بالآخرة، وبقيمة أعمالهم الصالحة فى الحياة الدنيا.

وانطلاقاً من كل هذا، إنما يبدو واضحاً أن ما حدث إنما يتكرر حدوثه

(1) Ibid., p. 207.
(2) J. A. Wilson, ANET, p. 442.

في الإنسانية، وإن فرط النكبات والمساوئ الاجتماعية المنتشرة، وازدياد البلاد، إنما يحدث أثراً مزدوجاً، ففريق ممن تصيبهم النكبات ـ وهم أكثرية ـ يجرفهم تيار الأحداث، بينما يفترض أن تدعو تلك الأحداث إلى التبصر، وأحياناً إلى التشكك»[١].

وعلى أية حال، فالنص فريد في نوعه بين النصوص المصرية، حتى ذهب بعض الباحثين إلى أنه غير مصري في روحه، فهو يدعو إلى ترك الحياة، والالتجاء إلى الموت، كما أنه غير مصري في استغنائه عن الطقوس الجنازية المعتادة وما يتبعها من أثر نفسي، وفي ما أباح فيه الفرد لنفسه من حرية في مناقشة العقيدة السائدة، وأن من حق الإنسان أن يجد حلا فردياً في أخطر المشكلات.

غير أننا لو بحثنا في آداب الأمم الأخرى لما وجدنا أصلا له فيها، وطبيعة «الباء» مصرية صرفة، كما أن الوثيقة تتفق وروح العصر الذي كان يخيم عليه روح التشاؤم (عصر الثورة الاجتماعية الأولى)، إنه غير مصري لأن مصر لم تعرف ذلك اليأس الروحي والمادي، وربما كان ذلك بالمصادفة، وربما كذلك أن المصريين ـ فيما تلا ذلك من عصور ـ لم يحبوا هذا النوع من اليأس عند ظهور العقبات، وأنهم اهتدوا إلى حلول أخرى للتغلب على ما أصابهم من مآزق[٢].

هذا وتتكون الوثيقة ـ كما أشرنا من قبل ـ من مقدمة بليغة، فيها حوار بليغ، كما رأينا في السطور السابقة، يرى فيها صاحب الوثيقة (نسو) الموت منقذاً من حياته البغيضة الشقية، بعد أن ذاق مرارة البؤس، وهجره أخلاؤه، وأزرى به الهوان، فأشرف على الانتحار ليضع بيده خاتمة لحياته فيحرق نفسه، فلقد دفعته حياته إلى أن يخطو هذه الخطوة، ولكنه عاد

(١) نجيب ميخائيل، مصر والشرق الأدنى القديم، ١/٢٧٥-٢٧٦.

(2) J.A. Wilson, The Burden of Egypt, Chicago, 1954, p. 113.

فأحجم عنها، فلا قبر يأويه، ولا عقب يتردد عليه بالقرابين، ومن ثم فسوف يقضي هناك جوعاً وبرداً، وهكذا نراه يحرض روحه على ألا تتخلى عنه عند الموت.

«ثم فتحت فمي لروحي حتى أجيب عما قالت... إن روحي ستسندني هناك، إنها تهرب في يوم الشقاء، إنّ روحي تعطلني، وأنا لا أكترث بها، وتجذبني إلى الموت قبل أن ألقاه، وتلقى بي في النار لتحرقني... أي روحي إنه لغباء أن تصدى إمرأ يملؤه الشجن ليحيا... ويناقح عني «خونسو» الكاتب بعدالته، ويستجيب «رع» لابتهالاتي، فعنائي قد ثقل وطؤه».

«وأجابت روحي: أنت بمثابة لا شيء، ثم تتحدث عن الأشياء الطيبة كما لو كنت تملك الكنوز».

«قلت: سوف لا أذهب طالما هذه روحي، باقية على الأرض، إن نصيبك الموت، لو أن روحي تصغى إليّ ستكون منعمة، سأجعلها تصل إلى الغرب، كروح من دفن في الهرم، وفتحت روحي فاها وأجابت: إذا تذكرت الدفن فإنه حزن، وذكراه تثير الدمع، وتفعم القلب حزناً... فهو ينتزع الرجل من بيته، ويلقى به على الجبل، ولن يصعد ثانية ليرى الشمس، أين بناة الأهرام مَنْ زينوا الأبهاء، وشادوها بأحجار الجرانيت الصلبة، وخصصوا لأنفسهم قاعة في الهرم، وقدمت لهم كل الخدمات المجيدة، أصبحت موائد قرابينهم خالية، بعد أن صاروا آلهة (أي ماتوا)، وأصبحوا سواء هم والمتعبين الذين قضوا على ضفاف القنوات، نال الفيض مقصده منهم، وكذا حرارة الشمس... أما الأسماك على حافة النهر فتجلس معهم تعقد الأحاديث، استمع إليّ... فخير للمرء أن يستمع... تابع ملذات اليوم، وانس الهمّ....».

وعندئذ فتحت فمي إلى روحي لأقول:

القصيدة الأولى:

أنظر: إن اسمي أصبح كريها أكثر من رائحة اللحم النتن في أيام الصيف، والسماء حارة.

أنظر: إن اسمي كريه أكثر من صيد السمك في يوم صيده، والسماء حارة.

أنظر: إن اسمي كريه أكثر من رائحة الطيور، وأشد من تل صفصاف مزدحم بالأوز.

أنظر: إن اسمي كريه أكثر من رائحة الصيادين، وأكثر من شطآن المستنقعات حين يصيدون.

أنظر: إن اسمي كريه أكثر من رائحة التماسيح وأكثر من الجلوس حيث تكون.

أنظر: إن اسمي كريه أكثر من زوجة ردد عنها الناس البهتان لزوجها.

أنظر: إن اسمي كريه أكثر من مدينة... وأكثر من ثائر مدبر.

القصيدة الثانية:

لمن أتحدث اليوم، فلقد أصبح الرفاق شراراً، وأصدقاء اليوم غير جديرين بالحب.

لمن أتحدث اليوم، فالقلوب ملأى بالجشع، وكل شخص يأخذ متاع جاره.

لمن أتحدث اليوم، وقد وقر الناس على السوء، وأهملت الحسنى في كل مكان.

لمن أتحدث اليوم، وقد استحال الرجل الطيب إلى شرير، والخير مكروه في كل مكان.

لمن أتحدث اليوم، فمستثير الحليم بشروره، يدع الناس يسخرون منه حين تشتد وطأة عسفه.

لمن أتحدث اليوم، فالناس يسرقون، وكل امرئ يغتال متاع جاره.

لمن أتحدث اليوم، فليس للمريض صديق يوثق به، وأخوه أصبح عدوه.

لمن أتحدث اليوم، فلا أحد يذكر آلامى، وليس هناك اليوم من يجازى بالخير من قدمه.

لمن أتحدث اليوم، وما عاد أحد يذكر الماضى، ولا معونة لأحد فى هذه الأيام.

لمن أتحدث اليوم، فالأخوة شر، والمرء يعامل كعدو، رغم نقاء سريرته.

لمن أتحدث اليوم، فالوجوه محجوبة، وكل امرئ يولى وجهه عن إخوانه.

لمن أتحدث اليوم، وما من أحد رضى الفؤاد، ومن كان يرافق لم يعد له وجود.

لمن أتحدث اليوم: فليس هناك عدول، والأرض قد تسلمهاالظالمون.

لمن أتحدث اليوم، فالصديق الصدوق قد اختفى، والمرء يعامل كمجهول رغم إعلان نفسه.

لمن أتحدث اليوم، فليس هناك مسالم، والصاحب لا وجود له.

لمن أتحدث اليوم، وأنا مثقل بالتعاسة، وفى حاجة إلى صديق صدوق.

لمن أتحدث اليوم والخطيئة التى تحل بالأرض تبدو وكأنما لا نهاية لها.

القصيدة الثالثة:

الموت أمامى اليوم يبدو كالبرء للسقيم، والخروج إلى القضاء بعد حجز.

الموت أمامى اليوم كعبير «المر» وجلسة تحت ظله فى يوم ريح صرصر عاتية.

الموت أمامى اليوم كرائحة اللوتس تخدرنى كما لو كنت جالساً على شاطئ الانشراح.

الموت أمامى اليوم كالسماء عندما تصفو، وكحصول المرء على ما لم يكن يتوقعه.

الموت أمامى اليوم كشوق الرجل إلى بيته بعد قضاء سنين طوال فى الأسر والعناء.

القصيدة الرابعة:

ويم الحق من وصل هناك، سيكون رباً يحيا، يرد الشر على من أتاه.

ويم الحق من وصل هناك، سيكون عالماً بالأمر، ولن يصرف عن شكواه لرع إذا ناجاه.

ثم تستمر القصيدة بعد ذلك، وتأخذ الروح تخفف آلام صاحبها، فتطلب منه أن يترك الحزن والأسى، وتؤكد له أنهما سيكونان معاً: «سيهدأ بالى بعد أن يستقر أمرك (فى الموت) وسنعيش معاً»(١).

---

(١) نجيب ميخائيل، الحضارة المصرية القديمة، ص ٥١٩-٥٢٢؛ أحمد فخرى، المرجع السابق، ص٤٤٧-٤٤٩؛ عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص ٣٤٤-٣٤٧؛ سليم حسن، المرجع السابق، ص ٢٨٤-٢٨٩؛ وكذا:

R.O. Faulkner, op.cit., p. 202-209; M. Lichtheim, op.cit., p. 164-169; A. Erman, op.cit., p. 86-92; J.A. Wilson, ANET, p. 405-407; J. H. Breasted, op.cit., p. 168-181; R. Williams, op.cit., p. 49-56.

٥ ـ قصة الفلاح الفصيح

اختلف المؤرخون فى اسم هذه القصة، فيسميها البعض «احتجاجات ـ أو شكاوى الفلاح الفصيح»، ويسميها آخرون «شكوى الفلاح الفصيح»، ويرى فريق ثالث أنها «قصة فلاح من الواحة المتاخمة لوادى النطرون»، ويذهب أستاذنا الدكتور أحمد فخرى، طيّب الله ثراه، أننا لا نملك أى دليل على أن صاحبها كان فلاحاً يعمل فى الأرض، وإنما الأرجح أنه أحد الأهالى الذين يعملون فى التجارة، على أن «جوستاف لوفيفر» إنما يفضل تسميتها «قصة الواحى»، غير أن إطلاق كلمة «الواحى» على أحد سكان وادى النطرون أمر لا يستقيم مع العرف، ذلك لأن سكان الواح إنما هم سكان سيوة والبحرية والفرافرة والداخلة والخارجة فقط، ولهذا يسميها البعض «قصة القروى الفصيح»، لأن صاحبها ـ سواء كان يعمل فى التجارة أو فى الفلاحة أو فى استخراج النطرون أو الأعشاب ـ فإنه كان يعيش فى ذلك المكان الذى لا يعدو أن يكون قرية صغيرة، ولم يكن من أبناء المدن المتعلمين، وكان الإعجاب به لأنه كان شخصاً بسيطاً من سكان الأماكن النائية، ومع ذلك فقد أوتى قدراً عظيماً من الفصاحة وحسن التعبير[١].

وكان «شابا» أول من لفت الأنظار إلى هذه البردية فى عام ١٨٦٣م، وفى عام ١٩١٣م قام «فوجلز إنج» بنشر نصوصها نشراً كاملا[٢]، وفى عام ١٩٢٣م قام «جاردنر» بنشر إضافات وتصحيحات لها[٣]، وهناك ترجمات كثيرة للبردية، منها ترجمة «ماسبيرو» و«رويدر» و«سايس»، و«إرمان»

---

(١) أحمد فخرى، المرجع السابق، ص ٢٩٤؛

J.A. Wilson, ANET, 1966, p. 407; A.H. Gardiner, Egypt of The Pharoahs, Oxford, 1961, p. 112; W.K. Simpson, op.cit., p. 31; M. Lichiheim, op.cit., p. 169.

(2) F. Vogelsong, Kommentar Zu den Klagen des Bawern, Untersuchungen, b, Leipzig, 1913, 1964.

(3) A.H.Gardiner, JEA, 9, 1923, p. 5-25.

و«لوفيفر»، كما حلل نصوصها واقتبس منها وناقشها كثير من العلماء الأجانب وبلغات مختلفة(١).

وأما ترجمة الوثيقة باللغة العربية، فهناك ترجمة الدكتور سليم حسن(٢)، هذا فضلا عن ترجمات موجزة لأهم عناصر البردية في كتب التاريخ المصري القديم(٣).

هذا وقد حفظت لنا البردية في أربع نسخ من عهد الدولة الوسطى منها ثلاثة بمتحف برلين (الأولى برقم 10499R، والثانية برقم 3023RI، والثالثة برقم 3025R2) وأما النسخة الرابعة ففي المتحف البريطاني برقم (١٠٢٧٤)، هذا عدا المقتطفات الأخرى، ومن حسن الحظ أن البردية لم تصل إلينا عن طريق نسخة متأخرة محرفة أو بالية - ككثير من المخطوطات المصرية القديمة - وإنما بقيت محفوظة جيداً، حتى وصلت إلينا في لفافة من البردي الفخم

---

(1) De Buck, Readingbook, p. 89-99; K. Sethe, Agyptische Lesetucke, Leipzig, 1924, p. 17-25; K.Sethe, ERL, Leipzig, 1927, p. 21-32; A. Erman, LAE, London, 1927, p. 116-131; F. Lexa, Arch, Or, 7, 1935, p. 372-383; F. Lexa, RT, 34, 1912, p. 218-231; A.H. Gardiner, PSBA, 35, 1913, p. 264-276; E. Sayce, Etude sur le Conte du fellah Plaideur, Rome, 1933, G. Lefebvre, op.cit., p. 41-69; A.M. Blackman, JEA, 20, 1934, p. 218-219; F. W. Von Bissing, Altagyptische Lebensweishit, Zurich, 1955, p. 155-170.

ولعل من أحد ترجمات البردية:
M. Lichtheim, op.cit., p. 169-184; J.A. Wilson, ANET, p. 407-410; R.O. Faulkner, in The Literature of Ancient Egypt, p. 31-49; S.Hermann, ZAS, 80, 1955, p. 34-39; S.Herrmann, ZAS, 82, 1958, 55-77; G. Lanczkowski, Altagyptischer Prophetismus, Wiesbaden, 1960.

(٢) سليم حسن، المرجع السابق، ص ٥٤-٧٠.

(٣) أحمد فخري، المرجع السابق، ص ٣٩٣-٣٩٦؛ عبد العزيز صالح، الشرق الأدنى القديم، ٣٦٢/١-٣٦٥؛ جوستاف لوفيفر، روايات وقصص مصرية من العصر الفرعوني، ترجمة علي حافظ، ص ٩٠-١٣٥؛ نجيب ميخائيل، المرجع السابق، ص ٤٩٧-٥٠١؛ عبد الحميد زايد، مصر الخالدة، ص ٣٠٨-٣١٤؛ محمد بيومي مهران، الثورة الاجتماعية الأولى، ص ١٥-٢١؛ مصر ٣١٥/٢-٣٢٤.

الذى كتب فى ذلك العصر الإقطاعى الأول (عصر الثورة الاجتماعية الأولى)[1].

وقد اختلف المؤرخون فى عصر الملك الذى جرت فى عهده أحداث «قصة القروى الفصيح» وربما كان السبب فى اختلافهم هذا، هو اختلافهم فى ترتيب ملوك العهد الإهناسى (الأسرتين التاسعة والعاشرة) وهكذا فإنهم يتفقون على أن القصة حدثت فى عهد الملك «نب كاو رع» ولكنهم يختلفون فى مكان هذا الملك من العهد الإهناسى، وبالتالى يختلفون فى الأسرة التى حدثت على أيامها هذه القصة، فبينما يضعها فريق فى الأسرة التاسعة، يضعها آخرون فى الأسرة العاشرة[2]، وهكذا رأينا «الكسندر شارف»، يرى أن القصة قدمت لأحد ملوك الأسرة العاشرة[3]، ويذهب «وليم هيز» إلى أن الملك «نب كاو رع» (اختوى الخامس) هو آخر ملوك إهناسيا، وربما كان الفرعون الذى جاء ذكره فى قصة الفلاح الفصيح[4]، ويرى «ونلوك» أن هناك افتراضاً عاماً بأن الملك «نب كاو رع» (اختوى ـ خيتى) الذى حدثت فى عهده قصة الفلاح الفصيح، قد خلف الملك «مرى كارع» على عرش الكنانة وقد حكم البلاد حتى استسلمت إهناسيا لأمراء طيبة، وبمعنى آخر أن «نب كا رع» هو آخر حكام العهد الإهناسى[5].

على أن الدكتور أحمد فخرى إنما يرى أن حوادث قصة القروى الفصيح كانت فى عصر الملك «نب كاو رع» أحد ملوك إهناسية فى الأسرة

(1) R.O. Faulkner, M. Lichtheim, op.cit., p. 169-170.

(٢) انظر عن ترتيب ملوك الأسرتين التاسعة والعاشرة: محمد بيومى مهران، مصر، (الإسكندرية ١٩٨٨م)، ٢/٢٨٤-٢٩٠.

(٣) الكسندر شارف، تاريخ مصر، ص ٧٣.

(4) W.C. Hayes, The Scepter of Egypt,I, New York, 1953, p. 145.

(5) H.E. Winlock, The Rise and Fall of The Middle Kingdom in Thin Thebes, N.Y., 1947, p. 23.

العاشرة، ولكنها كتبت بعده بقليل، وهذا يعنى أنها كتبت فى الأسرة الحادية عشرة على الأقل، على أساس أنها حدثت فى عهد «خيتى الخامس»، الذى لم يبق على العرش طويلا، فقد عاودت جيوش طيبة هجومها، فقضت على عائلته فى إهناسيا[١]، وأخضعت مصر كلها، وبدأت الأسرة الحادية عشرة عهداً جديداً.

وإننى لأميل إلى أن قصة القروى الفصيح هذه، إنما قد حدثت على أيام الأسرة العاشرة، وذلك لأنه رأى الغالبية من المؤرخين، ولأن هناك اتفاقاً على أنها حدثت على أيام الملك «نب كاو رع»، وهو - فيما ترى جمهرة المؤرخين - أحد ملوك الأسرة العاشرة، وربما كان آخر الحكام الإهناسيين[٢] والذى تم فى أيامه انتصار أمراء طيبة على ملوك إهناسية، ثم كتب لهم بعد ذلك أن يعيدوا الوحدة للبلاد، تلك الوحدة التى فقدتها مصر على أيام الثورة الاجتماعية الأولى، والتى أقامها منذ فجر التاريخ أقرباء لهم من أمراء «نخن»[٣] (البصيلية - مركز إدفو - بمحافظة أسوان).

وعلى أية حال، فإن قصة القروى الفصيح إنما تتكون من مقدمة وتسع خطب أو شكاوى، عنى الكاتب بانتقاء معانيها، وتعبيراتها وألفاظها كل العناية، وفى الواقع أن القصة إنما تعد آية فى بلاغة الأسلوب كما أن بيان الشكوى رائع أخاذ، فيه كثير من التورية، وفيه كثير من التهكم الرائع، ثم إن الصورة التى عرضها ذلك الفلاح - أو القروى - إنما تعد مظهراً صادقاً، لما كان واقعاً يومئذ من ضيق الناس، بحال البلاد، وتبرمهم بالفوضى التى

---

(١) أحمد فخرى، مصر الفرعونية، ص ١٧١؛ تاريخ الحضارة المصرية القديمة، ص ٣٩٤.

(٢) إهناسية: كانت عاصمة البلاد فى عهد الأسرتين التاسعة والعاشرة، واسمها المصرى «نن - نيسو» وسماها العرب «إهناس»، وهى «إهناسية المدينة» الحالية، إحدى مراكز محافظة بنى سويف، وتقع على الضفة الشرقية لبحر يوسف، فى مقابل مدينة بنى سويف، وعلى مبعدة ١٦ كيلا إلى الغرب منها. (محمد بيومى مهران، الحضارة المصرية القديمة، الإسكندرية ١٩٨٤م، ص ١٦٧).

(٣) انظر عن «نخن» ودورها السياسى والحضارى: محمد بيومى مهران، مصر، (الإسكندرية ١٩٨٨م)، ٥٩/٢-٧٤.

سادت حياتهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية، كما أن فى تكرار موضوع الشكوى تسع مرات، مع ما تخلل ذلك من دعابة الحديث، مما يدل على الروح التى سادت هذا العصر، وعلى الحض على العدالة، واعطاء كل ذى حق حقه، وحماية الفقير من سطوة الأغنياء وأصحاب النفوذ، وقد كتب لصاحبها نجحا بعيد المدى فى أن يوضح لنا بصور شتى ما كان يدور فى عقل ووجدان ذلك القروى البسيط، بل ما يدور فى عقل ووجدان كل مصرى عضه الجوع، ومرّ عليه البأس، ووقع فريسة لأصحاب الجاه والسلطان.

وتتلخص قصة القروى الفصيح هذه فى أن قروياً يدعى «خون إنبو» خرج من قريته ـ وهى بلدة تسمى «حقل النطرون» من إقليم وادى النطرون بمقاطعة الفيوم، على رأى، وهى واحة متاخمة لوادى النطرون على رأى آخر، وهى بلدة «غيط الملح» التى لا نعرف مكانها على وجه التحديد، وإن غلب على الظن أنها كانت فى نواحى الفيوم، على رأى ثالث ـ بغية التجارة فى شتى السلع من الغاب والنطرون والملح والأخشاب وبعض الجلود وبعض محاصيل النباتات التى كانت تنمو فى تلك الواحة قديماً، وبعض أنواع من الحجارة وبعض الطيور، وكثير من الحبوب التى كانت تنمو هناك، ليستبدل ذلك كله بمحاصيل الوادى فى العاصمة إهناسيا، ومن ثم فقد قال لزوجته «مرية» أو «مارية»: «أنظرى إننى شاخص إلى العاصمة لأجلب المؤونة لأولادى، من فضل تجارتى فانطلقى فاكتالى لى الشعير الذى تركته فى المخزن، فاكتالتها له فكانت ثمانية مكاييل ثم قال لها: عندك كيلان لك ولأولادك، ولكن اصنعى لى من المكاييل الستة الباقية خبزاً وجعة عن كل يوم أقضيه هناك».

وهكذا ترك الرجل قريته، ولم يترك لزوجه وأولاده ما يكفيهم إلا لأيام معدودات، ثم حمّل حميره بشتى السلع بغية أن يبيعها فى العاصمة

إهناسيا، وهناك وعلى مقربة من إهناسية، وفى قرية ـ وربما ضيعة ـ تدعى «بر ـ فيفى» كان يتولى أمرها موظف شرير يدعى «تحوت ـ نخت» نيابة عن موظف كبير، كان يتولى وقت ذاك منصب كبير حجاب قصر فرعون، أو ناظر الخاصة الملكية، ويدعى «رنسى بن مرو»، وطمع «تحوت ـ نخت» فى تجارة القروى وحميره، وأراد أن يكون له نصيب منها، إن لم يستول عليها كلها، وتفتق ذهنه عن حيلة خبيثة، فاعترضه على طريق زراعى ضيق، كان لابد أن يمر عليه، وأوعز إلى خادمه أن يبسط على الطريق قماشاً يغطيه بالعرض، ولما تقدم القروى على الطريق نهاه «تحوت ـ نخت» أن يمر على قماشه المفروش، فاعتذر القروى بأنه كان حسن النية فيما أقدم عليه، وابتعد عن القماش وسار قرب الزراعة فنهره «تحوت ـ نخت» مرة أخرى، وفجأة قضم أحد حمير القروى قضمة من سنابل الغلال، فاعتبرها «تحوت ـ نخت» فرصته وأصرّ على أن يستولى على الحمار جراء جرمه، ويحتج القروى ويهدد بإبلاغ الأمر إلى ناظر الخاصة صاحب الأرض قائلا: إنى أعرف ربّ هذه الضياع، إنها للسمير الكبير «رنسى بن مرو»، إنه يلجم كل لص فى هذه البلاد كلها، أم ترانى أسرق فى ضياعه.

ويغضب «تحوت ـ نخت»، وتأخذه العزة بالإثم، ويستولى على بضاعة الرجل وحميره، ثم يتناول غصناً من الأثل الأخضر،وينهال على الرجل فى كل أجزاء جسمه، ويصيح القروى باكياً، ولكنه كلما بكى، كلما أعاد «تحوت ـ نخت» ضربه آمراً إياه بالسكوت وعدم الشكوى، فيرد القروى: أتضربنى وتسرق مالى وتمنعنى أن أشكو»، ويظل القروى ببابه عشرة أيام يستعطفه ويتضرع إليه، ولكنه لم يعره التفاتاً، مما اضطره إلى أن يشكو إلى ناظر الضيعة «رنسى بن مرو».

ويتقدم القروى بشكايته إلى النبيل «رنسى بن مرو» وقد قابله ذات صباح وهو فى طريقه من داره إلى النهر ليستقل قارب المحكمة، فرجاه أن يرسل معه تابعاً من عنده حتى يعهد إليه بقصته، ورجع التابع بنص القصة إلى رئيسه، ويتمكن القروى من أن يثير إعجاب «رنسى بن مرو» ببلاغة

لفظه، وفصاحة تعبيره، ويرفع «رنسى بن مرو» الأمر إلى القضاء لعلهم ينصفوا ذلك القروى من «تحوت ـ نخت» ولكنهم لم يفعلوا شيئاً وأجابوا: ربما كان ذلك القروى أحد فلاحى «تحوت ـ نخت»، وأنه أراد تركه والعمل عند غيره، وطلبوا من «رنسى بن مرو» أن يطلب من عامله «تحوت نخت» أن يعوضه عن كمية النطرون، ولكن «رنسى بن مرو» لم يعر حكمهم الظالم أى اهتمام، وأسرّ فى نفسه أمراً عزم على تنفيذه.

واستبطأ القروى رد «رنسى بن مرو» فوجه إليه عتاباً رقيقاً ليناً، حاول أن يستثير فيه نخوته، فحببه فى العدل، ووصفه بما يحب أمثاله أن يوصفوا به، وكان من قوله له : إذا كنت حقاً أبا لليتيم، وزوجاً للأرملة وأخاً للمرأة المنبوذة، ورداً لمن لا أم له، فشجعنى على أن أنشر سمعتك فى الأرض بما يتفق مع القانون الصحيح، وعساك تكون حاكماً بريئاً من الجشع، ونبيلا منزهاً عن الدنية، تزهق الباطل وتحق الحق، وتلبى نداءه ها أنذا أقول وأنت تسمع، أقم العدل أمدحك ويمدحك المادحون، أزل كربى واحمنى، فقد وهنت قوتى، وضلت حيرتى».

وهنا لعل سائلاً يتساءل: مابال هذا القروى المظلوم، لم ينصف على عجل، وهل يجوز لنا أن نرمى حكام مصر بالإهمال والمحاباة؟

فى الواقع إن الأمر لم يكن كذلك، فالحاكم الكبير «رنسى بن مرو» قد أعجبته فصاحة «خون ـ إنبو» فأخبر الملك أن فى رعاياه «قروياً فصيحاً»، وكان الملك ـ كما يقول جوستاف لوفيفر ـ فى حاجة إلى من يسرى عنه، فانتهز الفرصة، وطلب ألا يبت فى شكوى القروى، استزادة من فصاحته، على أن تسجل شكاياه وترفع إليه، يقول الملك لكبير حجابه : «دع أمره يقضى فيه على مهل، ولا تجبه فى شىء مما يقول، والزم الصمت حتى لا يكف عن الكلام، واكتب ما يقوله حتى نسمعه، على أن تتكفل برزق زوجه وعياله، وذلك لأن القروى لا يأتى (إلى العاصمة) إلا بعد إملاق»، وهكذا، وبناء على توجيهات سيد البلاد فلقد «أعطوه فى كل يوم عشرة أرغفة، وإناءين من الجعة»، وقد تعود كبير الحجاب «رنسى بن مرو» أن

يعطى ذاك لأحد أصدقائه الذى اعتاد بدوره أن يعطيها له (أى الفلاح) كما أرسل كبير الحجاب «رنسى بن مرو» إلى شيخ بلدة «حقاحات» (سخمت حموت) ليصنع طعاماً لزوجة هذا القروى، ومقداره ثلاثة مكاييل من الشعير فى كل يوم.

وهكذا يتغافل كبير الحجاب عن الرد على شكايات القروى الفصيح الذى يظن أن أمره قد أهمل، فتحول من الاستعطاف إلى الشكاية ثم إلى الشراسة، وتحول من لين الحديث إلى العنف والنقد الصريح، وتوجه إلى «رنسى بن مرو» بعدة شكايات متتابعة، بعد استعطافه الأول (شكايته الأولى)، لم يسلم حين تقديمها من الأذى، وضرب الحجاب، وإهانة الحراس، ولكنه لم يتخل عن عناده، واستمر يصر على إسماع صوته للحاكم، ولو ناله الضرب والأذى، وعمل على أن يصور فى هذه الشكايات كل مبادئ العدالة الاجتماعية والسياسية والقانونية التى كان يطمع فيها المفكرون فى عصره.

وهكذا أخذ القروى فى شكايته الثانية يحذر «رنسى بن مرو» قائلا: يا كبير الأمناء يا شريفى، إنك أعظم العظماء، وأغنى الأغنياء، أنت الذى تتمثل فيك عظمة العظماء، وغنى الأغنياء، إنك دفة السماء، وسارى الأرض، وحبل الميزان الذى يحمل الثقل، فيا أيتها الدفة لا تنحرفى ويا أيها السارى استقم، ويا أيها الميزان لا تمل »، وحين لا يجد أذاناً صاغية فإنه يقول: «هل أبحتم للشريف أن يسلب رجلا ليس له ولى، وينهب رجلا ليس معه أحد، إن الموت يدرك الغنى ومن فى كنفه على السواء، فهل أنت حى خالد؟ أليس من القبح أن تميل الموازين وتختل المعايير، وأن ينقلب العادل القويم خبيثاً، إن كبار الموظفين يرتكبون السيئات، ويحيد القوم عن الطريق السوى، ويسرق القضاة، إن الذى ينبغى أن يقسم بالعدل قد أمسى سارقاً، والذى ينبغى أن يقضى الحاجات قد أنزل الحاجة بالناس حتى عمّ العوز المدينة، والذى ينبغى أن يستأصل الشرور، هو نفسه الذى يرتكب المظالم، إن وازن الحبوب يطفطف غشاً، والذى ينبغى أن يبين سبيل القانون يأمر بالسرقة».

ثم يقول «إن الإصلاح قد يتم في ساعة، ولكن الفساد يمكث طويلا وتعود الحسنة إلى حيث كانت بالأمس، وتلك هي الحكمة: عامل بالحسنى من أحسن حتى يظل محسناً»، ثم ينبه إلى واجبات وظيفته: «فلتكن عصمة للمظلوم، وليكن شاطئك آمناً، فإن التماسيح تعبث في الأرض من حولك، وليكن لسانك عادلا، فلا تضل سواء السبيل، إذ يكون جزء من الجسد سبباً في هلاك صاحبه، لا تقل كذباً، واحذر كبار أشرافك، إنما يفسد القضاة سلة من فاكهة (يلوح أنه يعنى الرشوة)، والكذب مرعاهم الخصيب، وهو بذلك أيسر ما تهوى قلوبهم، وأنت يا أعلم الناس، أفتبقى جاهلا بأمرى، وأنت يا من تجنب الناس كل قحط في الماء، ألا فانظر، إن لى طريقاً ليس فيه سفينة، وأنت الذى تنشل الغريق، وتنقذ الهالك، انقذنى».

ثم يضرع إليه في «شكايته الثالثة»، ويشبهه بالإله «رع» فيقول: إنك أنت رع سيد السماء، ومعك حاشيتك، إن بقاء الناس جميعاً مرجعه إليك، أنت فيهم فيض عميم، أنت «حابى» (حعبى)[1] الذى تخضر به المراعى، وترد الأرض المجهدة خصيباً، ادفع السارق، وارحم المسكين ولا تكن تياراً جارفاً على من استجار بك، اتق دنو الآخرة، وإذا عاقبت من يستحق العقاب، فلن يتسامى إلى استقامتك أحد، انظر: هل يختل ميزان اليد، أو يميل ميزان القبان من ناحية دون أخرى، إذا حابى الإله «تحوت» جاز لك أن ترتكب السوء، كن ثانى هؤلاء الثلاثة، فإن حابوا جاز لك أن تحابى، لا تجعل السيئة مكان الحسنة... لا تقل كذباً فإنك كبير، ولا تكن هيناً فإنك عظيم، ثم يقول له فى تشبيه لطيف، وتجسيم للصورة: «أنت رئيس وبيدك ميزان، إذا اختل الميزان فأنت مختل، ولسانك هو لسانه الصغير، وقلبك

---

(١) يشبه القروى هنا «رنسى بن مرو» بأنه النيل «حعبى»، والمعروف أن المصريين قد أطلقوا على النيل («إيترو ـ عا» = النهر العظيم) اسم «حعبى»، على أن «حعبى» لم يكن هو النهر المقدس، وإنما كان ذلك الإله أو الروح التى تكمن وراء هذا النهر العظيم، والتى تدفع بمياه فيضه حاملة الخصب والنماء، وقد صوّر المصرى هذا الإله فى هيئة بشرية تجمع بين الأنوثة والذكورة فى هيئة صياد سمك يلتحي باللحية التقليدية للآلهة، له ثديا امرأة، وبطن مترهل. (محمد بيومى مهران، مصر ٢٩٨/١-٣٠٥).

صنجته، وشفتاك كفته، فإذا أدرت وجهك شطر الضالين، فمن الذى يرد الضلال، ويرفع العار».

ويدرك القروى أن شكاياته لا طائل منها، ومع ذلك يستمر فيها، ولكنه يشتد على «رنسى بن مرو» فيقول له: «أنت قادر ومقتدر، وذراعك طائلة، ولكن فؤادك قاس، والرحمة قد تجاوزتك، وما أتعس المحزون الذى تحطمه، لكأنك رسول ارب التمساح، بل إنك زدت عن ربة الوباء، وإذا كان العدم يرتجى منها، ارتجى منك العدم، وعندئذ يأمر «رنسى بن مرو» بضرب القروى بالسياط، فينزعج القروى، ويقول: «ضل ابن مرو طريقه، إنه أعمى عما يرى، أصمّ عما يسمع، سادر عما يروى له، إنك أشبه بقرية لا عمدة لها وجماعة لا كبير لها، وسفينة لا ربان لها، وعصبة لا هادى لها، انظر: إنك لص، حاكم يصادر أملاك الفلاحين، ورئيس مقاطعة وظيفته القضاء على النهب، ولكنه يصبح نموذجاً لمرتكبيه، لا تسرق وضيعاً أملاكه، ولا ضعيفاً تعرفه، إنّ أملاك الفقير هي أنفاسه، فمن أخذها منه فقد كتم أنفاسه، لقد عينت لتسمع الشكايات، وتفصل بين الخصوم، وتقضى على اللصوص، لقد وضع الناس ثقتهم فيك، فأصبحت معتدياً، وإنما أقمت سداً منيعاً للفقير تحميه من الغرق، أيها السمير الكبير، أقم الحق، إن زارع الشر يروى آثامه بالشر، ولكن الحق باق أبداً، وهو ينزل مع فاعله إلى العالم الآخر، فلا يمحى اسمه من الأرض، ولكنه يذكر لصلاحه، وذلك ما ورد فى كلام الإله».

ويستمر القروى فى شكاياته التى بلغت تسعاً، وفى كل واحدة منها يتفنن فى المطالبة بحقه، ويذكره بمسئوليته عما حدث له، ويحذره من غضب الله تعالى عليه لمناصرته الظلم والظالمين، ثم يقول له فى شكواه الأخيرة : «إن ألسنة الناس موازينهم، إنّ الميزان هو الذى يبين السرقة فعاقب من يستحق العقاب»، ثم يحذره فى نهايتها قائلا: «لا تطع قلبك ولا تخف وجهك عمن عرفت، ولا تكن أعمى عما رأيته، ولا تنهر من أتاك مستجيراً، أخرج من بطشك، واقض ما أنت به قاض، لا صديق لمن يصم آذانه عن

العدل، انظر: إنى تضرعت إليك، وما أراك منصتاً لى انظر: إنى سأذهب الآن، وسأرفع شكواى ضدك إلى الإله «أنوبيس».

ويبدأ القروى يسير بعيداً عنه معتزماً تنفيذ ما هدد به، وهو أنه ذاهب إلى «أنوبيس»، إله الموتى، غير أن «رنسى بن مرو» سرعان ما يرسل وراءه اثنين من رجاله عادا به، وكان خائفاً من أن يعاقبه «رنسى بن مرو» على ما بدر منه فى شكواه، ولم يصدق فى أول الأمر، عندما طمأنه «رنسى بن مرو» كبير الحجاب قائلا: «لا تخف أيها القروى فقد أهملنا شكواك لتبقى معنا»، وسرعان ما يخرج له «رنسى بن مرو» قرطاساً من البردى، قرأ فيه كل شكاياته، ثم حمل هذا القرطاس إلى الملك «نب كاو رع» الذى سرّ كثيراً بهذه الشكايات، وأمر بأن ينتقم للقروى من ظالميه دون وجه حق، حتى ليعطى كل أملاك «تحوت ـ نخت»، بل ويسمح له بالإقامة فى العاصمة إهناسيا كذلك.

وقصة القروى الفصيح هذه، كوثيقة تاريخية، هامة جداً، وذلك لأنها تصور لنا الحالة الاجتماعية فى تلك الفترة من تاريخ مصر، وتصور لنا كيف يستغل بعض الموظفين وظائفهم فى ظلم الفقراء من الناس، بينما يعنى كبارهم بتقبل شكوى المظلومين ورد حقوقهم إليهم، لأنهم هم المسئولون عن ذلك، وتصور لنا أن الوظيفة الكبيرة ذات المرتب الضخم، ليست فى كل الأحوال سياجاً تحمى صاحبها من أن يظلم الناس كما أنها ليست دائماً درعاً يحمى الفقراء من اضطهاد الحاكمين ـ وأحياناً سلبهم أقواتهم ـ وتصور لنا كيف ساء الحال، وأهمل الموظفون واجباتهم وكيف اضطرب الأمن فى الطرق، وانتشرت السرقات وتفشى الغش والخداع، وكيف فسد الحكم، حتى وصل الأمر إلى القضاء فانحرف عن واجبه المقدس، وتصور لنا مكانة الثقافة، أو بعبارة أخرى، مكانة الفصاحة، حتى أن مؤلف قصة الفلاح لم يأبه أن يصور فرعون عصره يستعذب فصاحة قروى من رعاياه، ويتمنى أن يستزيد منها، ثم يأمر بالإحسان إليه فى عاصمته، دون أن يعرف من هو المحسن إليه، ودون أن يشعر بفضل أحد عليه فضلا عن الإحسان إلى أسرته فى قريتها والتكفل بأمر معيشتها.

على أن قصة الفلاح الفصيح، إنما تصور لنا - من ناحية أخرى - كيف أثرت الثورة الاجتماعية الأولى فى المجتمع، فأعلت من شأن الفرد، وأعطت الفرصة لأقل الناس فى أن يتقدم - بكل جرأة وشجاعة - ويطالب بحقه المهضوم، بل ويتهم كبير حجاب قصر فرعون بتهم أشد قسوة، لأنه لم يأبه بتطبيق العدالة معه، وأن يعيد إليه بضاعته التى سلبها إياه أحد موظفى كبير الحجاب هذا، فهو يمثله بشخص لا يهمه إلا الكسب بأية وسيلة، حيث يقول له: «انظر أنك غاسل ثياب تعس، جشع فى إضرارك بالصديق، إنك كمن يترك شريكه من أجل عميل، انظر إنك معداوى لا يعدى إلا من كان معه أجراً، إنك تاجراً بارت تجارته، انظر إنك ساقى لذته فى القتل، وتشويه ما ليس مسئولاً عنه».

ثم يعبر له عن أن الحكم السلبى الذى لا ينشد بحق فعل الخير، لا يمكن أن نسميه حكماً، يقول القروى الفصيح: «انظر، إنك أشبه بقرية لا عمدة لها، وجماعة لا كبير لها، وسفينة لا ربان فيها، وتحالف بلا زعيم، لقد أقمت سداً منيعاً للفقير تحميه من الغرق، ولكن انظر فقد أصبحت البركة التى يغرق فيها الناس»، ثم يستمر فى شكواه منادياً بأن الباطل دولته قصيرة الأجل، أما دولة الحق فللأبد، يقول القروى : «انظر: إذا مشى الباطل يضل الناس الطريق، إنه لا يعدى فى قارب التعدية، إنه لا يتقدم، إن الذى يغنى بالباطل لا أولاد له، وسيزول ورثته من الأرض، أما «ماعت» فهى باقية إلى الأبد، وتصحب من يفعلها إلى القبر، وعندما يموت ويدفن لن يمحى اسمه من الأرض، فأعماله الخيرة تذكره، هذا هو المبدأ الذى أمر به الإله».

وتصور لنا القصة اضطراب الأمور فى البلاد، وانحلال الموظفين، وبعدهم عن الجادة من الطريق، وأن اتقاء الشعب هذا الهوان وإنقاذه منه، لن يكون إلا على يد ملك عادل حازم، يعاونه جمهرة من الموظفين الأمناء الأكفاء العدول، وتصور لنا أمر الخوف من عقاب المنتقم الجبار، وكيف كان القروى الفصيح يكرر على مسمع رئيس حجاب القصر الملكى بأنه سيقف يوماً أمام الله تعالى الذى سيحاسبه عما فعل لرد الظلم عنه، ولإرجاع

الحق إلى أصحابه، فالحاكم راع مسئول عن رعيته، مكلف بالسهر على راحتها، فإن أحسن فله نعم الثواب، وإن أساء وأهمل فسوء المصير ينتظره في الحياة الأخرى.

وأخيراً، فإن صاحب قصة القروى الفصيح قد شبّه العدالة ـ ولأول مرة في تاريخ آداب العالم ـ بالميزان، واتخذ من أجزائه استعارات وأوصاف لنواحي العدالة، ثم ساد هذا التشبيه في جميع لغات العالم، وقد ظهر بصورة واضحة في القرآن الكريم، يقول القروى: «نفذ العقاب فيمن يستحق العقاب... انظر: هل يختل ميزان اليد، أو يميل ميزان القبان من ناحية دون الأخرى... لا تقل كذباً فإنك كبير، ولا تكن هيناً فإنك عضيم، ولا تنطق بالكذب لأن الموازين... أنت رئيس وبيدك ميزان، إذا اختل الميزان فأنت مختل، ولسانك هو لسانه الصغير، وقلبك صنجته، وشفتاك كفته، فإذا سترت وجهك عمن يطفف، فمن الذى يرد الضلال، ويرفع العار».

هذا وقد كان لهذه القصة مكانة عند المصريين، حتى أنها قد بقيت معروفة عند الأدباء حتى عصر الرعامسة، فهناك قطعة بها مقالة مهلهلة لتلمذ كسول، جاء فيها ما ترجمته الحرفية: «أنت في حالة الذى يقول: أنت تقتل، أنت تسرق حميرى، خذ التحذير من فمى»، وهنا نجد اقتباساً خاطئاً جداً في كلمات الفلاح أو القروى الفصيح التي تقول: «ثم قال الفلاح: «أنت تضربنى، أنت تسرق بضاعتى، وعندئذ خذ الشكوى من فمى»، مما يدل بوضوح على أن قصة القروى الفصيح إنما كانت تتمتع بشهرة عريضة في المدارس حتى عصر الرعامسة[1].

(١) جوستاف لوفيفر، المرجع السابق، ص ٩٨-١٣٥؛ عبد العزيز صالح، حضارة مصر القديمة وآثارها، ٤١٤/١-٤١٧؛ الشرق الأدنى القديم ٣٦٢/١-٣٦٥؛ محمد بيومي مهران، الثورة الاجتماعية الأولى، ص ١٥-٢١، ١٧٠-١٧٢؛ مصر ٣١٥/٢-٣٢٢؛ سليم حسن ٥٦/١-٧٠؛ وكذا:

J. H. Breasted, The Dawn of Conscience, New York, 1939, p. 183-193; A.H. Gardiner, JEA, 9, 1923, p. 5-25; J.A. Wilson, ANET, 1966, p. 407-410; A. Erman, LAE, 1927, p. 116-130; O.R. Faulkner, op.cit., p. 31-56; M. Lichtheim, op.cit., p. 170-183; A.M. Blackmann, JEA, 20, 1934, p. 218-219.

٦ ـ أغنية الضارب على العود

توجد لدينا نسخة من هذه الأغنية، محفوظة فى «بردية هاريس» رقم ٥٠٠)، والتى توجد الآن فى المتحف البريطانى فى لندن (تحت رقم ١٠٠٦٠)، وترجع إلى حوالى عام ١٣٠٠ق.م[١]، وهناك نص آخر وجد فى مقبرة «با ـ آتون ـ حب» فى سقارة، وترجع إلى أيام العمارنة وهى الآن بمتحف ليدن[٢]، وإن كانت تختلف عن الأولى إلى حد ما.

هذا والبردية مكتوبة كذلك بمقبرة «نفر حتب» فى طيبة الغربى (رقم ٥٠)، وترجع إلى الفترة (١٣٥٠-١٣٢٠ق.م) على رأى «جون ويلسون»[٣]، وإن كان الدكتور أحمد فخرى يرجع بمقبرة «نفر ـ حتب» هذه إلى الأسرة الحادية عشرة[٤] (الدولة الوسطى)، وهناك كذلك رواية للأغنية منقوشة على قبر الملك «أنتف» من الأسرة الحادية عشرة، ويذهب «جيمس هنرى برستد» إلى أن أنشودة كاهن أمون «نفر حتب» من طيبة، لا تكاد تماثل مقبرة «أنتف» ولا تعادلها فى التأثير، وإن كانت تحتوى على بضعة أسطر قيمة يجب الالتفات إليها[٥].

هذا وقد قام بنشر هذه الأغنية وترجمتها وشرحها والتعليق عليها كثير من العلماء من أمثال ـ جاردنر[٦]، وميلر[٧]، وشتياندورف[٨] وزيتة[٩]، وإرمان[١٠]، وويلسون[١١]، وسمبسون[١٢]، وإن كان Miriam Lichtheim من أكثر العلماء اهتماماً بهذه الأغنية[١٣]، هذا وقد كتبت «أغنية الضارب

(1) J.A. Wilson, ANET, 1966,p. 467.
(2) Ibid., p. 467.
(3) Ibid., p. 467.
(٤) أحمد فخرى، المرجع السابق، ص ٤٢٢.
(5) J.H. Breasted, The Dawn of Conscience, New York, 1939, p. 106.
(6) A.H. Gardiner, in PSBA, 33, 1931, 163-170.
(7) W.M. Muller, Die Liebespoesie der alten Aegyptor, Leipzig, 1932.
(8) K. Sethe, op.cit., p. 94.
(9) G. Steindroff, in ZAS, 32, 1894, p. 123-126.
(10) A. Erman, LAE, 1927, p. 253-254.
(11) J. Wilson, in ANET, p. 33-34.
(12) W. K. Simpson, op.cit., p. 306-307.
(13) M. Lichtheim, JNES, 4, 1954, p. 178-212, pls. I-VII; M. Lichtheim, Ancient Egyptian Literature, I, 1975, p. 193-197, II, 1977, p. 115;
وانظر: سليم حسن، المرجع السابق، ص ٢٢٤-٢٢٥؛ أحمد فخرى، المرجع السابق، ص٤٢١-٤٢٣؛ نجيب ميخائيل، مصر والشرق الأدنى القديم ٢٧٧/١-٢٧٨.

على العود» على أيام الدولة الوسطى، وكانت من الأغانى المحبوبة لدى المصريين القدامى حتى أخريات الدولة الحديثة، حتى أننا نجد لها نسخاً من عهد الدولة الوسطى، ومن عهد الدولة الحديثة سواء بسواء. وهى تعتبر، دونما ريب، من أجمل الأغانى المصرية، وتمثل نوعاً من الأناشيد الدينية، وكانت تنشد بمصاحبة «الجنك» فى حفلات الأسراء، وهى على نقيض الدعوة إلى السرور والابتهاج، تدعو الشاربين إلى تذكر الموت القريب، وقد جاء فى المصادر اليونانية أنه كان يعرض فى مجالس الشرب فى مصر صور لمومياء، حثاً على الاستمتاع بالحياة القصيرة عن طريق تذكر الموت، وليس من شك فى أن أغنية الضارب على العود، إنما تصور لنا هذه الفكرة تصويراً فنياً جميلاً[١].

وأما أهمية الأغنية ـ كمصدر تاريخى ـ فهى تصور لنا ناحية من التفكير الجديد الذى بدأ ينتشر فى تلك الحقبة من تاريخ البلاد، منذ أيام الثورة الاجتماعية الأولى، ذلك التفكير الجديد، هو الشك، فلقد بدأ القوم يتشككون فى العقائد التى توارثها القوم عن الأجداد، جيلاً إثر جيل، والتى كانت تجعل من الوسائل المادية طريقاً للخلود، ووسيلة للسعادة فى الآخرة، وربما دفعهم إلى ذلك ما أصاب جبانة الجيزة الفخمة ومعابدها الرائعة، من تخريب، حتى أصبحت خرائب مهجورة، حتى من كهانتها، فضلا عن الذين أوكل إليهم أمر العناية بها.

ولم يقف الشك عند زعزعة الإيمان بقيمة هذه الأضرحة الفخمة، بل تعداها إلى الشك فى الحياة الآخرة نفسها، وكما كانوا يقولون: وهل عاد إلينا واحد من الراحلين.

وهنا قامت دعوة جديدة تنادى بأن يترك القوم لأنفهسم الحرية فى أن يتمتعوا بالدنيا ـ ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ـ فإن الواحد منهم لن يأخذ معه إلى الآخرة شيئاً مما اقتناه فى دنياه، ومن ثم فقد كان شعارهم : «امرحوا ولا ترهقوا النفس، هل للإنسان أن يأخذ شيئاً مما اقتناه معه» ، وهكذا كانت

(١) إرمان ورانكه، مصر والحياة المصرية فى العصور القديمة، ص ٤٣١ .

هذه الأغنية تدعو القوم إلى الاستمتاع بالدنيا ونبذ الهموم، بل والتشكيك فيما ينتظر الناس فى العالم الآخر[١].

وهكذا فإن أغنية الضارب على العود، إنما تمثل عصراً بعد كل البعد عن عهد التسليم بالعقائد التقليدية، دون معارضة فيها، كما ورثت عن الآباء، فإن عقيدة الشك إنما تعنى تجربة طويلة للعقائد الموروثة، وبحثاً مستمراً فيما كان معترفاً به حتى ذلك الحين دون تفكير، ثم الشعور بالمقدرة الشخصية على الاعتقاد فى الشيء وإنكاره، وهى تعدو خطوة مميزة إلى الأمام نحو نمو الوعى النفسى، والوازع الشخصى، على أن عقيدة التشكيك هذه لا تنمو إلا بين أفراد شعب له مدنية ناضجة، ولا تثبت فى الأحوال الفطرية، ولذا فإن هذا العصر (عصر الثورة الاجتماعية الأولى) والذى يمثل قمته المتشككون الذين جاءوا عقب سقوط الوحدة الثانية، يعد عصراً هاماً فى تاريخ التقدم العقلى عند البشر[٢]، وفى أغنية الضارب على العود، دعوة إلى أننا لا نعرف شيئاً عن الحياة فيما وراء الموت، لأن واحداً من الراحلين لم يأت ليقص علينا ما رآه هناك، وإذن فلا طريق أمامنا سوى أن نمتع أنفسنا بأكبر قدر من الملذات الحسية، ذلك لأننا لن نأخذ من ممتلكاتنا فى هذه الدنيا شيئاً معنا إلى الآخرة[٣].

تقول أغنية الضارب على العود:

«هذا خير للأمير النبيل، فقد مرّ بالنهاية السعيدة، تمر أجيال وتأتى فى مكانها أجيال منذ زمن الأوائل، يوقظه الإله رع عند الصباح، ويغيب الإله أتوم فى الغرب، يتناسل الناس، وتحمل النساء، وتستنشق كل أنف من الهواء، وعندما يشرق الصباح ترى أولادهم فى أماكنهم».

«الآلهة الغابرون (الملوك القدماء) يستقرون فى أهراماتهم، وكذا يستقر الأشراف الأمجاد فى مقابرهم، لقد شادوا القصور التى لا أثر لها اليوم، فماذا

(١) انظر: محمد بيومى مهران، الثورة الاجتماعية الأولى فى مصر الفرعونية، رسالة ماجستير، الإسكندرية ١٩٦٦، ص ٢١-٢٣.

(2) J.H. Breasted, The Dawn of Conscience, N.Y., 1939, p. 162.

(٣) محمد بيومى مهران، المرجع السابق، ص ١٦٦-١٦٨.

حلّ بهم؟ لقد استمعت إلى كلمات «إيمحوتب» و«حور ـ ددف» اللذين يتغنى الناس بأقوالهما فى كل مكان، أين مكان كل منهما الآن، لقد تهدمت جدرانهما ولا أثر لمكانهما بعد، كأنهما لم يعيشا على هذه الأرض على الإطلاق».

«لا أحد يعود من هناك (من عند الموتى) حتى يقص علينا ماذا فى الآخرة؟ وحتى يحدثنا عما هم فى حاجة إليه لتطمئن قلوبنا، حتى تلك اللحظة التى نرحل فيها نحن أيضاً، إلى حيث ذهبوا».

«ألا فلتبتهج، إرم بكل الأحزان وراء ظهرك، افرح وفكر فى السرور ولتشبع رغباتك طالما أنت حى، ادهن رأسك والبس الكتان الجميل، وتعطر بالروائح الزكية، دع الغناء والموسيقى أمام ناظريك، أكثر مما لديك من ملذات، اعمل ما أنت فى حاجة إليه على الأرض، ولا تضجر قلبك إلى أن يدركك وقت الندب».

«إن القلب الساكن (أوزير) لا يسمع عويلا، والبكاء لا يوقظ أحداً من عالم الموت، لذلك فلتبتهج لليوم السعيد، ابتهج دائماً، ولا تشعر بكلل من ابتهاجك، استمع إلىّ: لا يستطيع أحد أن يأخذ أمواله معه، ولا أحد من الراحلين يعود ثانية».

الباب الثانى

المجتمع المصرى القديم فيما قبل الثورة



الفصل الأول
التنظيم السياسي والإدارى والاقتصادى والقضائى فيما قبل الثورة

أولا - التنظيم السياسى
١ - الملك المؤله

(١) نظرية ألوهية الملك :

استطاع مؤسس الأسرة الأولى أن يكون لمصر، حوالى عام ٣٢٠٠ قبل الميلاد[١]، حكومة مركزية قوية على رأسها الملك المؤله، الذى كتب له نجحاً بعيد المدى فى أن يجمع بين يديه كل السلطات، حكومة كان الملك فيها هو المحور، بل الروح التى تبعث الحياة فى الدولة، وكل ما يحدث فيها وحى منه، قامت على أسس دينية عميقة الأثر، فهو الإله العظيم، وهو الإله حور، الذى تجسد فى هيئة بشرية، ومن ثم فهو، فى نظر رعاياه، إله حى على شكل إنسان، يتساوى مع غيره من الآلهة الأخرى فيما لها من حقوق، وبالتالى فله حق الاتصال بهم، وله على شعبه، ما لغيره من الآلهة، من المهابة والتقديس.

ومن هنا كان الأساس السياسى والاجتماعى الذى قامت عليه الحضارة المصرية هو التأكيد بأن مصر يحكمها إله، وأن هذا الإله الجالس على عرش الكنانة غير محدود المعرفة والمقدرة، وأنه على علم بكل ما يدور فى البلاد، ومن هنا كان من الصعب أن نفرق بين الملك والدولة، إذ كانت كلمته قانون، ورغبته أمر، ورعيته ملك يمينه، يتصرف فيها متى شاء، وهكذا كانت الضرائب تؤدى لتملأ خزائنه، والحروب تقوم من أجل شهرته وإعلاء ذكره، والعمائر تقام تكريماً له، وتشريفاً لقدره، وكل أملاك البلاد خالصة له، وهى حقه، فإذا سمح لمخلوق ما أن يكون له فيها نصيب، فإن هذا لا يعدو أن يكون عارية يستردها عندما يشاء.

(١) انظر الآراء المختلفة التى دارت حول تحديد شخصية مؤسس الأسرة الأولى الفرعونية : محمد بيومى مهران، مصر الفرعونية، الجزء الثانى، الإسكندرية ١٩٨٣، ص ٢٤٧-٢٦٧.

هذا وقد اختلف المؤرخون فيما بينهم فى كيفية إيمان المصريين بأن الجالس على العرش إله يحكم بشراً، وكيف أصبحت ألوهية فرعون عقيدة الدولة الرسمية؟

كان مبدأ ألوهية الملك مذهباً وصلت إليه الحكومات المصرية خلال عصر الأسرات المبكر، بغية الاطمئنان على حسن تأسيس الحكم الجديد، وذلك عندما وجد الحاكم ضرورة أن يرفع نفسه من مرتبة بشر متميز، من الجائز أن ينازعه فى سلطانه بشر آخرون أقوياء، إلى مرتبة إله لا يمكن منازعته[١]، وهكذا ظهرت عدة آراء بشأن عقيدة القوم فى ألوهية ملوكهم، فهناك رأى ينادى بأن عقيدة الملكية الإلهية إنما كانت وليدة أسباب انتصار الملك على منافسيه من أهل الدلتا، ثم اصطناعه صفات إلهية، حتى غدا إلهاً بين الآلهة[٢].

وهناك وجه آخر للنظر يذهب إلى أن الصعاب التى لاقاها مؤسسو الوحدة من ملوك عصر التأسيس فى تحقيق الوحدة تحقيقاً مادياً طوال ذلك العصر، إنما قد دفعتهم إلى القول بأن مصر يحكمها إله تتمثل فيه القوى التى تهيمن على القطرين، ومن ثم فقد نجح الملك الإله فى أن يتباعد بنفسه عن أن يكون من البشر، فضلا عن أن يكون من الصعيد، موطن الملوك من مؤسسى الوحدة، وسرعان ما سرت فى نفوس القوم على مرّ الأيام تلك العقيدة التى تدعو أصحابها إلى الإيمان بأن هذا الجالس على عرش مصر، ليس إنساناً زائلا، وإنما هو إله حى يتساوى مع غيره من الآلهة فيما لهم من حقوق التقديس والمهابة[٣].

وهناك وجه ثالث للنظر يعزوها لأسباب جغرافية، تسندها طريقة التفكير المصرى، ذلك أن مصر إنما كانت من الناحية الجغرافية بلداً لا توجد بينه وبين غيره صلات طبيعية، ولذا فقد تمتعت بالإحساس بالطمأنينة وبأنها بلاد ذات امتياز خاص، كان نصيبها فى الوجود غير عادى، ذلك لأن العناية الإلهية جعلتها وحدها فريدة بنفسها، ومنفصلة عن جيرانها، فلم يكن

(1) J.A. Wilson, The Cuture of Ancient Egypt, 1963, p. 45.

(٢) نجيب ميخائيل، الحضارة المصرية القديمة، الإسكندرية ١٩٦٦، ص ٨٠.

(٣) عبد المنعم أبو بكر، تاريخ الحضارة المصرية، الجزء الأول، النظم الاجتماعية، القاهرة ١٩٦٣، ص١١١.

آلهة الكون العظام فى حاجة إلى التحليق فوقها، وإرسال بشر ينوب عنهم فى الحكم ولكنهم احتفظوا لأنفسهم بالعناصر الفعالة للقوة والحكم، بل كان فى استطاعتهم أن ينصرفوا مطمئنين ليرعوا شئون الكون، لأن واحداً منهم، وهو فرعون، الذى كان هو الآخر إلهاً، أخذ على عاتقه وظيفة الحكم والسلطان وأقام فى مصر، هذا فضلا عن أن المصرى كان لا يحس بضرورة تحديد الأنواع تحديداً صريحاً، ومن ثم فقد سهل عليه أن ينتقل من البشرى إلى الإلهى، وأن يقبل العقيدة التى تنص على أن الفرعون الذى كان يعيش بين الناس، كأنما هو من دم ولحم إنسانى، كان فى الحقيقة إلهاً تكرم فأقام فوق الأرض ليحكم أرض مصر، وليس من المستبعد أن عقيدة الملكية الألوهية كانت سهلة وطبيعية فى مصر، وربما كانت متأصلة الجذور فى أيام ما قبل التاريخ[١].

وهناك رأى رابع يجعلها نتيجة أسباب دينية، ذلك أن القوم كانوا يعتقدون - فيما تروى أساطيرهم - أن آلهة التاسوعيين قد حكموا الواحد تلو الآخر على الأرض فى مصر ذاتها قبل أن يعرجوا إلى السماء، أو فيما يختص فيمن ذاقوا الموت قبل أن يهبطوا إلى الجحيم، وكانت القوائم الملكية تبدأ بهم، بل وتحدد سنى حكمهم، كما تفعل بردية تورين، وقد ترك «أوزير» آخر ملوك مصر من الآلهة الحكم لابنه «حور»، ومن هذا الأخير تحدر فى زعمهم كل ملوك مصر، ومن ثم يصبح حق الملك قائماً على طبيعته الإلهية التى كانت تنتقل مع الدم، وفى عهد الأسرات الأولى لم تكن ألوهية الملك مؤكدة إلا تبعاً لتسلسله من «حور» إله الأسرة، بغض النظر عن أية مؤلفة دينية، ومن ثم كان الاسم الذى يتسمى به الملك عند توليته العرش يكتب داخل إطار مستطيل يمثل صورة مؤخرة للقصر الملكى، وترسم فوقه صورة حور، وكان الملك يتخذ هذا الاسم عند توليته العرش، أى عند تنصيبه فى صورة حور، وبما أنه من دم إلهى، فإنه يصبح إذ ذاك صورة من حور ذاته[٢].

---

(1) J.A. Wilson, op.cit., p. 45, 47.

(٢) إتيين دريوتون وجاك فانديه، مصر، ترجمة عباس بيومى، القاهرة ١٩٥٠م، ص٩٠-٩١؛ وكذا: A. Moret, Le Nile et La Civilisation Egyptienne, Paris 1962, p. 68.

وهناك وجه خامس للنظر يذهب إلى أنها نتيجة أسباب اقتصادية، ومن ثم فإنه يتجه إلى أن ألوهية الفرعون إنما تتصل اتصالا وثيقاً بالعناصر الأساسية التى شكلت المبادئ والقيم المصرية منذ البداية، والتى تتركز فى تأثر الإنسان بكافة المقومات البيئية المحلية بطريق مباشر أو غير مباشر، فلقد بدأ الإنسان حياته المستقرة بالزراعة، وسرعان ما نشأ المجتمع الزراعى المستقر، والمعتمد على ضمان توفير مياه الرى، ومساعدة العوامل الطبيعية المختلفة اللازمة للإنتاج السليم، ثم سرعان ما أدرك الإنسان بتجاربه المستمرة ضرورة ضمان الحياة المستقرة، وفى نفس الوقت آمن بالظواهر الطبيعية المحيطةبه، والمسيطرة على البيئة، وشعر بارتباطه، حياة ومستقبلا، بتلك القوى الكونية المسيطرة على العالم، واعتبر الملك أحق من يقوم بوظيفة الوساطة بين الإنسان والآلهة، تلك القوى وبالتالى اطمئنان الإنسان على حياته الحاضرة والمستقبلة، ومن ثم فقد ارتبط ملوك مصر بعالم الآلهة ارتباطا كبيراً لم يألفه المؤرخ فى نظم الحكم الأخرى فى الشرق القديم[١].

وهكذا نرى المؤرخين يختلفون فى تفسيرهم لألوهية الملك الفرعون وكيف نشأت؟ وكيف اقتنع المجتمع المصرى وآمن بألوهية ملوكه.

وإذا أردنا مناقشة وجهات النظر المختلفة، لوجدنا أن الأسباب العسكرية لا تستطيع أن تصل بالمغلوبين إلى الإيمان بألوهية غالبيهم، ذلك لأن الغزو قد يجبر قوماً على الخضوع لآخرين، وقد يخلق من زعيم المنتصرين دكتاتوراً يأمر فيطيع المغلوبون، ولكنها لا تخلق منه، بحال من الأحوال، إلهاً يؤمن الناس به كواحد من آلهتهم الأخرى، وحتى لو آمنوا به فى فترة الغزو، وفى أعقابه لفترة قد تطول أو تقصر، فكيف تسنى للفراعين أن يجعلوا من ألوهيتهم عقيدة يؤمن بها القوم حتى نهاية العصور الفرعونية، وعلى مدى قرابة آلاف ثلاثة من الأعوام؟

وأما النظرية التى تجعل من الصعاب التى لاقاها مؤسسو الوحدة دافعاً للقول بأن مصر يحكمها إله تتمثل فيه القوى التى تهيمن على القطرين (الصعيد والدلتا)، فقد يكون الأمر كذلك إلى حد ما، وإن خالط وجهة

(١) رشيد الناضورى، جنوب غرب آسيا وشمال أفريقيا، الكتاب الأول، بيروت ١٩٦٨م، ص٢٨٢-٢٨٣.

النظر هذا الكثير من الخيال، فضلا عن الحدس والتخمين، إذ لدينا ما يثبت أن الوحدة التي أقامها «مينا» لم يكتب لها البقاء حتى نهاية عصر التأسيس، فقد انهارت في النصف الثاني من عصر الأسرة الثانية، كما تشير إلى ذلك آثار الملك «خع سخم» والتي اقتصرت على مدينة «نخن» (البصيلية)، الموطن الأصلي لمؤسسي الوحدة، فضلا عن جهود «خع سخم» في سبيل استرجاع الدلتا، وتوطيد الوحدة، إلا إذا كان صحيحاً ما ذهب إليه البعض من أن انفصال الدلتا في الأسرة الثانية إنما كان نتيجة غزو ليبي للدلتا، احتلها وانفصل بها عن الصعيد، ومع ذلك فهناك ما يشير إلى قيام بعض ملوك عصر التأسيس بعمليات عسكرية ضد تمرد أو آخر في الدلتا[1]، وعلى أي حال، فإن صحت وجهة النظر هذه، وقبل الوجه البحري هذا المبدأ، فما كان من حقه أن يعارض حكم إنسان كانت عائلته تقيم في الصعيد، فقد كان مقرراً أن هذا الإنسان لم يكن تابعاً لمنطقة جغرافية، ولكنه كان من عالم الآلهة[2].

وأما الرأي الذي جعل العوامل الجغرافية سبباً في الإيمان بألوهية الفرعون، فيعارضه أن في طبيعة مصر متناقضات جغرافية تفسد علينا طرفي المحاورة، فإذا نظرنا إليها في عزلتها عن الخارج، فهي بلد متحد قائم بنفسه، وإذا نظرنا إليها من ناحية انقسامها إلى جزأين، فإنها بلد غير متحد ومنقسم، وكانت مصر في نظر المصريين، بلداً واحداً، وفي الوقت ذاته هي بلدان منقسمان، مصر العليا ومصر السفلى، ومن هنا كان من أسمائها المعروفة «تاوى» بمعنى الأرضين، أرض الصعيد (تاشمعو) وأرض الدلتا (تامحو)، وهو اسم ابتدعه القوم منذ أخريات الألف الرابعة قبل الميلاد، على أقل تقدير، متأثرين في ذلك بالفوارق الإقليمية بين الصعيد والدلتا، وباستقلال الواحد منهما عن الآخر فيما قبل عصر التأسيس، هذا فضلا عن ألقاب الفراعين أنفسهم إنما ترمز إلى الثنائية، في اثنين منها على الأقل، كما في لقب السيدتين ولقب مصر العليا والسفلى، وعلى أي حال، فإن هذه النظرية إنما تضعف إلى حد كبير، إذا ما تذكرنا أن ألوهية الفرعون إنما كانت

(١) انظر: محمد بيومي مهران، حركات التحرير في مصر القديمة، القاهرة ١٩٧٦، ص٦٤-٦٨؛ مصر، الجزء الثاني، الإسكندرية، ١٩٨٨، ص ٤٧-٥٧.

(2) J.A. Wilson, op.cit., p. 45-46.

مرتبطة إلى حد كبير بتقدم البلاد وازدهارها، وليس بالعوامل الجغرافية فيها، وأنه في أية فترة من الفترات التى كان يضعف فيها الحكم، كان القطران ينفصلان بعضهما عن البعض الآخر، ولم يمسك عليهما وحدتهما، إلا اعتمادها المشترك على مياه النيل(١).

وأما وجهة النظر التى أرجعتها إلى أسباب دينية، فهى تعتمد على الأساطير، أكثر من اعتمادها على الأدلة التاريخية، إذ لو كان الأمر كذلك، وكان مؤسس الأسرة الأولى أو غيره من ملوك عصر التأسيس، معترفاً بألوهيته على أساس أنه سليل الإله حور، الذى ورث ملك مصر عن أبيه أوزير. لما احتاجت الوحدة إلى كل هذه الحروب التى خاضها ملوك «نخن» (البصيلية) من أمثال نعرمر، ولما احتاجت كذلك إلى جهود خلفائه بعد النكسة التى أصيبت بها الوحدة فى عصر الأسرة الثانية، واستعادتها مرة أخرى، من موطنهم الأصلى من البصيلية (نخن) - مركز إدفو - بمحافظة أسوان(٢).

وأما النظرية الاقتصادية، فرغم الأهمية الكبرى لضمان توفير الأمن الاقتصادى وغيره من مظاهر الاستقرار فى المجتمع، على أساس إمكانية توسط الفراعين بعد حملهم لتلك الصفة الإلهية لدى القوى الإلهية من أجل تحقيق ذلك، فإن ذلك كله ليس بكاف لإيمان المصريين بألوهية ملوكهم، ذلك لأن الأمن الجغرافى متوفر فى مصر، بصورة لم يتوفر فيها فى العراق القديم ومن ثم فلو كان الأمر أمر أمن جغرافى لكان ملوك العراق القديم أحق بالألوهية من فراعين مصر، فبلاد الرافدين كانت معرضة بصورة مستمرة للتقلبات الجوية التى تحول دون الاستقرار والطمأنينة، مما أدى إلى تعدد القوى الإلهية، وظواهر التنبؤ والتمائم، بينما كانت البيئة المصرية توحى بالاطمئنان إلى حد كبير(٣).

وانطلاقاً من هذا كله، فالرأى عندى أن كل هذه الأسباب مجتمعة

(١) محمد بيومى مهران، مصر، الجزء الأول، الإسكندرية ١٩٨٨م، ص ٢١؛ وكذا:
J.A. Wilson, op.cit., p. 45-4.

(٢) انظر التفصيلات: محمد بيومى مهران، مصر، الجزء الثانى، ص ٤٧-٥٧.

(٣) رشيد الناضورى، التطور التاريخى للفكر الدينى، بيروت ١٩٦٩، ص ١٦١، ١٦٣؛ وكذا:
J.A. Wilson, op.cit., p. 45.

هى التى عملت على تأليه الفراعين فى أرض الكنانة، وأن بأ...ذا صبها بمفرده ليس كافياً لتأليه الملوك عند المصريين القدامى، ذلك أن بعض الباحثين إنما يذهب إلى أن هناك اتحاداً فى عصر ما قبل الأسرات، ثم تلاه انفصال استمر بضعة قرون، فإذا كان ذلك كذلك، فقد أعطى هذا الاتحاد ملوك عصر التأسيس سابقاً لاتحاد مصر، تحت حكم له على الأرض، وإن كانت الأخرى، فربما يمكن أن تنسب إلى عصر التأسيس تلك التصور الخيالى عن الاتحاد، مبررين بذلك الاتحاد الذى تم على أيديهم، والذى كان نتيجة حرب ضروس خاض غمارها أبناء الصعيد ضد الدلتا، وكتب لهم فيها فتحاً مبيناً، ونصراً مؤزراً فى تحقيق وحدة البلاد، وانطلاقاً من هذا، فربما كانت هناك فكرة أصيلة عن الملكية فى مصر، ولكنها غير منظمة، فجاءت الأسرة الأولى وانتهزت فرصة وجود هذا الرأى لتأييد النظام الجديد، فرفعت الفرعون من مرتبة بشر، من الجائز أن ينازعه بشر آخرون أقوياء، إلى مرتبة «إله» لا يمكن منازعته[1].

وهكذا كانت عقيدة الملكية الإلهية، كما نعرفها، قد صيغت وعدلت كثيراً، ثم وجدت قبولا رسمياً فى أوائل عهد الأسرات، وهذا قول لا يمكن إثباته بالتأكيد، ولكننا نستطيع القول أن العوامل الاقتصادية وحاجة القوم إلى وسيط يكون بينهم وبين آلهتهم، لتحقيق ما نسميه بالأمن الوقائى ضد كل ما يصيبهم من أذى من قريب أو بعيد، ثم بدأ الملوك ينسبون أنفسهم، بعد إخضاع الدلتا وقيام الوحدة، إلى الإله حور، خليفة أبيه أوزير، آخر الآلهة العظام الذين حكموا مصر فى عصور ممعنة فى القدم، ومنذ الأسرة الخامسة يصبح الفراعين أبناء للإله رع من صلبه[2]، وسنرى فى عصور تأليه فراعين ينتسبون للإله آمون، حين يصبح هذا سيد الآلهة وكبيرهم، كما فعلت حتشبسوت وأمنحتب الثالث[3]، وفى الواقع أننا لا ندرى مدى تصديق المصريين لهذه الادعاءات، ولكن حسبنا ما تدل عليه من اعتقاد الفراعين

---

(1) Ibid, p. 47.

(2) A. Erman Dic Mearchen des Papyrus Wastcar, 2 Vols., Berlin, 1890; JEA, 22, 1963, p. 42,F, 37, 1951, p. 114.

(3) J.H. Breasted, ARE, II, 1927, p. 78-89, 344; E. Naville, The Temple of Deir El-Bahari, II, 1896, p. 46-56; A. Gayet, Le Temple de Louxor, Cairo, 1895, pls. 62-73.

بأن الأمر الواقع فى ارتقاء العرش والهيمنة على السلطة لا يكفى، وأنه لابد من تأييده بسند من الدين يرضى الكهان والخاصة والعوام.

وأيا ماكان الأمر، فلقد آمن المصريون القدامى، ربما راغبين لا مكرهين، بأن الجالس على عرش الكنانة إله تكرم وأقام فوق أرض مصر، ليحكم بنى الإنسان ويسعدهم، كما يتضح ذلك من ألقاب الملك الخمسة الرسمية، التى كان يتخذها منذ الدولة القديمة وحتى نهاية العصور الفرعونية، وأما الاتصال الشخصى بهذا الملك فلم يكن متاحاً إلا لخاصته وأقرب المقربين إليه، أما الأشخاص العاديون فلم يكن فى مقدورهم أن يجرؤا على الاقتراب من هذا الكائن الذى يفوق البشر، إلا وقد استولى الهلع على قلوبهم وارتعدت فرائصهم، وخروا على الأرض سجداً، كما لو كانوا أمام تمثال للإله، على أن هذا الملك الإله لم تكن تقام له فى عصر التأسيس المعابد، كما كانت تقام لغيره من الآلهة، كما لم تكن تقدم له القرابين، وإن تسميته بالإله العظيم لم تقف حائلا دون أن تكون له شخصية بشرية، وأن طبيعته الإلهية لم تمنع القوم من أن ينظروا إليه كحاكم بشرى، له أملاكه الخاصة ومخازنه ومحكمته ودواوينه الخاصة[١] على أنه يجب أن نلاحظ أن ألوهية الفرعون لم تكن بمعنى أنه خالق الكون ومدبره، أو أن له سلطان فى عالم الأسباب الكونية، وإنما كان يدعى الألوهية بمعنى أنه حاكم هذا الشعب بشريعته وقانونه، وأنه بإرادته تمضى الشئون وتقضى الأمور، كما أن المصريين لم يتعبدوا إلى فرعون بمعنى تقديم الشعائر التعبدية له، فقد كانت لهم آلهتهم، كما كان لفرعون آلهته بدليل قوله تعالى: ﴿ويذرك وآلهتك﴾، كما أنهم لم يقيموا المعابد لفرعون[٢].

وبدهى أنه فى مقابل الحقوق التى كان يتمتع بها الفرعون، كان عليه عدة واجبات، فهو المسئول عن الدفاع عن مصر وحماية حدودها من غارات الشعوب المجاورة الطامعة فى خيراتها، وهو الذى يعمل على تدعيم العدالة

(١) أدولف إرمان وهرمان رانكه، مصر والحياة المصرية فى العصور القديمة، ترجمة عبد المنعم أبو بكر، القاهرة ١٩٥٣، ص ٤٧، ٦٢ وكذا:

A. Mariette, Les Mastabes de L'Ancien Empire, Paris, 1889, p. 70, 100.

(٢) انظر: محمد بيومى مهران، دراسات تاريخية من القرآن الكريم، الجزء الثانى، مصر، بيروت ١٩٨٨م، ص ٢١٣-٢٢١. وعن ألوهية الملك فى العراق القديم: انظر: محمد بيومى مهران، دراسات تاريخية من القرآن الكريم، الجزء الرابع، فى العراق، بيروت ١٩٨٨.

ونشر لواء الحق بين أفراد شعبه، وهو الذى يعمل على تأمين وسائل الحياة للمصريين بحفر الترع وإقامة الجسور، لتيسير فلاحة الأرض وزراعتها، وتوزيع جزء مما أنتجته من محاصيل على رعاياه كل حسب حاجته، كما كان عليه حماية المدن من غائلة الفيضان، وتشجيع الصناع والفنانين، فضلا عن إقامة المعابد للآلهة وتقديم القرابين لها، والاحتفال بأعيادها، وإقامة الطقوس الدينية المختلفة، فإن أهمل فى واجباته هذه فقد قدسيته، ومن ثم يحق لغيره من الآلهة ألا يعترفوا به كواحد منهم، وهكذا يبدو أن الملكية، وإن أسبغت على الملك القداسة والألوهية، فإنها فى الوقت نفسه قد حدت من سلطانه، بما فرضت عليه من واجبات.

ومن عجب أن واجبات الملك نحو شعبه لم تكن تنتهى بوفاته، وإنما تستمر فى حياته الأخرى، ذلك لأن الملك المؤله، فيما يعتقد القوم، لايمكن أن يموت، وإنما يبدأ حياة خارقة للطبيعة، حياة يكون فيها الوسيط بين الأموات من الناس وبين الآلهة، فيظل الحامى والشفيع الذى يرعى الموتى، كما كان يرعى الأحياء، ومن هنا جاءت لهفة القوم على تشييد مقابر ضخمة للمحافظة على جثة الملك من كل أذى، ولتهيئ له وسائل خاصة ملائمة وخالدة، وأن مقابر ملوك عصر التأسيس فى سقارة وأبيدوس إنما تشهدان على أن المصريين منذ عهد الأسرة الأولى كانوا يعلقون أهمية كبرى على شفاعة الملك الميت لهم عند الآلهة[١].

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة هنا إلى أن القرآن الكريم إنما حدثنا فى قصة موسى مع فرعون، عن الملكية الإلهية فى مصر، وأوضح لنا أن ألوهية الفرعون إنما كانت موضع جدل شديد بين النبىّ الكريم والملك الفرعون، بل إن تلك الألوهية المزعومة إنما كانت الصخرة التى تحطمت عليها كل أوجه التقارب بينهما، ولعل مما يزيد الأمور وضوحاً إننا لا نعرف دعوة من دعوات الأنبياء الكرام، يتعرض صاحبها لزعم كذوب ممن أرسل إليه، أنه إله الناس، الأمر الذى كان يعرفه الكليم جيداً منذ تلك السنين التى عاشها فى كنف الفراعين، بل إن فرعون إنما يهدد النبىّ نفسه ﴿لئن

---

(١) عبد المنعم عبد الحليم، حضارة مصر الفرعونية، الإسكندرية ١٩٧٧، ص ٤٠-٤١.

اتخذت إلهاً غيرى لأجعلنك من المسجونين﴾(١) ثم يعلن للناس عامة ﴿ما علمت لكم من إله غيرى﴾(٢)، وعندما يتقدم له موسى بآيته الكبرى، ما كان منه إلا أن يرفض الدعوة كلها ﴿ثم أدبر يسعى، فحشر فنادى، فقال أنا ربكم الأعلى﴾(٣)

(٢) الألقاب الملكية:

كان من مستلزمات توطيد عقيدة ألوهية الملك أن يظهر عدد من الألقاب الرسمية لتوضيح تلك الفكرة، وكانت ألقاب الملك أو «اسمه العظيم»، على حد تعبير القوم، يتكون من خمسة ألقاب زيدت عليها منذ الدولة الوسطى كنايات خمس، وهي جميعاً توضح، بل تؤكد حق الملك الإلهى فى حكم جزأى مصر، كبلد واحد، وأما الألقاب الخمسة فهى:

(أ) اللقب الحورى: وكان يكتب داخل إطار مستطيل (سرخ) يمثل واجهة البيت الملكي بما له من دخلات وخرجات، يعلوه صقر حور، إله الأسرات لكل مصر، والابن المنتقم لأوزير، رمز الملك الميت(٤)، ويؤكد هذا اللقب الحورى انتماء حامله إلى عالم الآلهة، إلى الإله حور، ويجعل منه وريثا لحور، يحكم باسمه ويتجسد شخصيته، ذلك لأن حور إنما قد ورث حكم مصر عن أبيه أوزير، ثم ورثه الملك للفرعون.

هذا ويتجه بعض الباحثين إلى أن «الصقر» إنما يشير إلى أنه الاسم الأبدى للملك، وليس اسماً إقليمياً، بينما يذهب آخرون إلى أن اللقب الحورى وثيق الاتصال بعبادة أوزير، ومن ثم فهو يعنى أن الجالس على عرش مصر إنما هو ابن أوزير وخليفته(٥)، هذا ويذهب فريق ثالث إلى أن الصقر إنما هو إله مدينة «نخن» (البصيلية)، ومن ثم فهو يشير إلى أن الملك إنما جاء من هذا المكان، أى من مدينة الصقر، عاصمة الصعيد، وصاحبة الفضل فى توحيد البلاد، وقيام أول ملكية فى التاريخ، وعلى أى حال، فهناك ما

(١) سورة الشعراء، آية: ٢٩؛ وانظر: محمد بيومى مهران، دراسات تاريخية من القرآن الكريم، الجزء الثانى، فى مصر، (بيروت ١٩٨٨م)، ص ١٦٣-٢٢١.

(٢) سورة القصص، آية: ٣٨.

(٣) سورة النازعات، آيات: ٢٢-٢٤.

(4) W. B. Emery, Arachaic Egypt, p. 106.

(5) W.M.F. Petrie, The Royal Tombs, I, p. 35-36.

يشير إلى ظهور اللقب الحورى منذ أيام الملك العقرب (أى منذ ما قبيل التوحيد) وعلى أيام «نعرمر»، كما كان لهذا اللقب الأسبقية على كل الأسماء الأخرى عندما كان يذكر على الآثار(١).

(٢) اللقب النبتي: كان اللقب النبتي (السيدتان) هو الذى يلى اللقب الحورى مباشرة على الآثار، ويمثل فى صورة رخمة تشير إلى الإلهة «نخبت» (نخابة) إلهة الصعيد، وحية ترمز إلى الإله «وادجيت» إلهة الدلتا، وكان يذكر فوق الاسم الثاني للملك، ويشير إلى القوة التى تربط الملكية المزدوجة بوادى النيل، فضلا عن علاقة الملك بالإلهتين الرئيسيتين فى الصعيد والدلتا فيما قبل الوحدة، وأنهما قد اتحدتا فى شخص الملك الذى يمثل مكانتهما الدينية فى البلاد وتقومان بحفظه(٢).

(٣) اللقب النسوبيتي: يدل هذا اللقب على أن الملك إنما ينتسب إلى نبات البوص أو الأثل، شعار مملكة الصعيد، وإلى النحلة شعار مملكة الدلتا، ومن ثم فهو يمثل «ملك مصر العليا والسفلى»(٣)، وتذهب «باو مجارتل» إلى أن لقب «بيت» إنما كان يرتبط بالإله «مين»، وأنه قد أخذ عنه بعض صوره وألقابه، كذيل الثور، الذى كان يكون جزءاً هاماً من الزى الملكى وبعض ألقابه مثل الثور القوى، فضلا عن لقبه «بيتى» هذا وقد ظهر لقب «نيسو - بيت» منذ أيام الملك «وديمو»، وإن كان هذا لا يعنى بالضرورة أنه لم يكن مستعملا من قبل(٤).

وعلى أى حال، فإن الملوك عندما كانوا يستعملون اللقبين، النبتى والنسوبيتى، إنما كانوا - دائماً وأبداً - يقدمون آلهة الصعيد وشعاره على آلهة الدلتا وشعارها، لأن ملوك التوحيد إنما كانوا من الصعيد، من «نخن» (البصيلية)، ومن ثم فقد جعلوا آلهة ملوكهم وشعارهم أولا، ثم آلهة الدلتا وشعارها ثانيا(٥)، بل حتى اللفظة الشائعة (نسو) عن الملك فى مصر

(1) P.E. Newberry, The Horus Title of The Kings of Egypt, PSBA, 26, 1904, p. 295-297.

(2) A.H. Gardiner, Egyptian Grammar, 1966, p. 73.

(3) W.B. Emery, op.cit., p. 107.

(4) E.J. Baumgartel, Some Remarks on The Origins of The Titles of The Archaic Egyptian Kings, JEA, 61, 1975, p. 29.

(5) H.R. Hall, op.cit., p. 99.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفرعونية إنما كانت شعار الصعيد، وليس الدلتا[١].

(٤) لقب حور الذهبي: أو «حور الذى من ذهب»، وقد ترجم البعض هذه العبارة بمعنى الاسم الذهبى أو اسم الذهب، ومايزال معناها غامضاً، فقد تشير إلى انتصار حور على عدوه ست، وقد يشير استخدام علامة الذهب فى الألقاب الملكية لملوك الأسرات الأولى إلى تقديس الملك، وذلك بتجسيده لحور الذى لا يفقد لمعانه مثل الذهب، أو الذى يشع مثل الذهب، وعلى أى حال فاللقب إنما يعبر عن القوة العظيمة والمجد[٢].

(٥) ابن رع: ويؤكد هذا اللقب صلة الملك بالإله رع، بل إنه إنما كان تصريحاً من الملك الفرعون ببنوته للإله رع، تلك البنوة التى أعلنها الفراعين بصفة متقطعة منذ الأسرة الرابعة، وبصفة دائمة منذ عهد «نفر إير كارع» ثالث ملوك الأسرة الخاصة، بل إن اسم رع إنما دخل فى ألقاب الملوك منذ الأسرة الثانية مثل «رع نب» بمعنى رع الذهبى، وعلى أى حال فكثيراً ما كان تجئ بعد لقب «ابن رع» (سا رع) صفة أخرى، وهى «رب التجليات» أى الظهور الإلهى، أو «رب التيجان»، ثم يتلو ذلك خانة ملكية تحوى اسم الملك الذى عرف به منذ ولادته، وهو فى الغالب اسم عائلى، مثل أسماء الملوك الذين كانوا يسمون أمنمحات أو سنوسرت أو تحوتمس أو أمنحتب أو رعمسيس[٣].. وهكذا.

ولعل من الجدير بالإشارة إلى أن كتاب الدولة الحديثة لم يروا فى تلك الألقاب الخمسة ما يكفى لإظهار الولاء والإخلاص للملك ومن ثم فقد أضافوا ألقاباً أخرى مثل الثور القوى ومحبوب آلهة الحق وحامى مصر وقاهر الشعور الأجنبية وكثير الأعوام وكثير الانتصارات، رع القوى فى الحق، محبوب آمون رع ربّ الكرنك، الإله الطيب، الباشق الذهبى الجليل،... وهكذا.

(1) A.H. Gardiner, Egyptian Grammar, Oxford, 1966, p. 75.
(2) H. Frankfort, Kingship and Gods, Chicago, 1948, p. 46.
(3) J.A. Wilson, op.cit., p. 102.

(٣) أعياد فرعون:

تعددت أعياد المصريين ـ وخاصة فى عهد الدولة الحديثة (١٥٧٥-١١٨٧ق.م) ـ فهناك:

١ ـ **الأعياد الزراعية**: كعيد رأس السنة، وعيد الحصاد، وعيد الفيضان.

٢ ـ **الأعياد الدينية**: كمواكب آمون، وأعياد الآلهة المختلفة، وأعياد الجبانة.

٣ ـ **أعياد فرعون**: وقد تميزت بما شاع فيها من ألوان الترف والتبرج، وبما طغى عليها من اتجاهات لتمجيد فرعون، وإعلاء شأنه فى نظر شعبه، وربطه بركب الآلهة، ووصل حاضره ومستقبله بماضى أسلافه من الفراعين الأمجاد، وكان من أهم تلك الأعياد:

(١) **عيد التتويج**: عيد تتويج فرعون وجلوسه على العرش، وكانت تتلى فى هذا العيد صلوات خاصة، وتجرى طقوس دينية متوارثة، وقد حرص فراعنة الدولة الحديثة بوجه خاص على أن يظهر فرعون فى هذا العيد على رأس موكب عظيم، يحمل الكهنة فيه تماثيل الفراعنة، «مينا» موحد القطرين ورأس الدولة القديمة، و«منتوحتب» الأول، معيد الوحدة، ورأس الدولة الوسطى، و«أحمس» محرر البلاد ومعيد وحدتها ورأس الدولة الحديثة (وكلهم من الصعيد، الأول من البصيلية بمحافظة أسوان، والثانى والثالث من الأقصر بمحافظة قنا)، وعلى أن يشرق فرعون أمام شعبه المبتهج السعيد، وفى الواقع لقد كان لحفلات التتويج أهمية كبيرة، فهى إلى جانب كونها احتفالا بارتقاء الملك لعرش بلاده، كانت بمثابة تخليد لذكرى قيام وحدة القطرين تحت تاج فراعينه[1].

وعلى أى حال، فلقد كان تتويج فرعون يتم بظهور كاهن الإلهين حور وست مقنعين بقناعهما، ثم يقودان الملك ليغسلاه ويطهراه، ثم يقدماه لبقية الآلهة، ثم يوضع على رأسه التاجين الأبيض والأحمر، ثم يتم الطوائف المرتبط باتحاد القطرين، وهو الطواف حول الحائط الأبيض، ثم يحتضن إله

(١) محمد جمال الدين مختار، تاريخ الحضارة المصرية، الجزء الأول، ص ١٥٣-١٥٤.

الدولة الملك الجديد بين ذراعيه، ويخلد اسمه على أغصان الشجرة المقدسة، وكان يحتفل سنوياً بهذا اليوم المبارك، ولكن الاحتفال الأعظم والأهم إنما يكون عندما لاثين عاماً على عرش الكنانة (عيد سد أو الحب سد).

(٢) عيد سد: يعتبر عيد سد هذا ـ أو «حب سد» ـ من أهم أعياد فرعون، وقد أطلق المصريون اسم «عيد سد» على عيد يقام بمناسبة مرور ثلاثين عاماً على جلوس الفرعون على العرش المصرى، فهو بذلك «العيد الثلاثيني»، ولدينا ما يثبت الاحتفال به منذ الأسرة الأولى[1]، وحتى نهاية التاريخ الفرعونى، بل إنه دون شك إنما كان معروفاً قبل عصر التوحيد، واستمر القوم يمثلون بعض مناظر طقوسه على جدران المعابد فى جميع العصور، حتى تلك التى شيدت على أيام الرومان، وإن كان عيد سيد قد خضع لبعض التغييرات فى مراسيمه على مدى العصور، هذا ويبدو أن فكرة العيد الثلاثيني ترجع إلى العصور البدائية الأولى حين كان الناس يتمثلون فى الحاكم قوة تهيمن على مظاهر الطبيعة وترتبط بها، بحيث يتحتم عليهم التخلص من الحاكم بعد مرور ثلاثين سنة على حكمه وذلك بقتله، حتى لا تتأثر مظاهر الطبيعة بشيخوخته وضعفه، فتقل المحاصيل ونتاج الماشية، فكانوا يسارعون بقتله، وإحلال شاب قوى صحيح الجسم خلواً من مظاهر الضعف فى مكانه.

هذا وماتزال طبيعة «أعياد سد» غامضة، وإن كان من الواضح أنها كانت تحيى فى صورة ما تجديد القوة الملكية، وكان يؤتى بصورة لمختلف الآلهة الإقليمية إلى العاصمة، حيث كانت تقام الاحتفالات، ويقدم «حجر رشيد» فى نصه اليونانى اصطلاح «عيد العام الثلاثين»، والواقع أن الكثيرين من الفراعنة احتفلوا بأول عيد لهم فى العام الثلاثين من الحكم، ومع ذلك فهناك شذوذ فى القاعدة لا يمكن توضيحه، وإن ذهب بعض الباحثين إلى أن مدة الثلاثين عاماً إنما كانت تحتسب من يوم إعلان ملك المستقبل ولياً للعهد[2]، وافترض البعض الآخر أن الذى يحدد الاحتفال بعيد سد إنما هو

(1) B. Gunn, ASAE, 28, 1928, p. 158.

(2) H. Frankfort, Kingship and The Gods, 1948, p. 79.

حالة الملك الصحية، ومن ثم فليس هناك ما يدعو لتحديد عدد من السنين ليقوم الملك بالاحتفال بهذا العيد[١]، فقد احتفل تحوتمس الرابع بعيدين في أقل من عشر سنوات، بينما انتظر أمنحتب الثالث ثلاثين عاماً ـ وإن عاد فاحتفل بهذا العيد في أعوام حكمه الرابع والثلاثين والسابع والثلاثين ـ وربما كانت حالة تحوتمس الرابع الصحية هي التي دفعته إلى الاحتفال بهذا العيد.

وعلى أي حال، فإن إخناتون لم ينتظر طويلا للاحتفال بعيد سد، فقام بإعادة تجديد الاحتفال بهذا العيد في السنة الثانية عشرة، والسنة الخامسة عشرة، وأما رعمسيس الثاني فقد احتفل بعيده الثلاثيني ثلاث عشرة مرة، على الأقل، إبان فترة حكمه الطويل الذى أربى على سبع وستين سنة، كما يبدو ذلك من نقوش جبل السلسلة الستة، فضلا عن نقوش أرمنت والكاب وجزيرتي سهيل وبيجة[٢]، فيما بين الشلال الأول ودابود.

(٣) عيد احتفال الملك بأبيه «مين»: من المفضل أن يبدأ الملك حكمه في مصر ـ البلد الزراعي ـ بتقديم القرابين لأبيه الإله «مين» ـ رمز الإخصاب، وإله الحقول ـ فقد كان فرعون يمثل وهو «يتألق كالشمس المشرقة» فيبارح قصره، «ويتخذ مكانه في المحفة موليًا وجهه شطر بيت أبيه «مين» ليشاهد جماله» وهو محمول على عرشه فوق محفة يحملها عادة اثنا عشر شخصاً وإلى اليمين واليسار حاملا المروحتين الملكيتين، وربما يكونان من أولاده، ويتقدم الموكب كاهنان يحملان المباخر، يليهما الكاهن المرتل، حتى يصل الموكب إلى مقر الإله مين، الذى يخرج من قدس أقداسه، ويتقدم لملاقاة الملك في المعبد في موكب عظيم يتقدمه العجل الأبيض المقدس عند مين، ثم صف من الكهنة يحملون الشارات الملكية والرموز الإلهية وصور ملوك الوجهين القبلى والبحرى الأقدمين.

(1) K. Sethe, AZA, 26, 1898, p. 64.

(2) F.L. Grifith, JEA, 5, 1918, p. 16-64; A.H. Gardiner, op.cit., p. 207; ASAE, 42, 1943, p. 29F; H. Gauthier, Le Temple d'Amada, Cairo, 1913, XXIX, 133, 136.

ويقف الملك على شرفة بها ساريتان عليهما لباس رأس الإله، ثم يطلق الكهنة أربع أوزات إلى أركان السماء الأربعة لتنقل الأنباء بأن «حور» ابن «أوزير» و«إيزة» قد وضع على رأسه التاجين، الأبيض والأحمر، وعندما يتم إعلان فرعون للآلهة ملكاً على أرض الكنانة، يتقدم برفع قربانه إلى تماثيل أسلافه، ثم يقطع حزمة من سيقان القمح كأول ثمار للأرض، وذلك بمنجل موشى بالذهب؛ وتكريماً لأوزير أول ملك علم شعبه الزراعة، ثم يعود الملك بعد ذلك إلى قصره الملكي ليمارس سلطانه ويتقبل التهاني من رجال بلاطه[1].

(١) إرمان ورانكه، المرجع السابق، ص ٥٥-٥٧؛ نجيب ميخائيل، المرجع السابق، ص ٨٣.

٢ ـ تطور سلطة الملك حتى عصر الثورة

(١) في عصر التأسيس والدولة القديمة:

كان الملك في عصر التأسيس (الأسرة الأولى والثانية) وفي النصف الأول من الدولة القديمة (الأسرات من الثالثة إلى السادسة) «إلهاً» وحاكماً وسيداً لشعبه، حتى دعاه القوم بلقب «الإله العظيم»، وكان شخصه الإلهي لا يمس ولا يقترب أحد منه، بل إن القوم اعتبروا اسمه مقدساً لا يجوز ابتذاله أو النطق به، وإنما يكنى عنه ببعض الألفاظ والعبارات تقديساً واحتراماً، فكان يقال عنه «الإله» أو «جلالته» أو «حور الذي في القصر»، أو يشيرون إلى القصر نفسه بدلاً من اسم الملك، فيقولون «البيت العظيم» أو «البيت الملكي» أو «المقام» أو «المكان المحروس» وكانوا يذيلون اسم الملك أو لقبه بالدعاء له «له الحياة والسعادة والصحة»، كما كانت هناك ثلاث صفات إلهية متصلة بالملكية وهي «حو» أي اللفظ ذو السلطة أو الأمر الخالق، و«سيا» ومعناها الإدراك أو الفهم، و«ماعت» ومعناها «العدل»[(١)].

وتستمر هذه الهالة من القداسة والتأليه، وبخاصة في عهد الأسرة الرابعة، حيث نرى الملكية الإلهية في قصة سطوتها، وعنفوان قوتها، في تسلطها على شعبها، وإيمانها بنفسها، فضلا عن إيمان شعبها بها، ولكننا في نفس الوقت نكاد نحس بأن شيئاً ما سيحدث ليرقق من هالة التقديس، حيث نرى الملك «خفرع» يلقب نفسه بلقب «سارع» أي «ابن رع»[(٢)]، وإن كان هناك من يذهب إلى أن هذا اللقب إنما ظهر منذ أيام «خوفو»، بل من أيام «سنفرو»[(٣)].

ويذهب الدكتور عبد العزيز صالح إلى أن الفرعون إنما كان يهدف من ذلك إلى مسايرة مذهب الشمس في نشاطه الواضح خلال عهد هذه الأسرة، وهي مسايرة بدأها الملوك منذ عصر الأسرة الثانية، وفي أوائل الأسرة

---

(1) J.A. Wilson, The Intellectual Adeventure of Ancient Man, Chicago, 1941, p. 57, 75, 83; J.A. Wilson, The Culture of Ancient Egypt, p. 105.

(2) A.H. Gardiner, op.cit., p. 71.

(3) H. Gauthier, Le Livre des Rois d'Egypte, Paris, 1907, p. 64, 77; W.M.F. Petrie, op.cit., pl. VIII, 12; R. Weill, Sphinks, 15, p. 11-12.

الثالثة، وربما سار عليها سنفرو، حين شاد معبد شعائره، ومعبد شعائر أبيه إلى الشرق من هرميهما، بدلا من ناحية الشمال، ثم استمر خوفو في هذه المسايرة حين سمى بعض أبنائه بأسماء يتداخل فيها اسم رع، مثل جد فرع وباوفرع وخفرع، وأما الهدف الثاني، فيما يرى يونكر، فهو رغبة الفرعون على التدليل فى أنه يعتلى العرش بناء على بنوته للإله رع، وبتفويض منه، وربما عن رغبة منه كذلك فى أن يتبرك باسمه، وأن يكتب له دوام مثل دوامه، ولو خلال حياته الثانية، وكثيراً ما عبرت النصوص المصرية عن هذا الأمل الأخير لملوكها، وكانت تدعو لكل منهم بقولها «عاش مثل رع، وإلى الأبد»[١].

وفى عهد الملك «من كاو رع» (منقرع) تبدأ سياسة جديدة يظهر فيها نوع من الميل نحو الانحراف فى صميم عقيدة الملكية الإلهية، ومن ثم فقد بدأ فرعون يسمح لأبناء المقربين من كبار الموظفين يتلقى تعليمهم مع أبنائه في القصر الملكى، فهناك «بتاح شبسس» الذى تعلم مع الأطفال الملكيين في القصر، وفي القاعات الخاصة، وفي الحريم الملكى وربما كانت رغبة الفرعون في أن يشب هؤلاء الأطفال مخلصين للعرش، مؤمنين بتقاليده[٢].

ويستمر «شبسكاف» في سياسة التقرب إلى رعاياه، بل ويخطو خطوة هى الأولى من نوعها فى تاريخ الفراعين فيزوج ابنته «خع ماعة» من «بتاح شبس»[٣] وفى هذا الزواج ما فيه من خروج على التقاليد التى تؤمن بها الأسرة المالكة التى تعتقد فى ألوهية ملوكها، فضلا عن خطورته على العرش نفسه، والذى كان ينتقل عن طريق خط المرأة، فقد كانت الزوجة الكبرى للملك هى الوريثة التى يستطيع الملك الوصول إلى العرش عن طريق الزواج منها، ذلك لأن الملكة ملكة بحق المولد، بينما كان الملك ملكاً بحق الزواج[٤].

(١) عبد العزيز صالح، حضارة مصر القديمة وآثارها، الجزء الأول، ص ٣٤٨؛ وكذا:
H. Junker, Die Politsche Lehre, p. 63-64; G. A. Wainwright, JEA, 25, 1939, p. 30F.

(2) H. Kess, ZAS, LXIV, p. 93, Urk, I, 1932, p. 251F.

(3) J.H. Breasted, ARE, I, 1906, p. 257.

(4) A.M. Margaret, The Splendour That Was Egypt, London, 1950, p. 102.
وانظر: محمد بيومي مهران، الثورة الاجتماعية الأولى فى مصر الفراعنة، ص ٣٤-٣٦.

وتنتهي الأسرة الرابعة بنهاية لا نعرفها على وجه اليقين، ثم تأتي الأسرة الخامسة، وترجع حقها في العرش إلى إرادة ربانية قديمة، وأصل مقدس، فتخرج على الناس بأسطورة تجعل ملوكها أبناء للإله رع من صلبه، وكانت ديانته قد أصبحت الديانة الرسمية للبلاد منذ ذلك الحين، ولعل قيام هذه الأسرة بهذه الوسيلة، إنما كان ضربة للملكية الإلهية، إذ بدأت تفقد الكثير مما كان لها من قداسة، ولعل السبب أن هذه الأسرة إنما قامت أصلا بدافع من كهانة عين شمس (أيون) ونفوذها.

ومن هنا كان فراعين الأسرة الخامسة يدينون بالولاء لرع نفسه، صاحب الفضل في ارتقائهم عرش الكنانة، ثم لكهانته الذين ساندوهم وعضضوهم في حكمهم، وكان لذلك أبعد الأثر في قدسية الملوك ونجاح رع في تحدى السلطة المطلقة التي كان يتمتع بها الفراعين.

وهكذا أصبح الإله رع سيد البلاد بعد أن كان الفرعون سيدها، وأصبح لكهانته جزء غير قليل من ثروة البلاد عن طريق المعابد، بعد أن كان الفرعون يملك خيرات مصر، إذ سار ملوك الأسرة الخامسة على سنة إقامة المعابد الكثيرة لرع ولغيره من الآلهة، وإيقاف الأموال للصرف عليها، رغبة منهم في ولاء كهانتها، فضلا عن الظهور أمام الشعب بمظهر التقاة، هذا إلى جانب التودد إلى كبار رجال الدولة، حتى وصل البعض منهم إلى منصب الوزارة، والذى كان من قبل مقصوراً على الأمراء دون سواهم، حتى أنه لم يل الوزارة إبان عهد هذه الأسرة سوى اثنان من الأمراء، هما «سخم كا رع» و«نفر سشم سشات».

هذا فضلا عن السماح للكثيرين بمصاهرتهم، ومن ثم فقد تزوج البعض بأميرات من البيت المالك، بل إن واحداً من الفراعين زوج إحدى الأميرات بقزم يدعى «سنب» كان يعمل في بلاطه[1]، أضف إلى ذلك

(1) A. Mariette, op.cit., p. 112-113; J.H. Breasted, ARE, I, p. 257; Urk, I, p. 51-53.

وعن المولد الإلهي للأسرة الخامسة، انظر: محمد بيومي مهران، مصر، الجزء الثاني، ص ١٥٦–١٦٠؛ وكذا:

G. Lefebvre, op.cit., p. 81-90; A. Erman, IAE, p. 42-47; M. Lichtheim, op.cit., p. 220-222; R.O. Faulkner, JEA, 37, p. 114; W.K. Simpson, op.cit., p. 25-30.

كله أن الفراعين قد سمحوا لكثير من الأبناء الذين تربوا في قصورهم بأن يرثوا مناصب آبائهم بعد موتهم، بل إن الفراعين إنما بدأوا يتراخون في استعمال حقهم في نقل حكام الأقاليم من إقليم إلى آخر، الأمر الذي يشير إلى مدى ما أصاب الملكية من تردد، وإلى اعطاء حكام الأقاليم سلطة في أقاليمهم تنافس سلطة الملكية نفسها.

وبدأت الأسرة السادسة بالملك «تتي» الذي يقرب إليه كهانة «منف» ويضفي على نفسه لقب «المحبوب من بتاح إله منف»، ربما لأنه اعتمد عليهم في توليته العرش، ولكن سرعان ما يستطيع كهان «عين شمس» من استعادة سلطانهم في عهد «مري إن رع» الذي يضيف اسم «رع» إلى ديباجة اسمه، وعلى أي حال، فلقد ازداد نفوذ الأمراء المحليين، وازداد إغداق المال على المعابد، وفقد ملوك الأسرة من وراء ذلك الكثير من المال والسلطان، فلجأوا إلى علاج ذلك بإعادة تربية أبناء الحكام في قصورهم حتى يضمنوا ولاءهم حين يتولون حكم أقاليمهم.

هذا، فضلا عن إعادة منصب «حاكم الصعيد» الذي كان في الأسرة الخامسة يوكل إليه جمع ضرائب الصعيد، والإشراف على حكامه، ولكنه ألغي في عهد «تتي»، غير أن ذلك لم يغير من الأمر شيئاً، فقد أصبح الآن تشريفاً لحامله، أكثر منه لقباً فعلياً، ومن ثم فقد اشترك فيه أكثر من واحد في وقت واحد، كما في حالتي حاكم القوصية وحاكم إدفو، ومع ذلك فقد رأى فيه حكام الأقاليم إضعافاً لنفوذهم، وربما عائقاً في سبيل استقلالهم بأقاليمهم، فعملوا جاهدين على إلغائه إبان شيخوخة «ببي الثاني» الطويلة، التي ظهر فيها واضحاً ضعف سلطان فرعون[1].

(٢) عصر الثورة الاجتماعية الأولى:

ظهرت اللامركزية في أخريات أيام الدولة القديمة، فتحللت من ألوهية الفرعون ورقتت من هالة التقديس التي كان يحاط بها، أو يحيط بها نفسه، ومن هنا نراها تنزل من قدر الملك ومركزه، بينما هي في الوقت نفسه ترفع

---

(١) محمد بيومي مهران، الثورة الاجتماعية الأولى، ص ٣٦-٤٢؛ إتيين دريوتون وجاك فاندييه، مصر، ص ٢٣٨، ٢٦٣.

من شأن النبلاء وحكام الأقاليم، وبذلت أصبحت فكرة المساواة مقبولة من الناحية النظرية.

وهكذا لم يعد الملك ذلك الإله المترفع، والحاكم الجبار فوق البشر، والذى يرجو رعاياه عطفه ورضاه، لعلهم ينالون من وراء ذلك قربى ورحمة فى الدنيا والآخرة، وإنما أصبح شخصاً غير معصوم يتحدث عن ضعفه وعن خطاياه، كما يتحدث الآخرون من رعاياه.

ويقدم لنا «خيتى» ملك إهناسية فى وصيته المشهورة لولده «مرى كا رع» صورة للاتجاه الجديد، الذى ساد هذا العصر فى لغة ملؤها التواضع غير المألوف عند الفراعين، ففى حديثه عن الحرب التى دارت رحاها بين طيبة وإهناسية على الأرض المقدسة يقول: إنها قد وقعت من وراء علمه، وأنه لم ينبأ بها إلا بعد وقوعها، ومع ذلك فقد استحق العقاب من الآلهة[1].

وفى نفس الوصية نجد نصاً تزداد أهميته لأن قائله فرعون مصر، الذى يعترف له شعبه، ولو نظرياً، بالألوهية الملكية، وهو أن سعادة الإنسان لا تتوقف على رضى الفرعون، وإنما على ما قدمه من خير فى الدنيا، ومن هنا فإن الحياة الطيبة الخيرة فى الدنيا هى عماد الحياةفى الآخرة «فالروح تذهب إلى المكان الذى تعرفه ولا تحيد فى مسيرها عن طريق أمسها»[2].

وفى هذا العصر كذلك تجرأ شخص على التشهير بالفرعون، ففى «تحا يرات إيبو - ور» نرى الحكيم المصرى يتهم فرعون بأنه سبب الفوضى والاضطرابات التى سادت البلاد، فرغم أنه قد أعطى الحكمة والسلطة، إلا أنه بقى فى قصره يحيط نفسه بمجموعة من المنافقين، حتى ساءت الحال، وفقد الناس الأمن والأمان، حتى إذا سار ثلاثة فى الطريق فلا يعود إلا اثنان، فالعدذ الأكبر يقتل الذين أقل منهم عدداً، ثم يقص عليه بلايا الناس ثانية، ثم يبلغ به العنف أشده فيتمنى له أن يذوق البؤس بنفسه.

---

(1) J.A. Wilson, ANET, 1966, p. 417,

(2) Ibid., p. 415.

وعن الوصية انظر محمد بيومى مهران، الحضارة المصرية القديمة، الجزء الأول، ص٣٠٦-٣٢٦، وكذا

W.K. Simpson, op.cit., p. 180-190; M. Lichtheim op.cit p. 97-109 A Gardiner, JEA, I, p. 20-36; A. Erman, LAE, 1927, p 75-84 RdE, 7, 1950 p 176-180, 12, 1960, p. 90-91.

وبيت القصيد فى هذه المناقشة أن مكانة فرعون لم تعد كما كانت، ففيها اتهام مرير من مصرى لفرعونه الإله بأنه سبب البلايا التي عمت البلاد، ثم التمني له بأن ينال نصيبه منها، وحين يرد الفرعون على الاتهام بأنه حاول جهده أن يحمى شعبه، يتهمه محدثه بالجهل، وعدم الكفاءة للمنصب الخطير[١].

ولم يقتصر الحكيم المصرى على ذلك وإنما رسم لفرعونه صورة للملك الأمثل، إنه الحاكم العادل الذى لا يحمل فى قلبه شراً لرعيته، والذى يعمل جهده على جمع كلمتها وتوحيد صفوفها، إنه كالراعى يصرف يومه فى جمع قطعيه بعضه إلى البعض الآخر[٢].

٣ - فى الدولة الوسطى:

ظل المصريون القدامى، كما كانوا قبل الثورة الاجتماعية، على مبادئهم القديمة، لم يفرطوا فى المبدأ الذى ينادى بأن الحكم من نصيب الملك الإله، ولكن نظرتهم إليه قد تغيرت، فلم يعد للملك تلك الصفات التى كان يتمتع بها الفرعون إبان سطوة الملكية الإلهية، والتى كان فيها الملك أحكم الحكماء، وأقوى الأقوياء، وأعظم العظماء، وأنه لا يمكن أن يناله ضعف أو تمتد إليه يد البشر بسوء، وإنما أصبح يخشى ما يخشاه غيره من الناس.

ويقدم لنا «أمنمحات الأول» رأس الأسرة الثانية عشرة الدليل على ذلك حين يحكى لولده «سنوسرت» قصة المؤامرة التى حيكت ضده، فيحذره من الناس لأن تجاربه الشخصية عرفته أن أقرب الناس إليه هم الذين غدروا به، وينصحه بأن يحافظ على نفسه بنفسه، وأنه قد هوجم فى مضجعه فى استراحة له بعد العشاء[٣]، مما يشير بوضوح إلى أن مكانة الملك قد تغيرت، وأن الملوك أنفسهم قد أحسوا بذلك، فلقد رأينا فى هذه القصة كيف أصبح الإله عرضة للقتل، بل إن البعض إنما يذهب إلى أنه قتل فعلا، وكيف

(١) محمد بيومى مهران، الثورة الاجتماعية الأولى فى مصر الفراعنة، الإسكندرية ١٩٦٦، ص ١٩٠-١٩٣.

(2) A. Erman, The Literature of Ancient Egyptian, 1927, p. 105-106.

(3) Ibid, p. 72-73; ANET,p. 418-419; JNES, 16, p. 170-190; BIFAO, 34, p. 63-74.

انهار، وكيف يعترف بأنه لا شجاع فى ظلمة الليل، حتى ولو كان هو الملك الإله، وكيف أصبح لا يجد من يثق فيه ويعتمد عليه فى الخطوب الجسام غير ولده ليحميه من أى شر يراد به؟ بعد أن كان هو الذى يحمى نفسه وبيته وشعبه.

ولو نظرنا إلى الآثار لوجدنا اختلافاً واضحاً، فالأهرام التى شيدت لتكون مقراً للملوك تعكس الفرق بين مكانتهم فى الدولة القديمة ومكانتهم فى الدولة الوسطى، فالأولى تمتاز بفخامتها وإتقانها المعجز فى هندستها، والدقة فى تخطيطها، فالهرم الأكبر مثلا هو أعظم مقبرة فى العالم أجمع، بنيت لتكون قبراً لفرد واحد، كما أنه أشهر بناء أثرى فى الدنيا كلها، ولم يحدث قبل أيام خوفو أو بعده، أن يبنى للملك مثل هذا المستقر الأبدى الفخم.

وأما مقابر الدولة الوسطى فلم تكن فى ضخامة وعظمة مقابر الدولة القديمة، كما تعكس الأهرامات مكانة الملوك فى الدولتين، حتى أن المؤرخين قد اختلفوا فى قيمة الفن فى الدولتين، ومن ثم فإن برستد يرى أن تماثيل الدولة الوسطى ليست بها الحيوية والفردية اللتان تميزان نحت الدولة القديمة[١]، وأما «هول» فالرأى عنده أن النقش البارز وتماثيل الملوك فى الدولة الوسطى تقدم لنا صوراً لقوى لم يستطع فنانو الأسرة الرابعة أن يقدموا على منافستها أو الوقوف أمامها[٢].

ولكن الرجلين بعدا حقاً عن محجة الصواب، فليس الأمر أمر حيوية وفردية، ولكنه أبعد من ذلك كثيراً، أن العصرين يختلفان فعلا، إن فنان الأسرة الرابعة رسم ومثّل ما يراه، وكذلك فعل فنان الدولة الوسطى، إن الأول رأى إلهاً يدرك قوته فى عنفوانها فاستشف ما وراء الصورة واستلهمه، فخرج تمثال خفرع المشهور فى جلاله وقدسيته، أما فنان الدولة الوسطى فكان يرى رجلا من الرجال أرهقته مشاكل الحياة وألح عليه الكفاح حتى ترك الغضون تسرى فى أنحاء وجهه وجبهته، إنه رجل وليس إلهاً، إن فيه العواطف الإنسانية، وفيه الضعف البشرى، ورسم الفنان ونحت ما رآه لم يحد عنه،

(1) J. H. Breasted, A History of Egypt, N.Y., 1946, p. 201.
(2) H.R. Hall, The Ancient History of The Near East, London, 1963, p. 163.

والفنانان أتقنا عملهما من غير شك، وقدما الصورة التى كان يفترض من فنان مارس فنه دهراً طويلا أن يقدمها على وجهها الصحيح[١].

ولعل من أفضل الأمثلة على ذلك رأس تمثال الملك «سنوسرت الثالث» بمتحف جامعة كمبريدج والمصنوع من حجر الجرانيت الأسود، حيث نجد فى ملامح هذا التمثال ما ينم عن قوة الإرادة، واعتزاز صاحبه بنفسه وأعماله، كما يدل فى الوقت نفسه على بعض مشاعر الأسى والحزن التى تترسم على عينى التمثال، وخاصة تلك الجيوب الواضحة فى أسفل العينين، والتى تدل على أن صاحبها ما كان يتمتع بحياة ملؤها الرخاء والهدوء، وإنما كان رجلا شديد البأس، قوى الشكيمة، هذا فضلا عن الفم والتصاق الشفة العليا بالسفلى، وذلك الخط العميق الذى يترسم على الذقن فى كل نواحى الفم.

مما يشير إلى نفس المشاعر والأحاسيس بوضوح على وجه هذا الملك، والتى ماكان فى مقدرة الفنان على تسجيلها إلا فى حالة بدء تداعى عقيدة الملكية الإلهية، وإحلال عقيدة أخرى تقوم مقامها، خلاصتها أن الملك، وإن كان حسب ألقابه التقليدية، إنما يعتبر نفسه من أسرة الآلهة، وأنه هو نفسه إله، غير أن واقع الأمر إنما يدل على أنه كان يمارس حياته اليومية وينفذ مشاريعه ويقود جيشه فى حملاته الحربية ويدير شئون دولته، كرجل ناجح، استطاع أن يقضى على نفوذ الأمراء وحكام الأقاليم بما يحقق الخير والأمن لبلاده[٢].

هذا وقد أبقت الثورة الاجتماعية على المبدأ الذى ينادى بأن الحكم من نصيب الملك الإله، ولكنها فى الوقت نفسه، نادت بحقوق الأفراد وبالعدالة الاجتماعية، مما جعل الملك الإله راعياً لشعبه يسهر على مصالحهم ويفنى نفسه فى سبيل سعادتهم، ومن ثم فقد أعطت الثورة للملوك مركزاً جديداً، فلم يعد الملك ذلك الإله الجبار، الحاكم فوق البشر، وإنما غدا إنساناً له ما للإنسان من ضعف ونزوات، وحاكماً يعمل لخير شعبه، ويجهد نفسه على أن يكون دائم اليقظة حتى لا يؤخذ على غرة، شأنه مع شعبه،

(١) نجيب ميخائيل، مصر والشرق الأدنى القديم، الجزء الأول، ص ٣٧٠.
(2) A. Shorter, Every Life in Ancient Egypt, London, 1932, p. 191.

وشأن شعبه معه، شأن أى إنسان قد يفعل الخير فيجد خيراً، وقد لا يجد سوى الشر.

وخلاصة القول أن الملك قبل الثورة كان إلهاً أكثر منه إنساناً، فأصبح بعد الثورة إنساناً أكثر منه إلهاً، ذلك لأن ضعف الملكية في العهد الإقطاعى وضياع قدسيتها، قد هبط بها كثيراً من عليائها، كما أن الدعوة إلى العدالة الاجتماعية أدت إلى ارتفاع شأن الشعب، ومن ثم فلم تعد للملكية تلك الهالة القديمة من المهابة والتقديس التى كانت لها فيما قبل الثورة الاجتماعية الأولى[١].

(١) محمد بيومى مهران، الثورة الاجتماعية الأولى فى مصر الفراعنة، ص ٢٠٠-٢٠١.

ثانيا ـ التنظيم الإدارى

كان الأساس ـ الاجتماعى والسياسى ـ الذى قامت عليه الحضارة المصرية القديمة هو التأكد بأن مصر يحكمها إله، وأن هذا الإله الجالس على العرش غير محدود المعرفة والمقدرة، وأنه عليم بكل شيء، وأن البلاد بما فيها ملك يمينه، ومن هنا كانت السلطات كلها ـ خاصة عهد التأسيس والنصف الأول من أيام الدولة القديمة ـ تتركز بشكل واضح فى يده، وقد باشر الملوك، وبخاصة الأوائل منهم، سلطاتهم بصورة تكاد تكون فعلية، ومع ذلك فإن هذا الوضع غير مقبول من الناحية العملية، ذلك لأن الملك لن يستطيع وحده أن يتحمل مسئوليات الحكم الإدارية[1]، والقضائية والدينية فى جميع البلاد، ومن ثم فقد استعان بجمهرة من الموظفين لينوبوا عنه فى تلك الأعمال، وليؤدوا ما فرض عليه من واجبات.

ويشبه «جون ويلسون» الدولة والمجتمع حينئذ بالهرم فيضع فى أعلى الهرم هرم صغير مستقل ويرى أن هذا الهرم الحجرى ممثلا للملك الذى يحكم فوق وزرائه، الذين بدورهم فوق حكام الأقاليم، الذين كانوا فوق عمد البلاد والقرى، ومن الناحية الاجتماعية كان فرعون فوق النبلاء، الذين كانوا بدورهم فوق خدام الأراضى، أما عن التنظيم الدينى، فكان فرعون هو حلقة الاتصال الوحيدة مع الآلهة، وكان فوق الكهنة الذين كانوا بدورهم فوق الشعب، وهذه التشبيهات الهرمية ليست فى الحقيقة إلا شيئاً واحداً، لأن كبار الموظفين والنبلاء وكبار الملاك والكهنة كانوا فى درجة واحدة، فقد كانوا جميعاً يكونون الطبقة التى تلى فرعون مباشرة، وكان ينيبهم عنه

(١) يتكون التنظيم الإدارى فى العاصمة من الإدارات والمصالح الحكومية التالية:

١ ـ الإدارة الملكية المركزية، وتسمى «بيت الملك» (بر ـ نسو) وهى غير القصر الملكى (بر ـ عا) وكانت المقر الرئيسى للحكومة، وتتكون من إدارة الوثائق الحكومية وإدارة السجلات أو الأختام وإدارة النسخ والمخطوطات وإدارة الضرائب، ولكل منها فرع فى مختلف الأقاليم.

٢ ـ مصلحة الحقول: وتتبعها الأراضى الزراعية على ضفاف النيل، فضلا عن تلك الواقعة على حافة الصحراء والمحيطة بالمقابر والأهرمات الملكية.

٣ ـ مصلحة الخزانة: وتسمى بيت المال الأبيض (برحج)، ويتولى إدارتها تحت إشراف الوزير، مدبر البيت المزدوج، ولها فروع فى الأقاليم، كما كانت تنقسم إلى قسمين ، بيت الذهب وبيت الشونة.

٤ ـ مصلحة الأشغال والمبانى ، وتختص ببناء المنشآت المختلفة، وأهمها المعابد والمقابر الملكية، وهى الإدارة الوحيدة فى مصر التى لم يجعلها القوم مزدوجة.

في تأدية المهام الخاصة به على وجه التحديد(1)، غير أن هؤلاء الموظفين إنما كانوا موظفين لدى فرعون يعينهم هو، وهم مسئولون أمامه، وبقاؤهم في وظائفهم رهن رضائه الإلهي، وأما هؤلاء الموظفين فهم:

١ - الوزيـــر:

الوزير: في اللغة، من «وازره» على الأمر، أعانه وقواه، والأصل: آزره، وفي القرآن الكريم قال تعالى: ﴿واجعل لي وزيراً من أهلي، هارون أخي، اشدد به أزري، وأشركه في أمري﴾(2)، قال مجاهد: «﴿اشدد به أزري﴾ - أي ظهري - و﴿أشركه في أمري﴾ أي في مشاورتي».

وقال الإمام النسفي - في تفسيره : ﴿واجعل لي وزيراً من أهلي﴾: أي نصيراً أعتمد عليه من الوزر والثقل، لأنه يتحمل عن الملك أوزاره ومؤنته، أو من الوزر: الملجأ، لأن الملك يعتصم برأيه، ويلتجئ إليه، في أموره، أو معيناً من الموازرة، وهي المعاونة.

وقال : الوزير: في اللغة، من يرجع إليه من الوزر، وهو الملجأ، والوزارة لا تنافي النبوة، فقد كان - قبل البعثة المحمدية - يبعث في الزمن الواحد أنبياء، ويؤمرون بأن يؤازر بعضهم بعضاً.

وقيل الوزير في اللغة: اشتقاق من الوزر، والوزر: الجبل الذى يعتصم به، لينجي من الهلاك.

والوزير: هو الذى يؤازره، فيحمل عنه ما حمل من الأثقال، وقد وزرت الشيء: آزره وزراً، أي حملته(3)، ومنه قوله تعالى: ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾(4).

(1) J.A. Wilson, op.cit., p. 73.

(2) سورة طه، آيات: ٢٩-٣٢؛ وانظر: تفسير القرطبي، ص ٤٢٣١-٤٢٣٤؛ تفسير السعدي ٧٥/٥-٧٧؛ تفسير النسفي ٥٢/٣-٥٣؛ في ظلال القرآن ٢٣٣٣/٤-٢٣٣٤؛ تفسير ابن كثير ٢٣٤/٣-٢٣٧؛ صفوة التفاسير ٢٣٣/٢؛ تفسير الطبري ١٥٩/١٦-١٦٠؛ تفسير البحر المحيط ٢٤٠/٦.

(3) تفسير ابن كثير ٢٣٤/٣-٢٣٧، ٥٠٨-٥٠٩؛ تفسير القرطبي، ص ٤٢٣٢-٤٢٣٣، ٤٧٤٦-٤٧٤٧؛ في ظلال القرآن ٢٣٣٣/٤-، ٢٥٦٣/٥؛ تفسير النسفي ٥٢/٣، ١٦٦-١٦٧؛ صفوة التفاسير ٢٣٣/٣، ٣٦٢؛ تفسير الطبري ١٠/١٩-١١.

(4) انظر: سورة الأنعام، آية: ١٦٤؛ الإسراء، آية: ١٥؛ فاطر، آية: ١٨؛ الزمر، آية: ٧؛ النجم، آية: ٣٨؛ وانظر: تفسير الطبري ٢٨٥/١٢-٢٨٦؛ تفسير المنار ٢١٨/٨، ٢٣٠؛ تفسير ابن كثير ٣١٩/٢-٣٢٠؛ تفسير النسفي ٤٣/٢.

وقال الشريف الرضي (٣٥٩-٤٠٦هـ/ ٩٦٩-١٠١٥م) ليس هناك على الحقيقة أحمال على الظهور وإنما هي أثقال الآثام والذنوب، فهو من الاستعارة اللفظية[١].

وفي قوله تعالى ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب، وجعلنا معه أخاه هارون وزيرا﴾[٢] - أي نبياً موازراً ومؤيداً وناصراً -.

وفي حديث السقيفة، قال أبو بكر للأنصار: «نحن الأمراء، وأنتم الوزراء»، وفي رواية: «منّا الأمراء، ومنكم الوزراء»[٣].

هذا وكان «منصب الوزارة» - في عصور الفراعين - هو أعلى المناصب وأسماها، وكان منتهى آمال الموظفين - طوال العصور الفرعونية - هذا فضلا عن أن «الوزير» إنما كان أكثر موظفي الدولة محبة في نفوس الشعب، ذلك لأن القوم إنما كانوا يعتقدون أنه هو الذى يقيم الحق، ويمحق الباطل.

هذا وقد اتفق المؤرخون على أن منصب الوزير، إنما قد وجد بصورة فعلية في الفترة فيما بين عصر التأسيس والأسرة الرابعة، وإن اختلفوا في الأسرة التي بدأ فيها، فمن يذهب إلى أنه إنما وجد منذ الأسرة الأولى، وأن أحد الموظفين اللذين كانا يلازمان الملك «نعرمر» على لوحته المشهورة كان وزيراً له، وأن اسم الوظيفة إنما كان يكتب «ثت» في ذلك الوقت[٤]، وهو لقب كتبه الفنان المصرى بحرفين هجائيين - وهي المرة الأولى التى ظهرت فيها الحروف الهجائية في كتابة المصريين - مقربين ذلك إلى كلمة «ثاتى» بمعنى وزير، إلا أن هذا التقريب لم يكن مقبولا من بعض الباحثين، فنظروا

(١) تلخيص البيان، ص ٤٠؛ صفوة التفاسير ٤٣٣/١.

(٢) سورة الفرقان، آية: ٣٥.

(٣) انظر عن يوم السقيفة (١١هـ/٦٣٢م): تاريخ الطبرى ٢٠١/٣-٢٠٧، ٢١٨-٢٢٣؛ سيرة ابن هشام ٤٨٨/٤-٤٩٢؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٣٤٠/٦-٣٤١؛ ابن الأثير، الكامل فى التاريخ ٣٢٥/٢-٣٣٢؛ السيوطى، تاريخ الخلفاء، ص ٥٨-٧٠؛ البلاذرى، أنساب الأشراف ٥٧٩/١-٥٩١؛ سليم بن قيس، كتاب سليم ابن قيس - أو السقيفة (المطبعة الحيدرية النجف)؛ ابن عبد ربه، العقد الفريد، ١١/٥-١١٤؛ أحمد الشامي، الخلفاء الراشدون، ص ١٦-٣٨؛ عبد العزيز سالم، تاريخ الدولة العربية، ص ١٥٤-١٦٣؛ الشبلنجى، نور الأبصار، ص٥٣؛ وانظر: محمد بيومى مهران، الإمامة وأهل البيت، الجزء الثانى: الإمام علي والإمامة، بيروت ١٩٩٥م، ص ٢٧-٣٢.

(٤) أحمد فخرى، مصر الفرعونية، ص ٩٣؛ وكذا:
A.H. Gardiner, Egyptian Gardiner, 1966, p. 601.

إليه على أنه ربيب الملك «نعرمر»[1]، واعتبره آخرون موظفاً إدارياً[2]. ورأى فريق ثالث أنه كان كاهناً[3]، ونادى فريق رابع[4] بأنه إنما يمثل كاهن «سم» وأن اللقب المكتوب لقب رمزى، ثم قرب هذا الفريق بين هيئته وملابسه وبين رجل آخر يشبهه فى مناظر بنى حسن لقب بكاهن «سم».

وبدهي أنه كان هناك موظف هو حلقة الاتصال بين الملك وباقى الموظفين، وأن توحيد القطرين أدى إلى ازدياد أعمال الحكومة مما يعتبر فرصة مناسبة لوجود منصب الوزير، ورغم أن ما لدينا من آثار لا يكفى لإثبات وجود مثل هذه الوظيفة، ولكنه لا ينفى قيامها فى الوقت نفسه، هذا فضلا عن أن هناك من يسمى على «حماكا» لقب الوزير الأول أو الموظف الأول للملك «وديمو»[5]، إلى جانب أن أكبر لقب ظهر فى نهاية عصر التأسيس إنما كان لقب «تيى خرنيسو»[6]، بمعنى الأول لدى الملك أو الأول بعد الملك أو رأس ملك أو كبير رجال بلاطه[7]، وربما كان ذلك بمعنى الوزير الذى كان على رأس الإدارة المركزية والثانى بعد الملك.

على أن أهم الأدلة على وجود وظيفة الوزير منذ عصر التأسيس ما عثر عليه من أوان يبلغ عددها ٢١ آنية أسفل هرم الملك نثرخت (زوسر) المدرج تحمل اسم «من كا» وقد لقب بلقب «الوزير» (ثاتى) وأن الكتابات التى عثر عليها فى مكان هذه الأوانى إنما تؤرخ بعصر الأسرتين الأولى والثانية، ولم يعثر على أية نقوش تخص الملك زوسر نفسه، ومن ثم فإن «من كا» هذا إنما كان سابقاً للأسرة الثالثة، وربما كان من الأسرة الثانية وبالتالى فإن وظيفة الوزير قد وجدت منذ عهد تلك الأسرة الثانية على الأقل[8].

وهناك فريق ثان يرى أن وظيفة الوزير إنما قد ظهرت منذ عهد «إيمحوتب» وزير زوسر، وطبقاً لما جاء فى نقش من واد الحمامات يرجع إلى

(١) عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص ٢٢٥.

(2) A.H. Gardiner, JEA, 24, 1938, p. 17-171.

(3) R. Well, Recherches sur la Ire Dynastie et les Temps Prepharaoniques, II, le Caire, 1961, p. 30.

(4) F. L. Griffith Beni Hassan, I., London, 1883, pl. XVII.

(٥) نجيب ميخائيل، المرجع السابق، ص ١٣٩.

(6) W.F. Petrie, The Royal Tombs, II, 1901, p. 165.

(٧) عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص ٢٧١-٢٧٢.

(8) W.S. Smith, The Old Kingdom in Egypt, CAH, J, 1965, p. 18.

الفترة فيما بين عامي ٤٩٥، ٤٩١ق.م، فقد كان إيمحوتب يحمل لقب الوزير[١]، هذا ويذهب فريق ثالث إلى أنها بدأت منذ أيام «سنفرو» موسس الأسرة الرابعة، وأن أول وزير له لقب مشهود به على الآثار بصفة قاطعة إنما هو «نفر ماعت» ابن الملك سنفرو[٢]، وعلى أى حال، فلقد كان يعاون الملك مستشاران، الواحد للصعيد والاخر للدلتا[٣]، وربما كانت أعلى وظيفة فى عصر التأسيس وظيفة «حامل الختم»[٤] والتى تدل على الختام والخازن الأمين، وربما ظهرت لأول مرة في عهد الملك «دن»[٥] فقد حملها «حماكا»[٦]، وفى أخريات عهد الأسرة الثانية ظر لقب «حامل أختام الإله» وأصبح اختصاصه أكبر من اختصاص أصحاب اللقب الأول[٧].

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن الوزير إنما كان ـ حتى الأسرة الرابعة ـ من أبناء الملك، ويذهب «جورج أندرو رايزنر» (١٨٦٧-١٩٤٢م) إلى أن الملوك جعلوها فى أكبر أبناء الملكات الثانويات، تعويضاً لهم عن وراثة العرش، وإرضاء لأمهاتهم[٨].

ومن ثم فقد حمل هؤلاء الوزراء ـ أبناء الملوك ـ لقب «سانسو» (ابن الملك»، فضلا عن لقب «كاهن ماعت»، ومن أشهر هؤلاء الوزراء:

١ ـ ولدا الملك «سنفرو» ـ مؤسس الأسرة الرابعة ـ وهما: «كانفر ماعت» ثم ابن «نفر ماعت» ـ ويدعى «حميون».

٢ ـ ابن الملك «من كاو رع» (خفرع)، ويدعى «نب ـ كاو رع».

هذا وتسير الأوضاع ـ السياسية والاجتماعية ـ فى سبيل التطور المحتوم، أثناء عصر الأسرة الخامسة، ويدرك ملوكها أنهم يعملون فى ظروف تختلف

(1) B. Gunn; ASAE, 26, 1926, p. 195.

(2) G.A. Reisner and W.S. Smith , A History of The Giza Necrapolis II, The Tomb of Hetep Heres, Cambridge, 1955, p. 9

(٣) إيتين دريوتون وجاك فانديه، مصر، ص ١٦٤.

(4) A.H. Gardiner, Egyptian Grammar, 1966, p. 593.

(5) W.M.F. Petrie, A History Egypt, I, London, 1924, p. 26.

(6) W.F. Petrie, The Royal Tombs, I, p. XV, 16.

(٧) عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص ٣٦٨.

(8) G. A. Reisner, op.cit., p. 9.

- بعض الشيء - عن تلك التي كان يعمل فيها أسلاف لهم من الملوك الأقوياء - أو الآلهة العظام - فيزيدون من التزاماتهم المادية، نحو أفراد الطبقة العليا، ويسمحون لكبار أفرادها بتولي «منصب الوزارة»، بل إنها تكاد تكون مقصورة عليهم - إذا استثنينا الأميرين «سخم - كارع» و«نفر - سشم سشات» اللذين توليا منصب الوزارة من الأمراء.

ولعل من ألمع وزراء الشعب - في عهد الأسرة الخامسة - إنما كان الوزير «بتاح - حتب» صاحب التعاليم المشهورة[1] -.

وهناك من وزراء الأسرة الخامسة الذين لم يحملوا لقب «ابن الملك» (سا - نثر):

١ - «واش بتاح إيزى» - وزير الملك نفر - كارع.

٢ - «ور - باو - با» - وزير الملك سا حو رع -.

٣ - «بج - إن - وى - كا إ» وزير الملك «نى وسر رع» -

٤ - «بتاح شبسس» - وزير الملك «نى وسر رع».

٥ - «منو - نفر» - وزير الملك «نى وسر رع» -

٦ - «سخم - عنخ - بتاح» - وزير الملك «نى وسر رع» -

٧ - «سخم كا رع» - وزير الملك «سا حو رع»[2] -.

وهناك من وزراء الأسرة السادسة «كا جمنى»[3]، فضلا عن «زعو» - وكان صاحب النفوذ الأول فى البلاد، على أيام طفولة ابن أخته الملك «ببى الثانى»، ووصاية أمه عليه[4] -.

ولعل من الجدير بالإشارة هنا إلى أن هنا سيدة من الأسرة السادسة، تدعى «نبت» تربطها بالملك «ببى الأول» صلة مصاهرة - فهى والدة زوجته - حملت لقب «الوزير» - كانت من أوليات النسوة اللائى حملن هذا

(1) Z. Zaba, Les Maximes de Path hotep, Paris, 1965; A. Erman, LAE, 1927, p. 54-67; J. A. Wilson, ANET, 1966, p. 412-414.; R.O. Faulkner, The Literature of Ancient Egypt, 1977, p. 159-176.

(2) N. Strudwick, The Adminstration of Egypt in The Old Kingdom, London, 1985, p. 300.

وانظر: فوزية صقر، الوزير فى الدولة الحديثة، ص ٤-٥.

(3) A.H. Gardiner, JEA, 32, 1946, p. 71-74..

(4) A.H. Gardiner, ZAS, 79, 1954, p. 95-96.

اللقب الرفيع ـ وقد ظهرت ألقابها على لوحة عثر عليها في «أبيدوس»[١] ـ محفوظة بالمتحف المصرى بالقاهرة، تحت رقم ١٥٧٨ ـ وجدت بها ألقابها: (الأميرة الوراثية ـ ابنة جب ـ زوج الأمير الإقطاعى ـ ابنة مرحو ـ الوزير ـ ابنة تحوت، رفيقة ملك الوجه البحرى ـ ابنة حور)، ويلاحظ أن لقب «الوزير» هنا، لم تضف له علامة التأنيث، الأمر الذى يدل على أن لقب «الوزير» لم يكن وقت ذاك ـ تحمله النساء[٢].

هذا وكان «الوزير» رأس الإدارة المركزية ـ والثانى بعد الملك ـ وحلقة الاتصال بين الملك وموظفيه، وكانت ترسل إليه تقرير الإدارة المحلية ثلاث مرات فى العام، وأصبح الوزير محافظاً للعاصمة، ومشرفاً على مدينة الهرم، فضلا عن الخزائن وشون الغلال، والأشغال المعمارية الكبرى، والمنشآت العامة، إلى جانب الإشراف على دور القضاء والمحفوظات والسلاح.

وكان الوزير ـ منذ الأسرة الرابعة ـ يحمل لقباً قضائياً، يجعله «كبير خمسة دار تحوت»، وربما بمعنى «كبير الرؤساء القضائيين الذين ينسبون عدالتهم إلى «تحوت» رب العدالة والحساب والكتابة، ثم لقب فى الأسرة الخامسة بلقب «خادم العدالة»، وهو لقب عبروا عنه من الوجهة الدينية بعبارة «حم ماعت» أى كاهن ماعت، ربة العدالة، ولقب «رئيس الدور الست» أو «رئيس الدواوين الست الكبرى»[٣]، وهناك ما يشير إلى وجود مجلس استشارى لمعاونة الوزير فى شئون الصعيد يتكون من عشرة من الشخصيات الهامة الذين كانوا يحملون لقب «عظماء الصعيد العشرة» (ور مح شمعو) حيث كان يسند إلى كل واحد منهم إدارة إحدى المصالح الهامة[٤].

---

(١) أبيدوس: جبانة «ثنى» ـ عاصمة الإقليم الثامن (تا ـ ور) من أقاليم الصعيد، واكتسبت شهرتها منذ شاد ملوك الأسرة الأولى، وبعض ملوك الأسرة الثانية، مقابرهم وأضرحتهم فيها، كما اكتسبت قداسة بوجود معبد «خنتى إمنتى» فيها «إمام الغربيين» ثم زادت قداستها عندما اعتبرها أهل الدين مقراً لضريح «أوزير» حتى اعتبرت داراً للحج والزيارة، وبها معبد أبيدوس المشهور.
وتقع على مبعدة ١٠ كيلا غربى البلينا ـ محافظة سوهاج (وسوف نتحدث عنها بالتفصيل عند حديثنا عن «الحرب الأهلية فيما بين إهناسية وطيبة»).

(2) H.G. Fischer, Administrative Titles of Woman in The Old and Middle Kingdom, Egyptian Studies, I, 1976, p. 74.

(٣) عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص ٣٧٣؛ وكذا: PSBA, XIII, p. 121F.

(4) J. Pirenne, Histoire de Institutoins et du Dive de L'Ancient Egypt, II, Bruxelles, 1934, p. 101-110.

وعلى أية حال، فقد كانت وظيفة الوزير أعز الوظائف وأقربها إلى قلوب الشعب، وكان الشاعر إذا وصف قصر الملك لم ينس أن يضيف إلى وصفه «أن فيه وزيراً يتولى الحكم عطوفاً على مصر»، ومن ثم فقد كان الاهتمام شديداً باختيار الوزراء من أصحاب الكفاءة والخلق الكريم.

واستمرت الأمور كذلك حتى إذا ما كنا في منتصف الأسرة الثامنة عشرة زادت مهمات وظيفة الوزير، حتى أصبح الأمر يستوجب تقسيمها على أساس جغرافي بين اثنين من الوزراء، وزير للصعيد وكان مقره طيبة، ويشرف على إدارة ملوك طيبة الأوائل، حتى القوصية[١]، على مبعدة ٦٠ كيلا شمالي أسيوط، ووزير للدلتا والجزء الباقي من الصعيد، وكان مقره «هليوبوليس» أو «منف»[٢]، وكانت دائرة إختصاصه تمتد من مصر الوسطى إلى مصر السفلى، وبمعنى آخر المنطقة التي كان يحتلها الهكسوس من قبل.

وعلى أي حال، فلم تصلنا معلومات، كافية عن مهمة وزير الشمال، وإن كان هذا لا يعني أنها أقل أهمية من مهمة وزير الصعيد، ولعل الذى دفع بعض العلماء إلى القول بأهمية وزير الصعيد عن وزير الدلتا، إن اختصاصات وزير الصعيد إنما كانت تشمل منطقة التحرير ومقر أبطاله، كما أن في دائرة اختصاصه تقع طيبة، عاصمة الإمبراطورية، وربما لعدم أو ندرة آثار تخص وزراء الشمال، في مقابل الآثار الكثيرة التي تركها وزراء الصعيد[٣]، وعلى أي حال، فطوال عصر الدولة الحديثة لم يظهر ما يثبت وجود قرابة بين الملك ووزرائه.

وكان الوزير في منطقته يمثل السلطة العليا في كل شئون الدولة، حتى المعابد، وهو يتقدم كبار الكهنة من حيث المنصب، وكانت تعرض عليه كل قضية جنائية، وكان يشرف على الضرائب وكميتها وموعد

(١) تسجل نقوش «رخمي رع» وزير الصعيد في عهد تحوتمس الثالث أن دائرة اختصاصه قد انقسمت إلى قسمين، الواحد يمتد من أسوان إلى قفط (على مبعدة ٢٢ كيلا جنوبي قنا)، والآخر من قفط إلى القوصية (على مبعدة ٦٠ كيلا شمالي أسيوط)، كما أنها انقسمت إلى أربعين وحدة إدارية (مركزاً) على رأس كل وحدة موظف مسئول، من مهامه جمع ضرائب المركز وتوصيلها إلى القصر الملكي.

(2) H.W. Helck, Zur Verwaltung des Mittleren und Neuen Reichs, Leiden, 1958, p. 14-15, 27.

(٣) عبد الحميد زايد، مصر الخالدة، القاهرة ١٩٦٦، ص ٦٧٤.

جبايتها، ويحاول دائماً أن يتدبر شئون المال مع المشرف على بيت المال، بحيث يمكن توزيع الدخل على أوجه الصرف المطلوب من الحكومة، كما كان يبلغ دائماً عن ارتفاع منسوب مياه الفيضان حتى يتسنى تقرير ما يمكن أن يزرع من الأراضي التي تصل إليها المياه، وبالتالي كمية الضرائب التي ستفرض وموعد سدادها، فقد كانت هناك سجلات في بيت المال تتضمن قوائم بالأملاك من حقول ومنازل وحدائق وغيرها، وكان لابد أن يسجل كل تغيير يتناولها حتى يمكن تعديلها وفقاً للظروف، وكان الوزير يشرف على الضرائب، فضلا عن الإشراف على تلقي جزى الدول التابعة لمصر، في حين يتولى مرؤوسيه مراقبة هذه الضرائب والجزى ويسجلونها أولا بأول في سجلاتهم.

وكان الوزير هو القائد الأعلى للشرطة في مصر، وكان كذلك رئيس القضاة، ويشرف على مجلس الشورى الكبير والقضاء العالي، ويقضي في الأحكام المدنية الهامة التي ترفع إليه من المحاكم الجزئية أو من محاكم الأقاليم، كما كان من حقه مهر الوثائق القانونية والمحافظة في مكتبه على سجلات الدولة القانونية والإدارية، وفتح وغلق مصانع القصور، وفي صحبته حامل الختم الملكي، واستقبال السفارات والجزى الأجنبية، ومراقبة ضياع معبد آمون، والإشراف على البعثات الخاصة بالتعدين أو قطع الحجارة، وحشد وحدات الجيش والتفتيش عليها، وعلى جبانة طيبة.

ولعل من الجدير بالإشارة أنه قد حدث أكثر من مرة في الدولة الحديثة أن اختير لمنصب الوزير شخصية كهنوتية هامة كانت، أما كبير كهنة آمون إله الدولة الأعظم، أو كبير كهنة الإله بتاح إله منف، وهكذا كان يجمع كل منهما أعلى منصب ديني ودنيوي في شخصه، ومن ثم فهو لم يصبح «رئيساً لعظماء الصعيد والدلتا» فحسب، بل مشرفاً على كهنة الصعيد والدلتا»[1] أيضاً.

---

(١) عبد المنعم أبو بكر، المرجع السابق، ص ١٢٥؛ أدولف إرمان وهرمان رانكه، المرجع السابق، ص١٠٤؛ وكذا:

J.H. Breasted, ARE, II, p. 266-279N. de G. Davies, The Tomb of Rekh-Re at Thebes, N.Y., 1943, p. 88-94.

٢ ـ الأقاليم وحكامها في مصر الفرعونية

(١) الأقاليم فى مصر الفرعونية:

أطلق المصريون القدامى على وطنهم (مصر) ـ من بين ما أطلقوا عليها من أسماء كثيرة[١] ـ اسم «تاوى» بمعنى الأرضين، أرض الصعيد وأرض الدلتا (تاشمعو، وتامحو)، وهو اسم ابتدعه القوم منذ أخريات الألف الرابعة قبل الميلاد على أقل تقدير، متأثرين فى ذلك بالفوارق الإقليمية بين الصعيد والدلتا، وباستقلال الواحد منهما عن الآخر، فيما قبل التوحيد، وكانوا يعنون بأرض الصعيد تلك المنطقة التى تمتد من أسوان جنوباً، وحتى شمال أطفيح شمالا، ويعنون بأرض الدلتا منف والدلتا، هذا وقد قسم القوم كذلك كلا من الصعيد أو مصر العليا، والدلتا أو مصر السفلى إلى أقاليم عرفت فى المصرية القديمة باسم «سبات»، وفى اليونانية Nomes.

وكان لكل إقليم شعاره الرسمى الذى كان عادة ما يعلو فوق سارى، فضلا عن معبود يتعبدون إليه، كما أن هذه الأقاليم إنما كانت عرضة للتغيير، وإن ثبتت أقاليم الصعيد منذ الأسرة الرابعة وحتى نهاية العصور الفرعونية عند اثنين وعشرين إقليماً، وإن كان الأمر بالنسبة إلى الدلتا جداً مختلفاً، وطبقاً لما ذهب إليه «هلك» فقد كانت أقاليم الدلتا حتى الأسرة الرابعة، أربعة عشر إقليماً، ثم أصبحت فى الأسرة الخامسة سبعة عشر إقليماً، وفى الأسرة الثانية عشرة ستة عشر إقليماً، وفى عهد الدولة الحديثة زادت إلى ثمانية عشر إقليماً، ثم أصبحت فى الأسرة الخامسة والعشرين أربعة عشر إقليماً، وزادت فى العصر الفارسى إلى سبعة عشر إقليماً[٢].

وهذا يعنى أن أقاليم الدلتا طوال العصور الفرعونية إنما كانت تتراوح بين ١٤، ١٨ إقليماً، بينما ظلت أقاليم الصعيد منذ الأسرة الرابعة وحتى نهاية العصور الفرعونية ثابتة عند اثنين وعشرين إقليماً[٣]، كما أن هذا يتعارض مع ما ذهب إليه البعض من أن أقاليم الدلتا كانت ٢٠ إقليماً، وإن

---

(١) انظر عن أسماء مصر: محمد بيومى مهران، مصر ١/٢١-٢٥؛ عبد العزيز صالح، حضارة مصر القديمة وآثارها، (القاهرة ١٩٨٠)، ١/١-٨.

(2) W. Helck, Die Alagyptishen Gaue, Wiesbaden, 1974, p. 19-23; A.H. Gardiner, Egyptian Grammar, 1973, p. 589.

(٣) إرمان ورانكه، المرجع السابق، ص ١٠

بلغت في العصر اليوناني أو البطلمي اثنين وعشرين إقليماً[١].

(٢) حكام الأقاليم في الدولة القديمة.

يذهب بعض الباحثين إلى أن «مصر» قد قسمت - على أيام الفراعين - إلى أقاليم أو محافظات (سبت - أو سبات، سميت على أيام الأعارقة «نوم» Nome) منذ ما قبل التاريخ، وذلك عندما استغل المصريون مياه الفيضان في الزراعة.

وهكذا قسّم القوم الأرضين إلى أحواض، أحاطوها بالجسور، وشقوا فيها القنوات، ثم سرعان ما أصبحت هذه الأحواض، هي الأقاليم، التي نشأت فيها «الإمارات المصرية» فيما قبل توحيد البلاد على يد الملك «مينا» - حوالي عام ٣٢٠٠ قبل الميلاد - وهي أيضاً الإطارات التي احتوت المقاطعات بعد التوحيد.

وكان عدد هذه الأقاليم في عصر التأسيس (الأسرتين الأولى والثانية) ٣٨ إقليماً، منها ٢٢ إقليماً في الصعيد (وقد ظلت كذلك حتى نهاية العصور الفرعونية)، ثم أصبحت ٤٢ إقليماً، منها ٢٢ في الصعيد، ٢٠ في الدلتا.

وهذه الأقاليم يجب ألا نتصورها كبيرة، فقد كانت في العصر الذي بدأنا نعرفها فيه ما هي إلا دوائر إدارية يتكون كل منها من مدينة كبيرة ومجاوراتها من أراضي ترتبط بها اقتصادياً، وكان لكل إقليم عاصمة يقيم فيها الحاكم وجهازه الإداري، فضلاً عن معبد تعبد فيه آلهة الإقليم، وكان الإقليم، وكذا العاصمة، يحملان اسماً واحداً، ما عدا نهاية الاسم المخصص الذي يدل على كلمة مدينة، فمثلاً يتمثل إقليم الصولجان، وعاصمته بنفس العلامة (واست)، وقد كان لبعض العواصم اسمان، أحدهما يتعلق باسم الإقليم، والآخر مستقل تماماً، فمثلاً كانت عاصمة الإقليم الأول للدلتا كانت تسمى «الحائط الأبيض»، ثم «الحائط» فقط، ثم أخذت ٠:٠

(١) سنقدم - إن شاء الله - دراسة خاصة في كتاب مستقل عن الأقاليم والعواصم السياسية في مصر القديمة تحت عنوان «المدن الكبرى في مصر القديمة»، تليها دراسة أخرى عن «المدن الكبرى في الشرق الأدنى القديم»، وكلا الدراستين تحت الطبع، أرجو أن يريا النور قريباً، إن شاء الله في هذا الشهر. وقد ظهر الجزء الأول منها عام

الأسرة السادسة اسم قصر الملك «ببي الأول» (من نفر)، وكتبها الإغريق «ممفيس» هذا ولم تستقر العاصمة دائماً في مكان واحد، فمثلا نقلت عاصمة الإقليم الثالث «نخن» من المدينة القديمة «نخن» (البصيلية) إلى «نخب»(١) ثم إلى «إسنا» في عصر البطالمة.

هذا وكان على رأس كل إقليم حاكم يعينه الملك ليقوم بكل النشاط الحكومي، وبخاصة النشاط الزراعي الذي كان يعتمد على فيضان النيل، ومن ثم فقد كان من أهم أعمال حاكم الإقليم التفتيش على القنوات والمحافظة عليها وعلى تطورها، وربما كان هذا أصل وظيفة حاكم المقاطعة، فمنذ عصر التأسيس نرى ظهور لقب «عدج مر» بمعنى المشرف على حفر القنوات، وهو اللقب الرسمي لحاكم المقاطعة عند ابتداء الدولة القديمة، وقد حفلت آثار عصر التأسيس بالعديد من النقوش التي ظهر فيها لقب «عدج مر» مع أسماء أشخاص من عهد الملك «جت»، ومنهم واحد يبدو أنه كان حاكماً لمدينة «دب» (بوتو)(٢).

وكان من واجبات حاكم الإقليم القيام بإحصاء عام، كان يجرى كل سنتين ابتداء من الأسرة الثانية بانتظام، ويوضح حجر بالرمو إجراء هذا التعداد كل عامين في عهد الملك «ني نثر» وإن كانت بدايته ترجع إلى أيام الملك «دن»(٣).

هذا وقد عرفت الدولة القديمة ـ إلى جانب حكام الأقاليم ـ عدداً من كبار الشخصيات حملوا لقب «ور مج شمعو» وهو لقب ما يزال بعد غامض القراءة والمدلول، فهو قد يترجع بمعنى «كبير عشرة الصعيد» أو «أحد كبار عشرة الصعيد»، وربما يدل على عشرة يكونون المجلس الاستشاري للوزير، فيما يختص بشئون الصعيد وقضاياه، وهناك ما يشير إلى رياسة الوزراء لهذا المجلس، كما أن بعض الوزراء قد حمل لقب «مفتش عشرة الصعيد الكبار»، وحمل آخرون لقب «المشرف على بيوت عشرة الصعيد»، أو هو قد يدل على عشرات (مجو) وليس عشرة فقط، بدليل ظهور لقب «كبير عشرة

(١) عبد الحميد زايد، المرجع السابق، ص ٤٣٧.
(2) W.B. Emery, Great Tombs, I, Fig. 55, p. 95, II, Fig. 151-152.
(3) J.H. Breasted, op.cit., p. 106, 118-132.

الصعيد» و«كبير عشرة عين شمس»[1].

وكانت ألقاب حكام الأقاليم كثيرة، منها اللقب القديم «عدج مر» بمعنى المشرف على حفر القنوات، ومنها لقب «زاب» بمعنى القاضي أو المحترم، ولقب «...شم تا» بمعنى موجه الأرض أو مدبرها، ولقب «حقا حت» بمعنى حاكم القصر أو متولى زمامه أو بمعنى رئيس القرية، ومن هنا فالقصر المراد هو قصر الحكم والإدارة في الأقاليم، وليس القصر الملكي «حقا حت عا» ومع ذلك فقد حمل هذا اللقب (حقا حت عا) بعض حكام أقاليم الصعيد، وكأنهم يسترجعون بشكل اسمي ذلك النظام الإقطاعي الذي كان سائداً قبل التوحيد، والذي استبدل بموظفين يتبعون الإدارة المركزية، كما حمل بعض حكام الأقاليم لقب «إيمرا حت عا» بمعنى مدير القصر الملكي، وحمل آخرون لقب «حقا نيسوت» بمعنى النواب الملكيين، ولقب «رخ نيسوت» بمعنى المعروف لدى الملك، ولقب «أمر أبوت» ؛ بمعنى مدير الإرساليات الملكية، وهناك كذلك لقب «كاهن ماعت» ، وماعت هي إلهة الحق والعدالة، ولما كان القضاء في الأقاليم يخضع للحكام، فهم رؤساء المحاكم وما يتصل بها من إدارات قضائية محلية، ومن هنا اعتبروا كهنة لها، كما حمل بعضهم لقب «كاهن حقت» .

وهكذا كان حكام الأقاليم يشرفون على كل النشاط الحكومي والإداري في الأقاليم، فكانوا يشرفون على جمع الضرائب، وعلى شئون الزراعة إذ كانوا مطالبين بأن يحصلوا من الأرض بالوسائل المناسبة على أحسن غلة ممكنة، وهذا يقتضي حفر الترع وإقامة الجسور، وغير ذلك من وسائل تنمية الزراعة والمحصول، وبذا يمكنهم أن يساهموا في الثراء العام للبلاد، وعلى الأخص ثراء الخزانة الملكية، كما كان عليهم كذلك أن يدونوا ارتفاع فيضان النيل.

وكان حكام الأقاليم مسئولين عن الأمن، وتنظيم جمع الأفراد لتجنيدهم وإرسالهم في حملات لصد ما قد يتهدد الحدود من أخطار، وأن يقوموا بدور الوسيط بين الحكومة المركزية وبين رعاياهم، فكانوا يتلقون أوامر

(١) عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص ٣٧٥؛ وكذا:
Urk, J, 1932, p. 281; R. Weill, op.cit., p. 19.

الملك ومراسيمه، ثم يذيعونها بين الناس من سكان أقاليمهم، ومن ثم فقد لقب الواحد منهم نفسه «المستشار للأوامر الملكية»، كما كانوا يرأسون محاكم الأقاليم وما يتصل بها من إدارات، فقد كانت هناك في الأقاليم محاكم محلية تقوم بمحاسبة الزراع ومحاكمة الموظفين - حتى حاكم الإقليم نفسه - إذا قاضاهم أحد من أفراد الشعب بسبب ضرر أصابه منهم، هذا فضلا عن أنهم كانوا من الناحية الدينية كباراً لكهنة الإله الرئيسي في أقاليمهم.

كانت الحكومة الفرعونية في عهد التأسيس والنصف الأول من الدولة القديمة، تسير على نظام المركزية المطلقة، مما جعل منها إدارة رخوة غير متماسكة، بمعنى أنه كلما كان الجالس على العرش في منف قوى البأس، كان حكام الأقاليم موظفين لديه يعملون بوحي منه، ويبقون في وظائفهم ماداموا حائزين على رضاه الإلهي، فإذا ما حدث العكس وتراخت سلطته، انتهز حكام الأقاليم الفرصة وتصرفوا بوحي من أنفسهم، واعتبروا أقاليمهم دويلة صغيرة للحاكم فيها ما للفرعون من سلطات وحقوق، الأمر الذى رأيناه في النصف الثاني من الدولة القديمة، والذى أدى آخر الأمر، بجانب عوامل أخرى، إلى إضعاف تلك الحكومة المركزية، ثم انهيار الدولة القديمة نفسها وقيام الثورة الاجتماعية الأولى[١].

كان حكام الأقاليم حتى منصف الدولة القديمة موظفين لدى الملك يعملون بوحي منه، ويتصرفون فيما أوكل إليهم من أمور حسب رغبته، يتساوى في ذلك من كانت أقاليمهم على مقربة من العاصمة، ومن كانت في أقاصي الصعيد أو الدلتا، وينالون في مقابل ذلك غذاءهم وكساءهم، وكان الواحد منهم يعمل جاهداً، ما استطاع إلى ذلك سبيلا، على أداء واجباته حتى ينال رضى الملك، لأنه إن قصر في ذلك، فإن مصيره إلى العزل من منصبه، وربما هو أقسى من العزل، هذا فضلا عن أن الواحد منهم إنما كان يخضع لنظام النقل من إقليم إلى آخر، وربما من وظيفة إلى أخرى، ومن ثم فإن واحداً منهم لم يذكر اسم الإقليم الذى كان يحكمه، وكانوا

(١) انظر: محمد بيومي مهران، الثورة الاجتماعية الأولى في مصر، ص ٤٦-٤٨؛ وكذا:
J. Pirenne, Histoire des Inetitutions et du droit Prive L'Ancience Egypte, III, 1932, p. 172-173.

حين يتوفون أجلهم فى هذه الدنيا يدفنون فى جبانة العاصمة، على مقربة من مقبرة الملك الإله الذى قضوا حياتهم فى خدمته، لعل وعسى أن ينالوا ذلك الشرف العظيم فى الحياة الثانية، هذا فضلا عن أن الواحد منهم إنما كان يأمل أن ينتهى المطاف به فى آخر حياته الوظيفية إلى إحدى الوظائف المركزية فى العاصمة كمدير لإحدى المصالح الحكومية، ثم قد تمتد آماله فيرنو إلى أن يصبح عضواً فى محكمة الستة العليا، أو مستشاراً سرياً أو نائباً لفرعون فى «نخن» (البصيلية) وربما يصبح وزيراً.

هذا وقد كان القوم يعتقدون فى الحياة الأخرى، ومن هنا فقد كانوا يرغبون فى قبر جميل واسع يحفظ فيه جسد المتوفى، ولعل هذا هو الذى دفعهم إلى تحنيط أجسادهم، الأمر الذى توصلوا إليه منذ أوائل عهد الأسرة الثالثة، وربما كان ذلك سبباً فى أن يذهب البعض إلى أن المصريين القدامى إنما كانوا يهتمون بالموت أكثر من اهتمامهم بالحياة، ولكن الحقيقة غير ذلك، فقد كانت أغلب الجبانات فى الصعيد إنما تقع على حواف الصحراء، ومن ثم فقد احتفظت لنا الأرض الجافة بكثير من المقابر، بينما كانت المنازل والقصور تقام على مقربة من الأراضى الزراعية، وبالطوب اللبن فى معظمها، ومن ثم فقد اختفت بسرعة[١].

وعلى أى حال، فإن القوم لم يقتصروا فى اهتمامهم بالحياة الثانية على تشييد القبور وتحنيط الأجساد، وإنما كانوا يعتقدون كذلك فى ضرورة تقديم القرابين وإقامة الصلوات فى هيكل يشيدونه، إلى غير ذلك من مطالب الخدمة الجنزية، ولم يكن أحد فى استطاعته أن يقوم بذلك كله، لأن الملك إنما كان هو المالك الفعلى لكل شىء فى مصر، الأرض والمحاجر ومن عليها وما عليها، ومن هنا فإن المقبرة ومطالبها الجنزية إنما كانت جميعها هبة من الملك، يقدمها لمن يشاء من رعاياه المخلصين، وقد نال ذلك العطف الملكى كثيرون، إذ تفضل الملك فوهبهم من الأرضين ما يكفى ذلك كله.

ومن هنا بدأت أول خطوة فى الطريق إلى انهيار الملكية المطلقة السلطة،

(1) J. Vandier, La Religion Egyptienne, Paris, 1944, p. III; R. Engelbach, op.cit., p. 190-200; F. Daumas, La Vie dans d'Egypte Ancience, Paris, 1968, p. 120.

فقد بدأ يظهر ملاك جدد، يقابله من الناحية الأخرى، نقص في أملاك التاج الخاصة، فضلا عن أن هذه الأراضي الممنوحة للملاك الجدد كانت معفاة من الضرائب، ثم سرعان ما بدأ حكام الأقاليم خطوة أخرى نحو اللامركزية، والبعد عن رقابة الفراعين، فبدأوا يبتعدون بمقابرهم عن مقبرة الملك، إذ فضلت أسرات أمراء الأقاليم في الصعيد الدفن في أقاليمهم، ففي الشيخ سعيد ودشاشة بمحافظة بني سويف، وفي زاوية الميتين في محافظة المنيا، وفي دير الجبراوي بمحافظة أسيوط، وفي قصر الصياد بمحافظة قنا، وفي أسوان وفي أماكن أخرى عديدة، حفر حكام هذه الأقاليم مقابر فخمة منقورة في صخور بلادهم، كما لو كانت جبانة العاصمة قد أصبحت غير صالحة لتكون مثوى جثثهم[١]، بل إن الأمر إنما كان أعمق من ذلك، فهناك المقاصير التي كشف عنها في جزيرة أسوان لأسرتي «سرنبوت» و«حقا أيب»[٢] تقدم لأصحابها من أمراء الأقاليم هناك فروض العبادة، كما كانت تقدم للملوك من قبل، والأمر كذلك بالنسبة إلى «إيسي»، وإلى إدفو في بداية عصر الأسرة السادسة[٣].

وما أن يمضي حين من الدهر، حتى تصبح «الأرض الممنوحة» خاضعة للتوريث، ثم سرعان ما تنتقل ـ عن طريق الزيجات[٤] ـ إلى أسرات أخرى، ثم تخضع لعمليات البيع والشراء.

وهكذا تكونت عند بعض الشخصيات البارزة، إقطاعيات واسعة، وتمكن آخر الأمر، بعض حكام الأقاليم ـ وخاصة في الصعيد، حيث الحكام الأقوياء ـ من أن يجعلوا وظائفهم خاضعة للتوريث.

وقد أدى ذلك ـ أي نظام توريث الوظائف ـ إلى أن أصبحت تلك

(١) أدولف إرمان وهرمان رانكه، المرجع السابق، ص ٨٦.

(2) J. Pirenne, La Feodalite en Egypte, RSJB, I, 1958, p. 25.

(3) Alliot, BIFAO, 37, 1937, p. 93.

وانظر : محمد بيومي مهران، الثورة الاجتماعية، ص ٤٩-٥٠.

(٤) لجأت بعض الشعوب إلى «الزواج من الداخل» حتى لا تنتقل الثروات إلى خارج الأسرة، ومن ثم فقد حرّم على البنات الزواج من خارج العشيرة، وفي التوراة: لا يتحول نصيب لبني إسرائيل من سبط إلى سبط، بل يلازم بنو إسرائيل كل واحد نصيب سبط آبائه. (سفر العدد ٣٦/١-١٢؛ محمد بيومي مهران، بنو إسرائيل، (الإسكندرية ١٩٩٩م)، ٦٠١/٤-٦١١).

الوظائف وقفاً على أفراد أسرة واحدة، استقروا في إقليم بعينه وهيمنوا عليه، وأبقوا على علاقاتهم الطيبة بالعاصمة، مادام الملك قوياً، ولكنهم يصبحون في حل من ذلك، إن اختلفت الظروف[١]، الأمر الذى حدث فى أخريات الدولة القديمة وذلك عندما استغل حكام الأقاليم المنح الوراثية التى أسبغها الجالس على العرش فى منف على الأقوياء منهم، فضلاً عن الألقاب التى منحت لهم وجمعت بين أيديهم السلطات الإدارية والدينية والعسكرية بأقاليمهم، هذا إلى جانب المظاهر التى تشبهوا فيها بالملوك، كبناء المقابر وتسجيل أعمالهم عليها، فضلاً عن ضخامة حجم البلاط المحيط بهم، مما يوحى وكأن كل إقليم إنما قد أصبح دولة داخل الدولة، فقد كان حاكم الإقليم هو الكاهن الملكى بإقليمه «خرحب»، كما كان من الناحية الإدارية مدير القصر (حقا حت) وحامل الختم الملكى (سجاوتى بيتى)، وهى الوظيفة التى كانت من اختصاص الوزير من قبل[٢].

(٣) حاكم الصعيد:

أصبح الملك - بمرور الأيام - غير قادر على كبح جماح حكام الأقاليم، بسبب «سياسة التودد» إلى كبار رجال الدولة، حتى وصل بعضهم إلى «منصب الوزارة» - أكبر مناصب الدولة - فى الأسرة الخامسة، بعد أن كان المنصب مقصوراً - منذ إنشائه - على الأمراء من البيت المالك - دون سواهم - حتى أنه لم يل الوزارة، إبان عهد هذه الأسرة، سوى اثنان من الأمراء - هم «سحم - كارع»، و«نفر منشم سشات» -.

هذا فضلاً عن أن الملوك إنما سمحوا للكثيرين بمصاهرتهم، فزوجوا كثيراً من الموظفين بأميرات من البيت المالك، بل إن واحداً من هؤلاء الملوك زوج إحدى أميرات بيته الملكى من «قزم» يدعى «سنب»، كان يعمل فى بلاطه.

وليت الأمر اقتصر على ذلك، وإنما بدأ الملوك فى اتباع سياسة أضعفت كثيراً من سلطانهم، وكان لها - آخر الأمر - أكبر الخطر على هذا السلطان - إن لم يكن على العرش نفسه - ذلك أنهم سمحوا لعدد من

(١) الكسندر شارف، تاريخ مصر، ص ٦٥.

(2) J. Pirenne, La Feodalite en Egypte, RSJB, I, 1958, p. 25

الأبناء الذين تربوا في قصورهم الملكية بأن «يرثوا مناصب آبائهم»، بعد موتهم.

هذا فضلا عن أن ملوك هذه الأسرة الخامسة إنما بدأوا يتراخون في استعمال حقهم في نقل حكام المقاطعات من مقاطعة لأخرى، مما أعطى الفرصة لهؤلاء الحكام المحليين في أن يكون لهم في أقاليمهم سلطة، تنافس سلطة الملك نفسه.

وتنتهي الأسرة الخامسة بالملك «وناس»، الذي يرى فيه البعض أول ملوك الأسرة السادسة ـ من وجهة نظر معينة ـ حيث يقف نفوذ كهنة «عين شمس»[1] عند تولية العرش، كما تبدأ ـ عادة ـ كتابة غرف الأهرام الداخلية، بما عرف بـ «متون الأهرام»[2] ـ.

(١) عين شمس: وتسمى في المصرية «إيونو» ، وفي الآشورية «آنو» وفي التوراة «أون» أو «بيت شمس»، وفي اليونانية «هليوبوليس» ، بمعنى «مدينة الشمس» (بيت رع ـ نسبة إلى معبودها الرئيسي «رع») وقد سميت ـ كما سميت طيبة ـ «بيت ـ إن كمت» (انظر: تكوين ٤١/٤٥، ٥٠؛ إرميا ٤٦/٤٦؛ محمد بيومي مهران، الحضارة المصرية القديمة ٢/٣٠٣-٣٠٩). وفي عين شمس نشأت النظرية الأولى لفكرة «الخلق» عند المصري القديم ـ قبل نظرية الأشمونين ونظرية منف. (انظر عن نظرية «عين شمس» : عبد العزيز صالح، فلسفات نشأة الوجود في مصر القديمة، ص ٣٣-٣٧؛ محمد عبد اللطيف، فكرة الخلق في مصر القديمة، ص ١٠٣-١٣١؛ تشرني، الديانة المصرية القديمة، مترجم، ص ٥٢-٥٣).

(٢) متون الأهرام: كشف عنها «جاستون ماسبرو» (١٨٤٦-١٩١٦م) في عام ١٨٨٠م في داخل «هرم «ناس» ، ثم عثر بعد ذلك على بعضها في أهرام ملوك الأسرة السادسة، بل وفي أهرام ...س ملكاتها، فهي التعاويذ السحرية والطقوس الجنازية، وأجزاء من بعض الأساطير المصرية القديمة، يرجع تاريخ بعضها إلى ما قبل الأسرة الأولى، بل فيها أشارت إلى الحرب التي قامت في ... أوائل أيامها، على أنها حروب بين الآلهة التي عبدت في تلك الأيام.

وعلى أي حال ، فهي تختلف من هرم إلى آخر، بل إن الكهنة الذين أشرفوا على اختيارها لكل ملك، إنما كانوا يختارون البعض ويتركون البعض الآخر، وقد قسمها «كوريث زيته» (٧١٤) فقرة، وأما الهدف منها فكان ضمان سعادة الملك في العالم الآخر، حيث تفتح له أبواب السماء التي حرمت على غيره من الناس، فضلا عن تحوله إلى نجم من النجوم التي لا تفنى، وإلى إله الشمس، أو على الأقل يكون في ركاب إله الشمس.

ولعل من أمتع ما جاء فيها عن مصائر القوم بعد الموت «أن الجسد للأرض، والروح للسماء»، وقولهم في مخاطبة فرعون في حديث رمزي «قد يتحلل جسدك طولا وعرضا، ولكن روحك سوف تبقى، وسوف تشهد رع في غلالاته الحمراء» مما يدل على أن القوم رغم إيمانهم بمقابرهم على أنها بيت الخلود، إلا أن أرواحهم لن تظل حبيسة فيها، وإنما سوف تكون ، وبخاصة أرواح الملوك والأخيار، طليقة في عالمها غير المنظور، تستمتع بصحبة موكب الشمس حيث شاءت، وتستروح نعيم الجنة في العالم الآخر حيث شاءت، وتؤوب إلى قبرها لتنعم بمرأى القرابين متى شاءت وتحط على جسدها حيث شاءت، هذا فضلا عن أن القوم لم يتخيلوا أن

=

وتبدأ الأسرة السادسة بالملك «تتي» الذى يقرب كهنة منف إليه، ويسبغ على نفسه لقب «المحبوب من بتاح[1] ـ إله منف»، وربما كان قد اعتمد عليهم فى توليته العرش، غير أن كهانة عين شمس، سرعان ما استعاروا سلطانهم فى عهد «مرى ـ إن ـ رع» الذى عمل على ترضيتهم بإضافة اسم «الإله رع»[2] إلى ديباجة اسمه.

ويزداد نفوذ حكام الأقاليم فى عهد الأسرة السادسة، لدرجة تقضى عليها آخر الأمر، ذلك أن الهوة العميقة التى كانت تفصل بين «الملك الإله»، وكبار موظفيه، فى الأسرة الرابعة، أخذت تضعف شيئاً فشيئاً، وإن كان الملوك مايزالون يسمون «الإله الطيب»، غير أن إيمان الشعب بألوهية ملوكه، إنما بدأ الضعف يدب فيها، منذ ارتباط الملكية بالكهانة فى الأسرة الخامسة، ومنذ بدأت المصاهرات تأخذ طريقها بين «الملوك الآلهة» الجالسين على عرش الكنانة، وبين المصطفين من كبار موظفيهم، وها هو الملك

=

روح فرعون سوف ترتقى إلى السماء دون إذن من ربها، ودون شرط ضرورى لنعيم صاحبها فى أخراه، ومن لم فهم يخاطبون كائناً فى السماء قائلين: «انظر: إن الفرعون آت مقبل منطلق، ولكنه لم يأت من تلقاء نفسه، وإنما استدعى بناء على رسالة أتت إليه، وأن الرسل قد أحضرته، وكلمة مقدسة رفعته» كما أشارت متون الأهرام إلى أن وصول الملك إلى نعيم الآخرة عند رب السماء إنما يتطلب أن يعبر بحيرة مقدسة، وأن يعلن لربان هذه البحيرة «أنه ملك صادق فى السماء، عادل فى الأرض»، مما يشير إلى أن عدل فرعون فى الأرض إنما هو سبيل القربى من رب السماء.

ومع ذلك فإن هذه المتون نفسها هى التى جعلت الملك يدخل أبواب السماء، التى حرمت على غيره من رعاياه، وأن مأواه السماء، وأما الآلاف فمأواهم الأرض، وربما كان المراد أن جنة الملك فى السماء، وأن جنة العامة من الناس على الأرض، ذلك لأن القوم إنما كانوا يظنون حتى نهاية الأسرة الخامسة أن مركز الجنة الأرضية إنما كان فى حقل القربان عند هليوبوليس، المركز الرئيسى لعبادة الإله رع، الذى زعموا أنه أول من حكم الدنيا ونشر العدل والمساواة فيها، بقانون «ماعت» الذى سنّه، ثم تخلى عن حكم العالم الدنيوى لابنه، ورفع نفسه إلى السموات العلى، كما رفع كذلك حقل قربانه إلى العالم العلوى، وأصبح مأواه الأبدى فى السماء، وهناك كان ينعم ابن رع (أى الملك) بعيشة راضية فى حقول والده، وترك حقول القربان التى على الأرض فى هليوبوليس للعامة من الناس. (عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص ٣١٩-٣٢٠؛ سليم حسن، المرجع السابق، ص ٢١٨؛

S.A.B. Mercer, The Pyramid Texts in Translation and Commentary, 4 Vols., .(N.Y., 1952.

(١) انظر عن «بتاح»: محمد بيومى مهران، الحضارة المصرية القديمة ٣٦٧/٢-٣٧١.

(٢) انظر عن «رع»: محمد بيومى مهران، الحضارة المصرية القديمة ٣٦٢/٢-٣٦٧.

«شبسسكاف» يزوج إحدى بناته من «بتاح شبس» - أحد الذين تربوا فى القصر على أيام سلفه «من كاو رع».

ولا ريب في أن فى هذا الزواج ما فيه من خروج على التقاليد، التى تؤمن بها تلك الأسرة، التى تعتقد فى صلتها بالآلهة، وفى ألوهية ملوكها، بل تستطيع أن نتصور ما فى هذا الزواج من خطورة على العرش نفسه، إذا علمنا أن العرش فى مصر إنما كان ينتقل عن طريق خط المرأة، فقد كانت «زوج الملك الكبرى» هى الوريثة التى يستطيع الملك الوصول إلى العرش، عن طريق الزواج منها، ذلك لأن الملكة إنما كانت ملكة بحق المولد، وكان الملك ملكاً بحق الزواج، وهذا ما حدث فى الأسرة التالية - أى الخامسة - عندما استطاع مؤسسها «وسر كاف» - وكان يشغل مركزاً كبيراً فى معبد الشمس - عن طريق كهانة رع، أن يصل إلى العرش، وأن يتزوج من «خنت - كاو - إس»، حتى يصبح جلوسه على العرش - فى نظر الشعب - شرعياً، وإن رأى البعض أنه كان ابناً لها، وليس زوجاً.

وأياً ما كان الأمر، فإن «خنت - كاو - إس» تزوجت من أحد عظماء القوم، الذين لم يكونوا من أرومة ملكية خالصة، ومن نسلها جاء ملوك الأسرة الخامسة، فهناك ترجمة لها قوتها من الناحية اللغوية - للنص المنقوش على الباب الوهمي الضخم لمقبرتها - تصفها كأنما هى:

«أم ملكين، لا ملك واحد فقط»، وعلى أية حال، فمن المتفق عليه - فيما يبدو - أن «خنت - كاو - إس» إنما كانت السلف المباشر للأسرة الخامسة[١].

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أنه فى الأسرة السادسة بدأت سياسة جديدة - سياسة مصاهرة العائلات القوية فى الصعيد - فلقد اضطر الملك «ببى الأول» - ربما بسبب مؤامرة زوجه «إيمتس»، وربما بدأ يشعر بأن العرش إنما بدأ يهتز من تحته، وأنه فى حاجة إلى عون كبير، يشد أزره، ويسنده فى الخطوب الجسام - إذا ألمت به يوماً ما - ربما كان هذا أو ذاك.

وأياً ما كان السبب الذى دفع «ببى» إلى أن يقدم على مصاهرة عائلة

---

(١) أحمد فخرى، مصر الفرعونية، ص ١٢٨، وكذا: A.H.Gadiner, op.cit., p. 83-84.

صعيدية قوية، فيتزوج من ابنة أمير أبيدوس - ويدعى خوى - التى تنجب له طفلا (مرى - إن - رع) يكون «ولي عهده»، وحين يوافيها أجلها المحتوم، يتزوج من أخت لها، تنجب له طفلا آخر، يعتلي العرش، بعد أخيه - وهو ما يزال طفلا -، فتقوم أمه بالوصاية عليه، وسرعان ما يسند «منصب الوزارة الخطير إلى خاله «زعو» - ابن أمير أبيدوس (إيدو - إيجو) -.

وهكذا يصبح أمر البلاد في يد هذه العائلة - التي لا تمت إلى البيت المالك، ولو بخيط واهن ضعيف، من صلة الدم، وإن كانت تربطها به صلة المصاهرة - وهذا يعني بوضوح أن الأسرة المالكة - التى كانت تؤمن بقدسيتها، ويؤمن شعبها بألوهيتها - أصبحت بمنأى عن الحكم والسلطان، ومن ثم فقد أصبح أمر البلاد بيد أصهارها من عائلة أمير أبيدوس.

وتستمر الأمور كذلك، حتى يصبح الطفل الملك فى سن تؤهله للجلوس على العرش المقدس - كملك حقيقي - ويتولى السلطة فى البلاد - ولمدة أجيال ثلاثة أو تزيد، يضعف في أخيراتها، في وقت كانت سلطة الملوك قد ضعفت، وزاد نفوذ حكام الأقاليم، وأصبحت مناصبهم وراثية، وزادت ثرواتهم لدرجة أصبحت تهدد خزائن الملك نفسها.

هذا وقد استمر ملوك الأسرة السادسة - بجانب المصاهرات بين الملوك ورعاياهم - على سنة ملوك الأسرة الخامسة فى إغداق الهبات على المعابد، ويفقدون من وراء ذلك الكثير من المال، فضلا عن الكثير من السلطات.

ويتحرج الموقف، ويصبح الملوك مهددين في عرشهم نفسه، ويلجأ البعض منهم إلى معالجة ذلك الأمر الخطير، بأن يعمدوا إلى إعادة تربية أبناء الحكام فى قصورهم، حتى يضمنوا ولاءهم حين يتولون حكم أقاليمهم.

على أن الأمل الكبير للحفاظ على العرش إنما كان فى «إعادة منصب حاكم الصعيد»، والذى كان الملوك قد أوكلوا إليه فى الأسرة الخامسة، أمر جمع الضرائب في الصعيد، والإشراف على حكامه، وكان هذا المنصب - حاكم الصعيد - قد ألغى فيما يبدو - فى عهد «تتى الأول» - أول ملوك الأسرة السادسة - ثم أعيد فى عهد «مرى إن رع»، لمصلحة القائد

«ونى» ،والذى ينوه فى نقوش مقبرته بالحظوة التى منحها له الملك، بصفة استثنائية(١).

كان إعادة «منصب حاكم الصعيد» هو الأمل الذى كان الملوك يرجون من ورائه، استعادة سلطانهم، ولكنه لم يغير من الأمر شيئاً، فلقد أصبح ـ فيما يبدو ـ تشريفاً لحامليه، ولم يكن لقباً عملياً، ومن هنا فقد اشترك فيه أكثر من واحد، في وقت واحد ـ كما حدث عندما اشترك مع «ونى» في اللقب، كل من حاكم «القوصية» ـ على مبعدة ٦٠ كيلا شمالى أسيوط ـ وحاكم إدفو (٢) ـ عاصمة الإقليم الثانى ـ «جبا» ، وعلى مبعدة ١٠٠ كيلا شمالى أسوان ـ ومع ذلك، فقد رأى فيه ـ أى حاكم الصعيد ـ حكام الأقاليم إضعافاً لنفوذهم، وربما عائقاً فى سبيل استقلالهم بحكم أقاليمهم، فعملوا ـ جاهدين ـ على الغائه، حتى نجحوا آخر الأمر، إبان شيخوخة «تتى» الطويلة ـ الذى قدّر أن يحكم مصر قرابة ٩٤ عاماً.

(١) إتيين دريوتون وجاك فانديه، مصر، ترجمة عباس بيومى، القاهرة ١٩٥٠، ص ٢٦٣؛ وكذا:
J.H. Breasted, ARE, I, Brag., 291-294, 306-315, 319-324; J. Wilson, ANET, p. 227F; K. Sethe, Urk. I, 1932, p. 117; A.H. Gardiner, Was The Vizier Djau on of Six Brothers, ZAS, 79, 1954, p. 95.

(٢) إدفو مدينة عامة، وعاصمة أكبر مراكز محافظة أسوان، وكانت فى العصر الفرعونى عاصمة الإقليم الثانى من أقاليم الصعيد، وكان اسمها «جبا» ثم حورت إلى «جبو»، وأصبحت فى القبطية «تبو» و«اتبو»، التى حورت فيما بعد إلى «إدفو»، هذا وقد عرفت كذلك فى العصر الفرعونى باسم «بحدة» (بحدث)، بمعنى العرش، عرش معبودها «حور» منذ الأسرة الثانية عشرة، الذى [illegible] الإغريق بمعبودهم «أبوللو» فسموها «أبوللو نوبوليس ماجنا»، أى مدينة أبوللو [illegible] تمييزاً لها عن مدينة «أبوللو الصغيرة»، وهى «قوص».

وقد بدأت «إدفو» دورها السياسى والدينى منذ ما قبل التاريخ فى أخريات الألف الرابعة قبل الميلاد، ثم استأنفت شهرتها الدينية بعد زمن طويل فى أخريات العصور الفرعونية، وقد عثر فى جباناتها وأطلالها على كثير من الآثار الهامة من جميع العصور، ومما زاد فى أهميتها فى العصور القديمة، موقعها على رأس كثير من دروب القوافل الموصلة إلى عدد من مناجم الذهب وغيره من المعادن التى تكثر فى صحرائها فضلاً عن الأعياد الكبيرة التى كانت تقام فيها للإله «حور» وترى، حول المعبد كثيراً من أطلال المدينة القديمة، كما يقوم جزء من المدينة الحالية فوق القديمة أيضاً، وتحيط بها جبانات قديمة متعددة.

غير أن أهم ما فى «إدفو» الآن معبدها الفخم الكبير، الذى لا يضارعه معبد آخر فى مصر فى الاحتفاظ بمظهره العام، وطوله ١٣٧م، وارتفاع الصرح ٣٦م، وإلى جانب أهميته المعمارية، فهو يعتبر من أكمل المعابد المصرية فى العصور المتأخرة من حيث بنايته، ومن حيث نصوصه التى تضمنت ثروة طيبة من شعائر العبادة وأساطير الدين والسياسة، هذا وقد استمر بناء معبد «إدفو» قرابة قرنين من الزمان، حيث بدئ فى بنائه فى عهد «بطليموس الثالث»

=

ثالثاً ـ التنظيم الاقتصادى

لا ريب فى أن التنظيم الاقتصادى فى مصر الفراعنة، إنما كان شأنه ـ شأن غيره من التنظيمات الأخرى ـ يخضع لعقيدة الدولة القائلة : إن الملك المؤله إنما يملك الدولة ـ وما فيها ومن فيها، من خيرات ـ زراعية وتجارية وثروات طبيعية أو معدنية ـ.

(١) الزراعـــة:

وكانت الزراعة هى المورد الاقتصادى الأساسى، وهو الذى أكسب مصر حضارتها، ومن هنا، فقد كان الاهتمام بها كبيراً ـ منذ عصور ما قبل التاريخ ـ وكان عمادها الأساسى هو «النيل»، ذلك العملاق الخالد، الذى كتب له أن يقوم بأهم الأدوار فى الحياة المصرية ـ طوال التاريخ المصرى فى كل عصوره ـ من القديم إلى الوسيط إلى الحديث ـ إذ هو عماد الثروة فى مصر، فقد كان طمى النيل سبباً لخصب شديد، ولكن الإفادة منه لم تكن تتم إلا عن طريق الكد، الذى تلهبه الحماسة، فلا يفتر.

وهكذا قدّر المصريون النيل حق قدره، بل إن المصرى القديم إنما قد أله النيل ـ من بين ما ألهه من معبودات ـ وتخيله فى صورة رجل ممتلئ، أو شخص يجمع بين صفات الذكور والإناث، يتوج رأسه مرة نبات الجنوب، وأخرى نبات الشمال.

وهناك رسم أقبل المصريون على تصويره، ويمثل لنا «إلهين من آلهة النيل»، يقدمان مصر كهدية إلى الملك، وذلك بأن يربطا النباتين اللذين يرمزان لقطرى مصر، حول العلامة الهيروغليفية لكلمة «يوجد».

هذا وقد اعتاد المصرى القديم أن يحلى جوانب العرش يمثل هذه

=

(٢٤٦-٢٢١ق.م) الذى وضع أساسه فى ٢٣ أغسطس عام ٢٣٧ق.م، إلا أن بناءه وزخرفته لم يتما إلا فى عام ٥٧ق.م، فى عهد «بطليموس الثانى عشر»، وقد ساهم فى بنائه كثير من ملوك البطالمة، أمثال بطليموس الثالث والرابع والخامس والسادس والثامن والتاسع والعاشر والثانى عشر. (أحمد فخرى، الموسوعة المصرية، ١/٨٧-٨٨؛ وكذا:

K. Sethe, op.cit., p. 47; ZAS, LXIV, p. 18; 14 Kees, Hours und Seth, II, p. 9, 29F; E. Bevan, A History of Egypt under the Ptolemaic Dynasty, London 1927, p: 186, 174, 274.

الرسوم، أو ما يشابهها للتدليل على الخصوبة والثروة التى عمت البلاد، أثناء حكم الملك.

كل ذلك إنما يبين لنا أهمية النيل لمصر، ذلك لأنها _ كماأشرنا من قبل _ إنما تبدو مهددة بالخطر، إن ضنّ النيل بمائة، وأتى بفيضان منحفض، فهو الذى يكسب أرضها خصوبتها المنقطعة النظير، فضلا عن أنه المورد المائى الوحيد الذى تعتمد عليه الزراعة فى مصر.

ومن هنا كان انخفاض الفيضان كارثة وطنية، ينتج عنها القحط، كما أن فيضانه المرتفع، إنما يعنى الدمار لهم، ومن هنا كان لزاماً على القوم أن يجاهدوا ضد الخطرين، وقد كتب لهم نجحا بعيد المدى، عندما شقوا القنوات والترع، وعندما سهروا على صيانتها، اتقاء فيضان مرتفع.

هذا وكان الحرث والبذر يبدأ بمجرد انخفاض المياه، كعملية تتم فى وقت واحد، وكانت أداة الحرث هى «المحراث» والذى كان يستخدم حتى وقت قريب، ولا ريب فى أن القوم إنما قد اتخذوا احتياطات محكمة لتجنب خطر الفيضان الزائد، وتحويل المياه إلى قنوات لتوزيعها على الأرض، وربما كان يقدر لها أن تصبح قاحلة، لولا ذلك الإجراء، هذا وقد اهتم القوم كثيراً بإنشاء السدود[١]، وموالاة رعايتها، فضلا عن العناية بحفر القنوات.

وكان موسم الحصاد ينتقل بالقوم إلى نشاط متجدد، وهناك العديد من الصور التى تمثل حصاد القمح، وضرب الكتان، ثم حمل المحاصيل على ظهور الحمير إلى ساحة الدرس، حيث توطأ بواسطة الثيران، وأخيراً التذرية، ثم نقل المحصول _ براً أو نهراً _ إلى الصوامع المقببة، المبنية من اللبن، حيث تخزن إلى حين تمس الحاجة إليها.

وكان جانب كبير من الإنتاج المحلى يؤخذ كضريبة، وكان الهدف عامة محصولا مضاعفاً وكانت محصولات الصيف تتطلب جهداً أشق، إذا ما انخفضت مياه النيل، أكثر من ذى قبل[٢].

(١) انظر عن أول سد أنشأه المصريون فى «وادى جروى»، على مبعدة ١١ كيلا شرقى حلون: (جيمس بيكى، الآثار المصرية فى وادى النيل ٢/٤٥-٤٦) ثم «سد الفيوم»: (محمد بيومى مهران، مصر ٢/٣٦٩-٣٧٣).

(2) A.H. Gardiner, Egypt of The Pharoahs, p. 31-34.

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن الملك الفرعون إنما كان يملك أملاكاً واسعة، تشمل كافة أنحاء البلاد - من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال - وكان يعهد بها إلى نفر من الفلاحين يزرعونها، فى مقابل ضرائب عينية، يؤدونها للذين أوكل الملك إليهم جمعها، ثم تجمع بعد ذلك كلها فى المخازن الرئيسية فى العاصمة، أو فى المخازن الفرعية فى الأقاليم، وبدهى أن هذا، إنما يستدعى من الدولة، أن تقوم برصد ارتفاع فيضان النيل[1]، حتى يمكن أن يقدر الخراج على أساسه.

واستمر الوضع كذلك، الملك يملك وحده كل الأرضين الصالحة للزراعة فى مصر، حتى بدأ - بمرور الأيام - يظهر ملاك غير الفرعون، وذلك حين بدأ الملك ينعم بإقطاعيات كهبات، فى مقابل خدمات يؤديها المنعم عليهم للدولة، وكان هذا فاتحة منح بدأت تتوالى على حكام الأقاليم، ثم لكبار الموظفين والنبلاء، وأصحاب الحظوة عند سيد البلاد.

وهكذا بدأ الملوك يعلنون عن رضاهم عن المجدين الموظفين أحياناً، ومن المقربين للملك أحياناً أخرى، وذلك بمنحهم مساحات من الأرضين الزراعية - معفاة من الضرائب - لاستغلال ريعها على الطقوس الدينية، الأمر الذى أدى - أو ساعد - على إفقار الخزانة الملكية، أو على الأقل حرمان تلك الخزائن من جزء غير قليل من ممتلكاتها.

ويستمر الملوك فى «سياسة التقرب» نحو حكام الأقاليم، وكبار الموظفين، والكهنة، فيزيدون من هباتهم لهم، وكان من نتائج هذه السياسة، أن الملوك بدأوا - بسياستهم هذه - يحطمون اقتصاديات البلاد، ويخلقون عناصر قوية، غير ملكية، جمعت لنفسها ثروة مستقلة - عن طريق هذه الهبات الملكية - من المساحات الشاسعة من الأرضين المعفاة من الضرائب، وسرعان ما خضعت هذه الأراضى للتوريث، ومن ثم فقد بدأت تنتقل - عن طريق الزيجات - من أسرة لأخرى، وأخيراً خضعت لعمليات البيع والشراء.

---

(١) أشرنا من قبل عن مقياس النيل - فى فترة لاحقة - أيام «أمنمحات الثالث» (١٨٤٣-١٧٩٧ق.م)، وقد سجل ارتفاع النهر، ورأينا أنها تزيد فى بعض السنوات عن متوسط مستويات ارتفاعه اليوم. (انظر: محمد بيومى مهران، مصر ٢/٣٧٠؛

J. Vercoutter, Semna South Fort and The Records of Nile Levels At Kumma, .(Kush, 14, 1966, p. 125-164

وهكذا، تكونت إقطاعيات واسعة من الأرضين، أعطت لأصحابها، ما أعطت من قوة، تناوئ بها سلطات الملكية، مما أدى آخر الأمر، إلى انهيار المركزية، وتفتيت الضيعة الكبيرة، التي كانت ملكاً خاصاً للملك الفرعون(١)، إلى ضيعات صغيرة يملكها من لا تربطهم بالعرش صلة من دم، أو مصلحة مشتركة، اللهم إلا إذا كان الحصول على أكبر نصيب من الغنيمة، هو الهدف الذي يجمع بينهما.

وهكذا يزداد نفوذ الكهنة عن طريق الأرضين الموقوفة على المعابد، ونفوذ الملاك الجدد، ذوي الألقاب الموروثة، والضياع الواسعة، والذين يمثلون الإقطاعيين ـ في أجلى مظاهر الإقطاع ـ ويضيع من «الملك المؤله» نفوذه تدريجياً ـ ذلك النفوذ القائم على مركزية الثروة، ومركزية الحكم ـ وينتهي الأمر بضياع العرش نفسه أخيراً.

(٢) التجـــــارة:

كانت التجارة ـ كمصدر من مصادر الثروة ـ نوعين، الواحد: تجارة داخلية، وهي لم تكن ذات قيمة اقتصادية كبيرة لأنها إنما كانت تتم في دائرة محدودة جداً.

---

(١) من المعروف تاريخياً أن كلمة «فرعون» في صيغتها المصرية «بر ـ عو» أو «بر ـ عا» إنما كانت تعني بادئ ذي بدء ـ «البيت العالي» أو «البيت الكبير» أو «البيت العظيم»، وهي طريقة من الطرائق الكثيرة التي كانت تشير إلى «القصر الملكي» ـ وليس إلى ساكنه ـ وفي عصر الفاتح العظيم «تحوتمس الثالث» (١٤٩٠-١٤٣٦ق.م) بدئ في إطلاق اصطلاح «بر ـ عو» ـ أو فرعون ـ على الملك نفسه.

ومن ثم فإن إطلاق كلمة «فرعون» أو لقب «فرعون» على ملك مصر، قبل عصر تحوتمس الثالث، إنما هو خطأ في تسلسل تواريخ الأحداث، ذلك لأن لفظة «فرعون» إنما قد أصبحت تعبيراً محترماً يقصد به «ملك مصر» نفسه منذ هذه الفترة ـ منذ الأسرة الثامنة عشرة (١٥٧٥-١٣٠٨ق.م)، وإن كان يبدو أكثر تأكيداً منذ عصر داعية التوحيد «إخناتون» (١٣٦٧--١٣٥٠ق.م)، حيث هناك خطاباً استعمل فيه لقب «فرعون» بالنسبة لإخناتون، ثم استعمل هذا اللقب، كمرادف لكلمة «جلالته» منذ عصر الأسرة التاسعة عشرة (١٣٠٨--١١٨٤ق.م).

هذا وقد جاءت كلمة «فرعون» في القرآن الكريم أكثر من ٧٣ مرة. (أنظر: محمد بيومي مهران، مصر ١/٤٨-٥٢)؛

A.H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, p. 52; A.H. Gardiner, Egyptian Grammar, 1966, p. 75; J.A. Wilson, The Culture of Ancient Egypt, 1963, p. 102; PSBA, XXII, p. 72; ZAS, LIII, p. 130.

والثاني: التجارة الخارجية، وكانت ذات نشاط واسع، ذلك لأن مصر إنما كانت لها تجارتها مع جيرانها ـ الآسيويين والنوبيين وسكان بلاد «بونت»[١].

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة هنا إلى أن الميناء الفينيقي «جبيل» ـ وتقع على مبعدة ٤٠ كيلا شمالي بيروت، إنما كانت على اتصال تجاري بمصر السفلى منذ عصر ما قبل الأسرات، حيث وجدت جسور من جذوع الأرز، يعود تاريخها إلى ما قبل الأسرة الأولى (عهد البداري) مما يدل على أن الخشب إنما كان يستورد من لبنان منذ ذلك العهد السحيق[٢]. هذا فضلاً عن أنه قد عثر في «جبيل» (بيبلوس) على بعض اللوحات الحجرية المرمرية المصرية، وبعض التمائم الحيوانية الصغيرة التي ترجع إلى عصور ما قبل الأسرات[٣].

وعلى أي حال، فهناك ما يشير إلى أن المصريين قد استوردوا من فينيقيا أخشاب الأرز والصنوبر التي استخدمت في مقابر الملوك في أبيدوس، وفي صناعة السفن الكبيرة ـ ربما من عهد «عحا» ـ فضلاً عن استيراد

(١) بونت: يختلف المؤرخون في «بونت» ـ وصحة الاسم فيما يرى «جاردنر» (بويني) ـ إلى اتجاهات أربع: أولها: أنها بلاد العرب الجنوبية (اليمن ومجاوراتها)، وثانيها: أنها تقع على الشاطئ الأفريقي للبحر الأحمر ـ على اختلاف في المنطقة التي تقع فيها بونت من هذا الشاطئ ـ وثالثها: أن بونت كلمة عامة تشمل الأقاليم الاستوائية عند المصريين، وأنهم رادوها منذ أقدم العصور عن طريق البحر ثم البر ـ ورابعها: أن بونت تقع على الساحلين ـ الآسيوي والأفريقي ـ للبحر الأحمر، على مقربة من «بوغاز باب المندب». (انظر: عبد المنعم عبد الحليم، محاولة لتحديد موقع بونت، ص ٥-٣٤؛ أحمد فخري، مصر الفرعونية، ص ١٣٣-١٣٨؛ دراسات في تاريخ الشرق القديم، ص ١٣٧-١٤٠؛ محمد بيومي مهران، العرب وعلاقاتهم الدولية في العصور القديمة، ص ٣٠٧-٣١٠؛ وكذا:

K. Kitchen, Punt and How To Get there, 1971, p. 188F; E. Naville, Le Commerce de L'Ancienne Egypte, p. 7; P. K. Hitti, History of The Arabs, p. 3, 34-36.

وعلى أية حال، فلقد كانت السفن المصرية تمخر عباب البحر الأحمر إلى بلاد بونت من الأسرة الخامسة والسادسة، فضلاً عن رحلات الدولة الحديثة في عهد «حتشبسوت» (١٤٩٠-١٤٦٨ق.م) و«رعمسيس الثالث» (١١٨٢-١١٥١ق.م). (محمد بيومي مهران، مصر والعالم الخارجي في عصر رعمسيس الثالث، ص ٢٥٢).

(٢) فيليب حتي، تاريخ لبنان، ص ٨٥؛ وكذا:

G. Brunton and Caton Thompson, The Bodarian Civilization, p. 627; S.R.K. Glanville, The Legacy of Egypt, Oxford, 1947, p. 6.

(٣) رشيد الناضوري، أقدم صلات حضارية بين مصر ولبنان، الإسكندرية ١٩٦٨م، ص ٤٥؛ وكذا:

Pierre Montet, Byblos et L'Egypte, Paris, 1928, Nos. , 118, 178, 358, 359.

الزيوت والخمور فى أوان فخارية من جنوب سورية.

وقد ذهب البعض إلى أن هذه الواردات إنما كان بمثابة جزى، قدمتها المناطق الخاضعة لمصر فى سورية وفلسطين، بل إن هناك من يذهب إلى أن مصر إنما كانت لها حصون وعمليات دفاعية فى غربى آسيا منذ أيام الملك «نعرمر» مؤسس الأسرة الأولى، وخلفائه من أمثال «جر» و«دن» و«قاعا» اعتماداً على صورة حصن نقشت على صلاية «نعرمر» وعلى شقفة فخار مصرى تحمل اسم «نعرمر» فى «تل الشيخ» جنوب فلسطين، وعلى ذكر اسم حصن يدعى «باب عن»، وآخر يدعى «ونه» فى جنوب فلسطين على آثار العصر نفسه، والأمر بهذه الصورة غير مؤكد تماماً، إلا أن هناك فى نقوش الملوك، وفى حوليات «حجر بالرمو» ما يشير إلى ذلك[١].

هذا وقد عثر فى أوائل الألف الثالثة قبل الميلاد على نسبة كبيرة من التمائم الدينية المصرية وبعض الأوانى الحجرية فى بيبلوس، ومن أهمها قطعة حجرية مصرية تحمل سرخ ملكى ينتمى إلى الأسرة الثانية المصرية، واسم الملك «خع سخموى» آخر ملوكها[٢].

وهناك من الأدلة ما يثبت أن الملك «سنفرو» ـ مؤسس الأسرة الرابعة ـ إنما قد أرسل إلى «فينيقيا»[٣] (لبنان) أسطولا بحرياً، مكوناً من أربعين سفينة، لإحضار كتل من أخشاب الأرز، وأن كثيراً من هذه الأخشاب قد عثر عليها فى هرمه القبلى فى دهشور، ومازالت تلك الأخشاب فى حالة جيدة، تؤدى مهمتها التى أقيمت من أجلها مثل تثبيت بعض الأحجار أو سندها فى أماكنها ـ رغم مضى أكثر من أربعة آلاف سنة وستمائة عليها[٤].

---

(١) عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص ٨٩؛ وكذا:

H. Kentor, in JNES, 2, 1942, p. 174F, 201F; W.M.F. Petrie, The Royal Tombs of The First Dynasty, I, London, 1900, p. 16-18, 3, II, 1901, p. 30; Y. Yadin, in Israel Exploration Journal, 1955, p. 1-16.

(٢) رشيد الناضورى، جنوب غربى آسيا وشمال أفريقيا، الكتاب الأول، بيروت ١٩٦٨م، ص٢١٠-٢١١.

(٣) هناك ما يشير إلى علاقات بين مصر وفينيقيا منذ عصور ما قبل التاريخ ـ العصر الحجرى النحاسى وعصر ما قبل وقبيل الأسرات ـ وفى عصور الدولة القديمة والوسطى.

(٤) أحمد فخرى، مصر الفرعونية، ص١٠٠؛

J.H. Breasted, ARE, I, 1906, Parag, 146; A.H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, 1961, p. 42; A. Fakhry, The Monuments of Sneferu At Dahshur, I, 1959, p. 15-23; A. Fakhry, The Bent Pyramid At Dahshur, Cairo 1954, p. 559.

هذا، ويذكر الدكتور «شكرى» أن مصر قد اهتمت منذ عصور ما قبل التاريخ، باستيراد الزجاج الطبيعى، والأحجار الكريمة، وكانت لها علاقات تجارية مع «كريت» وغيرها من جزر البحر المتوسط.

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أنه فى عهد الملك «خوفو» تزداد أهمية الميناء الآسيوى «جبيل»، ذلك الميناء الذى كانت تقيم فيه جالية مصرية، منذ أيام الأسرة الثانية على الأقل، والذى أصبح أكبر ميناء للتبادل التجارى بين مصر وغربى آسيا، كما أصبحت السفن التى تتعامل مع «جبيل» ـ أو المصنوعة من أخشابها تسمى «الجبيلية»، أحياناً[١]، بل وزاد بعض الباحثين فرأى أن ميناء جبيل، إنما كان يقوم كذلك بدور الوسيط بين تجارة مصر وكريت[٢]، ورغم أن الأمر بهذه الصورة غير مؤكد، إلا أن الاتصال بكريت إنما كان قائماً منذ زمن بعيد، ذلك لأن الثقافة المينووية إنما تقدم دلائل قوية على التأثير المصرى[٣]، هذا فضلا عن أن هناك من يذهب إلى أن المصريين إنما قد وصلوا إلى كريت رأساً بوسائلهم الخاصة[٤].

وأياً ما كان الأمر، ففى عهد «خوفو» قام وسط «جبيل»[٥] معبد مصرى، أضاف إليه من جاء بعده، كما تشهد بذلك أحجار من هذا المعبد، تحمل اسم «خوفو»، بل وأسماء من سبقوه على عرش الكنانة، وممن لحقوا به على هذا العرش من فراعين الدولة القديمة، وليس هناك ما يعرف حتى الآن عن الصورة الأولى التى نشأ عليها هذا المعبد، فقد يكون معبداً آمورى الأصل، أراد الملوك المصريون أن يجاملوا أصحابه، وأهدوهم هدايا ثمينة

---

(١) عبد العزيز صالح، مصر والعراق، ص ٨٩.

(٢) رشيد الناضورى، أقدم صلات حضارية بين مصر ولبنان، الإسكندرية ١٩٦٨م، ص ١٢؛ وكذا:

W.M.F. Patrie, The Royal Tombs of The First Dynasty, II, London, 1901, p. 46.

(3) A. H. Gardiner, op.cit., p. 36.

(٤) الكسندر شارف، تاريخ مصر، القاهرة ١٩٦٠م، ص ٤٨.

(٥) كانت تكتب فى الدولة القديمة «كبن»، وفى الدولة الوسطى «كبنى»، وفى الدولة الحديثة «كبنا»، وذكرها الآشوريون باسم «جوبلا» والإغريق «بيبلوس»، والعرب «جبيل»، وتقع على مبعدة حوالى ٤٠ كيلا شمالى بيروت. A.H. Gardiner, Opom, I. 257.

تحمل أسماءهم، ولم يمنعهم تمسكهم بدينهم المصرى من أن يتسامحوا مع معبودات جيرانهم، ويعملوا على إثراء معابدها، وقد يكون معبداً مصرى الأصل شادته جالية مصرية تجارية أقامت في جبيل، وعكفت على عبادة أربابها المصريين، وسجلت أسماء ملوكها على مقتنياته، وقد يكون معبداً مصرياً، أقامه أمراء «جبيل» أنفسهم، مجاملة للمصريين، وتقبلوا فيه بعض العقائد المصرية، كما تقبلوا له هدايا الفراعنة المصريين[١].

هذا وقد أسفرت الحفائر عن اكتشاف معبد للآلهة المصرية «إيزة» بجانب معبد «بعلة» جبيل، وإن الإلهتين قد أصبحتا بمرور الزمن إلهة واحدة[٢]، وعلى أى حال، فهناك ما يشير إلى ازدهار التجارة بين مصر وفينيقيا على أيام خوفو، كما أن هناك ما يشير إلى قيامه بنشاط حربى فى سيناء، إذ أرسل عدة حملات إلى المغارة للحصول على الفيروز، وربما النحاس كذلك[٣].

وفى عهد الأسرة الخامسة، أرسل الملك «ساحورع» أسطولا إلى شواطئ سورية، عاد محملا بجرار الزيوت وغيرها من السلع التى كانت تستوردها مصر من هناك.

وهناك فى المعبد الجنازى للملك «ساحورع» ما يدل على نشاط خارجى عظيم، خرجت فيه مصر من عزلتها، واحتكت بجيرانها بدرجة أكثر من عصور سبقت، فهناك منظر رائع للسفن العائدة من سورية بالتجارة، زاد سيويون على ظهورها وأسلحتهم مرفوعة ولاء الفرعون، وربما كان ذلك بمناسبة حملة لبنان البحث عن الخشب القديم جداً من غاباتها[٤].

---

(١) عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص ١٠٦؛ وكذا:
W.A. Ward, Egypt and The Mediterranean From Predynastic Times To The End of The Old Kingdom, JES, HO, VI, part I, 196, p. 24; P. Monter, Bablos et L'Egypte, Paris, 1928, p. 29F; H.H. Nelson in Beyruts, 1934, p. 19F.

(٢) فيليب حتى، تاريخ لبنان، ترجمة أنيس فريحة ونقولا زيادة، بيروت ١٩٧٢، ص ٧٨. (يذهب جاردنر إلى أن الإلهة المصرية هنا «حاتحور» وليست «إيزة»، وأنها قد اقترنت بالإلهة عشتار).

(٣) محمد بيومى مهران، دراسات فى تاريخ الشرق الأدنى القديم، الجزء الثالث؛ حركات التحرير فى مصر القديمة، القاهرة، دار المعارف ١٩٧٦م، ٢٧-٤٤.

(4) Urk, I, 1932, p. 169; A.H. Gardiner, op.cit., p. 88; CAH, I, part 2, 1971, p. 192.

وقـد اختلفت الآراء حـول هذه الحـملة، فـذهب رأى إلى أن مناظر الأسطول وعـودته لا تدل على أنها حـملة حربيـة، وإن كنا لا نستطيع أن نتبين الغرض منها على وجه اليقين، وذهب فريق آخر إلى أن المناظر إنما تدل على شىء أكثر من إقلاع الأسطول وعودته، ثم استقبال الملك، وقد حفّ به كبار موظفيه، ومن ثم فهى حملة ودية، وربما عادت بأميرة من هناك لتصبح إحدى زوجات الفرعون، بينما ذهب فريق ثالث إلى أن «جبيل» إنما كانت مستعمرة مصرية، وإن رأى «جاردنر» أن فى ذلك مبالغة إلى حد ما، ولكننا ندرك على الأقل أن الرسل المصريين إنما كانوا يقابلون هناك دائماً بكل الترحاب[١].

هذا، وفي الأسرة الخامسة، تصبح العلاقات مع النوبة أكثر سلاماً، فالمزايا التى يمكن الحصول عليها من علاقات ودية كانت مزايا مشتركة، ذلك أن النوبة كانت مصدر سلع للترف قيمة، ولا يمكن الحصول عليها من مكان آخر، وكان النوبيون بدورهم يعتمدون كثيراً على جيرانهم الأكبر ثراء وحضارة، وكانت الحبوب من أهم ما يسعون وراءه وإن لم يكن لها ذكر فى المستند الوحيد الذى يشير إلى ما جاء به المصريون معهم بقصد التبادل التجارى، وحيث ذكرت الأنواع المختلفة من زيت وعسل وملابس وقيشانى وكل الأشياء[٢].

وأخذ اهتمام مصر بالنوبة السفلى يزداد، وبدأ المصريون ينظرون إليها كجزء متمم لحدودهم الجنوبية، ومن ثم فقد بدأوا يعملون على تأمين المواصلات إليها، وعلى الحد من شغب قبائلها القلقة ـ والفقيرة كذلك ـ ومنع اعتداءاتها على مراكز الحدود، وقوافل التجار، فضلا عن تأمين استغلال محاجرها، وفتح أسواق التجارة مع مناطقها المسكونة، ولاتخاذها وسيطاً تجارياً بين مصر ومناطق السودان الغنية بمنتجاتها الطبيعية ونباتاتها وحيواناتها[٣]، إلا أن فكرة استعمار النوبة لم تطرأ ـ فيما يرى آلن جاردنر ـ

(١) محمد أبو المحاسن عصفور، المرجع السابق، ص ١٠٤؛ أحمد فخرى، مصر الفرعونية، ص ١٣٣؛ محمد بيومى مهران، المرجع السابق، ص ٤٤؛ وكذا:

A.H. Gardiner, op.cit., p. 80; A. Weigall, op.cit., p. 43.

(2) A. H. Gardiner, op.cit., p. 117.

(٣) عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص ١٣٧.

في أذهان المصريين إلا متأخرة، وقد تقبلوا في تعقل «إلبة ...» كحد جنوبي لهم مدركين أن المنقطة وراء الجندل الأول ليس مرغوباً فيها كممتلكات، وأن حاجتهم يمكن أن تسد عن طريق رحلات خاصة[1].

وهناك من الأسرة السادسة، ما يشير إلى أن الملك «ببي الثاني» إنما حافظ على سياسة أسلافه بالنسبة للتجارة الخارجية، فهناك ما يدل على اتصال تجاري بين مصر وبلاد بونت وسواحل فينيقيا، من ذلك ما سجله الملاح المصري، «خنوم حتب»، من أنه قد زار «جبيل» و«بونت» إحدى عشرة مرة، كان تحت رياسة «ثثي» في زيارته الأولى، وتحت رياسة «خوي» عند زيارته الثانية[2].

(٣) التعديـــن:

كان من الوجبات الملقاة على عاتق ملوك عصر التأسيس ـ الأسرة الأولى والثانية ـ أن يكفلوا حماية القوافل، وبعثات المناجم والمحاجر، التي تجوس خلال صحراوات سيناء، وقد ذكرت قطعة القاهرة لحجر «باليرمو» إشارة إلى ما حدث في عهد الملك «جر» ـ ثاني ملوك الأسرة الأولى» من «ضرب ستيه» وهو اصطلاح جغرافي علينا أن نشير إليه بأنه يقابل آسيا تقريباً[3]، ونحن نطالع في عهد ملك متأخر (ربما «عدج ـ إيب») إشارات عن «ضرب الإيونيتو» وهو اصطلاح مبهم كذلك، قد يشير إلى الشعوب القاطنة في شمال شرق الدلتا، وربما كان بمعنى «أصحاب العمد»، وهم من بدو الصحراء الشرقية وسيناء، وربما ما ورائها أيضاً[4]، وقد أطلق عليهم «سترابو» «سكان الكهوف»، والذين كانوا يعيشون على النهب والسلب، أو التجارة في قوافل تقطع صحراء العرب[5].

وهناك ترجمة رائعة تمثل الملك «دن» (وديمو) يقوم بذبح آسيوى يسكن في الصحراء الرملية هي «سيناء»، وليس بالنصوص الهيروغليفية بها

(1) A.H. Gardiner, op.cit., p. 98.
(2) Urk, I, 132, p. 140-141.
(3) A. H. Gardiner, op.cit., p. 414.
(٤) عبد العزيز صالح، الشرق الأدنى القديم، الجزء الأول، القاهرة ١٩٦٧، ص ٨٩؛ وكذا:
A.H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1964, p. 414.
(٥) نجيب ميخائيل، مصر والشرق الأدنى القديم، الجزء الأول، الإسكندرية ١٩٦٩م، ص ١٤٢.

أية صعوبة في الترجمة، فقراءتها واضحة، وتعني «أول مرة لضرب الشرقيين»[1].

وفي الأسرة الثالثة يتابع الملك «زوسر» ـ ثاني ملوك الأسرة وأعظمهم ـ سياسة الأسلاف في الحفاظ على مناجم النحاس والفيروز وغيرها في سيناء، ومن ثم فقد أرسل حملة لتأديب بعض بدو شبه جزيرة سيناء، الذين ربما تعرضوا للبعثات التي كان يرسلها الفراعين لإحضار النحاس من جبل المغارة، فضلا عن إنشاء الحصن المعروف ببوابة إيمحوتب هذا وقد وجد اسم «سانخت» ـ والذي يرى البعض فيه أخاً أكبر لزوسر، وسابقاً له على العرش المصري ـ مكتوباً إلى جوار اسم «زوسر» في شبه جزيرة سيناء، كما يشير إلى ذلك نقشان من وادي مغارة، الواحد في المتحف المصري في القاهرة، والآخر في المتحف البريطاني في لندن.

هذا وقد بقيت من عهد «سخم خت» ـ خليفة زوسر ـ نقوش على بعض صخور شبه جزيرة سيناء، صورته ثلاث مرات، مرتان بتاج الصعيد، ومرة بتاج الدلتا، وأظهرته في هيئة فارعة يهوى بمقمعة القتال على أحد كبار أعدائه، وصورت أمامه أميراً يحمل لقب «قائد الجيش»، وهو من أقدم الألقاب الحربية الكبيرة المعروفة حتى الآن من الدولة القديمة[2].

وكانت السياسة الخارجية في عهد الأسرات، الرابعة والخامسة والسادسة، تنحصر في سلسلة من الحملات والغزوات والبعثات الاقتصادية، التي كانت تنطلق من العاصمة أو من قواعد على الحدود، لتعود مرة ثانية إلى نقطة الانطلاق محملة بالثروات، وهي كذلك لم تكن تتضمن دورات من الكر والفر، الأمر الذي تتسم به سياسة التوسع الاستعماري، وهكذا، ففي الأسرة الرابعة ـ وعلى أيام مؤسسها سنفرو ـ يزداد الاهتمام بسيناء ـ ذات الأهمية الاقتصادية الكبرى لمصر ـ ففيها موارد البلاد الرئيسية من

---

(1) A.H. Gardiner, op.cit., p. 415.

(2) عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص ٣١٧؛ وكذا:
E. Drioton and J. Vandier, L'Egyptn, Paris 1952, p. 197; R. Weill, Les IIe et IIIe Dynesty Egyptiennes, Paris, 1908, p. 128; A.H. Gardiner, T. E. Peet and J. Cerry, The Inscriptions of Sinai, I, London, 1952, Pls. I, 4, II, 1955, p. 52.

الفيروز والدمنج والنحاس، وعلى صحراواتها كانت تسير القوافل التجارية من مصر إلى فلسطين، ومن فلسطين إلى مصر.

ومن هنا نرى «سنفرو» يقوم بحملة أو بضع حملات إلى سيناء، إذ تمثله النقوش فى المغارة (ويسمي خطأ وادى مغارة أو جبل المغارة)[١]، وهو يقضى على أحد البدو، ورغم أن «سنفرو» لم يكن أول الفراعين الذين استغلوا مناجم المغارة أو أرسلوا حملات لتأديب الخارجين على القانون من البدو، فإن الأجيال القادمة قد اعتبرته إلهاً حامياً للمنطقة، إلى جانب المعبودين «حاتحور» و«سويد» لأن أعماله فى تأمين حدود مصر الشرقية، وما قام به من تحصينات هناك، أصبحت المثل الذى يحتذى به، بل وظلت بعض نقط الحراسة تعرف باسمه «ساق حور ـ نب ماعت»، حتى أيام الدولة الوسطى، وحتى رأينا أحد النصوص التى كتبت فى مناجم سيناء بعد وفاته بحوالى ألف سنة، يفاخر صاحبها بأنه فعل ما لم يفعله الأوائل منذ عهد «سنفرو»[٢].

وفى الأسرة الرابعة، نرى الملك «خوفو» ـ صاحب الهرم الأكبر ـ يستعمل محاجر «الديوريت» التى تقع إلى الشمال الغربى من «توشكى»[٣]، وأن «جد فرع» (رع ـ جدف) خليفة «خوفو» قد ترك اسمه هناك، وأن «خفرع» قد حصل على الديوريت الذى صنع منه تماثيله المشهورة من محاجر تلك المنطقة[٤].

وفى الأسرة الخامسة سجل «سا حو رع» و«جدكارع» (إسيسى) اسميهما عند «توماس» فى منتصف الطريق بين أسوان ووادى حلفا. وربما

---

(١) من أسف أنه فى عام ١٩٠١م ذهبت إحدى الشركات البريطانية لاستغلال مناجم الفيروز، واستخدمت الديناميت فى تحطيم الطبقات التى يوجد فيها الفيروز، فحطمت أكثر النقوش التاريخية التى كانت على مقربة من فتحات المناجم القديمة، وقد نقل «بترى» فى عام ١٩٠٥م ما بقى من النقوش إلى المتحف المصرى بالقاهرة، إنقاذاً لها من الدمار، ولم يترك غير نقش «سخم خت» لأنه كان على ارتفاع كبير. (انظر: الموسوعة المصرية ٣٧٢/١)؛ وكذا:
W.M.F. Petrie, Researches in Sinai, London, 1906.

(٢) جان يويوت، مصر الفرعونية، ترجمة سعد زهران، القاهرة ١٩٦٦م، ص ٥١؛ وكذا:
J.H. Breasted ARE, I, 1906, Parag, 168; A.H. Gardiner, T.E. Peet and J. Cerny, op.cit., p. 4; Urk, I, p. 7.

(3) PM. 7, 1951, p. 275.

(4) W.S. Smith, CAH, I, Part 2, Cambridge, 1971, p. 183.

كان لذلك صلة بمحاجر الديوريت هناك، ويبدو أن المصريين إنما كانوا يسيطرون تماماً على المنطقة التى تقع إلى الجنوب من أسوان، ومن ثم فقد استطاعت البعثات أن تقوم بعملها فى المحاجر، وهى آمنة، حيث لا توجد مياه، وحيث يفصلها عن النيل قرابة ثمانين كيلا[1].

(1) Ibid, p. 183.

رابعاً ـ التنظيم القضائي

(١) مصادر القانون المصرى وفلسفته:

لا ريب في أن مصر الفرعونية التى بهرت العالم بتراثها المجيد فى جميع مناحى الحياة، سواء أكان هذا التراث فكرياً أم مادياً، إنما قد تركت آثاراً كذلك في عالم القانون، وقد بذل علماء الآثار الجهود الجبارة للكشف عن معالم تلك المدنية، ومن ثم فيجدر بعلماء القانون من المصريين أن يتناولوا الآثار القانونية التى خلفتها تلك المدنية بالدراسة والتحليل، وتلك لا شك فى أنها من أولى المهام التى يجب أن تضطلع بها كليات الحقوق فى الجامعات المصرية[١].

ورغم أن القانون كان فى مصر منظماً تنظيماً جيداً، فإن معلوماتنا عن شئون القضاء فى مصر قليلة، ذلك لأنه بينما دوّن الناس فى بابل ـ مثلا ـ قوانينهم، لم تصل إلينا صورة واحدة كاملة لأى قانون مصرى كتب على بردية من عصر الدولة القديمة، وبدهى أن هذا لا يعنى أبداً أن المصريين لم يعرفوا القانون، وإنما يعنى أننا لازلنا نفتقد هذه الوثيقة التى لابد وأنها كانت موجودة فى يوم ما، وإن لم تصل إلينا بعد[٢].

وهناك من يرى أن الملك «مينا» مؤسس الملكية المصرية، حوالى عام ٣٢٠٠ق.م، قد جعل التقنين الذى أصدره المعبود «تحوت» («تحوتى» أو «جحوتى»، كما ينطق فى المصرية القديمة) ـ والذى اعتبره المصريون القدامى القاضى الذى حكم فى السماء، ويقضى فى المنازعات بين الآلهة، ثم نسبوا إليه أصول الحكمة والحساب ورعاية الكتاب والكتابة والفصل فى القضاء[٣] ـ سائداً فى مصر العليا والسفلى، سواء بسواء، ويبدو أن تقنين تحوت هذا إنما كان تقنيناً مكتوباً، وأن أول ما استعملت فيه الكتابة إنما هو هذا القانون بالذات، والذى لم يصل إلينا منه شيء، هذا فضلا عن أن نصوص المقابر من عهد الدولة القديمة إنما تحوى أدلة على وجود قانون

---

(١) شفيق شحاته، القانون المصرى القديم، القاهرة ١٩٥١، ص ٧.

(٢) الكسندر شارف، تاريخ مصر، ترجمة عبد المنعم أبو بكر، القاهرة ١٩٦٠، ص ٦٥.

(٣) انظر عن المعبود «تحوت»: محمد بيومى مهران، الحضارة المصرية القديمة، الإسكندرية ١٩٨٤م، ص ٣١٣-٣١٥.

متقدم مكتمل، في مجموعات من الوصايا والعقود والهبات، وغير ذلك مما يتصل بنظام الملكية والحقوق العينية[١].

وهناك كذلك من الأدلة الأثرية ما يشير إلى وجود قانون جنائي، أو على الأقل نصوص محددة للعقوبات في عهد الدولة القديمة، وكانت المحاكم تطبق هذا القانون على عامة القوم، فضلا عن كبار القوم من الموظفين والكهان، ومن ثم فقد سجل لنا «بيي عنخ» - من وزراء الأسرة السادسة - على جدران مقبرته: أن محكمة البراءة برأته من تهم وجهت إليه عندما كان الكاهن الأكبر للمعبودة «حاتحور» في مدينة «قوص»، وأن هذه الاتهامات إنما كانت عقوبتها السجن[٢].

هذا فضلا عن بعض أحكام من قانون العقوبات، قد وصلتنا من «بردية وستكار» - والتي تروى قصصاً ثلاثة - قصة الزوجة الخائنة، قصة سنفرو وفتيات القصر، قصة خوفو والسحرة. وقد علمنا من «قصة الزوجة الخائنة» - وتنسب إلى عهد الملك «نب - كا» من الأسرة الثالثة، وربما كان هو الملك «سا نخت» أن عقوبة الزنا، إنما كانت الموت - غرقاً أو حرقاً - ففي روايتها عن علاقة شاب بامرأة كاهن، أن الشاب قد افترسه تمساح من صنع الكاهن نفسه، وأن المرأة اللعوب إنما قد اقتيدت إلى ساحة شمالي القصر حيث أحرقت علناً، وألقي برمادها في النهر[٣].

ولعل ذلك كان عقاب الزانية المحصنة، وعلى أية حال، فهناك ما يشير إلى تخفيف هذه العقوبة أحياناً - فيما تلا ذلك من عصور، فأصبحت «جدع الأنف»، وهكذا أصبحت عقوبة الزنا - بغير إكراه - ألف جلدة للزاني، وجدع أنف الزوجة، حتى تحرم تلك المرأة التي تزين المعصية للناس من أكبر مقومات الجمال، فضلا عن أن تكون عبرة وعظة لغيرها، وإن ذهب «ميخائيل سليمان» إلى أن عقوبة الزنا إنما كانت الإعدام، حتى وإن كانت ماتزال في مرحلة الشروع، كما إنها كانت تتطلب شاهدين، وإن لم

(١) شفيق شحاته، المرجع السابق، ص ١١، ١٦، ١٧.

(٢) سليم حسن، مصر القديمة، الجزء الثاني، ص ٦٢.

(٣) انظر عن بردية وستكار: محمد بيومي مهران، الحضارة المصرية القديمة، الآداب والعلوم، الإسكندرية ١٩٨٩م، ص ٧-٧٩؛ وكذا:
M. Lichtheim, op.cit., p. 215-222; G. Lefebvre, op.cit., p. 70-90; W.K. Simpson, op.cit., p. 15-30; E. Brunner-Traut, op.cit., p. 11-24; K. Sethe, ERL, 1927, p. 32-45.

تبين النصوص جنسهما، كشرط أساسي لتطبيق عقوبة الإعدام[1].

وعلى أية حال، فلقد كان الزنا في مصر الفرعونية خطيئة كبرى، ومن ثم فقد كان الرجل، دائماً وأبداً، يقر على نفسه في وصيته أنه لم يرتكب في حياته هذا الفعل القبيح، بل إن القوم إنما كانوا يكفرون عن خطيئتهم حينما يرتكبون فعل الزنا بالإعدام، بل إن الشروع في الزنا ـ كما أشرنا من قبل ـ إنما كان يواجه بنفس العقوبة ـ كما جاء في بردية ليبد (Popyrus Moral de Leyde - Colonne 8)[2]، بل إن القوم ـ حتى في أساطيرهم ـ إنما كانوا يشيرون بوضوح إلى عقوبة الإعدام كجزاء لزنا المرأة[3].

هذا وتقدم لنا الآثار والوثائق التاريخية ثلاثة وقائع تاريخية محددة تشير إلى عقوبة الإعدام على الزناة، بل إنها تقرر كذلك إقرار الفكر والقانون المصرى لعذر الغضب (عذر الاستفزاز)، أى أنهما يقران عدم عقاب الزوج المخدوع إذا قتل زوجته[4]، ففى «قصة الأخوين» ترى «إنبو» (أنوبيس) يقتل زوجته الداعرة ـ والتى حاولت إغواء أخى إنبو على فعل الفاحشة معها، ولكنه استعصم ـ ثم رمى بها إلى الكلاب[5]، وفى قصة الكاهن «أوبا أونر» أمر الملك التمساح (وكان الكاهن قد صنعه من شمع ثم قرأ عليه عزائم السحر) بأن يفتك بالفتى الزانى جزاء جرمه، وقضى على الزوجة الزانية بالحرق، وذر رمادها فى النهر، ولعل ذلك إنما كان جزاء الزانية والزانى عند القوم، القتل غرقاً أو حرقاً[6]، وأخيراً قصة «بيتان» والذى رفع دعوى ضد زوجته الزانية أمام محكمة فرعون، وتأكيد «حاتحور» بأن الزانية قد لقيت عقاب الإعدام، تقطيعاً بالسكين.

(1) M. Soliman, La repression de L'adultere en Egypte, These, 1925, p. 14, 25.
(2) J. Dagallier, op.cit., p. 177-178; M. Soliman, op.cit., p. 178.
(3) Komfeld, L'adultere dans L'Orient in Rev. Biblique, 57, 1950, p. 106.
(٤) عبد الرحيم صدقى، المرجع السابق، ص ٤٩؛ وكذا: Komfeld, op.cit., p. 106.
(٥) انظر عن القصة: محمد بيومى مهران، الحضارة المصرية، الآداب والعلوم، ص ٧٣-٧٤؛ وكذا:
G. Lefebvre, op.cit., p. 137-138; J. Wilson, ANET, 1966, p. 23-26; E. Brunner - Traut, op.cit., p. 28-40; A. Erman, LAE, 1927, p. 150-161; E.F. Wente, op.cit., p. 92-107; J. Yoyotte, RDE, 9, 1952, p. 157-159; J. Vandier, op.cit., p. 45-46, 105, 106; M. Lichtheim, op.cit., p. 203-211.
(٦) انظر القصة: محمد بيومى مهران، المرجع السابق، ص ١٢٠-١٢٦؛ وكذا:
E. Brunner, Traut, op.cit., p. 11-24; W.K. Simpson, op.cit., p. 15-30; M. Lichtheim, op.cit., p. 215-222; A. Erman, op.cit., p. 36-47; G. Lefebvre, op.cit., p. 70-90.

وأما قتل الزوج المخدوع لزوجته الزانية، حال تلبسها بالفعل الإجرامي الدنيء، فقد كان يعد بمثابة تنفيذ شرعي لعقوبة الإعدام على الزوجة الزانية[١].

ومن عجب أن يزعم «ديودور الصقلي» أن السرقة كانت حرفة عند أفراد من القوم، وأن يوافقه على ذلك بعض الباحثين المحدثين[٢]، غير أن «كابار»[٣] قد انتقد أخبار ديودور، كما جاء في وثيقة بمتحف موسكو، وكذلك فعل «تونيسين»[٤]، على أساس معارضة هذا الاتجاه للروح الدينية السائدة عند القوم.

وذهب «دي جاردان» إلى أن أخبار «ديودور الصقلي» يجب أن لا تؤخذ على عمومها، وأن أخباره المتعلقة بحرفة السرقة لم تكن موجودة إلا في خارج المدن، أي في الصحراء خارج نطاق السلطة، وبعيداً عن قبضة فرعون، وأما «دي بو» فيذهب إلى أن ديودور الصقلي إنما يعني «قطاع الطرق» من عصابات البدو الهمجية، ومن ثم فلا ينطبق قوله على اللصوص[٥]، والأمر كذلك عند «أرك بييت» حيث يذهب إلى أن «داجالير» عندما تعرض لموضوع السرقة عند قدماء المصريين أقر صراحة بأن سرقة المقابر كانت جريمة معاقب عليها جنائياً بشدة، وأن هذا التأييد كان يستوجب بالتبعية القول بأن السرقة من أماكن أخرى - غير المقابر - إنما كان جريمة يعاقب عليها أيضاً عقاباً صارماً، فليس هناك من فرق بين طبيعة السرقة، إذا ما تمت في المقابر، أو في غير المقابر، وإن كانت الأولى أشد نكراً[٦].

---

(1) Kornfeld, op.cit., p. 108.

(2) J. Dagallier, Les Institution Judiciaires de L'Egypte Ancienne, Paris, 1914, p. 182.

(3) J. Capart, Esquisse d'une histoire du droit Penal Egyptien Extrait de la Revue de L'université de Bruxelles, V. 1899-1900, p. 15.

(4) J.J. Thonissen, Etude sur L'histoire du droit Criminel des Peuples anciens, Inde, Brahmaniqde, Egypte, Jure, I, Paris, 1869.

(5) A.De Pauw, Recherches Philosophiques sur les Egyptiens, II, p. 366.

(6) E. Peet, The Great Tomb - robberies of The Twentieth Egyptians Dynasty, Oxford, 1930, p. 18.

ومن ثم فقد ذهب علماء التاريخ والقانون المصرى القديم إلى أن السرقة إنما كانت جريمة جنائية عامة تمس المجتمع كله، وليس الضحية فحسب، بل إن قانون الملك «حور محب» إنما يجعل عقابها ألف جلدة، وفى بعض الحالات كانت تصل العقوبة إلى الحبس أو الإعدام بالخازوق، كما بين أن السارق كان يوصم بعلامات ظاهرة فى خمسة أوضاع مختلفة من جسمه(١).

وهكذا يذهب «دى بويه» إلى أن عقاب جريمة السرقة إنما كان جدع الأنف(٢)، بينما يذهب «بيدل» إلى أن عقاب جريمة السرقة إنما كان الإعدام، وإن رأى أن فرعون كان يملك إصدار القرار الأخير حيال السارق، وأن المصريين القدامى إنما كانوا يأخذون بمبدأ المساواة فى العقاب، أى أن عقاب السرقة إنما كان يوقع على الرجل والمرأة سواء بسواء(٣)، على أن «تونيسين» إنما يذهب إلى أن عقاب جريمة السرقة إنما كان الجلد، وإن اتفقوا جميعاً على أن جريمة السرقة إنما أصبح عقابها مالياً فى أخريات العصور الفرعونية(٤).

وعلى أية حال، فلقد سجل ديودور الصقلى أيضاً عقوبة الحكم بقطع اليدين على كل من يطفف فى الكيل والميزان أو يزيف الأختام أو النقود أو يغش فى المعاملة، وكذا الكاتب العمومى الذى يغير فى نصوص السجلات العامة بمحو أو زيادة، والحكم على من يغتصب امرأة بالخصى حتى يحرم من رجولته التى دفعته إلى هذا العمل الشائن.

وعلى أية حال، فلقد ذهب بعض المؤرخين إلى أننا يمكن أن نعتمد

---

(١) باهور لبيب، من التاريخ القانونى، القانون العقابى الفرعونى، ص ١٣٧-١٤٧؛ وكذا:
Broal, Le Crime et la Peine, paris, 1899, p. 40; B. Baldwin, Crim and Criminals in Craeco - Roman - Egypt, p. 256, 263.

(2) A. Du Boys, Histoire du droit Criminel des Peuples anciens depuis la formation des Societes jusqu'a L'etablissement du Christianisme, Paris, 1845, p. 20.

(3) E.D. BEdell, Criminal Law in The Egyptian Ramesside Period, Michigan, 1973, p. 147-148.

(4) Bluche, La Peine de Mort dans L'Egypte, Rev. Tnt. desdr. de L'astique, 22, 1975, p. 144-168.

وانظر: عبد الرحيم صدقى، المرجع السابق، ص ٤٠-٤٤.

في مصادر القانون المصرى القديم على عدة مصادر، منها: المؤلفات الأدبية، حيث تضمنت بعض البرديات (من الوجهة الفكرية) اعترافات، وخاصة الاعترافات السلبية، مثل : لم أسرق، لم أرتكب خطيئة كذا.

هذا وقد جاء في «كتاب الموتى»[1] كثيراً من هذه الاعترافات السلبّية، ومنها الدعاوى الجنائية التى جاءت في الوثائق المصرية، مثل «بردية تورين» التى تحدثت عن مؤامرة الحريم ضد الملك «رعمسيس الثالث» (١١٨٢-١١٥١ق.م)[2].

ومنها روايات المؤرخين والكتاب الإغريق والرومان من أمثال «ديودور الصقلي»، و«هيرودوت» (٤٨٤-٤٣٠ق.م)، و«مانيتو» (٣٢٣-٢٤٥ق.م) - المؤرخ المصرى، وقد وصف مانيتو الملك «بوخوريس» - ثاني ملوك الأسرة الرابعة والعشرين (٧٢٠-٧١٥ق.م) - بأنه كان مشرعاً عظيماً، وذهب «ديودور» إلى أنه من بين الستة المشرعين الكبار في مصر، وأن له مجموعة من الشرائع والإصلاحات الاجتماعية والقضائية التى وجدت آثارها في الوثائق الديموطيقية[3]، ونسب «هيرودوت» إلى «أحمس الثاني» (أماريس)

(١) كتاب الموتى: أو كتب الموتى، وكانت تحوى نصوصاً جنازية تحفظ مع الميت في تابوته أو توضع بين أكفانه وتكتب على أدراج متفاوتة الأطوال من البردى والرق بالخط الهيروغليفى والهيراطيقى أو الديماطيقى وقد أطلق القوم عليها اسم «تعريفات الخروج نهاراً» ، مما يشير إلى أن الهدف منها إنما هو تمكين المتوفى من الخروج من ظلمة القبر إلى ضوء الشمس، وتمكينه من الحركة بعد الموت، فضلا عن توفير السعادة له في العالم الآخر، ومن المعروف أن هذه النصوص التى ترجع إلى عصر الدولة الحديثة وحتى العصر البطلمى لم تكن متكاملة في عدد موضوعاتها، وإنما كان كل نص منها يتضمن بعض الموضوعات ويخلو من البعض الآخر، إلا أن جميع الموضوعات، كما وردت في أكثر من كتاب إنما تتكون من ١٤٠ فصلا، ورد الكثير منها مكتوباً في متون الأهرام وفي متون التوابيت.
وكتاب الموتى ليس من الكتب الدينية المقدسة بل إنه لم يحو نصائح معينة للميت، كما لا تنطبق عليه صفات الكتاب المتكامل الموضوع المحدد الهدف، وفصوله متتالية لا يجمع بينها وحدة فكرية، ولعل أهمها الفصل (١٢٥) والذى يؤكد فيه الميت عدم اقترافه لأية معصية، ثم هناك الفصل السادس الذى يكتب على أجسام التماثيل المجاوبة (الأوشبتي) ويطلب من كل تمثال أن يهب في اليوم المحدد له، لكى ينوب عن صاحبه في أعمال الزراعة في عالم الموتى، أما الفصل الثلاثون فيختص بالقلب وما يجب أن يشهد به أمام محكمة الموتى، هذا ويمتاز كتاب الموتى بالصور التوضيحية التى كانت تتخلل النصوص، وقد اعتنى الفنانون برسمها وتلوينها بألوان زاهية، فمثلا كانت فكرة الحساب والمسئولية أمام الأرباب قد ترددت من قبل في متون الأهرام ومتون التوابيت، ولكنها أصبح أوضح في كتاب الموتى، حيث عبر عنها المصرى القديم باللفظ والصورة، وبالصورة المعنوية والمادية.

(2) A.D. Buck, JEA, 23, 1973, p. 152; H. Goedicke, JEA, 49, p. 154-163.

(٣) محمد بيومى مهران، مصر، الجزء الثالث، ص ٥٨٣؛ وكذا: =

(٥٧٠-٥٢٦ق.م) أنه سنّ قانوناً يقضي على كل مصرى بأن يتقدم سنوياً لحاكم مقاطعته ببيان عن مصادر دخله، وأن يثبت له حلالها من حرامها، وأن من يهمل ذلك أو يعجز عن إثبات موارد رزقه حقّ عليه الإعدام، ثم أضاف أن المشرع الإغريقي «سولون» (حوالى ٦٣٥-٥٥٩ق.م) قد اقتبس هذا القانون المصرى وطبقه في أثينا، وقد يكون غرض أحمس من قانونه هذا، فرض ضريبة على الكسب أو الحد من البطالة والتواكل بين الشعب[١].

ولعل من الجدير بالإشارة هنا أن هيرودوت وديودور، كما رأينا آنفاً، إنما يذكران أن أشهر المشرعين الإغريق «سولون» إنما قد جاء إلى مصر (حوالى عام ٥٩٥ق.م)، ولما عاد إلى بلاده، وقام بوضع التشريع المنسوب إليه (قانون سولون) فى عام ٥٩٤ق.م، ضمنه الكثير من القواعد التى اقتبسها من «مجموعة بوخوريس القانونية»، والتى كانت تمثل القانون المصرى وقت ذاك، هذا فضلا عن أن الرومان عندما سمعوا عن القانون المصرى، مما رأوه وشاد به المؤرخ هيرودوت فى الاحتفالات الأوليمبية، قاموا باقتباس الكثير من نصوصه وقواعده وضمّنوها أول قانون مدون لهم فى عام ٤٥١ق.م (قانون الألواح الاثنى عشر)، ومن وقتها، والرومان يوصون بالأخذ بمبادئ القانون المصرى، مع صبغها بالصبغة الرومانية، ناهيك أن واضعى قانون الألواح الاثنى عشر، إنما قد ذهبوا إلى بلاد اليونان واطلعوا على قانون «سولون» الذى نهل من القانون المصرى، وضمّنوا الكثير من قواعد قانونهم الذى وضعوه فور عودتهم إلى روما[٢].

=

A.H. Gardiner, op.cit., p. 340; J. Yoyotte, in Melanges Maspero, Fasc, 4, p. 120-159, ASAE, 54, p. 153-177.

(١) محمد بيومى مهران، المرجع السابق، ص ٦٤٦؛ هيرودوت يتحدث عن مصر، ص ٣٠٩-٣١٠؛ عبد الرحيم صدقى، القانون الجنائى عند الفراعنة، القاهرة ١٩٨٦، ص ٢٤-٢٥؛ وكذا:
J.Dagaller, Les institution Judiciaires de L'Egypte ancienne, Paris, 1914, p. 174-175.

(٢) محمود السقا، معالم تاريخ القانون المصرى من العصر الفرعونى حتى نهاية العصر الرومانى، القاهرة، ١٩٨٠، ص ٢٦-٢٧؛ وانظر:
E. Revillont, es Origines Egyptiennes du droit Civil Roman, Paris, 1912, p. 21F.; J. Gaudement, Institutions de L'antiquite, Paris, 1967, p. 384.

(٢) الهيئات القضائية:

تعرض بعض الباحثين إلى علاقة السلطة القضائية بغيرها من السلطات في مصر الفرعونية، فذهب فريق ـ منهم دى بو، وبوسييه، ومونتسكيه ـ إلى أن مصدر قد أخذت بمبدأ «الفصل بين السلطات»، على أن فريقاً آخر ـ ومنهم تونيسين ـ ذهب إلى أن مصر لم تعرف مبدأ «الفصل بين السلطات» في تلك الأزمنة الممعنة في القدم، بينما ذهب فريق ثالث ـ على رأسه رينيه رولان ـ إلى أن نظام «الفصل بين السلطات» على صعيد المبادئ النظرية لم يعرف في هذه الفترة التاريخية، وإن كان من المحتمل أنه كان مطبقاً على الصعيد العملي، بمعنى أن السلطة القضائية كانت نظرياً في يد الملك، ولكنها عملياً إنما كانت تفوض من جانبه إلى أشخاص آخرين، فما عدا الحالات الهامة[١].

وأياً ما كان الأمر، فمن المعروف أن القضاء كان في مصر منظماً تنظيماً جيداً، ورغم أن البعض قد تردد في إمكانية وجود قانون مكتوب منذ تلك العصور المبكرة لعدم العثور عليه حتى الآن، فإن البعض إنما يعتقدون أن التشريعات بوجه عام لم تكن مدونة على أساس أنها كانت محفوظة في أذهان القضاة، أى حكراً عليهم، وأن هذا الأمر ظل ردحاً طويلاً من الزمن في عصر الفراعين القدامى، وعلى أى حال، فمن المعروف أن هناك ما يدل على أن الفراعين إنما كانوا يتحرون العدالة، بل إن العدالة إنما كان لها من القوة، بحيث لا تنافسها قوة أخرى، ومن ثم فقد جسدها القوم في شكل إلهة أسموها «معات» أو «ماعت» بمعنى العدل أو الصدق أو الحق، وكانوا يمثلونها في هيئة امرأة جالسة أو واقفة على رأسها ريشة نعام، وكان كبير القضاة يضع حول عنقه تمثالاً صغيراً لهذه الآلهة يرمز إلى وظيفته، ومن ثم فقد حظيت «معات» بتقدير كبير من القوم، وخاصة في أوساط المثقفين، ولا غرابة في ذلك، فالحقيقة هي باستمرار أهم دعامة الكمال الخلقى في عام تسوده الفضيلة، ومن ثم فقد قال عنها أحد الفراعين «هي خبزى، وإنى أشرب من نداها».

(١) عبد الرحيم صدقى، المرجع السابق، ص ٦٦-٦٨؛ وكذا:
J. Thonissen, Etudes sur LOrganisation; Judiciaire les Lois Penales et la Procedure Criminelle de L'ancienne Egypte, 1868.

وكانت «معات» - بمعنى الحق أو العدل أو الصدق أو الاستقامة، إنما هي القوة الكونية للانسجام والنظام والاستقرار، نزلت منذ خلق العالم كالصفة المنظمة للظواهر التي تم خلقها، وكان من الضروري أن يعاد تثبيتها عندما يتولى عرش مصر، أي ملك موله، ففي المناظر المسطرة على جدران المعابد، نرى الملك يقدم «ماعت» كل يوم للآلهة الآخرين، كبرهان ملموس على أنه قائم بوظيفته الإلهية بالنيابة عنهم، كأنما هناك شيء لا يتغير، أبدي عالمي، يحيط بماعت(١).

هذا ويحتوي بعض نصوص الأهرام(٢) على أدلة قاطعة لا تقبل الشك، على أن طلبات العدالة والحق إنما كانت قوتها أقوى من سلطان الملك نفسه، وكان الفراعين يخشون التصدي لإلغاء أي قرار قضائي، بل إنه من الثابت - كما يقول بلوتارك - أن فراعنة مصر إنما كانوا يطلبون من القضاة أن يقسموا أمامهم بألا يطيعونهم، إذا ما طلب الملوك منهم الإجحاف أو الظلم بأحد من المتقاضين، ومن الصفحات المشرقة من هذا العهد، والتي أبهرت رجال تاريخ القانون والمؤرخين، سواء بسواء، إن فرعون إنما كان يلح في أداء القاضي لهذا اليمين عند توليه مهام منصبه، ومن ثم فلم يكن الملك يتدخل بالتوجيه أو الفصل الشخصي في أي نزاع مهما كان يسيراً، حتى لا توجد أية شبهة حول تدخله في توجيه العدالة تجاه الظلم أو الإجحاف بحقوق الغير، وعلى هذا الأساس فلم يكن فرعون بمستطيع أن يعاقب كما يحلو له، فهو ملزم باحترام واتباع القوانين المقررة لكل حالة، صحيح أنه كان يتدخل أحياناً لصالح المعذبين، كما ظهر في أشعار بنتاؤر التي تمجد رعمسيس الثاني، فضلاً عن بعض الدعاوى العمالية، ولكنه صحيح كذلك أن تدخله هذا لا يجعل منه قاضياً مثل القاضي العادي، فهو لا يرأس محكمة، ولا يعد اللجوء إليه درجة من درجات التقاضي(٣).

(١) محمد بيومي مهران، الحضارة المصرية القديمة، الجزء الثاني، ص ٢٢٧-٢٢٨؛ وكذا:
De Pastoret, Histoire de la Legislation, Paris, 1817, p. 206F; J.A. Wilson, op.cit., p. 48; V. Lons, Egyptian Mythology, 1968, p. 115-116.

(٢) انظر عن نصوص الأهرام:
J.H. Breasted, The Dawn of Conscience, N.Y., 1939; J.H. Breasted, Development of Religion and Tought in Ancient Egypt, London, 1912.

(٣) عبد الرحيم صدقي، المرجع السابق، ص ٧٤؛ وكذا:
J.H. Breasted, The Dawn of Conscience, p. 127; J. Dagallier, op.cit., p. 136.

ويذهب ديودور الصقلي إلى أن ملوك مصر لم يكونوا يعيشون على نمط الحكام المستبدين في البلاد الأخرى، يعملون ما يشاءون تبعاً لأهوائهم، غير خاضعين لرقابة ما، فقد رسمت القوانين للفراعين حدود تصرفاتهم في حياتهم الخاصة والعامة، سواء بسواء، وكانت ساعات الليل والنهار مرتبة بحيث يعمل الملك في الوقت المحدد ما يفرضه القاون عليه، وهكذا كان الملوك يلتزمون جادة الصواب والعدالة إزاء رعاياهم، ومن ثم فقد استشعر القوم نحوهم من الولاء ما يزيد كثيراً عما يكنونه لأهليهم من حب، حتى أن الكهنة وسكان مصر ما كانوا يولون نساءهم وأولادهم ومقتنياتهم الثمنية، ما كانوا يولونه من الاهتمام بسلامة فرعون، ومن ثم فقد احتفظوا ردحاً طويلا من الزمان بالنظام السياسي الذى وضعه الملوك الأوائل(١).

هذا وقد بلغ من احترام المصريين للقضاء وحبهم له، وإيمانهم بعدالته، أن الوزير الذى كان ـ بحكم مركزه ـ الرئيس الأعلى للقضاء، وكان يتلقب منذ عصر الأسرة الرابعة (حوالى ٢٦٢٠-٢٤٨٠ق.م) بلقب قضائي يجعله «كبير خمسة دار تحوتي»، ربما بمعنى كبير الرؤساء القضائيين الذين ينسبون عدالتهم إلى المعبود تحوت (تحوتي) ربّ العدالة والحساب والكتابة، ثم تلقب خلال عصر الأسرة الخامسة (٢٤٨٠-٢٣٤٠ق.م) بلقب «خادم العدالة»، وهو لقب عبروا عنه من الوجهة الدينية بعبارة «حم ماعت» أى كاهن ماعت ربة العدالة(٢).

وكان الوزير يضع في صدر ألقابه الكثيرة لقب «الوزير كبير القضاة» أو «كبير الرؤساء القضائيين»، كما كان يرأس «محكمة الستة العليا»، وهي محاكم ذات صبغة معينة، ربما كانت كمحاكم الاستئناف الآن، وربما كانت هذه المحكمة تنقسم إلى ست دوائر، يرأس كل منها «قاضى فم نخن»(٣).

---

(١) ديودور الصقلي في مصر، ترجمة وهيب كامل، القاهرة، ١٩٤٧، فقرات ٧٠، ٧١، ٧٨.

(٢) عبد العزيز صالح، حضارة مصر القديمة وآثارها، القاهرة ١٩٦٢، ص ٣٧٣؛ وهكذا:

A.F. Mariette, Mastabas, p. 228, 407-409; A. Weil, Die Veziere des Pharaonemreiches, 1908, p. 10-12.

(3) J.H. Breasted. op.cit., p. 127, 209-210; R.O. Faulkuer, JEA, 41, 1955, p. 18-20.

وسرعان ما اكتملت للقضاء تنظيماته، ففضلا عن لقب القاضي «زاب» أو «ساب»، وجد أيضاً لقب «الكاتب القضائي» (زاب سش) أو (سش ساب)، وكاتب الشكاوى «سش سبرو»، وذلك مما يعني الحرص على تسجيل القضايا، فضلا عن تقديم الشكايات مكتوبة، هذا فضلا عن وظيفة «مدير الإدارة القضائية» (زاب إيمي سشو)، وقد كان هؤلاء الموظفون القضائيون هم الذين يعرفون القوانين وطريقة تطبيقها وطريقة متابعة القضايا في المحاكم أو أمام القضاة، ويستطيعون متابعتها وتنفيذ الأحكام، ثم تسجيل كل هذا، ومن هؤلاء الكتبة القضائيين كانت تتكون الإدارات القضائية التي تنظم هذه الناحية وظروفها وملابساتها، هذا ولما كان تنفيذ الأحكام القضائية يحتاج إلى بعض رجال الشريعة الذين يمكنهم استعمال القوة في هذا الأمر، فإن من بين اختصاصات المشرفين على الإدارات القضائية، كان أيضاً الإشراف على بعض تنظيمات الشرطة حتى يضمن تنسيق التعاون بين إصدار الأحكام وتنفيذها، وذلك مما يتضح من دراسة ألقاب بعض الموظفين في عصر الدولة القديمة[1].

وكان في عاصمة الدولة إدارة رئيسية للعدالة (حت ورت)، وتشمل على قلم قضايا للفصل في قضايا العقارات والضرائب، وتشرف على المحاكم الفرعية في الأقاليم، وأما محكمة الإقليم أو المحافظة فكانت تتكون من مجموعة من الأشراف يجلسون للحكم كقضاة في المسائل المتصلة بالعقارات والأراضي، وترتكز الإجراءات القضائية على أساس مكتوب يحوي وثائق لها أصل في السجلات، ولكن كان يمكن تجنب اللجوء إلى هذه المحكمة، إن نص في العقد إبان كتابته على ذلك، على أن يفصل في المخاصمات عن طريق لجنة تحكيم من الكهنة الذين يمثلون الوقف، ويصبح حكمهم نهائياً بمجرد صدوره.

وكان حاكم المقاطعة يحمل لقب «مدورخيت» أي قاضي المدنيين، ومنذ الأسرة الخامسة أصبح يحمل هذا اللقب كذلك رجال محكمة الستة العليا، والذين كانوا يباشرون عملهم تحت إشراف الوزير، الذي كان يحمل لقب «مدير محكمة الستة» أو «مدير كل المحاكمات»، وكان أعضاء هذه

(١) عبد المنعم أبو بكر، تاريخ الحضارة المصرية، العصر الفرعوني، القاهرة ١٩٦٢م، ص ١١٦.

المحكمة يختارون من بين أعضاء «مجلس عشرة الصعيد العظام»، وقد يحمل بعضهم ألقاباً أخرى مثل «رؤساء الأسرار» أو «رؤساء الكلام السرى الخاص بمحكمة الستة»، وأهمهم جميعاً «القاضى فم نخن».

هذا وقد كان يساعد الوزير ورؤساء الجلسات مستشارين يسمون «خرى ستا» أى القائمون على الأسرار، وهم من طبقتين: مستشارو التحقيق (من أعضاء مجلس عشرة الصعيد العظام)، ومستشارو الجلسات (من أعضاء مجلس العشرة _ أو من القضاة رؤساء الكتاب)، كما كان هناك قضاة تحقيق، وكذا قضاة تحضير الأحكام التى ينطق بها رئيس الجلسة أو القضاة[1].

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة هنا إلى أن مصر قد عرفت أنواعاً مختلفة من القضاء _ غير القضاء العادى _ وهى:
١ _ القضاء العسكرى. ٢ _ القضاء التجارى. ٣ _ القضاء الأسرى.

وأما القضاء العسكرى، فقد عرف فى الدولة الحديثة _ على أيام الإمبراطورية المصرية _ وأما القضاء التجارى، فقد عرف فى العصر المتأخر، وكلا العصرين يخرجان عن زمن البحث _ الثورة الاجتماعية الأولى _ والتى يمكن أن نحدد لها تاريخاً تقريبياً (الفترة من حوالى ٢٢٨٠-٢٠٥٢ق.م) _ أى منذ أخريات أيام الأسرة السادسة، وحتى قيام الدولة الوسطى.

وأما القضاء الأسرى، فلقد عرفت مصر القضاء المتخصص فى منازعات الأسرة، فضلا عن الجرائم المرتكبة فى الوسط العائلى، وكانت أحكام هذا القضاء تسرى على كل أفراد الأسرة، فضلا عن العبيد والعاملين فى خدمة الأسرة، وأما سرقات الخدم والعبيد فكان يقضى فيها ربُّ الأسرة[2].

ومن قضايا الأسرة «قضية الملكة إيمتس» _ زوج الملك «ببى الأول» من الأسرة السادسة _ وقد اتهمت الملكة إيمتس بالاشتراك فى مؤامرة، لا نعرفها _ على وجه اليقين _ فقد تكون ضد العرش، أو ضد صاحب العرش، وقد تكون غير ذلك. وفى هذه القضية لا يحكم الملك على الملكة بما يريد،

(١) نجيب ميخائيل، الحضارة المصرية القديمة، ص ١٠٥-١٠٦.
(٢) عبد الرحيم صدقى، المرجع السابق، ص ٦٩-٧٠.

وإنما يعهد بذلك إلى هيئة قضائية، تكونت من صفيه «وني»، ومعه القاضي «حارس نخن»، بغية أن يعرفوا وجه الحق في هذه القضية، فضلا عن أن يتحققوا إن كانت الملكة مذنبة، أم هي براء مما نسب إليها.

وفي الواقع فإن هذه القضية إنما تعكس إلى حد كبير روح العدالة عند الفراعين، فإن موضوع القضية لابد وأن يكون أمراً خطيراً، وإلا لما تكونت هذه المحكمة من «وني» و«حارس نخن»، إذ لو كانت أمراً سهلا لما استدعت كل تلك الإجراءات، فإذا كان ذلك كذلك، وكانت التهمة الموجهة ضد الملكة أحد الفرضين السابقين ـ ضد العرش أو ضد صاحب العرش ـ فلنا أن نتصور مدى حرص الفرعون على أن لا يدين المتهمة، قبل أن يعقد لها محكمة تحقق فيما نسب إليها، وتعطى الفرصة لتثبت براءها، إن كانت بريئة، وتنال العقاب، إن كانت مذنبة، وإن كنا لا نعرف نتيجة المحاكمة[1].

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن القضاء المصرى ـ في العصور الفرعونية ـ إنما كان جداً حريصاً على تسجيل القضايا، فضلا عن تقديم الشكاوى مكتوبة، ويبدو أن المتبع في محاكم تلك العصور أن تقدم إليها الدعاوى مكتوبة باختصار، وقد امتدح «ديودور الصقلي»[2] هذا النظام كثيراً ولعل السبب في تقديم الدعاوى مكتوبة، أن المرافعة الشفوية، فيما يرى البعض، إنما كانت، في نظر القوم، أسلوب خداع، يقوم على حسن العرض والمهارة التي قد تبعد ذهن القاضي عن حقيقة الأمور، وكانت المذكرة المكتوبة تمر على القضاة (إذا كانت المحكمة مشكلة من أكثر من قاض)، للمداولة قبل صدور الحكم[3].

وهناك في متحف برلين بردية قديمة تحوى حكماً صادراً من قاض لمدع كان يطالب بحقه في ميراث، وتعتبر هذه البردية أقدم بردية من نوعها، ودلتنا الآثار على قضايا خاصة كان الحكم فيها الوزير نفسه، وأحد القضاة المنتمين إلى مدينة «نخن» (البصيلية).

(١) محمد بيومي مهران، الثورة الاجتماعية الأولى في مصر الفرعونية، ص ٥٢-٥٣؛ وكذا:
H. Goedick, JAOS, 1954, p. 88-89; J.H. Breasted, ARE, I, 1906, Parag, 294-307F.

(2) Diodorus, I, 75-76.

(٣) عبد الرحيم صدقى، المرجع السابق، ص ٥٩.

وهكذا يبدو واضحاً أن إدارة العدل في مصر كانت منظمة تنظيماً حسناً، وكانت تقوم بدورها في نشر العدل في الدولة، وكان للقضاة ـ كما أشرنا من قبل ـ ربّة حامية هي «ماعت»، ربّة الحق والعدل والصدق، وكان جميع القضاة من ذوى المناصب الرفيعة يخدمونها ككهنة، وكان كبير القضاة يضع حول عنقه تمثالا صغيراً لهذه المعبودة يرمز إلى وظيفته[١]، وخلاصة القول أن العدالة إنما كانت مطلب فرعون ورجال حكومته المركزية والمحلية، وأنه كان يعمل جاهداً على نشرها بين رعاياه.

وفي عهد الدولة الوسطى ـ كما في عهد الدولة القديمة ـ كان يشرف على تطبيق العدالة رجال الإدارة (حكام الأقاليم) والذين كانوا يحملون لقب «القاضي»، وحاكم الإقليم (زاب عدج مر)، وقد كتب أحد موظفي المالية الكبار مفتخراً : «كنت أعرف القانون جيداً، وأطبقه بكل حزم وحرص»، وقد سجل رجلان من كبار القوم في عهد «سنوسرت الأول» (١٩٧١-١٩٢٨ق.م) من الأسرة الثانية عشرة، في ترجمة حياتهما أنهما كانا قاضيين يقومان بتأدية وظيفتيهما بالعدل، وبدون أية محاباة، وأنهما لم يفكرا أبداً في أخذ مكافأة (ربما المراد رشوة) من أحد[٢].

وكانت هناك ست محاكم كبيرة تدعى «البيوت الكبيرة»، وتعقد جلساتها تحت إشراف الوزير، وهناك كذلك محكمة مكونة من ثلاثين قاضياً تعرف باسم «بيت الثلاثين»، وتعقد برياسة الوزير كذلك، وإن كنا لا نزال نجهل علاقتها بـ «البيوت الكبيرة»، وتدلنا الآثار على وجود أكثر من محكمة في الصعيد تتكون كل منها من عشرة قضاة، وتعرف باسم «قضاة الصعيد العشرة» يعينون بأمر ملكي للفصل في قضايا الإحصاء والضرائب، وإن كنا كذلك نجهل علاقتها بالقضاء الإداري.

هذا وكان المصريون القدامى يحسون ـ بفطنتهم وذكائهم ـ أن العدالة أساس ازدهار المجتمع، وأن عدم سلامة جهاز القضاء أو انحرافه يهدد أمن

(1) M.A. Murray, op.cit., pl. 28

(2) F.L. Griffith Proceedings of The Society of The Billical Archaeology, XVIII, 1896, p. 195F, plate II, 15-16.

انظر: جيمس هنرى برستد، فجر الضمير، القاهرة ١٩٥٦م، ص ١٧٣ .

المجتمع، خاصة إذا تفشت فيه الرشوة، ذلك لأن العبث بميزان العدالة إنما يؤدى إلى إدانة البرئ، وتبرئة المذنب، ومن ثم فالثابت أن لقب «قاض» ما كان يعطى إلا لمن ينتمى إلى أسرة كبيرة عريقة، على شريطة أن يكون على معرفة جيدة بالقانون، وأن تكون له خبرة عملية بالوظائف القضائية، وهذا يعنى أن تدخل السلطة الحاكمة فى مصر فى اختيار القضاة إنما كان جداً محدوداً، كما كان مقصوراً على اختيار القضاة من أكفأ العناصر، وأكثرها هيبة، إذا تساوت الكفاءات والمكانة الاجتماعية، هذا فضلاً عن أن طريقة الانتخاب - كأسلوب لتعيين القضاة فى مصر - لم تكن معروفة لدى القوم، إن لم تكن مرفوضة من أساسها.

وعلى أية حال، فلقد كانت العدالة فى مصر الفرعونية حقاً ثابتاً على الدولة أن توفره للناس ودونما أية التزامات مادية من جانبهم، فهو واجب الدولة نحو المواطنين، إن لم يكن أهم واجباتها، ولهذا فقد كان القضاة يأخذون أجورهم من الدولة، بل إنه من الثابت تاريخياً أن رئيس المحكمة إنما كان يتقاضى مرتباً ضخماً ضماناً لنزاهته، الأمر الذى يدل على رغبة الدولة فى وضع الحوافز المادية للقضاة كنوع من التقدير الأدبى لعملهم الهام والخطير كذلك، فضلاً عن تحقيق العدالة، وجعلها فى متناول المواطنين جميعاً[١].

هذا ومن المؤكد أن قانون تلك العصور الغابرة إنما كان فى غاية الإحكام والوضوح، وإن كنا لم نعثر على نسخة كاملة منه حتى الآن، ومما يثبت دعوانا هذه، ذلك العقد الذى أبرمه أمير أسيوط بين ذاته باعتباره حاكماً للإقليم، وبين ذاته باعتباره الرئيس الدينى الأكبر لمعبد مدينته، ولاشك أن كل هذه الدقة تثبت منتهى الحرص والحذر فى تنفيذ القانون، وصيانة الحقوق المعهود بها إلى هذا الشخص.

بقيت الإشارة إلى أن القانون المصرى القديم، إنما قد استمد وجوده من أرض مصرية خالصة، فجاء قانوناً متجاوباً تماماً مع المجتمع الذى نبتت فيه بذوره، وأينعت على أرضه ثماره، وإذا ما أردنا أن نتعرف كينونة هذا

(١) عبد الرحيم صدقى، المرجع السابق، ص ٥٦-٥٧.

القانون رأينا في مجمله، قانوناً متطوراً، سبق في مفهومه كثيراً من القوانين التي عاصرته في المجتمعات القديمة، ولم يقف هذا القانون في أية مرحلة من مراحل تطوره عند حد الجمود، بل أخذ من المجتمع وأعطاه، وهذا يمثل قمة المفهوم الناطق بالنسبة للقوانين المتطورة.

هذا ورغم أن المصريين إنما كانوا أكثر الشعوب القديمة تمسكاً بأهداف الدين، غير أن القانون الفرعوني لم يصطبغ البتة بالصبغة الدينية، وإن كان الباحث يحس عند تحليل قواعده أنه قانون أسس على الفضيلة الدينية، فلقد كانت الأخلاق هي الطابع الغالب للقانون الفرعوني، وكانت العدالة سمة من سماته، وهدف من أهدافه، ومن ثم فإن القانون الفرعوني إنما يعتبر بحق أعظم ترجمة لمفهوم القانون الحقيقي بأنه «فن الخير والعدل»، فهو قانون قائم على اللازمة الأخلاقية، فيه روح العدالة، وفيه التعايش الكامل مع أحداث المجتمع المصري القديم الذي عاشه عبر قرونه التي كونت عمره التاريخي (٣٢٠٠-٣٣٢ق.م)[1].

وقد ظل هذا القانون الفرعوني يطبق على المصريين في أيام البطالمة (٣٣٢-٣١ق.م)، بل إن هناك من يذهب إلى أن البطالمة أنفسهم قد تولوا تقنين القانون المصري في حالته التي استقر عليها بعد عهد الملك «بوخوريس» من الأسرة الرابعة والعشرين، وأطلق عليه «القانون الوطني المصري» Khoras Nomos، وحدث نفس الأمر في ظل حكم الرومان، حيث قنن القانون المصري تحت اسم Aegyption Nomos[2].

ويذهب الدكتور السقا إلى أن القانون الروماني في مسيرته الأولى، وإبان مرحلة فطامه وتكوين قواعده، إنما قد عرف القانون المصري وأخذ عنه، بل وأوصى فقهاء الرومان باعتناق مبادئه، ثم جاءت المرحلة التالية عندما أصبحت مصر ولاية رومانية، وطبقاً لفكرة تلاقي القانون الروماني والمصري، وما تم من أثر متبادل بين القانونين، فإننا نقرر أن القانون الروماني الذي قنن

(١) محمود السقا، المرجع السابق، ص ١٨-١٩؛ بيير مونتيه، الحياة اليومية في مصر في عصر الرعامسة، ص ٦٢ (مترجم)؛ وكذا:

J. Pirenne, La religion et la Morale dans L'Egypte dantique, Paris, 1965, p. 39F.

(٢) محمود السقا، المرجع السابق، ص ١٩.

في عهد «جستنيان» (٥٢٧-٥٦٥م) تأثر بكثير من أحكام القانون المصري.

ثم ينتهي الدكتور السقا إلى أن مجموعات جستنيان إنما تعتبر مصدراً رئيسياً من مصادر القانون الفرنسي الذى نقل عنه المشرع المصرى خلال القرن التاسع عشر الميلادى، مبادئه وقواعده القانونية، إبان تلك الفترة التى بنى فيها الحكام المصريون تلك القنطرة التى وصلت ما بين مصر والحضارة الغربية، وفرنسا بصفة خاصة، ومن ثم فلا مناص من أن نقرر الآن بوجود ذلك الخيط الممتد من القانون المصرى الفرعونى عابراً الزمن مؤثراً ومتأثراً بالقانون الرومانى الذى قدم الأساس القانونى للقانون الفرنسى، الذ أمد بدوره القانون المصرى الحديث بمبادئه وقواعده القانونية، وهكذا التقت روافد القانون المصرى الفرعونى فى مصب واحد فى العصر الرومانى مع القانون الرومانى؛ ومن هذا المصب الجديد كان المجرى طبيعياً مع تيار القانون الفرنسى، ليصب مباشرة مواداً فى التشريع المصرى الحديث[1].

وهكذا نظّم القانون أمور القضاء فى مصر الفرعونية، وأصبح العدل مكفولا تحت إشراف الوزير، وقد جرت العادة عند تنصيب الوزير أن يتعهده الملك بالتعليمات والتوبيهات، وكلها تحذير من التحيز والمحاباة، إلى جانب التزام العدل والنزاهة والرحمة والإنسانية.

ولنقدم مثالا على ذلك، وإن كانت من عصر الدولة الحديثة، فلقد جاء فى خطاب وجهه الملك «تحوتمس الثالث» (١٤٩٠-١٤٣٦ق.م) إلى وزيره «رخمى رع» - عندما قلده منصب الوزير - يقول الملك الفرعون:

«يأبى الربُّ التحيز، وهذه تعاليم يجب اتباعها... تطلع إلى منصب الوزارة هذا، وكن يقظاً لكل ما يحدث فيه، فهو عماد الأرض كلها، إنه ليس بالمنصب الهين، وإن كان مرّ المذاق، إنه لا يعنى احترام أشخاص الأمراء والمستشارين، وليس الغرض منه أن يستعبد الوزير أفراد الشعب، فإذا قصدك شاك من الصعيد أو الدلتا، أو من أية بقعة فى الأرض، فعليك أن تتأكد أن كل شيء يجرى وفقاً للقانون والعرف، وأن يعطى كل ذى حق حقه».

«احترس من الذى يقال عن الوزير «خيتى»، فإنه كان يحكى عنه أنه

(١) محمود السقا، المرجع السابق، ص ٢٧.

جار في حكمه على بعض ذوى قرباه، منحازاً إلى غرباء، حتى لا يقال عنه أنه حابى ذوى قرباه خيانة منه، وعندما استأنف أحدهم الحكم الذى أصدره «خيتى» ضدهم، أصر على إجحافه لهم، إن ذلك أكثر من عدالة، إنه ظلم، فلا تنسى أن تحكم بالعدل، لأن التحيز يعد طغياناً على الإله».

«تذكر أن من يلى منصباً كبيراً يردد الهواء والماء كل ما يفعله، ولا يمكن أن تستمر تصرفاته خافية، تصرف بالعدال، فالمحاباة يمقتها الربُّ، لا تتوان أبداً فى إقامة العدل، كن عادلا مع من تعرفه ومن لا تعرفه، وعامل المقرب من الملك كالبعيد عنه، لا تشح بوجهك عن صاحب شكوى، ولا تؤمنن سريعاً على قول من يحادثك، ولا تغضبن على رجل لم تتحر الصواب فى أمره، بل اغضب على من يجب الغضب عليه تكن مهيباً يهابك الناس، والنبيل من يجله الناس، وتأتى مهابته عندما يحق الحق، ويزهق الباطل، ولكنه إذا أخاف الناس، وأسرف فى ترويعهم كانت له نقيصة، تنزل به عن مصاف الكبار من الرجال، ولسوف تنجح فى تحقيق الهدف من منصبك إذا نصرت الحق، فالناس يتوقعون العدل من كل تصرفات الوزير، وتلك سنة القضاء منذ أن حكم الإله الأرض، لا تتوان أبداً فى إقامة العدل، كن عنيفاً مع المتكبر، فالملك يفضل من يستحى على من يتكبر»[(١)].

وهكذا نجد أن سياسة الدولة ـ على أعلى مستوى فيها ـ إنما يجب أن تسير على مبدأ الحق والعدالة الاجتماعية، فالوزارة ـ أسمى المناصب وأرفعها شأناً ـ ليس الغرض منها تفضيل الأمراء والمستشارين على العامة من القوم، إنها ليست لاستبعاد الناس، وإنما هى وسيلة لتنفيذ العدالة والقانون على الناس جميعاً، دونما تفرقة بين قريب وبعيد، فليس من العدل أن يظلم من لا تربطهم صلات قربى بولى الأمر، كما ليس من العدل كذلك أن يظلم الأقربون، وإنما العدل أن يعطى كل ذى حق حقه، كما يجب أن يكبح ولى الأمر غضبه حتى يستطيع أن يحكم بين الناس بالقسطاس المستقيم،

(١) انظر: محمد بيومى مهران، مصر، الجزء الثالث، ص ٧٣-٧٥؛ عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص ٢٠١-٢٠٢؛ وكذا:

J.H. Breasted, ARE, II, p. 266-281; J.H. Breasted, The Dawn of Conscience, New York, 1939, p. 209-210; R.D. Faulkner, The Insallation of The Vizier, JEA, 41, 1955, p. 18-29; A.H. Gradiner, op.cit., p. 196; Urk, IV, 1090F.

وهكذا نجد أن هذه الوثيقة الرسمية تضغط بشدة وبإلحاح منقطع النظير على تطبيق العدالة بين الناس جميعاً، هذا فضلا عن أن خطاب الفرعون إنما هو بمثابة تكليف رسمى من رئيس الدولة إلى أكبر موظفيها يحوى المبادئ الأساسية للعدالة وتكافؤ الفرص وتطبيق القانون على المواطنين جميعاً.

وهكذا تتصدر مصر مكاناً ممتازاً فى هذا المجال، فعندما نفحص «قانون حمورابى» نجد أن إجراءات العدالة تشترط فيه الاتفاق بين الطبقات الاجتماعية أنه عن نفس الجرم تختلف العقوبة والأضرار طبقاً للطبقة الاجتماعية التى ينتمى إليها الفرد الذى وقع منه الجرم، ذلك أن «قانون حمورابى» إنما قد سنّ: أن كل العقوبات والأحكام القضائية تدرج حسب مراكز المذنبين الاجتماعية، أو مكانة المتخاصمين الاجتماعية وهذه الحقيقة تفسر لنا ما دفع بعض كبار المؤرخين إلى أن يعتبر أن ما أضافته المدنية البابلية إلى إرثنا الخلقى فى غربى آسيا قليل جداً[1].

ولو رجعنا إلى قانون الملك حمورابى[2](١٧٢٨-١٦٨٦ق.م) لوجدنا مواداً كثيرة منه لا تعترف بالمساواة بين الناس، وإنما تعاملهم على حسب طبقاتهم، فمثلا المادة (١٩٦) تنص على أن من يتسبب فى إتلاف عين عضو من جماعة النبلاء تقلع عينه»، بينما تنص المادة (١٩٨) على أن من يفقد رجلا من العامة عينه يدفع مينا من الفضة، وتنص المادة (١٩٩) أن من يفقد رجلا عينه أو إحدى عظامه يدفع نصف القيمة.

وتنص المادة (٢٠٠) على أن من يسقط سن رجل من طبقته تكسر سنه، بينما تنص المادة (٢٠١) على أن من يسقط سن رجل من العامة يدفع ثلث مينا من الفضة.

وتنص المادة (٢٠٢) على أن من يلطم خد آخر أعلى منه مرتبة يجلد

(1) J. H. Breasted, ARE, IV, Parag, 101-412, p. 79-235.

(٢) انظر عن قانون حمورابى: نجيب ميخائيل، حضارة العراق القديمة، ص ٥٣-٨١؛ عبد العزيز صالح، مصر والعراق، ص ٤٦١-٤٦٩؛

T.J. Meek, The Code of Hammurabi, in ANET, 1966, p. 163-177; A. Deimel, Codex Hammurabi, 1930; W. Eilers, AO, 31, 1931; R.F. Harper, The Code of Hammurabi, 1904; G.R. Driver and J.C. Miles, The Balylonian Laws, I, LEgal Commentary, 1952; J. Nougayrol, RA, XLV, 1951, p. 67-79.

ستين جلدة بسوط من جلد الثور علناً، بنيما تنص المادة (٢٠٣) على أنه إذا لطم نبيل خد نبيل آخر من نفس المرتبة يدفع ميناً من الفضة، بينما تنص المادة (٢٠٤) على أنه إذا لطم رجل من العامة خد آخر يدفع ١٠ شوقل من الفضة، بينما تنص المادة (٢٠٥) على أنه إذا لطم عبد خد نبيل تصلم أذنه».

وهكذا بينما يعترف القانون العراقى بأن الناس غير متساويين فى أقدارهم أمام القاون، وأن العقوبة إنما تختلف طبقاً للطبقة الاجتماعية التى ينتمى إليها الذى وقع منه الجرم، فضلا عن الذى وقع عليه، نرى مصر الفرعونية تعلن فى وثائق الدولة الرسمية، وفى توجيهات الفراعين لوزرائهم عندما يتسلمون مهام مناصبهم، إلغاء مثل هذه الفوارق الاجتماعية، وأن الناس ـ كل الناس، رجال ونساء ـ أمام القانون سواء، لا فرق بين فقير وغنى، وبين كبير وصغير[١].

ولعل الفيلسوف اليونانى «أفلاطون» (حوالى ٤٢٧-٣٤٧ق.م) عندما قال فى مقالته عن السياسة «الدولة تجسيم العدالة المنظم» ربما لم يعلم إلا قليلا، أن مصر كانت قد اتخذت منذ ألف وخمسمائة سنة خلت ـ قبل مقالته ـ هذا المثل الأعلى، وحاولت أن تجعله حقيقة واقعة، أو أن هذا دليلا آخر على أن «أفلاطون» كان فى مصر، وأن ذلك رأى استحوذ عليه هناك فى أرض الكنانة[٢].

---

(١) محمد بيومى مهران، الثورة الاجتماعية الأولى فى مصر الفراعنة، الإسكندرية ١٩٦٦، ص ١٦٨-١٧١.

(٢) جيمس هنرى برستد، تطور الفكر والدين فى مصر القديمة، ترجمة زكى سوس، القاهرة ١٩٦١، ص ٣٣٨.

الفصل الثانى
أسباب الثورة الاجتماعية الأولى

تقــديم:

لا ريب فى أن الباحث فى تاريخ مصر الفراعنة، حين يصل إلى «عصر الثورة الاجتماعية الأولى»، فإن مشاكل عدة تظهر أمامه، وتحتاج إلى حل، وأن أول ما يتبادر إلى ذهنه معرفة دوافع هذه الثورة، تلك الثورة التى قام بها المصريون ضد مليكهم، وهم يؤمنون بأنه مقدس.

على أن الثورة - فى حقيقة الأمر - لم تكن ضد الملك المؤله وحده، وإنما كانت ضد النظام نفسه، ضد الفرعون، وضد الكهانة، بل ضد الآلهة نفسها، فضلا عن حكام الأقاليم.

وليس هناك إلى سبيل من ريب فى أن القوم لم يصلوا إلى هذا الشعور، ضد كل مقدساتهم إلا حين وصلت حالة البلاد - فى أخريات أيام الأسرة السادسة - إلى الحضيض، نتيجة عوامل شتى - اقتصادية واجتماعية وسياسية ونفسية - وكان الوعى الشعبى وقت ذاك، قد وصل إلى درجة دفعت الثائرين إلى القيام بثورتهم.

قامت الثورة الاجتماعية الأولى - فى أعقاب انهيار الدولة القديمة - ذلك الانهيار الذى حدث لأسباب كثيرة.

ويقدم لنا «جون ويلسون» أسبابا خمسة لانهيار الدولة القديمة، منها (أولا) تشييد معابد تهدد الاقتصاد، وتشييد أهرام لكل ملك جديد، أهرام كان المفروض فى كل منها، أن يخلد على الدهر، وكانت تبنى واحد بعد آخر فى كل جيل، ومنها (ثانيا) العبء الناتج عن تخصيص هبات دائمة، ليصرف منها على مقابر الملوك والملكات والنبلاء.

ومنها (ثالثا) ازدياد روح الاعتماد على النفس، والاستقلال بين النبلاء، وبهذا كانوا يبعدون جزءا من الأراضى عن حظيرة الاقتصاد الطبيعى، والقاء تبعات ثقيلة على الأراضى الأخرى.

ومنها (رابعا) مشترى الولاء من حكام الأقاليم المصرية، البعيدة عن

العاصمة «منف»[(١)] ـ التى لم تعد قوية كما كانت من قبل ـ، ومنها

(١) منف: كانت منف (إنب ـ حج) ـ ثالثة المدن الكبرى (نخن ـ ثنى ـ إنب حج) فى بداية عصر الأسرات ـ من حيث الزمن ـ ولكنها ظلت أوفرها مجداً، وأبقاها شهرة، وتعددت الاحتمالات حول ترجمة اسمها، فهو قد يعنى «الجدار الأبيض» أو «الحصن الأبيض» أو «السور الأبيض» أو «الأسوار البيضاء».

هذا وقد سميت «إنب ـ حج» «منف» من عبارة «من نفر» بمعنى «المقر الجميل»، وقد أخذ هذا الاسم (من نفر) من اسم «هرم ببى الأول» والمدينة التى بناها الملك حوله، وقد كان يسميان «ببى من نفر» ويوجد على حافة الصحراء فى مواجهة قرية سقارة الحديثة، وإلى الغرب منها بحوالى ثلاثة كيلو مترات، حيث أسس معبد بتاح ومعابد عظيمة أخرى، ولم يوجد اسم «من نفر» قبل الأسرة الثامنة على رأي، وقبل الأسرة السادسة، على رأى آخر، ثم حرفه الإغريق إلى «ممفيس»، ثم كتبه العرب «منف».

وتقع أطلال «منف» على الشاطئ الأيسر للنيل، على مبعدة ثلاثة كيلو مترات، ٢٢ كيلا إلى الجنوب من القاهرة تحت وبجوار قرية «ميت رهينة» بمركز البدرشين، بمحافظة الجيزة، وقد اشتق اسم «ميت رهينة» من الكلمة المصرية التى تعنى «طريق الكباش»، وكان هذا هو الطريق الممتد بين معبد بتاح الذى كان مقاماً فى المدينة إلى جبانة سقارة التى تقع إلى الغرب، وكان على جانبى الطريق تماثيل الكباش.

وقد عرفت المدينة فى العصور التاريخية بأسماء عدة، منها «نوت» أى المدينة و«ونوت نحح» أى المدينة الأبدية، و«عنخ توى» أى حياة الأرضين، و«حت كا بتاح» أي معبد روح بتاح، وفى الواقع أن اسم «مدينة بتاح، لا يحتاج إلى إيضاح، ذلك لأن «بتاح» كان ربّ المدينة ومعبودها وحاميها إليه يهرع الشعب فى أوقات العسر والشدة، وإلى ساحته يحج الناس من أقاليم الوادى، وفى معبده يتوج الملوك، وباسمه تجرى أمور الدولة، وتدبر شئونها، وشبيه هذه التسمية ما هو شائع فى الأقاليم المصرية فى أيامنا هذه.

وينسب بناء المدينة إلى الملك مينا، إذ يحدثنا «هيرودوت» أن «مينا» كان أول ملوك الأسرات، وأنه قد بنى هذه المدينة، على أن المؤرخين إنما يختلفون فى الوقت الذى أصبحت فيه «منف» عاصمة البلاد، فبينما يذهب البعض أن «مينا» لم ينتقل إليها من صعيد الوادى بعد إنشائها مباشرة، يذهب البعض الآخر إلى أن انتقال المقر الملكى من مكان ما فى الجنوب إلى هذا المركز الممتاز من ناحية الموقع عند رأس الدلتا، يجب أن ينظر إليه كمناسبة مباشرة لإرساء دعائم المملكة المزدوجة، وقد ناقش «كورت زيته» الأعمال الهامة التى نسبها «هيرودوت» إلى «مينا» بكثير من البراعة، وهى عبارة عن إنشاء جسم ضخم يحمى منف» من غائلة الفيضان، وكذلك بناء معبد بتاح إلى جنوب الأسوار المحصنة، ويؤكد هذا الأمر لوحة من الأسرة التاسعةعشرة تشير إلى «بتاح منيس» هذا إلى جانب حقائق أخرى كثيرة لا يمكن إحصاؤها تربط بين مينا ومنف، وعلى أى حال، فهناك إجماع على أن عاصمة الدولة إنما قد نقلت بصفة نهائية إلى الشمال فى منف، على الأقل منذ أيام «زوسر» مؤسس الأسرة الثالثة.

وأما أهمية موقع «منف» فهو فى منتهى الأهمية، إذ قام بدوره الهام منذ أول التاريخ، وكان نقطة الارتكاز فى كل محاولة لحكم قطرى الوادى، بل إن «القاهرة» ـ العاصمة الحالية لمصر، إنما تقع فى حدود هذا الإقليم، كما أن الإقليم ذو تاريخ حضارى قديم، فيه قامت حضارات حلوان وطره والمعادى، ومن هنا كانت أهمية منف فى التاريخ المصرى، ودورها الهام فى كل العصور الفرعونية أو تكاد، فقد كانت عاصمة لمصر طوال عهد الدولة القديمة، كما كانت العاصمة العسكرية لمنف على أيام الدولة الحديثة، ثم أصبحت مع [illegible] عمسيس» (قنتير) بالتناوب، المقر الملكى الرئيسى فى الشمال، خلال عهد الأس[illegible] ـشرة والعشرين، هكذا ظلت لمنف

=

(خامساً) احتمال انقطاع الموارد التي كانت تأتي من التجارة الخارجية[(١)].

هذا ويضيف بعض المؤرخين أسباباً أخرى، منها (أولاً) أن قوماً من سورية الشمالية ـ أو من الحدود المصرية الشرقية، إنما قد غزوا مصر، وأنهم قد حكموا على أيام الأسرتين ـ السابعة والثامنة ـ وأنهم وصلوا إلى حدود مصر العليا، حتى كتب للأسرتين ـ التاسعة والعاشرة ـ أن تضعا حداً لسلطانهم[(٢)].

ومنها (ثانياً) أن هناك غزواً آخر، انتهز فرصة الضعف، فأتى من الجنوب[(٣)]، هذا فضلا عن غزو ثالث أتى من الغرب ـ عن طريق الفيوم ـ قامت به «عائلة ختي» ـ ملوك الأسرتين التاسعة والعاشرة ـ[(٤)].

وهناك أسباب أخرى للثورة، منها (أولاً) تخلي الفراعين ـ مختارين ـ عن جانب من نفوذهم، فضلا عن جانب من ممتلكاتهم، ولا ريب أن هذا التخلي ـ عن السلطان والممتلكات ـ لا خطر منه، مادام هؤلاء الملوك أقوياء.

غير أن الخطر شديد، عندما يصبح الملوك ضعافاً، لأن هذا التخلي إنما يدفع حكام الأقاليم البعيدة على الأخص، إلى أن يحاولوا الاستقلال بأقاليمهم، وهم بمنأى عن العاصمة ـ منف ـ التي لم تعد تعنى بما وراءها، وهكذا تلاشت القوة المركزية، وحاول كل حاكم إقليم أن يحتفظ بإقليمه، الذي كان يعتبره «مملكته الخاصة»[(٥)].

.. أهمية [illegible] كبيرة طوال التاريخ الفرعوني ولم تبدأ في التدهور إلا بعد دخول المسيحية للبلاد، وإن كان مما لا شك فيه أن قيام الإسكندرية لتكون عاصمة إنما كان عاملا حاسماً في تدهور [illegible] وهبوطها إلى المركز الثاني بين مدائن مصر. وعلى أي حال، فلم يبق من آثار هذه المدينة العظيمة الآن، إلا أطلال بسيطة، أما جبانة سقارة في غربها، فهي زاخرة بالمقابر والأهرامات.

(1) J.A. Wilson, The Burden of Egypt, Chicago, 1954, p. 98.
وفي الترجمة العربية التي قام بها الدكتور أحمد فخري، تحت عنوان «الحضارة المصرية»، القاهرة ١٩٥٦م، ص ١٧٨.

(2) W.M. F. Petrie, A History of Egypt, I, London, 1924, p. 120.

(3) Ibid., p. 126.

(4) Ibid., p. 128.

(٥) نجيب ميخائيل، المرجع السابق، ص ٢٥٥.

ومنها (ثانياً) إرهاق الشعب، وفساد ضمائر الحكام، وخمول الفراعين، وخراب الإدارة، وقد أدى ذلك كله إلى انهيار الحكومة المركزية، وقيام الثوره الاجتماعية الأولى.

هذه هى الأسباب أو الخطوط العامة، التى يرى فيها بعض المؤرخين أسباباً لانهيار الدولة القديمة - أو بعبارة أخرى أسباباً لقيام الثورة - ولنحاول الآن مناقشتها بقليل أو كثير من التفصيل، ونجملها فى أسباب: اقتصادية واجتماعية وسياسية ونفسية، فضلاً عن الغزو الأجنبى - الآسيوى والليبى والنوبى -.

ولعل من الأهمية بمكان أن نتحدث - بادئ ذى بدء، وقبل بيان أسباب الثورة - عن زمن قيام الثورة.

هذا ويختلف المؤرخون فى الوقت الذى قامت فيه الثورة الاجتماعية الأولى فى مصر الفراعنة، فبينما يرى فريق منهم أنها إنما تقع فى عهد «ببى الثانى»، يرى فريق آخر أنها إنما تقع فى عهد خليفتيه الضعيفين، وإنى لأعتقد أن عهد «ببى الثانى» قد مهّد لقيام الثورة، وأعطاها مبرراتها، ولكنها لم تقم فى عهده، وإنما فى عهد آخر خط الملوك المنفيين، فربما قامت فى عهد «مرى إن رع» (عنتى إم سا إف) وأنه قد دفع حياته ثمناً لها، وطبقاً لرواية «هيرودوت» عن الملكة «نيتو كريس»[1] فإن «مرى إن رع» قد قتل بيد رعاياه[2].

وربما قامت الثورة فى عهد «نيتو كريس» نفسها، وربما كان انتقامها لأخيها، حين احتالت على قتلته حين حبستهم فى قصرها، ثم أطلقت عليهم ماء النهر فجأة عن طريق سد سرى ضخم، ثم انتحرت بعد ذلك، حين ألقت بنفسها فى أتون متأجج من النار، وقضت على نفسها بنفسها،

(١) اختلف المؤرخون فى الملكة «نيتو كريس»، فاعتبرها بعضهم أم الملك «ببى الثانى»، واعتبرها آخرون زوجته وأخته، وربما عاشت بعده، واعتبرها فريق رابع امرأة انتهت إليها وراثة العرش فى آخر الأسرة السادسة، وأنها انفردت بالعرش لمدة عامين، غير أن أيامها انتهت بانهيار الأسرة بعدها. (عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص ٤٠٠)؛ وكذا:
P.E. Newberry, Queen Nitocris of The Six Dynesty, JEA, 29, 1913, p.51-54.

(٢) هيرودوت يتحدث عن مصر، ترجمة محمد صقر خفاجة، ص ٢١٣-٢١٦؛ وكذا:
Herodotus, II, Parag, 100.

وربما ادى ذلك إلى أن ينتهز الشعب فرصة خلو العرش من شاغله وإعدامًا لكثيرين قتلوا من المصريين، فكان ذلك سببًا مباشرًا للقيام بالثورة - بجانب أسبابها الأخرى الأصلية، والتى سنوجز الحديث عنها حالا - ومع ذلك فهذه كلها افتراضات[1]، إذ أنه من المستحيل أن نقرر فى أية لحظة حدث الاضطراب الخطير، وأما حدوثه فأمر ليس فيه شك، وهناك ما يدعو إلى الظن بأن الفوضى قد ظلت بصفة مستمرة أو متقطعة، حتى الأسرة الحادية عشرة[2].

(١) الأسباب الاقتصادية:

قامت الثورة الاجتماعية الأولى لأسباب اقتصادية كثيرة: منها (أولا) تشييد مبان تهدد الاقتصاد القومى، وتشييد أهرام لكل ملك جديد، أهرام كان المفروض فى كل منها أن يخلد على الدهر، وكانت تبنى واحدًا بعد آخر فى كل جيل، ولقد كان بناء الأهرامات وغيرها من المبانى الدينية نتيجة سطوة الدين على المصريين وأثره فى حياتهم وتفكيره، فالدين - كان ولا يزال وسيظل - أكبر قوة تؤثر فى حياة الإنسان، كما أنه كان منفذًا للخيالات، ومحاولة لتفسير الظواهر المحيطة به، ذلك التفسير الذى أوحى إليه بفكرة الخلود، أو الحياة بعد الموت، هذه الفكرة قد اعتنقها القوم وكان لها أكبر الأثر فى نفوسهم، بل إنه - فيما يرى برستد - لا يوجد شعب قديم أو حديث بين شعوب العالم احتلت فى نفسه فكرة الحياة بعد الموت المكانة العظيمة التى احتلتها فى نفس الشعب المصرى القديم[3].

وكان من نتائج ذلك أن ترك لنا المصريون القدامى عددًا هائلا من المقابر والأهرامات والمعابد التى لا يمكن حصرها، بينما لا نجد إلا قليلا من المنازل التى كان يعيش فيها القوم، بل إن العواصم الكبرى - كمنف وطيبة - قد اختفت ولم تكد تترك من بعدها أثرًا، ولعل السبب فى ذلك أن الأولى إنما كانت تبنى بالأحجار، بينما كانت الثانية تبنى باللبن إيمانًا منهم بأن الأولى أبدية، وأن الأخرى وقتية.

---

(١) محمد بيومى مهران، الثورة الاجتماعية الأولى، الإسكندرية ١٩٦٦، ص ١١٨-١١٩.

(2) A.H. Gardiner, op.cit., p. 109.

(3) J.H. Breasted, The Dawn of Conscience, New York, London, 1939, p. 45.

غير أن هذه العقيدة، وما نتج عنها من مبان ضخمة هائلة أرهقت الاقتصاد القومي، وألقت عبأ ثقيلا على خزائن الدولة، وإذ صدقنا رواية هيرودوت من أن بناء الهرم الأكبر استغرق عشرين عاماً، عمل فيه مائة ألف رجل، كان يستبدل بهم غيرهم كل ثلاثة شهور، وأن بناء طريق مرتفع لنقل الأحجار التي استخدمت في بناء الهرم إنما استغرق عشر سنوات، وأن هذا العمل لا يقل مشقة عن بناء الهرم نفسه[١]، إذا صدقنا ذلك، وأضفنا إليه أن سنة ملوك الدولة القديمة، إنما كانت بناء الأهرامات، حتى بلغ مجموع ما في مصر من أهرام أكثر من سبعين هرماً نعرف أماكنها، ويصعب على أي إنسان أن يذكر تقديراً صحيحاً لما عساه أن يكون مايزال مدفوناً منها تحت رمال الصحراء[٢]، لظهر لنا أي عبء ألقى على خزانة الدولة، ومع ذلك فقد ظلت هذه العادة متسلطة على عقول القوم وعقائدهم، حتى أننا نرى في الأسرة السادسة ـ رغم ضعف ملوكها، ونقص موارد خزائنها ـ فقد سار ملوكها على سنة أسلافهم من الفراعين العظام في بناء أهرامات يدفنون فيها، بل إن «بيبي الثاني» ـ والذي وصلت البلاد في عهده إلى مرحلة تنذر بالخطر ـ لم يكتف ببناء هرم له، وإنما بنى ـ إلى جانب مجموعته الهرمية[٣] أهراماً ثلاث لثلاثة ملكات من زوجاته وهن «نيت» و«إيبوت»[٤] و«أوجبتن»[٥].

وهكذا اهتم الفراعين في عهد الدولة القديمة ببناء الأهرام اهتماماً كبيراً، وقد كلف ذلك خزانة الدولة ما لا تطيق، خاصة في أخريات عهد الدولة القديمة، عندما وصلت مواردها إلى حد أن أصبحت حكومتها شبه عاجزة عن تنفيذ أوامرها، وممارسة حقوقها، وتحمل تبعاتها، ومع ذلك لم ينس الفراعين أن يقيموا لأنفسهم أهراماً يدفنون فيها، مما أرهق الشعب أيما

---

(١) هيرودوت يتحدث عن مصر، ص ٢٤٧-٢٥٥؛ وكذا:
G.Rawlinson, The History of Herodotus, II, London, 1928, p. 177-179.

(٢) أحمد فخري، المرجع السابق، ص ٦.

(3) G. Jequier, Les Monuments Puneraires de Pepi, II, 3Vols., Cairo, 1936-1940.

(4) G. Jequier, Les Pyramides de Reines Neit et Apouit, Cairo, 1933.

(5) G. Jepuier,Le Pyramide d'Nupjebtin, Cairo, 1928.

إرهاق، وجعل بوادر السخط تتجمع ضدهم، وهكذا يمكن أن يف... ...
أنفق من أموال على هذه الجبانات الضخمة إنما كان واحداً من ...
الثورة، وإن كان هذا لا يعني أن العاملين في بنائها كانوا مكرهين...
لأراضين، فذلك أمر آخر، سبق لنا مناقشته.

وكان السبب الاقتصادى الثانى، ذلك العبء الناتج من ... هبات دائمة للصرف منها إلى أبد الآبدين على العناية بمقابر الملوك والملكات، فضلا عن الأمراء والنبلاء، ومن ثم فقد كان الملوك يبعدون جزءً من الأراضى عن حظيرة الاقتصاد الطبيعى، وإلقاء تبعات ثقيلة على الأراضى الأخرى[١]، وكانت تلك الأوقاف تبلغ أحياناً مقداراً كبيراً من المال ففى القرن التاسع والعشرين قبل الميلاد، أوقف على قبر الأمير «نكاو رع» بن «خفرع» مالا يقل عن اثنتى عشرة بلدة من ممتلكاته الخاصة، وأوقف كل دخلها على صيانة قبره[٢].

وفى الأسرة السادسة أصدر «ببى الأول» أمراً ملكياً نيابة عن سلفه «سنفرو» لصالح مدينتى هرميه، جاء فيه «أمر جلالتى، بأن تعفى هاتان المدينتان إلى الأبد من آداء أى عمل للقصر الملكى، ومن أى عمل بالقوة لأجل المقبر الملكى إلى الأبد»، ومن أية سخرة يأمر بها أى إنسان إلى الأبد»[٣]، وفى عهد «ببى الثانى»، صدر مرسوم ملكى بإعفاء جميع العاملين بمعبد الإله «مين» فى مدينة «قفط» من أية التزامات نحو الدولة، وبصب اللعنات على أى حاكم للصعيد يكلفهم بأى عمل، أو يأخذ منهم حبوباً أو ماشية، بل إنه يتجاوز كل حد عندما ينظر إلى من يفعل ذلك، على أنه خائن[٤].

وليت الأمر اقتصر على ذلك، بل إن أمراء الأقاليم قد نحتوا قبورهم فى صخور أقاليمهم ـ وخاصة فى مصر العليا والوسطى ـ وكان ذلك عبئاً جديداً على الخزينة، كلف الكثير من المال، حتى رأينا مدير قصر الملك

---

(1) J.A. Wilson, The Culture of Ancient Egypt, Chicago, 1963, p. 98.
(2) J.H. Breasted, A History of Egypt, London, 1946, p. 60.
(3) J.A. Wilson, op.cit., p. 99.
(4) W.C. Heyes, JEA, 32, 1946, p. 3-23; J.A. Wilson, The Culture of Ancient Egypt, p. 89-100.

«وسر كاف» يعين ثمانية من الكهنة الجنازيين لخدمة قبره، ويكافئ الملك «ساحو رع» أحد رجاله المقربين ويدعى «برسن» بأن يحول إليه دخلا من الخبز والزيوت كان يصرف من قبل على الملكة «نفر حتبه»[1]، ولعل الذى دفعه إلى ذلك إنما هو الرغبة فى التخلص من تلك الالتزامات الثقيلة التى نشأت من تضاعف عدد المقررات الموقوفة على القبور، وذلك بتحويل القرابين التى كانت مخصصة من قبل لقبور قديمة إلى قبور حديثة العهد[2].

وأما ثالث الأسباب الاقتصادية، فهو عبء مشترى الولاء من حكام الأقاليم المصرية البعيدة عن العاصمة، وذلك حين بدأ هؤلاء الحكام يتباعدون عن الملوك وينشدون خلودهم فى أقاليمهم، وبذا تولدت لديهم نزعة فردية دفعتهم على أن يتباهوا بما فعلوه، وبما رفع من شأنهم فى خدمة الملوك، وكلما مرّ الزمن وضعف الملوك زاد حكام الأقاليم فى تباهيهم بما نجحوا فيه، مما اضطر الملوك إلى أن يعملوا على اكتساب رضاهم، وإقطاعهم الأراضى لربط دخلها على مقابرهم، التى كانوا يقومون ببنائها من خزانة الدولة.

وتحدثنا الوثائق التاريخية أن «ونى» قد التمس من فرعون أن يعطيه تابوتاً من الحجر الجيرى من طره، فأعطاه الملك التابوت، فضلا غطائه، إلى جانب الباب الوهمى ومائدة القرابين[3]، ومن المعروف أنه قد تمتع بهذا العطف الملكى واحداً من أمراء الصعيد (زعو)، عندما التمس من الملك أن يهدى أباه من بيت المال تابوتاً وكتاناً وعطراً، فأمر الفرعون بإحضار تابوت من خشب، فضلا عن عطور وزيت ومائتى قطعة من أجود الكتان[4].

ويسمح الملوك بأن يرث الأبناء آباءهم فى إقطاعياتهم، وتتوزع ثروة البلاد بين الأسر القوية، فى الوقت الذى تتناقص فيه ثروة الملك تدريجياً، ويلجأ الفراعين إلى وسائل عدة لاسترداد سلطانهم، فيتعهدون تربية أبناء الحكام فى قصورهم، لعلهم يصبحون أوفياء للعرش، حين تصبح الأمور

(1) J. H. Breasted, op.cit., p. 61.
(2) Ibid., p. 62.
(٣) جيمس هنرى برستد، فجر الضمير، ترجمة سليم حسن، القاهرة ١٩٥٦، ص٦٩.
(4) A.H. Gardiner, ZAS, 70, 1954, p. 95-96.

بأيديهم فى أقاليمهم[1]، ثم يعيدون وظيفة «حاكم الصعيد» الذى يعهدون إليه بالإشراف على ضرائب الصعيد، وشئون حكامه[2]، إلا أن ذلك كله لم يغير من الوضع شيئاً ولم ينجح الملوك فى كسب ولاء الحكام، الذين أخذوا يستقلون عن الفراعين بأقاليمهم، مما أدى آخر الأمر إلى قيام حكومة متنافسة أحياناً ومتعادية أحياناً أخرى، وحين تحرج الموقف للغاية، عمت الفوضى فى البلاد، وبالتالى قامت الثورة الاجتماعية الأولى.

وأما رابع الأسباب الاقتصادية، فهو انقطاع أو احتمال انقطاع الموارد التى كانت تأتى من التجارة الخارجية، والتى كانت احتكاراً ملكياً، فقد كانت مصر على علاقات تجارية مع بلاد غربى آسيا، ومع جزر البحر الأبيض المتوسط، ومع النوبة وليبيا وبلاد بونت، وتدلنا نصوص أواخر الدولة القديمة على وجود اضطرابات فى تلك البلاد الأجنبية التى كانت تتجر معها مصر، مما استدعى بعض إجراءات حربية فى النوبة والسودان[3]، ومنها تلك الحملات التى أرسلت لتأديب النوبيين تحت قيادة «بيى نخب»[4]، وتلك التى أرسلت إلى غربى آسيا تحت قيادة «ونى» للقضاء على التمرد عند أنف الرئم[5].

(٢) الأسباب الاجتماعية:

شبّه «جون ويلسون» الدولة والمجتمع المصرى القديم بـ «الهرم»، ثم وضع فى أعلى الهرم، هرم صغير مستقل، رأى أنه يمثل الملك الذى يحكم فوق وزرائه، الذين كانوا بدورهم فوق حكام الأقاليم، الذين كانوا فوق عمد البلاد والقرى، ومن الناحية الاجتماعية كان فرعون فوق النبلاء الذين كانوا بدورهم فوق الفنانين وصغار التجار والعمال والفلاحين، أما عن التنظيم الدينى فكان فرعون هو حلقة الاتصال الوحيدة مع الآلهة، وكان فوق الكهنة الذين كانوا بدورهم فوق الشعب، وهذه التشبيهات الهرمية ليست فى الحقيقة إلا شيئاً واحداً، لأن كبار الموظفين والنبلاء وكبار الملاك والكهنة

(1) Urk, I, p. 251F; H. Kees, ZAS, LXIV, p. 93

(٢) إيتين دريوتون وجاك فانديه، المرجع السابق، ص ٢٦٣.

(3) J.A. Wilson, op.cit., p. 100.

(4) J.H. Breasted, ARE, I, 1906, Parag, 350, p. 163.

(5) A.H. Gardiner, op.cit., p. 95.

إنما كانوا في درجة واحدة، فقد كانوا جميعاً يكونون الطبقة التي تلي فرعون مباشرة، وكان ينيبهم عنه في تأدية المهام الخاصة به[١]، وهكذا كان المجتمع المصري القديم يتكون في أول أمره من طبقتين بينهما فرق واضح، طبقة عليه وهي المالكة، على رأسها فرعون وأسرته وحاشيته، ومن حولهم كبار موظفي الدولة وأمراء الأقاليم وكبار الكهنة، ثم طبقة دنيا وهي العاملة الكادحة تتكون من عمال الزراعة والصناعة والصيادين والملاحين والرعاة والخدم وجميع أصحاب الحرف الذين يعملون في الخدمات العامة والخاصة[٢].

وتشير آثار الأدباء والحكماء وأصحاب التأملات إلى هذا النظام الطبقي، ومنهم حكيم الثورة الاجتماعية الأولى «إيبو - ور» الذي حدثنا كيف ساد الوضيع على الرفيع، وكيف أن الذين لم تكن لهم أسر معروفة قد أصبحوا من أصحاب اليسار، وكيف أخذ الجوع والفقر بأبناء البيوتات من جميع أقطارهم، يقول الحكيم المصري «انظر : لقد حدث هذا بين الناس، فمن لم يكن في قدرته أن يقيم حجرة أصبح الآن يملك فناء مسوراً، انظر: أن النبيلات يرقدن الآن على الفراش الخشن، والأمراء ينامون في المخزن، ومن لم يكن ميسراً له أن ينام على الجدران، أصبح الآن صاحب فراش وثير، انظر: أن الرجل الغني أمسى يمضي ليله ظمآن، ومن كان يستجدى بقية سؤره أصبح يمتلك جعة قوية، انظر: أن الذين كانوا يلبسون الملابس الفخمة أصبحوا الآن في خرق بالية»[٣]، ولعل هذا إنما يشير إلى

(1) J.A. Wilson, The Culture of Ancient Egypt, 1964, p. 73.

(٢) لم يتفق الكتاب القدامى على تحديد عدد طبقات المجتمع المصرى القديم، فجعلها بعضهم ثلاثاً، وبعضهم الآخر ستاً، وجعلها آخرون سبعاً، وأرقى تلك الطبقات اثنتان، طبقة الكهان وكانوا أغنى الطبقات مالا وأعلاها قدراً، وأقواها نفوذاً، وأعظمها حظاً من الثقافة، ثم طبقة المحاربين، ويسميهم هيرودوت «كالاسيرس» وكانوا غالباً من الدلتا ذات الأبواب المفتوحة للدفاع عنها، وكانوا يقطعون أرضاً يرتزقون منها، كما كانوا يعملون في خدمة الملك، ثم تأتى طبقة رعاة البقر والخنازير، وكان رعاة الخنازير أحط الطبقات، وهناك طبقة التجار وطبقة التراجمة، وأخيراً رجال الملاحة وطبقة عمال الزراعة، ونلاحظ أن هذا التحديد، على اختلاف الآراء فيه، لا يمكن أن يكون مضبوطاً، إذ ينبغي أن يكون أكثر من ذلك عدداً (هيرودوت يتحدث عن مصر، ص ٢٩٧-٢٩٨)؛ وكذا: Diodorus, I, 73, 2.

(3) A.H. Gardiner, Admonitions of An Egyptian Sape, Leipzig, 1909, p. 10-11.
وانظر : محمد بيومي مهران، الثورة الاجتماعية الأولى في مصر الفراعنة، ص ١٣٣-١٣٤.

أن حكيمنا المصرى ربما كان من طبقة أرستقراطية، ومن ثم فلم يكن من الهين عليه أن تزول النعمة عنها إلى غيرها أقل منها منزلة ومكانة فى المجتمع المصرى القديم.

وتقدمت الحياة بالناس إلى زمان الدولة الوسطى، ونشأت بين الطبقتين المذكورتين طبقة ثالثة، هى الطبقة الوسطى، طبقة حرة قوامها صغار الموظفين والتجار وأصحاب الحرف الممتازة، وإذا كان بعض الباحثين يحاول إنكار هذه الطبقة، فإن منطق الحياة قد يحتم وجودها، ذلك لأننا إذا سلمنا بوجود طبقة الأشراف الحاكمين من أعيان البلاد ووجهائها وأصحاب الرأى فيها، وسلمنا بوجود طبقة عاملة من الزراع والعمال الكادحين وأصحاب الحرف المختلفة، فإن منطق الأشياء يقتضينا أن نفترض وجود طبقة وسطى بين أولئك وهؤلاء، وإلا فأين نضع صغار الموظفين وصغار رجال الجيش ومن يماثل أولئك وهؤلاء من الناس[1]، ولنتحدث الآن عن طبقات المجتمع المصرى الثلاث:

(١) الطبقة العليا:

كان على رأس هذه الطبقة فرعون الذى آمن المصريون القدامى، راغبين أكثر منهم مكرهين، بأنه إله تكرم وأقام فوق أرض مصر ليحكم الناس بمقتضى الحق الإلهى الموروث، وليدبر أمورهم وفقاً لمشيئة الله، فدانوا لسلطانه فى الدنيا وآمنوا باستئنافه فى الآخرة، وكانوا يدعونه الإله الطيب فى حياته، والإله العظيم بعد مماته، فهو الإله الصقر «حور» الذى تجسم فى هيئة بشرية، ومن ثم فهو، فى نظر رعاياه، إله حى فى شكل إنسان، يتساوى مع غيره من الآلهة فيما لهم من حقوق، فله حق الاتصال بهم، كما له على شعبه ما لغيره من الآلهة من التقديس والمهابة، وفى الواقع أن هذا أمراً لم تنفرد به مصر بين بلاد العالم، وإنما هو شىء كان يسود أم الدنيا المعروفة فى العصور القديمة، أو يكاد[2].

على أن فرعون رغم هذه المكانة المقدسة التى كان يحتلها، لم يعش

---

(١) أحمد بدوى ومحمد جمال الدين مختار، المرجع السابق، ص ٤٧-٤٨.

(٢) انظر عن «التنظيمات السياسية فى الشرق القديم»: محمد بيومى مهران، حضارة الشرق الأدنى القديم، الجزء الأول، الإسكندرية ١٩٩٩م.

فى برج من عاج، ولم يعزل نفسه عن شعبه، بل كان شديد الاتصال به، ذلك أنه على الرغم من الحقوق التى كان يتمتع بها فرعون، كان عليه عدة واجبات، فهو المسئول عن الدفاع عن مصر وحماية حدودها من غارات الشعوب المجاورة والطامعة فى خيراتها، ثم يستمع لشكوى الناس، ويعنى بشئونهم،ويهتم بمراقبة موظفيه ورعايتهم، ويجزل العطاء لمن أخلص منهم، فأحسن وأجاد، ثم هو يعمل على تأمين وسائل الحياة للمصريين بحفر الترع وإقامة الجسور لتيسير فلاحة الأرض وزراعتها، كما كان عليه حماية المدن من غائلة الفيضان، وتشجيع الصناع والفنانين، فضلا عن القيام بواجبه نحو الآلهة، فإن أهمل ذلك حق للآلهة ألا تعترف به كواحد منها، فأما بلاطه فكان مكونًا من حاشية كبيرة من عظماء أمته، والمقدمين من أمراء جنده، وكبار كهنته، يستشيرهم فى أمور دولته، ويستعين بهم على تدبير شئون شعبه، وهكذا يبدو واضحًا أن الملكية، وإن أفاءت على الملك ثوبًا من القداسة، فقد حددت، فى الوقت نفسه، من سلطانه، بما فرضت عليه من واجبات، كما سنشير إلى ذلك فيما بعد بالتفصيل.

هذا وقد كان للملك وضع خاص بين رعاياه، ربما يبعده عن وضع الطبقات التى كان يتكون منها المجتمع المصرى، فقد كان القوم يعتقدون أنه إله، وليس بشرًا، ورغم ذلك فهناك نصوص، وإن كانت نادرة، إلا أنها تكشف فى ومضات قصيرة عما كانت تنطوى عليه نفس هذا الإله من مشاعر نبيلة ولمسات إنسانية نحو رعاياه، تبدو فى بعض المناسبات فتومض كالبرق الخاطف وسط تكاليف الحياة الرسمية الصارمة، فهناك نبوءة «نفرتى» والتى تتحدث عن الملك «سنفرو» على أنه كان ملكًا محسنًا، وأنه حين يخاطب أحد رجال رعيته يقول له «يا صاحبى»، وحين يوجه حديثه إلى أحد رجال بلاطه مخاطبًا إياهم بقوله «يا إخوانى» ثم حين يتنزل من عليائه الإلهية ليقوم بعمل كاتب، فيمد يده إلى صندوق مواد الكتابة ويأخذ قرطاسًا وقلمًا ومدادًا، ثم يدوّن ما تحدث به الكاهن المرتل «باست»[1]، كل ذلك يجعل هذا الفرعون فريدًا بين أقرانه.

وربما أراد نفرتى بذلك الدعاية لملك قادم يأمل القوم أن يكون على

(1) A. Erman, The Literature of the Ancient Egyptians, London, 1927, p. 112.

هذه الصفات، وأن نفرتى قد ذكرها لتكون هدياً للملك القادم في معاملة رعاياه، قد يكون ذلك، وقد لا يكون، ولكنها مع ذلك تشير، ولو بطريق الأساطير الشعبية، أن هناك من الفراعين من يعاملون رعاياهم بالود والحنان، ولعل هذا يفسر لنا أسباب تلك المكانة التى كان يحتلها «سنفرو» فى نفوس رعاياه، حتى استمرت عبادته فى أكثر من مدينة مصرية حتى عصر البطالمة، وقد احتفظوا له بذكرى طيبة، ومن ثم فقد صورته آدابهم الشعبية متواضعاً، يميل إلى المعرفة ويكرم العلماء ويحسن الاستماع إليهم، ويكتب بنفسه، كما وصفوه بأنه «ملك فاضل»[١].

وهناك ما يروى عن «نفر إير كا رع» ثالث ملوك الأسرة الخامسة من أنه لم يترفع عن أن يترضى أحد رجاله (رع ور) عندما لطمت عصا الفرعون ساقه عن غير قصد، بل إنه يأمر بأن ينقش ذلك على حجر يوضع فى قبر «رع ور» وهناك قصة أخرى تبين مدى حزن الفرعون نفسه على مدى ما أصاب وزيره «واش بتاح» الذى وافته منيته فجأة عندما كان فرعون يتفقد وربما يفتتح أحد المنشآت الملكية، وأن الملك حاول إسعافه ولكنه فشل، ثم عاد إلى حجرته يدعو ربّه رع أن يشمل وزيره برحمته، ثم سمح لولده أن يسجل ذلك كله على قبره الذى منحه إياه[٢]، وهناك كذلك فراعين كانوا يراسلون وزراءهم ويردون على رسائلهم بخط أيديهم، ومن ذلك ما كتبه الملك «جد كا رع» (أسيسى) إلى وزيره «شيسرع» حيث يقول: «الحق أن رع أكرمنى بأن وهبنى إياك»[٣]، وإن رأى «فيكنتيف» فى حدوث واقعتى «رع ور» و«واش بتاح» فى عهد ملك واحد (نفر إير كا رع) ما يدل على أن لفرعون مصلحة فيهما، وأنه كان يود أن يتخلص من الرجلين، فنخس أحدهما بعصاه التى ربما كانت مسمومة، وسمّ الآخر بطريقة ما، ثم أظهر حزنه عليه، وإن كنت أميل إلى أن الحادثين لا يستحقان كل هذه التخمينات التى ذهب إليها «فيكنتيف»، وليس بدعاً أن يكرم الفرعون موظفيه العاملين والمقربين إليه بعد وفاتهم.

وأيّا ما كان الأمر، فلقد كانت الطبقة الحاكمة ترتبط بالملك بروابط

(١) محمد بيومى مهران، الثورة الاجتماعية الأولى فى مصر الفراعنة، ص ٧٦-٧٧.

(2) J.H. Breasted, ARE, I, Parag, 242-249.

(3) Urk, I, 179.

كثيرة، ففي النصف الأول من الدولة القديمة كان الأمراء يعينون في مناصب الوزارة، وأكثرهم من أبناء الملك أو من ذوى قرباه، كما حدثت مصاهرات بين أفراد البيت المالك وبين أفراد من الشعب، كما حدث في زواج «بتاح شبسس» من «خع ماعة» ابنة «شبسسكاف»[١]، وزواج «ببى الأول» من ابنة أمير أبيدوس، وهكذا فإن وجود أبناء الملك وأقاربه يجعل الخط الفاصل بين الملك والطبقات الأخرى غير واضح المعالم، ولكن من ناحية أخرى، فقد كانت الطبقة الحاكمة بمثابة همزة الوصل بين الملك ورعيته، وأنها تمكنت من احتلال المناصب الكبيرة، ثم الحصول على امتيازات كانت من قبل وقفاً على الملوك دون سواهم[٢].

وكان هؤلاء الحكام ومن حولهم حاشيتهم من كبار الموظفين يعيشون عيشة ترف ورفاهية، فيسكنون الدور الفخمة، ويقتنون الضياع الواسعة ويقيمون الولائم المترفة، ويتنقلون في محفات تحمل على أكتاف الرجال، حتى إذا ما كانت أيام الدولة الحديثة[٣]. وعرفت مصر الخيل والعجلات استبدلوا بها المحفات وباتوا يتنقلون عليها، ويمارسون فوقها ألوان الفروسية والصيد والرياضة، ويستروحون عليها بين المزارع والحقول وعلى شواطئ النهر.

وكان لكبار الكهنة مركزاً ممتازاً لدى الشعب، وهيبة كبيرة، وكانوا يبرعون كثيراً في إخضاع سلطان الدين لكثير من التأويل والتعقيد، ويحتفظون بأسرار تعاليمهم الدينية، ويزعمون القدرة على استخدام السحر، كما كانوا متبحرين في العلم والمعرفة مما يسّر أمورهم وسهّل سيطرتهم على الشعب، وزاد في هيبتهم وسلطانهم، كما بلغوا جانباً كبيراً من الثراء[٤]، وبخاصة كهانة آمون التي تضخمت ثرواتها، وبمرور الزمن تكونت في مصر ملكية خاصة بالإله آمون، منفصلة عن أملاك فرعون، بل إنها لم تكن

---

(١) J.H. Breasted, op.cit., Parag, 257.

(٢) محمد بيومي مهران، المرجع السابق، ص ٧٨-٧٩؛ وكذا: J.A. Wilson, op.cit., p. 75

(٣) هناك في التوراة ما يشير إلى أن القوم قد استعملوا المركبات منذ عهد الهكسوس (تكوين ٤١ : ٤٣)؛ وانظر: محمد بيومي مهران، حركات التحرير في مصر القديمة، القاهرة ١٩٧٦م، ص ١٩٧-١٩٨.

(٤) أحمد بدوى ومحمد جمال الدين مختار، المرجع السابق، ص ٥٠-٥١.

مقصورة على مصر وحدها، وإنما امتدت إلى النوبة التي كاد أن يصبح ذهبها وقفاً على الإله آمون.

واستغل كهان آمون ذلك كله في توطيد سلطانهم ومضاعفة ثرواتهم، حتى بلغوا من ذلك ما لم يبلغه أمثالهم في العالم المعروف وقت ذاك، فنالوا نصيباً من الكنوز التي سلبت من العدو، ومعابد بأوقافها من الأراضي في الأقاليم المستولى عليها، هذا فضلا عن فرق من الأسرى لأعمال السخرة، ومبان ملكية حول المعبد، وطغت شهرة آمون فعمت البلاد، بحيث لم يعد لأرباب الإقليم شيء من قوة، إلا في بلاطه وتحت رايته[١]، حتى انتهى الأمر بكهانة آمون إلى القبض على زمام الحكم في البلاد بقيام دولة الكهنة في أعقاب الأسرة العشرين[٢]، وإن كانت هناك آراء تذهب إلى غير ذلك[٣].

(٢) الطبقة الوسطى:

لم يكن هناك نظام طبقات صريح يظل فيه النبلاء والصناع والفلاحون مرتبطين بطبقة معينة جيلا بعد جيل، فكان المجتمع ينظم على أساس استمرار الأشياء الموروثة، فيستمر ابن الفلاح ليكون فلاحاً، ونتوقع منه أن ينجب أبناء يعملون فلاحين، والأمر كذلك في طبقة النبلاء، ولكن المصريين كانوا عمليين متسامحين، ومن ثم فلم يجبروا شخصاً على أن يظل أبد الدهر في طبقته التي توارثها إذا واتته الفرصة أو الضرورة للتغيير، ففي العصور التي نمت فيها الدولة وتقدمت كانت البلاد في حاجة إلى خدمات الرجال ذوي المقدرة الذين يعتمد عليهم، ففي مثل تلك العصور يمكن أن يوجد الصناع بين الفلاحين ويصبح خدم المنازل عمالا مهرة، ثم يكافأون بالممتلكات والوظائف والميزات، ومن ثم يصبحون ضمن زمرة الأرستقراطيين[٤].

وهناك أمثلة انتقل فيها بعض المواطنين من أشخاص عاديين إلى طبقة

(١) سيرج سونيرون، كهان مصر القديمة، ص ١٩٧.

(٢) انظر: محمد بيومي مهران، مصر والعالم الخارجي في عصر رعمسيس الثالث، الإسكندرية ١٩٦٩م.

(٣) انظر: محمد بيومي مهران، مصر، الجزء الثالث، ص ٣٤٠-٣٤٨.

(4) J.A. Wilson, op.cit., p. 75.

كبار الموظفين في الدولة، فهناك مثلا «وني» الذي يفهم من نصه المشهور الذي تركه لنا على لوحة بقبره في أبيدوس[١] أنه نشأ نشزة متواضعة، ثم استطاع أن يرتفع إلى أحد المراكز المرموقة في البلاد، ذلك أنه بعد أن خدم كموظف صغير في عهد «تتي» مؤسس الأسرة السادسة، ارتفع في عهد «ببي الأول» إلى أن يصبح سميراً، أو رجل بلاط مقرب، وقد صحب هذا التشريف تعيينه في مركز كهنوتي في مدينة هرمه، وسرعان ما كسب ثقة الملك الذي عينه عقب ذلك قاضياً، وقد برز في هذا العمل فظهرت قدرته كمساعد للوزير، ليستمع إلى قضايا مؤامرة أفرخت في الحريم الملكي والستة بيوت الكبرى (قضية الملكة إيمتس)، وحين أنهى هذا الواجب الهمام أصبح القائد العام لخمس حملات جريئة أرسلها الملك إلى اسيا، واحدة منها كانت برية وبحرية معاً، حصر فيها عدوه بين فكي الكماشة، وقد كتب له فيها جميعاً نجحاً بعيد المدى في تأديب العصاة من سكان الرمال، ثم أصبح في عهد «مرى إن رع» حاكم الصعيد، وأنهى حياته مؤدباً لأبناء الملك، ورفيقاً في مخدعه[٢].

وهناك مثل آخر من حياة المهندس المعماري نخبو» الذي يرون أن فرعون وجد فيه بناء جاداً، ثم رقاه إلى وظيفة مفتش بنائين ثم مشرفاً على طائفته، ثم رفعه جلالته إلى مصمم وبناء للملك، ثم مصمم وبناء ملكي تحت إشراف الملك ثم رقاه جلالته إلى وظائف الرفيق الوحيد ومصمم وبناء الملك في البيتين. لأن جلالته كان يعطف عليه كثيراً[٣].

وسواء تمت هذه الترقيات بعطف من الملك، كما يذكر نخبو، أو بجدارة كل منهما، أو حتى بالميراث، وهذا ما لا ينطبق على «وني» على الأقل، فإن ذلك يدل على أن الوظائف إنما كانت متاحة لكل من تتوفر فيه الصفات اللازمة لشغل هذه الوظائف، مما أدى آخر الأمر إلى أن يرتفع بعض أبناء الطبقة الدنيا إلى طبقة أعلى، وفي عهد الدولة الحديثة نرى الكثير من

(1) J.H. Breasted, op.cit., p. 134-135, 140-144, 146-150.

(٢) محمد بيومي مهران، حركات التحرير في مصر القديمة، ص ٤٦-٥٠؛ وكذا:
A.H. Gardiner, op.cit., p. 95-96.

(3) D. Dunham, The Biographical Inscriptions of Nekhebu, JEA, 24, 1938, p. 4-5.

نصوص الأسرة الثامنة عشرة يفاخر أصحابها بعصاميتهم، وبأن الواحد منهم إنما قد بدأ وظيفته «دونما تأثير من أقاربه» أو أنه «من أسرة غير ميسر عليها في الرزق كما أنه لم يكن من أصحاب الجاه في مدينته».

وهكذا ظهرت طبقة وسطى قوامها الطبقة الوسطى من المواطنين، فضلا عن صغار ملاك الأراضي الزراعية وأصحاب الحرف الممتازة وهؤلاء إنما كانوا من الفنانين والصناع، ولعل السبب إنما يرجع إلى حرفتهم نفسها وأهميتها بالنسبة للحضارة المصرية، تلك الحضارة التي كانت في أخص صفاتها حضارة فنية راقية، وفنونها وصناعاتها هي أجل ما امتازت به، حتى لا يعادلها، فيما يرى البعض، شيء من عقائدها وآدابها وعلومها، ولو لم يكن الفنان والصانع موضع تقدير المجتمع وتشجيعه لكان من المستحيل أن يبلغا ذروة الإبداع مع كثرة الإنتاج، كثرة لا يدانيها إنتاج أية أمة أخرى، وليس أدل على قيمة الفن والفنان من أن رئيس كهنة منف كان يعد في عهد الدولة القديمة رئيساً أعلى للفنانين، ويحمل لقب المشرف العام على الفنانين، ويبدو أنه كان فعلا يزاول هذه المهنة[1] والسبب الذي جعل هذا الكاهن العظيم يشرف على رجال الفن أن الإله «بتاح» إله منف إنما كان يعتبر بمثابة الفنان بين الآلهة المصرية، ومن ثم فقد تحتم على كبير كهنة هذا الإله أن يكون أكبر فنان في مصر، كما تحتم على كهنة آلهة الحق والعدالة أن يكونوا المشرفين على أعمال القضاء، وقد استمر إشراف كبير كهنة بتاح على أهل الفن في مصر طوال العصور التي بقي فيها بتاح رب منف[2].

كان المرجو أن تكون حياة الصناع والفنانين ميسرة، جزاءً لما أنتجوا من فن رائع، ولكن ليس هناك من دليل على أنهم كانوا من أهل اليسار، وإن لم يكونوا في معيشة ضنكاً، كبقية الطبقة العاملة، وقد وضعهم «جيمس هنري برستد» الذي قسّم المجتمع إلى أمراء وعبيد، بين هاتين الطبقتين، ودعاهم بالطبقة الوسطى التي احتكرت الصناعات والفنون الجميلة وبرعت

---

(١) محمد أنور شكري، المرجع السابق، ص ١٣٣.
(٢) أدولف إرمان وهرمان رانكه، المرجع السابق، ص ٤٨٥.

فيها كثيراً[1]، وقد كانت هذه الطبقة بمثابة حلقة اتصال بين الحاكمين والمحكومين، فهي أصلا من المحكومين، ولكنها تحتك كثيراً بالحاكمين بسبب طبيعة عملها، فهي تحس بآلام المحكومين وما يلاقونه من شظف العيش وعنت الحياة، وترى بأعينها ما ينعم به الثراة من القوم من متع الحياة وزخرفها، وإننى لأميل كثيراً إلى أنها غالباً، كغيرها من أبناء الطبقة الوسطى، لم تفسد عن انغماس فى الشهوات، وهى فى نفس الوقت لم تذل عن فقر وإملاق، ومن ثم فإن الطبقة الوسطى فى كل الشعوب إنما هى فى الغالب تحمل سمات المجتمع وما فيه من نقائص وعيوب، وكذا بما فيه من حسنات وأفضال.

هذا وقد دأب أهل الطبقة الوسطى على إرسال أولادهم فى سن مبكرة إلى المدارس التابعة لمصالح الحكومة وغيرها من مدارس إعداد الموظفين لتأهيل أنفسهم لمهنة الكاتب، والحياة التى تقتضيها ظروف وظيفته، وكان صغار الموظفين والكتبة الذين يعملون فى الحكومة المركزية أو الإدارات المحلية أو الضياع الكبيرة من أسعد أفراد الطبقة الوسطى حالا، فهم أهل المعرفة والخبرة، وأصحاب العلم والثقافة، وبين أيدينا طائفة من التعاليم التى كان يوجهها الآباء إلى الأبناء، يوضحون لهم فيها أن مهنة الكاتب مهنة راقية تفوق جميع المهن الأخرى، ومنها وصية «خيتى بن دواوف» إلى ولده «بيى» بثها إياه حين صاحبه ليلحقه بالمدرسة، فبيّن له فيها قيمة التعليم، وما يمكن أن يكون له من نتائج خطيرة فى حياة الناس، فهو يغريه بما ينتظره من مستقبل عظيم، وينبئه أن التعليم يؤهله لأن يكون رئيساً لمجلس الأعيان (مجلس الثلاثين، والذى خلف مجلس عشرة الصعيد العظام) ثم يصور له قبح الجهل، ويغريه بالعلم ويحببه إلى نفسه، ويوصيه بأن «يضع قلبه وراء الكتب» وأن «يحبها كما يحب أمه» لأن مهنة الكاتب تفوق كل مهنة فى هذه الدنيا، مقدراً له أنه إذا بلغها فسوف يصبح من سعداء الدارين، شارحاً له أن المتعلم لن تستطيع الدولة أن تسخره فى عمل شاق، وإنما يعفى من ذلك كله لأنه متعلم، ثم أخذ الرجل بعد ذلك يقبح لولده المهن الأخرى كصناعة النحاس والنجارة والتجارة والبستنة والفلاحة والدباغة وضرب الطوب

(1) J.H. Breasted, A History of Egypt, p. 83.

وصيد الطيور وغسل الملابس وغيرها من الصناعات[١].

وفي تراث المصريين كثير من أمثال تلك الوصية، وبخاصة في عهد الدولة الحديثة التي ازدادت فيها الحاجة إلى الموظفين، نظراً لاتساع الدولة في الداخل والخارج وتضخم أعبائها، وحين ألهبت قصص البطولة نفوس الشباب، بين أيدي الجنود العائدين من آسيا، ودفعتهم إلى الانخراط في صفوف الجيش، انزعج أدباء العصر وأصحاب المعرفة والثقافة من إقبال الشباب على الجندية، وانصرافهم عن صناعة الكتابة، وأخذوا يسطرون القصار والطوال من المقطوعات الأدبية، يصورون فيها الحياة الخشنة التي يحياها الجندي، ويحذرون الشباب من الاندفاع في هذا السبيل، ويرغبونهم في الوظائف الكتابية، ومن ذلك ما جاء في بردية «أنسطاسي» حين أخذ الكاتب يقبح كافة المهن ويعدد مساوئها، ثم يختم حديثه بقوله «بيد أن الكاتب هو الذي يرأس أعمال جميع الناس، وهو معفي من الضريبة، لأنه يؤديها عملاً عن طريق معرفته ولن يكون مستحقاً عليه شيء، وعليك أيها الكاتب أن تفطن إلى ذلك وتنزع من فكرك أن الجندي أحسن حالاً من الكاتب».

ويقول آخر لولده وهو يعظه «انظر ليست هناك طبقة غير محكومة أما الكاتب فقط فهو الذي يحكم نفسه»، ويقول آخر لولده كذلك «وطن نفسك على أن تكون كاتباً حتى تستطيع أن تدبر أمور العالم كله»، وأخيراً ينصح شيخ ولده قائلا «كن كاتباً لتعفى من السخرة، وتحمى نفسك من كل عمل شاق، فالكاتب يتخلص من العزق بالفأس، ويكون في غنى عن حمل السلال، إن مهنة الكاتب تخلصك من تحريك المجداف ولا تسبب لك هماً ولا تكدأ، ولا يكون لك فيها رؤساء كثيرون، واعلم أن مهنة الكاتب تكسب صاحبها غنى ومالاً، فالمتعلم يصبح عن طريق عمله، ومهنته عظيماً، بل إن زينة صاحبها من أدوات وقراطيس إنما تخلق البهجة والسرور»[٢].

---

(1) A. Erman, LAE, 1927, p. 67-72; W.K. Simpson, op.cit., p. 329-336.

(٢) أحمد بدوي ومحمد جمال الدين مختار، المرجع السابق، ص ١٥١-١٥٥؛ وكذا:
A. Blakman and E. T. Peet, JEA, XI, 1925, p. 290-291; Van de Walie, La Transmission des Textes Literature Egyptians, Bruxelles, 1948, p. 47.

(٣) الطبقة الدنيا:

وتشمل التجار والعمال والفلاحين وأصحاب الحرف الصغيرة كالنجار والحلاق والبستانى وصانع السهام وطواف البريد والدباغ والإسكافى وغيرهم، أما طبقة التجار، فالمقصود بهم هنا أولئك الذين كانوا يعملون فى التجارة الداخلية، والتى كانت محدودة إلى حد كبير، ولذا فإن النصوص لا تتحدث عن التجار مما يدل على أن التجارة الداخلية فى مصر القديمة إبان تلك الفترة لم تكن ذات أهمية، إذ أنها لا تعدو المعاملات المحدودة والتى تجرى فى الأسواق المحلية، وقد رأينا حكيماً ينصح ولده بألا يكون تاجراً يجوب الوادى متنقلا بين أقاليمه ومدائنه وقراه، معرضاً نفسه لأخطار الطريق وما يلقى فى ذلك من أذى الهوام والحشرات، فى سبيل الحصول على ربح تافه يكاد لا يسمن ولا يغنى من جوع.

وأما طبقة العمال فهم الذى كانوا يعملون فى المناجم والمحاجر وغيرها، وفى بناء الأهرامات والمقابر والمعابد، وكانت الدولة هى التى تحتكر استغلال المناجم والمحاجر، وهى التى تشرف على العمال بطريقة تضمن العناية بهم والسهر على مصلحتهم، فكانت تجند طوائف من العمال المختصين تحت إشراف رؤساء للعمال ومفتشين، وتعمل على نقلهم تحت حماية جندها إلى مقر أعمالهم فى الصحراوات المصرية، وقد كان العمال يقسمون إلى فرق ثم إلى زمر، وكانت كل فرقة تحمل اسماً معيناً، وكان هناك كاتب يسجل أسماء كل فرقة، كما يسجل عملها وتاريخ إنجازه، هذا إلى جانب مفتشين يمرون يومياً أو أسبوعياً، وقد عثر فى منطقة الأهرام على مساكن العمال الذين بنوا هذه الشوامخ، وهى قاعات ضيقة طويلة يبلغ عددها قرابة المائة، يتسع كل منها لنحو خمسين عاملا[1]، وقد أسهمت طبقة العمال بنصيب وافر فى بناء هذه الشوامخ من الأهرامات الخالدة والمعابد والمقابر البديعة، مما يثبت تلك الانتصارات المادية التى لم يسبق لها مثيل، ذلك لأنه لم يوجد شعب آخر فى بقاع العالم القديم نال من السيطرة على عالم المادة بحالة واضحة للعيان تنطق بها آثاره، مثل ما ناله المصريون القدامى فى وادى النيل،

(١) انظر عن منازل العمال فى اللاهون والعمارنة : محمد بيومى مهران، مصر ٢/٣٦٠-٣٦١؛ إخناتون، ص ٢١٦-٢٢١.

فقد بنى القوم بنشاطهم الجم صرحاً من المدنية المادية ظهر أن الزمن يعجز عن محوه تماماً[١].

غير أنه رغم هذا الجهد العظيم، فإن طبقة العمال لم تعش حياة تتفق والمجد الذى حققته للمدنية المصرية، ربما كان النظام الدقيق الذى اتبع مع العمال قد أعطاهم بعض حقهم، وضمن لهم مأكلا ولبساً، وربما كان أحسن حالا من الفلاحين، حتى أن حكيم الثورة الاجتماعية «إيبو - ور» عندما أراد أن يبين أن الصناعة قد تعطلت، وأن الفنون قد أفسدها أعداء البلاد، إنما يقول «حقاً قد أصبح بناة الأهرام فلاحين»[٢]، وربما كان هذا دليلا على أن المشتغلين في بناء الأهرام من العمال أفضل حالاً من المشتغلين بالفلاحة، كما أنهم كانوا يأخذون أجراً فى مقابل عملهم، فهناك نصوص كثيرة نقشت على مقابر القوم تدل عباراتها على أن العامل إنما كان يعمل دائماً بأجر، ولا يجبره أحد على عمل يكرهه، من ذلك ما نقرأه على قاعدة تمثال جنزى «لقد طلبت إلى المثال أن ينحت لى هذه التماثيل، وكان راضياً عن الأجر الذى دفعته له».

ويقول مدير ضيعة يدعى «منى» من الأسرة الرابعة «أن كل رجل عمل فى تشييد قبرى هذا، سواء أكان صانعاً أو حجاراً فلقد أرضيته عن عمله»، مما يشير إلى أن كلا من هذين الرجلين إنما أراد أن يعلن أنه قد حصل على معداته الجنزية من طريق شريف، وأن كل من عمل فى إعدادها قد أخذ أجره، كاملا غير منقوص، ومنها ما نقرأه «جميع من عملوا فى هذه المقبرة قد نالوا أجرهم كاملا، من خبز وجعة وثياب وزيت وقمح، وبكميات وافرة، كما أنى لم أكره أحداً على العمل»، هذا فضلا عن أن الملك «منكاو رع» كان قد أمر بناء مقبرة لأحد رجال بلاطه، وقد عمل فيها خمسون عاملا، وقد جاء فى النص الذى يروى هذا الحادث أن فرعون «أمر ألا يسخر أحد فى هذا العمل، فضلا عن عدم إكراه العمال فى أى عمل»[٣].

(1) J.H. Breasted, op,cit., p. 115-116.

(٢) محمد بيومى مهران، المرجع السابق، ص ٨١-٨٢؛ وكذا:
A.H. Gardiner, The Admonitions of An Egyptian Sage p. 32; G.A. Reisner, Mycerinus, 1931, p. [illegible]

(3) [illegible]

وهناك ما يشير إلى أن أحوال طبقة العمال إنما قد تحسنت كثيراً في الدولة الحديثة، فقد كان عمال الجبانة الملكية في طيبة الغربية يتكونون من مجموعات خاصة من الرجال الذين عاشوا، وكذا أسلافهم من قبل، لعدة أجيال مضت في نفس القرية بجبانة طيبة يعملون في نحت وزخرفة مقابر الفراعين، الذين كانوا يعتبرون عملهم هذا في منتهى الأهمية، فقد كان من أهم الأهداف التي كان القوم يعيشون من أجلها، إعداد حياة الفرعون الخاصة بعد الموت، بصفته «الإله الطيب» بين الآلهة العظام، ومن هنا فقد كان هؤلاء الرجال الذين يؤدون هذه المهمة العظيمة أبعد ما يكونوا أقل رعايا الفرعون حظاً، بل إن من المشرفين على بناء المقابر الملكية من وصل إلى مركز هام في الدولة(1).

وعلى أي حال، فلقد كان هؤلاء العمال يقسمون إلى فرق، كل فرقة تنقسم إلى قسمين، على رأس كل منهم مقدم عمال، كان يلقب «كبير الفرقة أو الجانب»، وكان لكل مقدم وكيل يعاونه في مهمته، كما كان هناك كاتب يحتفظ بسجل يسجل فيه ما أنجز من العمل، فضلاً عن أسماء العمال الذين تخلفوا وأسباب تخلفهم، وكان الكثير منهم مثال الجد والاجتهاد، يكاد الواحد منهم لا يتخلف يوماً طوال أيام السنة، على حين جانب البعض التوفيق، فانقطعوا أكثر من نصف شهر، وكانت أعذار التخلف كثيرة، كالمرض ولدغة العقرب، وإن كنا نجد في القليل النادر الكسل قد ذكر أمام بعض الأسماء، وهناك عدد من العمال كانوا أتقياء ورعين؛ ومن ثم فقد تغيبوا بسبب تقديم القرابين للآلهة، كما كان انحراف مزاج الزوجة أو الابنة سبباً كافياً، وإن يكن غريباً، يسوغ أحياناً التخلف عن العمل.

هذا وقد كان من المتبع أن يستمر العمل طوال أيام السنة، ويمنح العمال في كل شهر ثلاثة أيام كعطلة، كانت تقع في اليوم العاشر والعشرين والثلاثين من كل شهر، كما كان العمال يمنحون إجازات في المناسبات الخاصة بالأعياد الكبرى للآلهة الرئيسية، كانت كثيراً ما تصل إلى أيام متتالية، وكان العمال يأخذون أجرهم على عملهم حبوباً، من قمح أو شعير،

(1) W.F. Edgerton, The Strikes in Ramesses III's Tweinty -Ninth Year, JNES, 10, 1951, p. 137.

فضلا عما كانوا يتقاضونه من تعينات منتظمة، فقد كانوا يمنحون من وقت لآخر، وفي مناسبات خاصة مكافآت من فرعون، وتشمل النبيذ والملح والنترون (وكان يستخدم بدلا من الصابون)، وجعة اسيوية مستوردة ولحوم، فضلا عن بعض الكماليات الأخرى المتشابهة[1].

وهكذا يمكن القول أن هؤلاء العمال لم يكونوا مسخرين في العمل في المقابر الملكية، وإنما كانوا يعملون لقاء أجر، ويمنحون المكافآت في المناسبات الرسمية، كما كان البعض منهم يتخلف لأسباب مختلفة، بل إننا نرى الفراعين يتسرون بمعاملتهم برفق وسخاء، فها هو «ستي الأول» من الأسرة التاسعة عشرة يحدثنا عن بعض عماله، من أن كلا منهم إنما كان يتقاضى أربعة أرطال خبز، وحزمتين من الخضروات، وقطعة من اللحم المشوى كل يوم، وثوباً من الكتان النظيف مرتين كل شهر[2]، وفي الواقع إن كان ما يقوله «سيتي الأول» صحيحاً، لكان عماله يعيشون في مستوى قد لا يقل كثيراً عن مستوى العمال في العصر الحديث.

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن الوثائق لم تحدثنا عن شكايات من التعيينات أو تأخر الرواتب قبل أخريات عهد رعمسيس الثالث، وربما كان ذلك بسبب الأزمة الاقتصادية التي كانت تعانيها البلاد، وربما بسبب عدم أمانة الموظفين، وربما بسبب تلك المنازعات السياسية التي بدأت تظهر في أخريات أيام رعمسيس الثالث[3]، وإن ذهب البعض إلى أن السبب إنما كان وباءً عاماً اجتاح البلاد، مما جعل الحكومة تفشل في أن تمد عمال دير المدينة بطيبة الغربية بمخصصاتهم[4]، الأمر الذي جعلهم يقومون بأول إضراب وصلتنا أخباره في التاريخ، ذلك «أنه في اليوم العاشر من الفصل الثاني من الشهر الثاني من العام التاسع والعشرين من عهد رعمسيس الثالث اخترق فريق من العمال في الجبانة الأسوار الخمسة صائحين نحن جياع»، وتجمهروا خلف معبد تحوتمس الثالث الجنازي، ولم يعودوا إلى منازلهم إلا

---

(1) J. Cerny, Egypt From The Death of Ramesses, III, to The End of The Tweinty-First Dynasty Cambridge, 1965, p. 18-21.

(2) J.H. Breasted, op.cit., p. 414.

(٣) محمد بيومي مهران، مصر والعالم الخارجي في عصر رعمسيس الثالث، ص ٢٨١-٢٨٤.

(4) E.F. Wente, A Letter of Complaint to The Vizier (To), in JNES, 20, 1961, p. 252.

عندما حلّ الليل، رغم الوعود بأن أمراً من الفرعون قد صدر بإجابة مطالبهم، وفي اليوم التالى تقدموا حتى بوابة الحدود الشمالية لمعبد الرمسيوم، ولكنهم في اليوم الثالث وصلوا إلى المعبد نفسه وقضوا الليل فى فوضى عند بوابته ثم دخلوا المعبد نفسه.

وعندئذ تطور الموقف فأخذ مظهراً خطيراً مهدداً، فقد كان العمال المضربون مصممين على موقفهم، لكنهم لم يخرجوا على النظام، وكان هجومهم على المكان المقدس ذا أثر فعال، واضطرت السلطات المسئولة إلى تهدئتهم، فأرسلت إليهم ضابطين من الشرطة، كما عمل كهنة الرمسيوم على تهدئة الأمور، وأجابهم المضربون «لقد أتينا إلى هنا بسبب الجوع والعطش، حيث لا يوجد لدينا ملابس أو دهان أو سمك أو خضروات، ألا فلترسلوا إلى فرعون سيدنا الطبيب بذلك، واكتبوا إلى الوزير الذى يشرف علينا، افعلوا ذلك لنعيش»، ثم صرفت لهم مخصصات الشهر السابق فى ذلك اليوم[1].

وهكذا نجح العمال فى تحقيق أهدافهم، وعلمتهم التجربة ألا تثنيهم الترضية الجزئية عن وصولهم إلى حقهم كاملا، وطالبوا بأن تدفع لهم مخصصاتهم عن الشهر الحالى، الأمر الذى تم فى اليوم الثامن من الإضراب، وتهدأ الأحوال إلى حين، حتى إذا ما أتى الشهر التالى، ورأى العمال أن أجورهم لم تصرف لهم، أضربوا عن العمل «واخترقوا الجدران وجلسوا فى الجبانة، وحاول الموظفون إعادتهم، ولكن الصانع «موسى بن عا عنخت» أقسم بآمون وبالفرعون ألا يعود، فاضطر الموظفون إلى ضربه، ذلك أنه تجرأ فحلف باسم الفرعون هنا، وأدى ذلك إلى ثورة العمال، ودفع بهم غضبهم إلى تهديدهم لرؤسائهم واتهامهم بغش الملك[2]، وتهدأ الأحوال قرابة الشهرين، وعاد العمال إلى الثورة من جديد، واخترقوا الأسوار، وبينما كانوا متجمهرين خلف معبد «با إن رع مرى آمون» (معبد مرنبتاح الجنزى) مرّ عمدة طيبة الغربية فشكوا إليه حالهم، فأمر بأن تصرف لهم خمسين غرارة من الحبوب، حتى يصرف لهم فرعون مخصصاتهم، غير أن كبير

(1) W.F. Edgerton, op.cit., p. 140.
(2) Ibid , p. 142.

كهنة آمون سرعان ما اتهم العمدة بأنه أخذ قرابين معبد رعمسيس الثانى ليطعم المضربين، ثم وصف عمله هذا بأنه «جريمة كبرى»[١].

وأما طبقة الفلاحين التى أريد لها أن توضع فى القاع من هرم المجتمع المصرى القديم، هذه الطبقة كان المرجو لها فى بلد يعتمد، أول ما يعتمد، فى موارده الاقتصادية على الزراعة، أن تحتل مكانة لا يتطاول إليها صاحب حرفة أخرى، غير أن الفلاح هو الذى لم يتطاول إلى مكانة غيره من أصحاب الحرف الأخرى، كان حظه فى الحياة أقل من حظ غيره، وكانت الفرص المتاحة له أقل بكثير من الفرص المتاحة للصانع أو حتى خادم المنزل أو العبد الخاص بالنبيل، ومع ذلك فقد كان هو العنصر الأساسى فى اقتصاد البلاد.

وكانت نظرة المجتمع إليه على أنه إنسان بائس لا يستحق سوى الرثاء، فهناك خطاب سجله أحد الكتاب إلى تلميذ له متحدثاً فيه عن نصيب الفلاح من الحياة، جاء فيه «لقد سرق الدود نصف الحبوب، ثم أكل فرس النهر النصف الآخر، هناك عدد لا يحصى من الفيران تسعى فوق الحقول، كما هبطت جحافل الجراد، أما الماشية فهى تأكل، والعصافير تسرق، ولكن واحسرتاه على الفلاح فما بقى له من حبوب على أرض الجرن قد سرقها اللصوص، كما نفقت ثيرانه من الدرس والحرث، ثم وصل الكاتب بسفينته إلى الشاطئ وهدفه أن يتسلم المحصول، وقد حمل موظفوه عصيهم، فى حين أمسك الزنوج بمقارعهم، وكلهم يقولون له: اعطنا الحبوب، فإذا لم تكن هناك حبوب ضربوه وقيدوه وقذفوا به فى القناة فيغرق، أما امرأته فهى تقيد أيضاً أمامه، أما أولاده فيربطون ويتركهم جيرانهم ويولون الأدبار، ويسرعون لكى يحافظوا على حبوبهم»[٢].

وهكذا كان الفلاحون، كما هم الآن، يؤلفون الغالبية العظمى من الشعب، وقد كانوا فريقين، الواحد، يمتلك أرضه وحقله، والآخر أجير عند فرعون، بادئ ذى بدء، ثم عند النبيل أو حاكم الإقليم، حين شارك هؤلاء سيدهم فى الغنيمة، أما الفريق الأول فهم يملكون أرضهم، ولم يكونوا

(1) J.A. Wilson, op.cit., p. 277.

(٢) أدولف إرمان وهرمان رانكه، المرجع السابق، ص ٥١٣-٥١٤.

خاضعين إلا لأداء الضريبة المقررة عليها من قبل الدولة، أما الفريق الثانى، وهو الأكثر عدداً فقد كانوا مرتبطين بالأرض لا ينفكون عنها، بحيث إذا انتقلت ملكيتها انتقلت معها تبعيتهم من المالك القديم إلى المالك الجديد، ولكنه انتقال للذمة، وليس للملكية، ذلك لأن القوم إنما كانوا جميعاً أحراراً، وأن الرق فى جميع العصور الفرعونية لم يمتد إلى أية طائفة من سكان الكنانة، وإنما كان ذلك من نصيب الأسرى دون سواهم(١).

وطبقاً لمرسوم من عهد الملك «ببى الأول»، فإن العامل الزراعى إنما كان يعمل بأجر، وفى مرسوم آخر، وهو المرسوم الثالث من مراسيم معبد الإله «مين» نرى أن الفلاح إنما كان يعمل ساعات معينة من النهار(٢)، فالمزارع إذن إنما يعمل بأجر، وفى ساعات معينة من النهار، فهو ليس مملوكاً لصاحب الأرض، وإنما هو يعمل بعقد معه، ولا يتصور هذه العلاقة التعاقدية إلا إذا كان الفلاح حراً، وهناك ما يثبت أن الفلاح كان يدفع لصاحب الأرض جزءاً من المحصول، فهو إذن كان يستأجر الأرض من المالك، وكان بينهما عقد مزارعة، الأمر الذى لا يمكن أن يتم إلا إذا كان الفلاح حراً(٣).

وبدهى أن هذا كله إنما يشير إلى أن العامل الزراعى لم يكن أبداً مملوكاً لصاحب الأرض التى كان يعمل بها، وإن كان هذا لا يمنع من القول بأن الفلاحين إنما كانوا يعملون، إلى جانب الزراعة، فى حفر الترع والقنوات وإقامة السدود، وليس هناك على أى حال، مجال للقول، بأن هؤلاء الأتباع كانوا يستغلون استغلالاً سيئاً خالياً من الرحمة، كما أنه لا أساس لما

(١) هناك ما يشير إلى أن أسرى الحرب كانوا يعملون فى مزارع الدولة بلا أجر، وتسميهم النصوص «المزارعين الملكيين» وفى مرسوم فقط من عهد ببى الأول ما يشير إلى أن الملك لا يعتبر الفلاحين والصناع المصريين من الزراع الملكيين، كما أن هناك ما يشير إلى أن الدولة كانت تتنازل عن حقها فى هؤلاء الزراع الملكيين إلى الأفراد إذا باعت لهم بعض أملاكها التى يعمل بها هولاء الأسرى، فقد جاء فى ترجمة «متن» من عهد سنفرو، أنه «اشترى مائتى أرور مع عدد كبير من الزراع الملكيين» والذين كانوا من أسرى الحروب. انظر:

J. Pirenne, op.cit., II, p. 257, 210, 318; A. Morel, Journal Asiatique, 1916, p. 296-322.

(2) R. Weill, Les Decrets Royaux de L'Ancien Empire Egyptien, p. 118; A. Moret, op.cit., p. 329-331.

(٣) شفيق شحاته، المرجع السابق، ص ١٦.

يذهب إليه البعض من أن ذلك العهد إنما كان يتسم بالظلم والاستبداد لمصلحة الملك أو الأمراء، فليس هناك دليل يمكن الاطمئنان إليه لتقرير ذلك، هذا ويروى هيرودوت أن النيل كان إذا ما أكل جزءاً من أرض أحد الفلاحين (نحر النهر) فإنه يتقدم إلى فرعون بأمره هذا، حتى يرسل لجنة تقرر مقدار ذلك الجزء الضائع حتى يدفع الضرائب على ما تبقى عنده من الأراضي[١]، وهذا يشير إلى أن إيراد الأراضي الزراعية إنما كان من نصيب صاحبها، بعد أن يدفع الضرائب عنها، على أنه في الوقت نفسه إنما كان يخضع لرقابة الدولة فيما يقوم به من عمل، وأنه لا يترك وشأنه فيما يتولاه من شئون الزراعة، وقد تعوضه الدولة عن الخسارة، إذا ما جاءت نتيجة لكوارث طبيعية، وقد تزيد الدولة من نصيبه (ربما عن طريق تقليل الضرائب) عند ازدياد حاجاته المعيشية، ولعل ذلك كله إنما يشير إلى أن الدولة إنما كانت تنظر إلى الزارع على أنه يقوم بوظيفة اجتماعية، ومن ثم فهي توجهه الوجهة التي تحقق المصلحة العامة[٢].

وأما بقية أفراد الطبقة الدنيا الذين ورد ذكرهم في كتب المؤرخين الإغريق، فهم رعاة الأغنام ورعاة الخنازير والصيادون والملاحون فلم يكن أحد منهم يمتلك أرضاً زراعية، وكانت أعمال الطوائف الثلاث الأولى مقصورة على التنقل في الأراضي القاحلة الخالية من السكان طلباً للكلأ وبحثاً عن صيد[٣].

وهكذا كان أفراد الطبقة الدنيا يمثلون الكثرة الساحقة من سكان هذا الوطن، يعيش معظمهم في القرى المتناثرة على طول الوادي وبين ذراعي النهر في شمال الوادي، يمارسون حرفهم التقليدية من زراعة وصناعة ورعي وصيد وملاحة، وكانوا من أرق الطبقات حالا، يسكنون مساكن بسيطة لا تعدو الحجرة أو الحجرتين، وليس بها من الأثاث والرياش ما يجاوز الحصير وبعض المقاعد الخشبية والصناديق وآنية الفخار، كما كان طعامهم لا يعدو الخبز والخضر، فأما لباسهم فكان نقبة من نسيج الكتان يستتر بها الرجل فيغطي بها وسطه إلى أعلى الركبتين، كما كان لباس المرأة بسيطاً أيضاً،

(١) هيرودوت يتحدث عن مصر، ص ٢٢٥-٢٢٦.

(٢) شفيق شحاته، المرجع السابق، ص ١٣١.

(3) W.M.F. Petrie, Social Life in Ancient Egypt, N.Y., 1970, p. 14.

فهو عبارة عن ثوب ضيق وبخاصة أسفله، غير مكمم، مصنوع من الكتان الأبيض، يصل من الكتف إلى العقبين، ويثبت فوق الكتف بشريطين من النسيج نفسه.

ولم يكن للفلاحين من الحرية ما لغيرهم من الطبقات الأخرى، وإنما كانوا يعملون فى مواسم الزرع، حتى إذا ما جاء الفيضان وملأت المياه الأحواض وتوقفت أعمال الزراعة، حشدت الحكومة جيوشاً من هؤلاء الفلاحين للعمل فى المحاجر والمناجم وأعمال البناء وجميع المشروعات الحيوية العمرانية العامة، أو أعمال الرى، وبرغم ما يسود هذا النظام من عيوب، فقد كان من مزاياه أنه جعل الشعب عاملا قوياً دؤوباً، لا يعرف الملل ولا يركن إلى الراحة التى تدفع للناس عللا اجتماعية وبدنية، كما أكسبه مهارة فنية كبيرة ونافعة.

تلك كانت طبقات المجتمع المصرى القديم، وهى على الرغم مما نرى فيها من تباين وتفاوت، لا تكاد تحملنا على أن نجعل ذلك المجتمع طبقياً، كما تعنى هذه الكلمة تماماً، ففى مثل ذلك النظام يحدد المولد الطبقة الاجتماعية التى ينتسب إليها الفرد، أما فى مصر فبالرغم من أن الابن كان يزاول مهنة أبيه فى أغلب الأحايين، فقد كان من الممكن لأى شاب يمتلك مواهب مناسبة أن يحتل مكاناً أرفع مما وصل إليه أبوه، وقد يصعد إلى أعلى الوظائف، أو بمعنى آخر لم تكن هناك حدود فاصلة تماماً بين الطبقات، إذ كان من الممكن الانتقال من طبقة إلى أخرى، اعتماداً على المواهب والمؤهلات، كما أشرنا من قبل.

هذا فضلا عن أن الحياة في مصر الفرعونية إنما قد جمعت سائر أفراد الشعب، على اختلاف طبقاتهم الاجتماعية ومستوياتهم الحيوية، فى وحدة متماسكة قوية، لأن طبيعة الحياة الزراعية وظروف العيش قد أدت إلى ذلك ودعت إليه فى إلحاح ملح وفى عنف شديد، ولم يلجأ المصريون إلى ثورات ذات طابع اقتصادى أو اجتماعى إلا فى العصر الوسيط الأول (عصر الثورة الاجتماعية الأولى)، وإلا بعض إضرابات للعمال فى الأسرة العشرين نتيجة المسغبة، ولكن ذلك لم يستمر طويلا (الثورات أو الإضرابات)، ومن ثم فقد

تميز المجتمع المصرى بذيوع ذلك الروح الصفو العذب، الذى شمل الناس جميعاً، كما جرت أيام الحياة لدى المصريين سهلة بسيطة يسودها جو من المرح الصافى، وعلى نغمة حلوة مرضية، ويسود أهلها الرخاء المادى الذى تجرى لهم به الحياة بين يدى النيل العظيم[1].

(١) أحمد بدوى ومحمد جمال الدين مختار، المرجع السابق، ص ٥٢-٥٤.

(٣) قصة السخرة في بناء الأهرامات

لعل من الأهمية بمكان ـ بعد أن تحدثنا عن أسباب الثورة المختلفة ـ أن نتحدث قليلا عما يسمى بـ «قصة السخرة في بناء الأهرامات»:

كان مؤرخو الإغريق والرومان أول من نظر إلى «بناء الأهرام» على أنه كان «سخرة».

ولعل «هيرودوت» كان أول من نادى بهذه الفرية، حين اتهم «خوفو» بأنه قد انغمس في كل صنوف الشر، فأغلق المعابد، وحرم على المصريين تقديم القرابين للآلهة، وأجبرهم على العمل فى خدمته لبناء هرمه المشهور (هرم الجيزة الأكبر)، الذى اشتغل فيه مائة ألف رجل، يستبدل بهم غيرهم كل ثلاثة شهور، ثم سخّر الشعب عشر سنوات فى عمل طريق مرتفع لنقل الأحجار، بجانب عشرين سنة فى بناء الهرم نفسه.

ثم يقول «وقد ذكر على الهرم بالحروف المصرية مقدار ما أنفق ثمناً لما استهلكه العمال من الفجل والبصل والثوم وإذا وعت ذاكرتى بالضبط ما قاله لى الترجمان، عندما قرأ على النقش، فإن النفقات قد بلغت ١٦٠٠ تالنت من الفضة».

ومات خوفو بعد أن حكم خمسين عاماً، فخلفه على عرش مصر ولده «خفرع» (خع إف رع) الذى حكم ستاً وخمسين سنة، وقد تعرض المصريون لمنتهى البؤس خلال هذه السنوات الست والمائة، إذ لم تفتح أثناءها المعابد التى كانت قد أغلقت، ولا يرغب المصريون مطلقاً فى تسمية هذين الملكين (يعنى خوفو وخفرع) لكرههم، بل إنهم ليسمون الهرمين باسم الراعى «فيليتيوس» الذى كان يرعى غنمه يومئذ بالقرب من تلك المنطقة»[١].

---

(١) انظر: هيرودوت يتحدث عن مصر، ترجمة محمد صقر خفاجة، وقدم له وشرحه أحمد بدوى، القاهرة ١٩٦٦م، ص ٢٤٨-٢٥٩؛ محمد أنور شكرى، العمارة فى مصر القديمة، القاهرة ١٩٧٠، ص ٣٢١-٣٢٢؛ أحمد فخرى، مصر الفرعونية، القاهرة ١٩٧١، ص ١١٣-١١٤؛ نجيب ميخائيل، مصر والشرق الأدنى القديم، ١٦٨/١-١٦٩؛ محمد بيومى مهران، الثورة الاجتماعية الأولى فى مصر الفراعنة، الإسكندرية ١٩٦٦، ص ٨٤-٨٦؛ وهيب كامل، هيرودوت فى مصر، فقرات ١٢٤، ١٢٨، ١٢٩؛ ديودور الصقلى فى مصر، فقرة ٦٤؛ وكذا:
G. Rawlinson, The History of Herodotus, London, 1929, II, p. 177-179.

ومن عجب أن يتابع مؤرخنا الوطني الكبير «مانيتون» السمنودي، كتاب الأغارقة والرومان في سخفهم هذا، وأن يتهم خوفوا بالعجرفة، حتى مع الآلهة.

ثم استمرت هذه القصص عن بناء الأهرام منتشرة بين الناس، حتى أننا الآن نجد الكثيرين يرددون هذه الروايات، دونما وعي أو تحقيق، ثم يتخذونها مثلا على تجبر الفراعنة وقسوتهم، مقلدين في ذلك المؤرخين المسلمين، ومعتمدين في الوقت نفسه على أن القرآن الكريم قد وصف الفرعون الذى عاصر موسى عليه السلام، بالطغيان والجبروت، وتجاوز عن ذكر اسمه[1].

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة - بادئ ذى بدء - وقبل أن نناقش قصة السخرة هذه، أن نشير إلى عدة أمور، منها: (أولا) أن مصر إحدى البلاد التى لم تعرف السخرة والاستعباد قبل عصر الإمبراطورية الوسطى، حين كان الأسرى يدفعون إلى العمل، فيستعبدون عن هذا الطريق[2]، ومن هنا فإننا نرى أن النصوص تتحدث عن المساواة بين المصريين[3].

صحيح أن المجتمع المصرى عرف نظام الطبقات الاجتماعية، ولكنه صحيح كذلك، أنه لم يعرف النظام الذى يقسم المصريين إلى أحرار وعبيد، الأمر الذى ساد في المجتمع العراقي القديم، حتى رأينا قانون حمورابى (١٧٢٨-١٦٨٦ق.م) المشهور ينصّ على أن كل العقوبات والأحكام القضائية تدرج حسب مراكز المذنبين الاجتماعية، أو مكانة المتخاصمين الاجتماعية[4]، حتى ذهب البعض إلى أن يعتبر أن ما أضافته المدنية البابلية إلى إرثنا الخلقي في غربى أسيا قليلا جداً[5].

---

(١) محمد بيومى مهران، المرجع السابق، وكذا:

W.G. Waddle, Manetho, London, 1940, p. 46-48.

(٢) نجيب ميخائيل، المرجع السابق، ص ١٦٩.

(٣) انظر «نص المساواة»: محمد بيومى مهران، المرجع السابق، ص ٢٦٧-٢٦٩؛ وكذا:

J. Wilson, ANET, 1966, p. 7-8.

(٤) انظر : المواد (١٩٦-٢٠٥) من قانون حمورابى؛ وكذا:

T.J. Meek, in ANET, 1966, p. 176.

(5) J.H. Breasted, The Dawn of Conscience, New York, 1939, p. 221-222.

وهكذا كان عمل الأسرى لا يخالف منطق الظروف، فقد كانوا أسرى، وكان عليهم أن يعملوا ليعيشوا، وإذا صحّ أن يسمى العمل فى مرافق الدولة يومئذ «سخرة»، وإذا صحّ أيضاً أن الأسرى لم يكونوا وحدهم هم الذين يسخرون، بل حتى إذا صحّ أن المواطنين كانوا يشاركونهم هذا العمل، فتلك أمور لم تجر فى عهد آل فرعون وحسب، بل جرت فى سائر العهود قديمها وحديثها، وليس علينا إلا أن نتذكر كيف شقت «قناة السويس»، وكيف شقت ترع المحمودية والإسماعيلية والإبراهيمية، وكيف بنيت القناطر الخيرية، وعلينا أن نتذكر كيف كان يستخدم عساكر الجيش أيام الملكية، وعلينا أيضاً أن نتذكر أن ذلك لم يجر فى مصر وحدها، بل جرى فى بلاد غير مصر، ويكفى أن نذكر نظام «الخدمة الإجبارية العامة» أيام النازيين فى ألمانيا قبل الحرب العالمية الثانية[١]، بل وحتى فى أيامنا هذه، ألا يقضى شبابنا فترة ما يسمى بـ «الخدمة العامة» فى مقابل دراهم معدودة لا تشبع من جوع ولا تكسى من عرى.

ومنها (ثانياً) أن الهرم الأكبر بكل المقاييس الهندسية، ليس هو أعظم ما شيده المصريون من نوعه فحسب، بل هو إنما يمتاز أيضاً، بذلك الإتقان المعجز فى هندسته، والدقة فى تخطيطه وجمال نسبه، ومن ثم فقد كان، ومايزال، أهم عجائب الدنيا السبع[٢]. وانطلاقاً من هذا، فالشىء الذى لاشك فيه هو أن بناء الهرم من المعجزات الإنسانية، ولست أشك، كما يقول الدكتور أحمد بدوى[٣]، فى أن رجال العمارة فى العصر الحديث، بكافة ما أوتوا من أدوات ووسائل، سوف يشفقون على أنفسهم، أشد الإشفاق، وقد يترددون،وربما يحجمون، إن نحن طلبن إليهم أن يبنوا لنا هرماً مثل هرم خوفو، بالرغم من إفادتهم من تجارب عصور قاربت آلافاً خمسة من عمر الزمان، ويقال إن اليابانيين فعلوها، فلم يفلحوا.

ومن ثم فلعل هذا دليل على عدم السخرة، ذلك لأن الفنانين والصناع، لو لم يكونوا موضع تقدير المجتمع وتشجيعه، لكان من المستحيل

---

(١) أحمد بدوى، هيرودوت يتحدث عن مصر، ص ٢٢٤.
(٢) أحمد فخرى، الأهرامات المصرية، القاهرة ١٩٦٣م، ص ١٤٥.
(٣) أحمد بدوى، المرجع السابق، ص ٢٥٢.

أن يبلغوا هذه الذروة في الإبداع الفني والهندسي، ومن البدهي أن الشعوب المقهورة لا يمكن أن تنتج فنًا على هذا المستوى المعجز، وخاصة بهذا القدر من الضخامة، فضلاً عن الجلال والكمال الفني.

ومنها (ثالثًا) أن بناء الهرم الأكبر، وما يتصل به من معابد وأهرام ومقابر في عهد خوفو، وهي - وما أنشأه من معابد في أنحاء البلاد - علم ناهض على قوة شخصيته، وما أوتي من قوة وسلطان، وبرهان قائم على ما بلغته مصر في مدة حكمه من تقدم، وما استقام لها من حضارة وثراء، وما حظيت به من حكم موطد حازم، وما كان لهما من موظفين أكفاء، ومهندسين ممتازين، وعمال مهرة مدربين، تفانوا جميعًا في خدمة مليكهم، عن إيمان راسخ وعقيدة قوية في ألوهيته وتقديسه[1].

والحقائق وحدها كافية لتجعل هرم خوفو هذا ينال إعجاب الناس على مرّ العصور، ذلك لأن الهرم الأكبر إنما هو أعظم مقبرة في العالم أجمع، بنيت لتكون قبرًا لفرد واحد، كما أنه أشهر بناء أثري في الدنيا كلها، ولم يحدث قبل «خوفو» أو بعده أن يبني ملك مثل هذا المستقر الأبدي الضخم، ويكفي أن نعرف أن طول كل جانب من قاعدته ٢٣٠ مترًا، وأنه كان يسمو في الفضاء مائة وستة وأربعين مترًا ونصف المتر، وأن زاوية ميل جوانبه ٥٢، وأن مجموع عدد احجاره يقدر، فيما يقال، بنحو مليونين وثلاثمائة ألف حجر. ومتوسط وزن الحجر الواحد طنان ونصف، وإذا علمنا أن أحجار هرم خوفو لم تكن تزن في المحاجر، أقل من سبعة ملايين من الأطنان، يحتاج نقلها في الوقت الحاضر إلى سبعة آلاف قطار حمولة كل قطار ألف طن، أدركنا ضخامة الأعمال التي اقتضاها هرم خوفو وحده، ومدى ما احتاجت إليه من تنظيم دقيق للعمل والعمال[2].

ومن ثم فطالما وقف الناس منذ آلاف السنين أمام هذا الهرم تملؤهم الرهبة والإعجاب، وستقف أجيال من الناس لم يولدوا بعد، وستملؤهم أيضًا الرهبة والإعجاب، وسيبقى اسم خوفو مذكورًا في سجل الأيام ما بقي هرمه شامخًا بعظمته على حافة الصحراء[3].

---

(١) محمد أنور شكري، المرجع السابق، ص ٣٢١.
(٢) أحمد فخري، المرجع السابق، ص ١٨٠-١٨١؛ محمد أنور شكري، المرجع السابق، ص ٣٠٧.
(٣) أحمد فخري، المرجع السابق، ص ١٨١.

ومنها (رابعاً) أن الهرم الأكبر كان مثار أوهام وادعاءات فى عصور الضعف من تاريخ مصر، وهو ما يزال مبعث أضاليل وأوهام من نوع آخر عند كثير من الناس فى العصر الحديث، تأبى أخيلتهم إلا أن ترى أنه بنى ليخلد بمقاييسه وزواياه وأركانه وأجزائه، أسراراً فى الفلك والرياضة والدين، ويسجل أهم الأحداث للماضى والحاضر والمستقبل.

وهكذا كان الهرم الأكبر، وما يزال، مصدر إلهام للكثيرين من المفكرين، كما تسبب أيضاً فى وجود كثير من النظريات الباطنية، ونظريات الأسرار الخفية، والنظريات الخاصة بمعرفة الغيب والتنبؤ بما سيحدث فى المستقبل، كما كان عبدة النجوم فى العصور الوسطى يعقدون اجتماعاتهم داخله، وكانوا يعتبرونه مصدر حكمة لهم، وفى أواخر القرن الماضى كتب «بيازى سميث» كتاباً أسماه «ميراثنا فى الهرم الأكبر» ومنذ ذلك الوقت كثر ظهور كتب عن هذا الهرم من النوع الذى نحا فيه كاتبوه إلى العقائد الخفية والتنجيم والعلوم الروحية، وكلها تدور حول الهرم الأكبر بالذات.

وهرم الجيزة الأكبر وحده دون سائر الأهرام، هو الذى استرعى أنظار من يطلق عليهم بعض الناس «مجانين أو عشّاق الهرم» لأنهم يجدون فى أبعاد حجراته وممراته أساساً لنظريات كثيرة تفسر أو تتنبأ بحوادث ذات أهمية تاريخية، إلى درجة أن بعضهم ادعى أنه استطاع أن يجد داخل الهرم الأكبر تسجيلا لما ورد فى كل من التوراة والإنجيل، بل وصل الأمر بأحدهم أنه قال إنه توصل من حسابات قام بها إلى معرفة تاريخ مولد المسيح عليه السلام، لأن هذا مسجل داخل الهرم، ويعتقد بعض أولئك المتحمسين أن الهرم لم يبن ليحتوى على تنبؤات فحسب، بل إنه بنى، وكان بناؤه المعجز، بواسطة أسرار لا نعرفها الآن، وأنه لمن الممكن شفاء بعض الأمراض، بواسطة الإشعاع أو الأحوال الجوية الخاصة فى أجزاء ممراته.

ومن عجب أن الشيء الوحيد الذى يتفق عليه كل الذين يؤمنون بتلك النظريات، هو أن الهرم الأكبر لم يبن ليكون قبراً للملك خوفو، ويقدمون جميع أنواع التفسيرات للغرض من بنائه، اللهم إلا التفسير الصحيح الذى يؤمن به الأثاريون، وبالرغم من أن أكثر من واحد من علماء الدراسات المصرية القديمة قد فنّد بشدة جميع هذه النظريات الغريبة، فإن أشخاصاً

كثيرين مايزالون يؤمنون بها(١).

ومنها (خامساً) أن بناء الأهرامات وغيرها من المبانى الدينية، إنما كان، كما سنشير فيما بعد، نتيجة سطوة الدين على المصريين وأثره فى حياتهم وتفكيرهم، فالدين _ كان ولا يزال _ أكبر قوة تؤثر فى حياة الإنسان، ومحاولة لتفسير الظواهر المحيطة به، ذلك التفسير الذى أوحى إليه بفكرة الخلود، أو الحياة بعد الموت، تلك الفكرة التى اعتنقها القوم، وكان لها أكبر الأثر فى نفوسهم، بل إنه فيما يرى _ جيمس هنرى برستد _(٢) لا يوجد شعب قديم أو حديث بين شعوب العالم احتلت فى نفسه فكرة الحياة بعد الموت، المكانة العظيمة التى احتلتها فى نفس الشعب المصرى القديم، وكان من نتائج ذلك أن ترك لنا المصريون القدامى عدداً هائلاً من الأهرامات والمقابر والمعابد التى لا يمكن حصرها، بينما لا يوجد إلا قلة من المنازل التى كان يعيش فيها القوم، ولعل السبب فى ذلك أن الأولى كانت تبنى بالأحجار، بينما كانت الثانية تبنى باللبن، إيماناً منهم بأن الأولى أبدية، وأن الثانية وقتية.

ومنها (سادساً) أن مقابر أفراد الأسرة المالكة وعظماء رجال الدولة فى عهد خوفو، خلت من الأبواب الوهمية والنقوش والتماثيل، إلا من لوحة القربان، ولم يسمح «خفرع» إلا للخاصة من أفراد البيت المالك بذلك، أما بقية الأسرة فقد سمح لهم بما يعرف بالرؤوس البديلة أو الاحتياطية، على أن تنام تحت سطح الأرض فى مدخل غرفة الدفن، وأما فى عهد «منقرع» (من كاو رع) فقد أتيح لكثير من الأفراد أن ينقشوا جدران مقابرهم بالمناظر، وأن يقيموا فيها الأبواب الوهمية والتماثيل.

وهكذا يبدو أن خوفو قد حرم على الأفراد إقامة تماثيل لهم فى مقابرهم حتى لا تؤدى لها الطقوس التى كانت تؤدى لتماثيل الآلهة والملوك، والتى كانوا قد بدأوا يؤدونها لتماثيلهم فى عهد «سنفرو» على الأقل، وذلك ليصون للآلهة قداستها، ويحول دون ابتذال شعائرها وطقوسها،

(١) أحمد فخرى، المرجع السابق، ص ١٧٩-١٨٠؛ وكذا انظر:
J.P. Lauer, Le Probleme des Pyramides d'Egypte, Paris, 1948, p. 133-160.

(2) J.H. Breasted, The Dawn of Conscience, New York, 1939, p. 45.

وليمنع محاكاة الأفراد للملك فيما اتخذ من عادات وتقاليد كإله، حتى يظل الفرق بينه وبينهم كبير.

وقد وقف «خفرع» من ذلك موقفاً وسطاً، فأجاز الأبواب الوهمية والنقوش والتماثيل لكبار أفراد الأسرة المالكة، واكتفى بأن سمح لمن لا يمتون إليه بصلة القرابة الوثيقة بما يعرف بالرؤوس البديلة، على ألا يقيمونها بحيث يمكن أداء الطقوس لها، وحرّمها على غيرهم، ثم جاء «منقرع» فأباحها لمن يستطيع توفيرها في مقبرته.

ثم جاءت أجيال أساءت فهم ذلك وانحرفت به عن حقيقته، وساعد على ذلك ضخامة هرمي خوفو وخفرع، فصوّرت عصور الضعف السياسي والفني، أن هذين الهرمين لا يتأتيان بغير عسف وظلم، فكانت قصة السخرة في بناء الأهرامات[1].

ومنها (سابعاً) أن هيرودوت، أول من نادى بقصة السخرة، إنما كان، كما أشرنا من قبل، لا يعرف من لغة المصريين كثيراً ولا قليلا، ومن ثم فقد اعتمد على التراجمة، أو صغار الكهنة، وهم لا يزيدون في معلوماتهم عن الأدلاء الحاليين الذين نراهم حول الهرم، إن لم يقلوا عنهم في المعرفة، كما أن الروايات التي سمعها هيرودوت إنما سمعها بعد مضى أكثر من ألفي سنة على بناء الهرم[2].

ولنناقش الآن النظريات المختلفة التي دارت حول السخرة في بناء الأهرامات، في ضوء الحقائق التاريخية الآنفة الذكر.

---

(١) انظر: محمد أنور شكري، الفن المصري القديم، القاهرة ١٩٦٥، ص ٩٩٦-٩٧؛ الحضارة في مصر القديمة، ص ٣٢٣-٣٢٤.

(٢) [illegible] مصر، الكتاب الأول، الإسكندرية [illegible]

(١) نظرية السخرة في بناء الأهرامات

لعل أشهر المنادين بالسخرة في بناء الأهرامات : هيرودوت اليوناني، ومانيتو المصرى، فضلا عن بعض المؤرخين المسلمين.

أولا - رواية هيرودوت:

لعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن الباحثين إنما يلاحظون على رواية «هيرودوت» أول من نادى بالسخرة، والتى نقلناها آنفاً، عدة أمور، بعضها إنما كان نتيجة اعتماده على الترجمة، وبعضها الآخر، ربما كان من جهل، وربما عن سوء نية.

ومن ذلك (أولا) قول هيرودوت : قال الكهنة... ارتقى العرش بعده «كيوبس» (خوفو) الذى ساق المصريين إلى البؤس، وأغلق المعابد، ومنع المصريين من التضحية، والمعروف أن حياة الكهنة إنما كانت تعتمد على القرابين، ومن ثم فقد ذعروا حين حرّمها خوفو، وقد أعطاهم بناؤه الهرم الأكبر الفرصة ليفتروا عليه وهكذا تظهر الحقيقة في رواية هيرودوت، إذ منع الكهنة من الإتجار فى الدين، ومن ثم فهم يكنون له البغض، وانتهزوا فرصة وجود هيرودوت ليعلنوا بغضهم هذا.

وبدهى أن عصر خوفو ما كان أبداً عصر بؤس، ولو كان كذلك، لما قدر خلفاؤه أن ينهضوا بعده بذلك التقدم العمرانى الذى نرى آثاره فيما تركوا، وترك الناس من حولهم من آثار تدل على الرخاء المادى، وإنما تدل شواهد الأحوال أن «خوفو» كان ملكاً قوياً نشطاً، ترك البلاد فى حالة اقتصادية مستقرة ساعدت ولده «خفرع» على بناء الهرم الثانى، وهو بناء يكاد يمثل هرم أبيه فى عظمته.

ومن ثم فأكبر الظن أن يكون ما سمعه هيرودوت - أن كان قد سمعه حقاً - بقية من آثار الدعاية التى قام بها كهان الشمس، وآثاروها حرباً على البيت المالك أيام الأسرة الرابعة، وشواهد ذلك بادية واضحة فى ذلك القصص الذى نطالعه فى القرطاس المعروف باسم «بردية وستكار»[١].

(١) انظر: عن بردية وستكار:
G. Maspero, Popular Stories of Ancient Egypt, p. 21F; A. Erman, The Literature of Ancient Egyptian, London, 1927, p. 36-46; R.D. Faulkner, JEA, 37, 1951, p. 114; A.M. Blackman, JEA, 22, p. 42F; G. Lefevre, Romans et Contes L'Epoque Pharaonique, Paris, 1949, p. 70-77.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومنها (ثانيا) زعم هيرودوت أن خوفو أجبر البعض على جرّ الأحجار من المحاجر الموجودة بالجبل الغربي (أي المحاجر التي تقع شرق النيل) حتى النيل، وأمر البعض الآخر باستلامها بعد نقلها في السفن عبر النيل، وجرّها إلي الجبل المسمى بالجبل الليبي[١] (أي الهضبة التي أقيمت فوقها الأهرام)، وهذا يعني أن جميع أحجار الهرم قد جيء بها من الضفة الشرقية للنيل، وأنهم حملوها في سفن عبر النهر، ولكننا نعلم تماماً أن الهرم ذاته مشيد من الحجر الجيرى المحلى، أى المأخوذ من الهضبة نفسها، ولم يستخدموا فى بنائه أحجاراً من محاجر الضفة الشرقية، إلا تلك الأحجار الجيرية البيضاء الجيدة النوع التى بنوا بها الكساء الخارجى للهرم[٢].

ومنها (ثالثا) زعم هيرودوت أن الترجمان قرأ له من نقش على الهرم: أن النفقات بلغت ١٦٠٠ تالنت من الفضة، فهو زعم غير صحيح، ذلك لأن حسبة التكاليف إنما هى من عمله هو، هذا فضلاً عن أن الفضة لم تتداول في مصر، إلا بعد عهد «خوفو» بوقت طويل، وفى ذلك ما يدل على بساطة هيرودوت، فهو لم يخدع في هذه فحسب، بل خدع غير مرة، ومرات[٣].

ومنها (رابعاً) زعم هيرودوت بأن بناء الطريق الصاعد استغرق عشر سنوات، وأن بناء الهرم نفسه استغرق عشرين سنة، أى أنهما استغرقا معاً ثلاثين سنة وأن مدة حكم خوفو استغرقت خمسين عاماً[٤]، مع أن النصوص القديمة تذكر أن «خوفو» حكم ثلاثة وعشرين عاماً فقط[٥].

ومنها (خامساً) زعم هيرودوت أن خفرع تولى الملك بعد أخيه خوفو، وأن مدة حكمه ستاً وخمسين سنة، وفى هذا الزعم خطآن، الواحد: أن خفرع لم يكن من أخوة خوفو، وإنما كان من أبنائه، كما كان ثانى خلفائه[٦]، وربما كان ثالثهم، غير أنه من المؤكد أن «جد فرع» هو الذى

(١) هيرودوت يتحدث عن مصر، ص ٣٤٩.
(٢) أحمد فخرى، الأهرامات المصرية، ص ١٧٧.
(٣) أحمد بدوى، المرجع السابق، ص ٣٥٣-٣٥٤.
(٤) هيرودوت يتحدث عن مصر، ص ٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٥.
(5) A.H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1961, p. 434.
(٦) أحمد بدوى، هيرودوت يتحدث عن مصر، ص ٢٥٥.

خلف خوفو على العرش المصرى، ولمدة سنوات ثمان[1]، والأمر أن «من كاو رع» (منقرع) الذى تولى بعد «خفرع» (خع إف رع) لم يكن ابناً لخوفو (كيوبس)، كما يزعم «هيرودوت»، وإنما كان من أحفاده.

ومنها (سادساً) زعم هيرودوت أن المصريين ما كانوا يرغبون مطلقاً فى تسميته «خوفو» و«خفرع»، لكرههم لهما، بل إنهم ليسمون الهرمين باسم الراعى «فيليتيوس» الذى كان يرعى غنمه يومئذ بالقرب من تلك المنطقة[2].

والواقع أن شواهد التاريخ إنما تكذب هذا الادعاء، ذلك لأن اسم «خوفو» إنما كان تميمة قوية لمن يحملها، ونرى هذا الاسم مذكوراً على «جعلان» (جعارين) كثيرة كان يحملها المصريون القدامى كتمائم تحميهم مما يخافون شره، كما ارتبط اسم خوفو أيضاً بكثير من الأساطير، وأشهرها تلك التى جاءت على «بردية وستكار»، هذا فضلا عن أن الشعائر الدينية والطقوس الجنازية الخاصة بالملك خوفو، إنما ظلت قائمة عند ضريحه على أيام العصر الصاوى (٦٦٤-٥٢٥ق.م) كما ظلت كذلك على أيام الحكم الفارسى، كما عثر على تمثال لخوفو فى معبد أبيدوس.

أضف إلى ذلك أن هناك آثاراً من العصر البطلمى (٣٢٣-٣٠ق.م) تشير إلى استمرار عبادته ووجود كهنة له حتى ذلك العصر، بل إن هرم خوفو نفسه، ظل قروناً عديدة مركزاً لأكبر جبانة مصرية تحيط به، وبعد أن مضى على موت خوفو أكثر من أربعة قرون كان المصريون الذين ينتمون إلى الطبقات الكادحة (وهم المسخرون بطبيعة الحال) يحرصون على إقامة مقابرهم على مقربة من هرم خوفو.

وهكذا يبدو واضحاً، أن خوفو إن كان من العتاة المستبدين - كما يزعم هيرودوت ومن تابعه فى دعواه - لما ظلت ذكراه عالقة بأفئدة المصريين طوال هذه القرون، ولما حرصوا على تقديسه بهذا الشكل، وطوال قرابة ستة وعشرين قرناً[3].

(١) انظر : محمد بيومى مهران، مصر، الكتاب الأول، الإسكندرية ١٩٨٢، ص ٣٩٨-٤٠٠.

(٢) هيرودوت يتحدث عن مصر، ص ٢٥٧.

(٣) محمد بيومى مهران، الثورة الاجتماعية الأولى، ص ٨٥؛ أحمد بدوى، المرجع السابق، ص٢٥٧؛ الكسندر شارف، تاريخ مصر، ترجمة عبد المنعم أبو بكر، القاهرة، ١٩٦٠م، ص٦٢-٦٣؛ أحمد فخرى، المرجع السابق، ص١٥٠؛

H. Gauthier, Le Livre des Rois d'Egypte, I, Cairo, 1907, p. 78.

وأما نسبة هرمي خوفو وخفرع إلى الراعي «فيليتيوس»، فهي موضع شك، وحتى لو سلمنا بصدق رواية هيرودوت فقد لا يعدو سببها في الأغلب الأعم، سوى ملازمة ذلك الراعي منطقة هذين الهرمين، كما سمى الناس في العصر الحديث أحد الأهرام باسم «هرم الشواف»، وذلك لأن اللصوص من نباشي القبور قد استخدموه مرقباً، لرصد حركات الحراس، ولسنا نستبعد آخر الأمر أن يكون اسم «فيليتيوس» Philitis اسماً مصرياً مؤغرقاً[١].

ومنها (سابعاً) رواية هيرودوت عن «منكاورع» الذي لم يرض عن أعمال أبيه (جده لا أبيه) ففتح المعابد وسمح للشعب بأن يمارس أعماله ويقدم الأضحيات، فكانت الأحكام التي يصدرها أعدل من أحكام سائر الملوك، ومن ثم فقد أحبه الشعب دون سائر الملوك السابقين، كما كان يعطي تعويضاً من ماله الخاص كل من لم ترضه أحكامه، ويهدئ ثورة غضبه، وفجأة توفيت ابنته الوحيدة، فأمر بصنع بقرة جوفاء من الخشب وطلاها بالذهب، ثم دفن ابنته فيها، وأن هذه البقرة لم تزل حتى عهده (أي عهد هيرودوت، ٤٨٤-٤٣٠ق.م) في مدينة «سايس»[٢] في القصر الملكي، يحرقون طول النهار بجانبها مختلف أنواع البخور[٣].

وفي الواقع أن هذه الرواية تلخص عدة أمور، منها بقية من آثار الدعاية التي أثارها أصحاب مذهب هليوبوليس، فقد كان منكاورع أول من يسمون أنفسهم «ابن الشمس» (ابن رع = سارع)، ثم سار على منواله من أتى بعده، وإن أصبح لقباً دائماً من ألقاب ملك مصر، منذ عهد «نفر إير كا رع» ثالث ملوك الأسرة الخامسة، ومنها الخلط بين الملك «من كاو رع» وبين الملك «بوخوريس» ملك سايس في الأسرة الرابعة والعشرين.

ومنها أن التابوت الذي على هيئة بقرة ربما مرجعه أن الناس كانوا

(١) أحمد بدوي، هيرودوت يتحدث عن مصر، ص ٢٥٧.

(٢) سايس: كانت عاصمة الإقليم الخامس من أقاليم الدلتا، ويسمى «نبت محيت» بمعنى إقليم «نيت» الشمالي، وعاصمة لمصر في العصر الصاوي؛ وهي في المصرية «ساو»، وفي اليونانية «سايس»، وفي العصر الحديث «صا الحجر»، على مبعدة ٧ كيلا شمال بسيون بمحافظة الغربية، وقد سميت في العصر الصاوي «حات انب حج» بمعنى قصر الحائط الأبيض، وهو اسم المقر الملكي في منف. (انظر: محمد بيومي مهران، الحضارة المصرية القديمة، ص ١٧١؛ وكذا: J. De Rouge, op.cit., p. 25; P. Lacau et H. Chevrier, op.cit., p. 233.

(٣) هيرودوت يتحدث عن مصر، ص ٢٥٧-٢٥٩.

يرون صوراً ورسوماً على توابيت العصور المتأخرة، ومن بينها ما يمثل جثة الميت محمولة على ظهر بقرة، ومنها أن الجبانة التي كان يجب أن تدفن فيها ابنة منكاورع (من كاو رع)، إن صح أن ينظر إلى مثل هذه القصة. إنما هي جبانة الجيزة، حيث مدافن الأسرة، ولم يكن هناك من داع مطلقاً إلى نقلها إلى سايس، وليس من المقبول أن نتصور أن الأجيال قد احتفظت بتابوت ابنة منكاورع حتى أيام هيرودوت، كما أنه ليس من المعقول أن يوضع تابوتها في القصر الملكي، ليحرق فوقه البخور، وتضاء من حوله المصابيح[1].

وأخيراً منها (ثالثاً) ذلك الافتراء الدنئ من هيرودوت حين صوّر «خوفو» وقد بلغ من سوء الخلق أقصى حد، إذ أنه بعد أن نفدت ذخائره واحتاج إلى المال، وضع ابنته في ماخور لتحصل له على قدر من المال، فحصلت له عليه، بيد أنها رغبت أيضاً في أن يكون لها أثر خاص بها، فكانت تطلب من كل رجل يزورها أن يهدى إليها حجراً، وأنها شيدت من هذه الأحجار الهرم الذى يقع وسط الأهرامات الثلاثة، بجانب الهرم الأكبر[2].

ومن البدهى أن أقل الناس حظاً من معرفة أخلاق المصريين وسلوكهم، وإيمانهم بالقيم الإنسانية، واعتبارهم الزنا من كبائر الإثم، التي يجازى مرتكبها بالموت، لا يستطيع أن يصدق زعم هيرودوت الكذوب هذا، ثم كيف يتفق هذا مع وصف هيرودوت لخوفو بالطغيان والجبروت؟ أما كان في استطاعة هذا الطاغية أن يجبر الناس على إكمال هرمه، الذى يزعم هيرودوت أنه سخر الناس فيه عشرين سنة، فضلا عن سنوات عشر في طريقه الصاعد؟ وإذا لم يستطع ذلك، أليست هناك وسيلة غير تلك التى يأباها أحط الناس، وهو الملك المؤله، والذى بلغت الملكية الإلهية في عهده، قمة سطوتها، وعنفوان قوتها، في تسلطها على شعبها، وإيمانها بنفسها، وإيمان شعبها بها.

وعلى أية حال، فالرواية لا تستحق، فيما أظن، حتى مجرد التعليق

(١) نفس المرجع السابق، ص ٢٥٨.

(٢) نفس المرجع السابق، ص ٢٥٤-٢٥٥.

عليها، وإن كانت تشير إلى مستوى كاتبها، أو على الأقل إلى مستوى مصادره التى نقل عنها، فضلا عن شعوره نحو الملوك المصريين.

ثانياً - رواية مانيتو:

لعل مؤرخنا المصرى الكبير، قد وجد الكثير من الروايات التى تركها كهان «رع» ضد خوفو وأسرته، كما رأينا من قبل من روايات هيرودوت وعلى أية حال، فإن رواية مانيتو عن السخرة وكراهية المصريين لخوفو، إنما كان سببها الكره التقليدى الذى ورثه الكهنة جيلا بعد جيل لخوفو، ومانيتو، كما هو معروف، إنما كان كاهناً قبل أن يكون مؤرخاً.

ثالثاً - رواية المؤرخين المسلمين:

اعتمد المؤرخون المسلمون على وصف القرآن الكريم لفرعون موسى بالطغيان والجبروت[1]، فضلا عن ادعائه الألوهية من دون الله[2]، وربما اعتمدوا كذلك على روايات التوراة ومسلمة أهل الكتاب، والذين نشأوا على كره مصر والمصريين، حتى أن بنى إسرائيل إنما يعتبرون يوم خروجهم من مصر عيداً لهم، بل أكبر أعيادهم، وأعنى به «عيد الفصح» يحتفلون به كل عام فى الرابع عشر من أبريل (نيسان)، ويسمون مصر «أرض العبودية»، حيث استعبد أسلافهم هناك.

غير أن طغيان الفرعون الذى عاصر موسى عليه السلام (والذى جاء بعد «خوفو» صاحب الهرم الأكبر، بأكثر من ألف وخمسمائة عام) شىء، وبناء الأهرامات بالسخرة شىء آخر، ذلك أنه إذا كان الله، سبحانه وتعالى، قد وصف الفرعون الذى عاصر موسى، فى القرآن الكريم، بالطغيان والجبروت، وتجاوز عن ذكر اسمه، فإننا - والحمد لله، نؤمن الإيمان، كل الإيمان، بما جاء فى كتاب الله الكريم، كما نؤمن كذلك عن عقيدة، لا تزعزعها السنوات الطوال، ولا الخطوب الجسام، بأنه ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد﴾[3].

(١) انظر: سورة يونس، آية: ٨٣؛ طه، آية: ٢٤، ٤٣، ٧٩؛ سورة الشعراء، آية: ١١؛ القصص، آية: ٤؛ الذاريات، آية: ١٧.

(٢) انظر: سورة الشعراء، آية: ٢٩؛ القصص، آية: ٣٨؛ سورة النازعات، آية: ٢٢-٢٤.

(٣) سورة فصلت، آية: ٤٢.

ولكن ليس من المنطق، فضلا عن العدل، أن نعمم صفات الفرعون الذى عاصر موسى، على كل الفراعين المصريين، والذين حكموا مصر قرابة الاف ثلاثة من الأعوام (من الملك مينا حتى الإسكندر المقدونى = ٣٢٠٠-٣٣٢ق.م)، فالحكام فى كل زمان ومكان، وأيا كانت ألقابهم، يظهر منهم الصالح والطالح، والعادل والظالم، شأنهم فى ذلك شأن بقية جنسهم من بنى الإنسان، ومن ثم فوجود فرعون عاصر نبىّ الله موسى عليه السلام[1]، ليس معناه أن كل الفراعين على شاكلته.

ثم إن اصطلاح «فرعون» إنما يعنى، كما أشرنا فى أول هذه الدراسة، «حاكم مصر»، وبدهى أنه ليس بالضرورة أن يكون كل حاكم لمصر ظالما جبارا، كما أنه ليس بالضرورة أيضا، أن يكون كل من يحمل لقب «خليفة» مثلا، عادلا صالحا، وكما فى عصرنا الحاضر، فإن ألقاب رؤساء الدول قد لا تدل على نوع الحكم الذى يمارسونه مع شعوبهم، وربما يكون كثير ممن يحملون أكثر الألقاب بريقا، وأشدها قربا من الشعب، أكثرهم جبروتا وطغيانا، وقد يكون العكس صحيحا.

وفى الواقع، فإن المؤرخين المسلمين، ومن تابعهم فى العصر الحديث من مرتزقة التاريخ، أولى الناس بمعرفة تلك الحقيقة وإلا لحكموا على الخلفاء الراشدين، الهداة المهديين، رضوان الله عليهم، بل وحتى معاوية ابن أبى سفيان، مؤسس دولة بنى أمية، بما حكموا به على ولده الطاغية الفاجر «يزيد بن معاوية بن أبى سفيان»[2]، وهو الذى خلفهم فى حكم المسلمين،

---

(١) انظر عن اسم الفرعون الذى عاصر موسى، والآراء التي دارت حوله، وما يرجح من أنه «مرنبتاح»: محمد بيومى مهران، إسرائيل، الكتاب الأول، التاريخ، الإسكندرية ١٩٧٨، ص٣٥٧-٤٣٩؛ وانظر طبعة ١٩٩٩م.

(٢) لن ينسى التاريخ لهذا اليزيد، الذى ابتلى به الإسلام والمسلمون، أنه قاتل آل النبىّ ﷺ، وعلى رأسهم مولانا الإمام الحسين، سبط النبىّ، فى كربلاء، وأنه الذى استباح مدينة سيدنا رسول الله ﷺ، ثلاثة أيام، تجرى فيها دماء الصحابة والتابعين، بيد السفلة من جيوش يزيد، وأنه هو الذى استباح مكة المكرمة والمسجد الحرام، ثم إن يزيداً هذا ظلّ، كما كان أبوه، وكما سيكون خلفاؤه من الأمويين (غير عمر بن عبد العزيز) يأمرون الناس بلعن سادة أهل بيت النبىّ الكرام، وعلى رأسهم الإمام علي والإمام الحسين، على منابر المسلمين فى جميع أرجاء الدولة الإسلامية، والعياذ بالله، ثم يستفتون من يفتيهم من مرتزقة السلطان، بإهدار دمائهم، وصواب عقابهم بما أصابهم. (انظر: محمد بيومى مهران، الإمام الحسين، سبط النبىّ وسيد شباب أهل الجنة)؛ وانظر: محمد بيومى مهران، سلسلة «فى رحاب النبىّ وآل بيته الطاهرين»، عشرة أجزاء، بيروت ١٩٩٠م.

والعكس صحيح، أعني، وإلا لحكموا على خلفاء بني أمية بالورع والتقوى، والعدل والاستقامة، لأن منهم الخليفة الراشد «عمر بن عبد العزيز».

وهكذا تبدو رواية السخرة هذه، ليست فوق مستوى الشبهات، بل هي نفسها شبهة، ألصقها هيرودوت، بخوفو العظيم، ثم عممت على كل الفراعين في سياستهم البنائية الدينية، دون أن يكون لها نصيب من صواب.

(٢) نظرية القضاء على البطالة

هناك وجه آخر للنظر، يذهب أصحابه من المؤرخين المحدثين إلى أن ذلك العمل الهائل الذى كان يستلزمه بناء الأهرامات الضخمة، نوع من الإحسان الاستبدادى يقوم به الفراعين نحو رعاياهم، ذلك أن بناء الهرم إنما كان يتم في وقت الفيضان، حين لم يكن هناك عمل زراعي يقوم به الفلاحون، لأن المياه كانت تغمر الأراضي، وكانت الأماكن التي يعيشون فيها تشبه الجزر، وكان أجرهم إطعامهم وكساءهم، وكان العمال العاطلون ينقلون الأحجار من منطقة الهرم نفسها، وأحجار الكسوة من طره، ويأخذون لقاء ذلك خبزهم وكساهم، وليس في هذا لون من ألوان السخرة والاستبداد[1].

وهكذا كان الملك يتوسع في إقامة منشآت عامة، أهمها هرمه، في زمن بطالة الفلاحين أيام الفيضان، فيهيىء بذلك عملا لآلاف الفلاحين، في مقابل أن تقوم الدولة بإيوائهم وتغذيتهم وكسوتهم على نفقتها.

غير أن هناك من يعارض هذا الرأى القائل بأن تشييد الأهرام، ليس إلا مشروعاً لإنقاذ آلاف الناس من البطالة، ويرى أنه رأى غير معقول أو مقبول، لأنه رأى حديث جداً[2].

والرأى عندى أنه ليس هناك ما يمنع قبوله، وإن كنا لا نملك أدلة تؤيده، فضلا عن أننا إنما نحكم على أحداث مضت عليها قرابة آلاف خمسة من السنين، بمقاييس عصرنا الحاضر، على أننا في الوقت نفسه، إنما نحرم الفرعون، بمعارضتنا لهذا الاتجاه، من العمل لمصلحة شعبه، وهو

(١) نجيب ميخائيل، المرجع السابق، ص ١٦٨-١٦٩.

(2) J.A.. Wilson, The Burden of Egypt, Chicago, 19[illegible], p. 84.

أهم واجبات الفرعون، لا بحكم رياسته للدولة ومسئوليته عن رفاهية شعبه فحسب، بل بحكم كونه ملكاً مؤلهاً أيضاً، فقد كان الملك يتقيد في سياسته بتعاليم «الماعت» وهي إلهة رمز المصرى بها إلى كل المثل العليا التي يجب على الحاكم أن يرعاها في تنفيذ سياسته في الحكم، وهي العدل المطلق والصدق الكامل والرحمة، والقسوة مع المذنب، وكانت هذه المعاني هي الرائد لكل ملك، وهي الإطار الذي يتحرك فيه كإله عاش بين الناس يحكمهم، ويوجههم إلى الخير، ويمنعهم عن الشر[١].

بل إن ألوهية الملك إنما كانت مرتبطة إلى حد كبير بتقدم البلاد وازدهارها، وليس بالعوامل الجغرافية فيها، وأنه في أية فترة من الفترات التي كان يضعف فيها الحكم كان القطران (الصعيد والدلتا) ينفصلان بعضهما عن البعض الآخر، ولم يمسك عليهما وحدتهما إلا اعتمادهما المشترك على مياه النيل[٢].

وبدهي أنه ليس هناك ما يمنع الفرعون من العمل على رفاهية شعبه، وإيجاد عمل لآلاف الشباب العاطلين في أيام الفيضان، وخاصة في عصر كانت الزراعة فيه هي الحرفة الأساسية، إن لم تكن الوحيدة في القرية المصرية، وفي نفس الوقت، فإن الفرعون يستفيد بوقت فراغ القادرين على العمل في بناء هرم له.

وحتى يثبت ذلك، فالرأى عندى أن استمرار بناء الأهرام حتى نهاية الدولة القديمة إنما يجعل الباحث المنصف يتردد كثيراً في قبول وجهة النظر هذه، حتى إننا نرى في الأسرة السادسة، كما سنفصل فيما بعد، أن الملوك، رغم ضعفهم ونقص موارد الدولة على أيامهم، يسيرون على سنة الدولة القديمة من أسلافهم من الفراعين العظام في بناء أهرامات يدفنون فيها، بل إن الملك «ببي الثاني»، والذي وصلت البلاد في عهده إلى مرحلة تنذر بالخطر، لم يكتف ببناء هرم له، وإنما بنى - إلى جانب مجموعته الهرمية - أهراماً ثلاثة لثلاث ملكات من زوجاته وهن: «نيت» و«إيبوت» و«أوجبتن»، مما كلف الدولة ما لا تطيق، وكان ذلك واحداً من أسباب الثورة الاجتماعية

---

(١) الموسوعة المصرية، ١١٧/١.

(2) J.A. Wilson, The Culture of Ancient Egypt, Chicago, 1962, p. 45-46.

الأولى، وإن كان عهد خوفو وخفرع، يختلف كثيراً عن عهد «ببى الثانى»، مما يجعل بناء الأهرامات فى عهديهما، يختلف عنه فى عهد خلفائهم الضعاف، من حيث قوة الملوك، وموارد الدولة، على الأقل.

ومع ذلك تبقى هذه النظرية مجرد فرض، حتى تمدنا الوثائق بما يؤيدها، أو يقف حائلا دون قبولنا لها.

(٣) النظرية الدينية

هناك وجه ثالث للنظر، يذهب أصحابه إلى أن الملك المصرى إنما كان إلهاً فى نظر شعبه[١]، كان إلهاً كغيره من الآلهة الذين فى السماء، ولكنه رضى أن يعيش على الأرض ليحكمها، ويسعد الناس بوجوده بينهم، فإذا تذكرنا ذلك، وتذكرنا أن المصرى كان شديد التدين، لأدركنا أنه كان يسر الكثير من الناس، وبخاصة أولئك الذين كانوا يعيشون فى القرى النائية بعيداً عن المدن، أن تتاح لهم فرصة على أيام الفيضان، وفى أيام الضيق المادى، وفى الوقت ذاته، ليزوروا العاصمة التى طالما سمعوا عن عجائبها، ويمتعوا الطرف بالنظر إلى معابد الآلهة وقصور العظماء، وكان يسرهم دون شك أن يساهموا فى عمل شىء لإلههم الملك عسى أن يكون فيه قربى ورحمة بهم، وكان يسر الفقراء من عامة الشعب أن يضمنوا عدم الحاجة طيلة أيام إقامتهم فى العاصمة[٢].

وقد آمن المصريون بأن الملك إله كغيره، أقام فى مصر ليحكمها، ويسعد المحكومين فيها، كما آمنوا بأنه يستحق قرباناً عظيماً يقدمونه إليه بجهودهم، فقد أضيف إلى ذلك أن المصرى كان ولا يزال إنساناً متديناً بطبعه، فيجب علينا أن نعيد النظر فى موضوع السخرة هذا، وعلينا أن ننحو نحواً آخر فى تفسير بناء الأهرامات.

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى حقيقة هامة، دينية وتاريخية، قبل أن نقدم التفسير الدينى لبناء الأهرام، تلك الحقيقة أن القران الكريم إنما

---

(١) انظر عن «نظرية ألوهية الملك فى مصر»: محمد بيومى مهران، الحضارة المصرية القديمة، الجزء الثانى، الطبعة الرابعة، الإسكندرية ١٩٨٩، ص ١١٩-١٣٦.

(٢) أحمد فخرى، الأهرامات المصرية، ص ١٦٢؛ وكذا: J.A. Wilson, op.cit., p. 73.

حدثنا في قصة موسى مع فرعون عن «الملكية الإلهية في مصر الفرعونية»، وأوضح أن ألوهية الفرعون إنما كانت موضع جدل شديد مع النبي الكريم والملك الفرعون، بل إن تلك الألوهية المزعومة إنما كانت الصخرة التي تحطمت عليها كل أوجه التقارب بينهما، بل إن الفرعون إنما يهدد النبيّ نفسه ﴿لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنّك من المسجونين﴾[1]، ثم يعلن للناس عامة ﴿ما علمت لكم من إله غيري﴾[2] وعندما يتقدم له موسى بآيته الكبرى، ما كان منه إلاّ أن رفض الدعوة كلها ﴿ثمّ أدبر يسعى، فحشر فنادى، فقال أنا ربّكم الأعلى﴾[3].

ثم هناك أمر آخر، يتصل بواجبات الملك نحو شعبه في الحياة الأخرى، ذلك أن المصريين إنما كانوا يعتقدون أن الملك المؤله لا يمكن أن يموت، وإنما يبدأ حياة خارقة للطبيعة، حياة يكون فيها الوسيط بين الأموات من الناس وبين الآلهة، فيظل الحامي والشفيع الذي يرعى الموتى، كما كان يرعى الأحياء.

ومن هنا جاءت لهفة القوم على تشييد مقابر ضخمة للمحافظة على جثة الملك من كل أذى، ولتهيىء له وسائل خاصة ملائمة وخالدة، وأن مقابر ملوك عصر التأسيس في سقارة وأبيدوس، إنما تشهد على أن المصريين منذ عهد الأسرة الأولى كانوا يعلقون أهمية كبرى على شفاعة الملك الميت لهم عند الآلهة[4].

وانطلاقاً من كل هذا فعلينا، حين نناقش النظرية الدينية أو التفسير الديني لبناء الأهرام، أن نتذكر أن الفيضان إنما كان يغمر الأراضي ويجعل الفلاحين بدون عمل، فإذا صحّ من أهل القرى النائية، يأتون إبانه لزيارة معابد الآلهة للتبرك، أو ربما كان ذلك من شعائر دينهم[5]، إن صحّ ذلك،

---

(١) سورة الشعراء، آية: ٢٩.

(٢) سورة القصص، آية: ٣٨، وانظر: تفسير ابن كثير ٦٢٢/٣؛ تفسير النسفي ٢٣٧/٣؛ في ظلال القرآن ٢٦٩٤/٥-٢٦٩٥؛ صفوة التفاسير ٤٣٤/٢؛ تفسير القرطبي، ص ٥٠٠٤-٥٠٠٥.

(٣) سورة النازعات، آية: ٢٢-٢٤.

(٤) عبد المنعم عبد الحليم، حضارة مصر الفرعونية، الإسكندرية ١٩٧٧، ص ٤٠-٤١.

(٥) حاول بعض الباحثين في علوم اللاهوت والاجتماع والآثار، أن يحصروا الدين في نطاق الأديان المستندة إلى الوحي السماوي، والتي تتخذ معبوداً واحداً، هو الخالق المهيمن على كل شيء، ومن ثم فالديانات الطبيعية المستندة إلى محض العقل، والديانات الخرافية التي هي وليدة الخيالات

=

وليس هناك ما يمنع صحته، فإن القادمين وقد أدوا واجبهم نحو الآلهة، إنما بقى أمامهم واجب يؤدونه نحو الإله الجالس على العرش، وكان هذا الواجب هو المشاركة فى بناء مقبرة الإله الملك.

وربما يبدو ذلك خيالا بالنسبة للغربيين،، وربما كان كذلك بالنسبة لسكان المدن عندنا، وربما لأولئك الذين لا يؤمنون بتفسير التاريخ تفسيراً للروحانيات شأن فيه، ولكن الأمر يختلف كثيراً بالنسبة لسكان القرى، والذين شيد أسلافهم هذا الطود الشامخ وغيره من آثارنا، فلا يزال أبناء القرى يتسابقون حتى الآن، إن دعى الداعى إلى بناء بيت من بيوت الله، يتساوى فى ذلك العالم والجاهل، الغنى والفقير، الحاكم والمحكوم، الشيوخ والشباب، ثم هناك مثل آخر، تأخذه من تحمل المشاق فى زيارة الأماكن المقدسة ــ فى مكة المكرمة والمدينة المنورة ــ وإنفاق المال عن رغبة، وإن كان صاحبه على غير ميسرة.

ومن البدهى أن كل ذلك وغيره كثير، إن دل على شيء، إنما يدل على رسوخ العقيدة الدينية فى النفوس، والإيمان الكامل بأن فى ذلك قربى إلى الله سبحانه وتعالى، وإذا كنا نفعل ذلك فى القرن العشرين بعد الميلاد، هذا القرن الذى طغت فيه على أذهاننا فلسفة المادية ومنطقها، فلماذا نرفض الشيء نفسه، إن أتى من المصريين القدامى؟ مع الفارق بالطبع بين عقيدتنا وعقيدتهم، أعنى أننا ــ والحمد لله ــ نؤمن بالله الواحد الأحد، وهم يؤمنون بألوهية فرعونهم، الإله العظيم أو الإله الطيب، ابن رع، كما يسمونه، أو كما يسمى هو نفسه، كما تقول النصوص المصرية القديمة.

بل إن هناك مثالا نقدمه من خارج مصر، من بلاد العرب، لهؤلاء الذين يكرهون مصر، ولا يرون فى كل تاريخها ــ وخاصة القديم منهم ــ إلا

=

والأوهام، وكل ديانة تقوم هى أو جانب منها على عبادة التماثيل أوعبادة الحيوان أو النبات أو الكواكب أو الجن أو الملائكة.... إلخ. تخرج بمقتضى اجتهادات هؤلاء الباحثين عن أن تكون دينا، مع أن القرآن الكريم قد سماها دينا، وذلك حين يقول سبحانه وتعالى ﴿ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين﴾ بل إن القرآن الكريم إنما يسمى معتقدات الآخرين دينا، حتى إن كان هذا الدين هو الكفر ذاته، وذلك حيث يقول﴿لكم دينكم ولى دين﴾. انظر: سورة آل عمران، آية ٨٥؛ سورة الكافرون ، آية: ٦؛ محمد عبد الله دراز، الدين، القاهرة ١٩٦٩؛ ص ٢٥-٣٥؛ محمد بيومى مهران، الديانة العربية القديمة، الإسكندرية ١٩٧٨، ص ٦-٩.

الكفر والبهتان، وإلا الظلم والطغيان، وكأن العالم وقت ذاك كان كله، غير مصر، يدين بعقيدة التوحيد، ويحكم بشريعة الإسلام، ويعيش الناس فيه جميعاً، سواسية كأسنان المشط، كلهم لآدم، وآدم من تراب.

وأما المثال، فهو إعادة بناء الكعبة المشرفة في عام ٦٠٥م أو ٦٠٦م، وقبل البعثة النبوية الشريفة بخمس سنوات، بعد أن جرف مكة سيل عرم، انحدر إلى البيت الحرام، فأوشكت الكعبة منه على الانهيار، فلم تر قريش بداً من أن تجدد بناءها حرصاً على مكانتها، وتذهب الروايات إلى أن القرشيين إنما كانوا يصرون على أن يبنوا البيت الحرام من كل طيب، حتى قال قائلهم : «يا معشر قريش لا تدخلوا في بنيانها من كسبكم إلا طيباً، ولا تدخلوا فيها مهر بغي، ولا بيع ربا، ولا مظلمة أحد من الناس» كما أصر القوم على ألا يشترك في البناء غير سادة قريش ورجالاتها الكبار، ذلك لأن بناءً رفع إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام من قواعده قبل قرون سحيقة، لا يوكل أمره إلى صغار الفعلة، ولا الغرباء، ومن ثم فلا غرو إذا أقبل على البناء الشيوخ وأهل الصدارة، وعلى رأسهم السادة من بني هاشم، رهط النبي، ﷺ، وقد اشترك سيدنا رسول الله، ﷺ، بنفسه وأعمامه في البناء[1].

ولعل سائلا يتساءل: ما علاقة بناء الكعبة ببناء الهرم؟

والجواب: إن العلاقة دينية، فالكعبة[2] عند قريش بيت الله بناه أبيهم إبراهيم عليه السلام، فهي مقدسة عندهم، غير أن الكعبة وقت ذاك إنما كانت ملجأ للأصنام، حتى أن سيدنا ومولانا محمد رسول الله، ﷺ، إنما وجد بها يوم فتح مكة عام ٨هـ/٦٣٠م (٣٦٠) صنماً، ذلك أن قريش رغبة منها في اجتذاب القبائل العربية، أجازت للقبائل أن تنصب أصنامها عند الكعبة، فكان لكل قبيلة أوثانها تأتي في الموسم لزيارتها وتقديم القرابين لها[3].

---

(١) انظر: تاريخ الطبري ٣٨٧/٢-٣٩٠؛ تاريخ ابن الأثير ٤٤/٢-٤٥؛ البداية والنهاية لابن كثير ٢٩٩/٢-٣٠٤؛ سيرة ابن هشام ١٩٥/١-١٩٩؛ طبقات ابن سعد ٩٣/١-٩٥؛ تاريخ الخميس، ص ١٢٦-١٣١؛ أخبار مكة للأزرقي ١٥٧/١-١٦٤؛ المقدسي، كتاب البدء والتاريخ ١٣٩/١-١٤٠؛ ياقوت الحموي ٤٦٦/٤؛ مروج الذهب للمسعودي ٢٧١/٢-٢٧٢.

(٢) قدّم المؤلف دراسة مفصلة عن الكعبة، انظر: محمد بيومي مهران، دراسات تاريخية من القرآن الكريم، الجزء الأول، الرياض ١٩٨٠، ص ١٨١-٢٣٥.

(٣) انظر: تاريخ اليعقوبي ٢٥٤/١-٢٥٥؛ الروض الأنف للسهيلي ٢٧٦/٢؛ أخبار مكة للأزرقي

=

فالأمر إذن أمر عقيدة يفسرها الناس في كل عصر حسب إيمانهم بها، وعلى قدر تمسكهم بشعائرها، فلا غرابة إذن أن يبني المصريون القدامى للملك هرماً، حتى ولو كان هذا الهرم هو «هرم الجيزة الأكبر»، ذلك لأن الملك إنما كان يعتبر إلهاً على قدم المساواة مع الآلهة الأخرى، وأنه يمثلهم على سطح الأرض، وأنه في مماته يحكم الآلهة والبشر، وأن جسده مقدس، وأنه روح الدولة وقوامها.

هذا فضلاً عن أن خوفو وخفرع كان لهما فوق ذلك، من قوة الشخصية وحسن الإدارة، ما رفع من شأنهما لدى الشعب وزاد في تقديسهما، وكانت خزائن الدولة مليئة مما كان يسمح بالصرف، كساء وغذاء، على أعداد جمة من الفنانين والعمال في وقت ساد فيه الأمن والسلام في البلاد، وقد توفر آنذاك من البنائين والفنانين والعمال المدربين عدد وافر اكتسبوا خبرة ممتازة فيما أنشأوا من قبل من منشآت، وكان النيل يغمر الحقول ثلاثة أشهر طوال كل عام، ولم يكن للفلاحين والعمال خلالها من عمل يذكر.

وقد ساعدت هذه العوامل مجتمعة خوفو وخفرع في أن ينشئا هرميهما، وقد تفانى العمال والفنانون عن عقيدة وإيمان في بناء كل منهما، باعتباره عملاً دينياً وسياسياً معاً، فيه ما يحفظ على الدولة نظامها وقوامها[1].

وانطلاقاً من كل هذا، فإنني أميل إلى أن بناء الأهرام، إنما كان عن عقيدة، ولم يكن عن سخرة، وهذا لا يمنع من أن الملوك قد انتفعوا بالقوى المعطلة على أيام الفيضان، فاختاروه وقتاً لبناء أهراماتهم، على أن يؤدوا للعاملين فيها طعامهم وكساهم، وأما القول بأنه كان من الأفضل استغلال هذه الجهود - البشرية والمادية والفنية - في عمل عام ينتفع به المصريون جميعاً فهذا ما كنا نأمله، وليس كل ما يتمنى المرء يدركه، ثم إنه من الخطأ الحكم بمقاييس عصرنا، على عصور مضت منذ خمسة آلاف عام.

=

١٣٠/١-١٣١؛ ابن الكلبي، كتاب الأصنام، ص ٢٧-٢٨؛ محمد بيومي مهران، تاريخ العرب القديم، الرياض ١٩٧٧م، ص ٤٢١-٤٢٢؛ الحضارة العربية القديمة، الطبعة الثالثة، الإسكندرية ١٩٩٥م، ص ٤٨٥-٥١٢.

(١) محمد أنور شكري، المرجع السابق، ص ٣٢٢-٣٢٣.

(٤) الأسباب السياسية:

ترجع أسباب الثورة السياسية إلى ضعف الملكية، وتخاذلها أمام حكام الأقاليم، وقد بدأ هذا الضعف منذ منتصف الأسرة الخامسة - كما أشرنا من قبل - ثم اشتد في الأسرة السادسة، وخاصة على أيام، «ببي الثاني» الطويلة، مما دفعه إلى أن يعين وزيرين، الواحد الصعيد، والآخر للدلتا[١]، أملا في أن يساعداه على حماية عرشه، ورغم ذلك فقد استمر الحكام في فرض الضرائب الفادحة، وامتنعوا عن توريدها إلى بيت المال، حتى أصبحت الحكومة في منف شبه عاجزة عن تنفيذ أوامرها، وممارسة حقوقها، والقيام بمسئولياتها، فتوقف إرسال البعثات إلى المناجم، وتجدد خطر الهجرات الآسيوية فيما وراء الحدود الشرقية، مما أدى آخر الأمر - بجانب عوامل أخرى - إلى قيام الثورة.

(٥) الأسباب النفسية:

في أخريات أيام الأسرة السادسة، بدأ الشعب يفقد ثقته في حاكميه، فلقد أصبحت الملكية ضعيفة، والكهانة مستغلة، والإقطاع ينافس الجميع في استغلاله، وهنا يحس الشعب أن عليه أن يتحرك، هذا التحرك هو ما يعن للباحث أن يسميه الإحساس بالظلم، فالثورات تقوم عادة حين يحس الناس بالظلم وهذا ما حدث في ثورتنا هذه، عندما أحس الشعب بالدور الذي يجب أن يقوم به ليخلع عن رقابه ظلم الملكية، وفساد الكهانة، وسوء استغلال الحكام وكان ذلك نتيجة وعي شعبي دفع الثائرين للقيام بثورتهم، فالشعب يثور عادة لأنه يحس بالغبن، وهو لا يصل إلى هذه المرحلة إلا حين يرتفع لديه الوعي والإدراك، فالشعوب الجاهلة لا تثور، وإنما تقوم الثورات بين قوم يستطيعون أن يقدروا مدى ما يحيط بهم، ويدركوا من الأمور خيرها وشرها، وليس من شك في أن الشعب المصري كان قد بلغ إذ ذاك هذه المرحلة، فأحس بوجوب تغير الأوضاع التي درج عليها لأنها لم تعد تتفق ومطالبه الجديدة في الحرية والحياة، ولم تعد تتفق وما ينشده من عز وكرامة، يرى أنها جميعاً أصبحت عناصر لازمة لمقومات كيانه[٢].

---

(1) H.Stock, Die, Ernte - Zwischemneit, Agyptent, Rome, 1949.

(٢) نجيب ميخائيل، المرجع السابق، ص ٣٥٩.

(٦) الأسباب الخارجية:

كان للثورة أسباب خارجية ـ بجانب الأسباب الداخلية ـ والتي ربما كانت نتيجة للانهيار الداخلي، مما أدى إلى التسلل الأجنبي إلى البلاد، والذي سيطر على جزء منها فترة من الزمن، إلا أن هذا الدافع من دوافع الثورة إنما كان أقسى دوافعها، حتى إن المصريين المعاصرين إنما كانوا يعزون حالة الانهيار التي أصابت البلاد، إنما كانت بسبب وجود آسيويين جامحين في الدلتا المصرية.

وقد قام جدل طويل بين المؤرخين حول هؤلاء الآسيويين الذين هبطوا مصر في غفلة من الزمن، فذهب فريق من المؤرخين إلى أنهم غزاة أتوا إلى مصر عن طريق غزو مسلح، نتج عنه احتلال أجنبي للدلتا، بينما ذهب فريق آخر إلى أن الأمر لا يعدو أن يكون تسللا لقبائل آسيوية من تلك القبائل الظاعنة أو المرتحلة حول الحدود المصرية كان «سير فلندرز بترى» أول من نادى بأن قوماً من شمال سورية قد غزوا مصر في نهاية الأسرة السادسة، ثم تسللوا إلى داخل البلاد حتى مصر العليا، وأنهم قد حكموا على أيام الأسرتين السابعة والثامنة، وإن الأسرتين التاسعة والعاشرة قد وضعتا حداً لسلطانهم[١]، ويذهب الدكتور الناضوري[٢] إلى أن هناك تحركات سامية كانت من الأسباب التي أنهت الأسرة السومرية الثالثة في مدينة «أور»، بل إنها لم تقتصر في اتجاهها نحو جنوب العراق القديم، وإنما ظهرت شعبة سامية أخرى اتخذت طريقها نحو شبه جزيرة سيناء، واستقرت في شرق الدلتا أثناء عصر الانتقال الأول.

ويتابع «جيمس بيكي» (١٨٦٦-١٩٣١) مواطنه «فلندرز بترى» في دعواه،فضلا عن غزو آخر أتى من الجنوب في أوائل هذه الفترة، وأدى إلى أن يستوطن طيبة، ذلك الجنس الذي أعطى مصر فيما بعد سلسلة الملوك الذين نعرفهم في الأسرتين الحادية عشرة والثانية عشرة، وأن الصفات النوبية

(1) W.M.F. Petrie, A History of Egypt, I, London, 1924, p. 120; H. Frankfort, Egypt and Syrie in The First Intermediate Period, JEA, 12, 1926, p. 88.

(٢) رشيد الناضوري، جنوب غربي آسيا وشمال أفريقيا، الكتاب الأول، بيروت ١٩٦٨م، ص٢٨٠.

فى دم الملوك «منتوحتب» و«أمنمحات» و«سنوسرت» من هاتين الأسرتين، إنما يبدو واضحاً فى وجوه هؤلاء الحكام، كما أن هناك عنصراً ثالثاً قد نجح فى أن يؤسس لفترة قصيرة مملكة محدودة مزعزعة فى منطقة تمتد من الفيوم وحتى ثنى وأبيدوس، واستمر القادمون الجدد مسيطرين على هذه الأماكن المقدسة لفترة قصيرة[1].

وهناك فريق ثان من المؤرخين يذهب إلى أن ذلك لم يكن غزواً، وإنما كان تسللاً، وأن الأمر إنما كان مقصوراً على حدود الدلتا الشرقية، فالدكتور «جون ويلسون»[2] يرى أنه لا يوجد شك فى أن الآسيويين قد أقاموا بالدلتا، وأن الوثائق الأدبية ـ وكذا الأدلة الأثرية[3] ـ إنما تثبت دخول عناصر آسيوية الأصل إلى مصر فى تلك الفترة، وهناك فقرات فى تحذيرات «إيبو ـ ور» تثبت الدور الذى لعبه الأجانب بحيث اختزلت مصر الحقيقية إلى الصعيد فقط[4].

غير أن هذا كله، لا يعنى أن الدولة القديمة قد سقطت بغزو أجنبى آسيوى، أو أن هذا الغزو كان سبباً فى ظهور العناصر الجديدة التى عمت فى عصر الثورة الاجتماعية الأولى، إذ أن ذلك خلط بين السبب والنتيجة، فليس هناك من ريب فى وجود اضطرابات وتغيرات فى الحالة فى آسيا، ولكن لم يعبر جيش محارب صحراء سيناء، ويغزو مصر، ويقضى على الدولة فيها، وإنما الصحيح أن الدولة قد انهارت من الإجهاد الداخلى، فتركت الحدود مفتوحة بدون حماية، فتدفق الآسيويون المهاجرون بصفة مستمرة، واستقروا فى الدلتا، ولم تمض غير قرون قليلة حتى أصبح عددهم كافياً ليستقلوا بأنفسهم، مما جعل ملوك إهناسية يقومون بإجراء حربى ضدهم[5].

ولعل «وليم هيز» إنما يرى نفس الرأى، ذلك أن الانهيار الذى أصاب

(1) W.M.F. Petrie, op.cit., p. 126-128; J. Baikle, A History of Egypt, I, London, 1929, p. 221; H.R. Hall, The Ancient History of The Near East, London, 1993, p. 295.

(2) J.A. Wilson, op.cit., p. 110.

(3) H. Frankfort, JEA, 12, 1926, p. 88, 92; W.M.F. Petrie, Scrabs and Cylinders with Names, London, 1917, pl. 10, p. 7-10.

(4) A.H. Gardiner, op.cit., p. 107.

(5) J.A. Wilson, op.cit., p. 110-111.

البلاد فى تلك الفترة، إنما كان من أسبابه ـ فيما يرى ـ الحروب الأهلية، وتسلل البدو من سيناء وجنوب فلسطين، فضلا عن انفصال أقاليم مصر عن الحكومة المركزية، واتتشار النهب والتمرد العام والفقر الشديد[١].

والرأى عند «هنرى فرانكفورت» أن الدليل الأثرى يثبت بالتأكيد أن نمو التهديد الآسيوى الذى نستطيع أن نقتفى أثره منذ الأسرة السادسة قد ظهر فى التدفق الآسيوى، بينما كانت البلاد قد وهنت بسبب بداية الاضطرابات التى قضت على الدولة القديمة، أما إلى أى مدى عجّل هذا التدفق الأجنبى بهذا السقوط؟ فذلك أمر من الصعب أن يقال، فمن الطبيعى أنه ليس هناك احتلال أجنبى قد حلّ بالبلاد، فإن هذا شيئًا لا يمكن تصوره قبل أيام الآشوريين، فى القرن السابع قبل الميلاد، وبعد ذلك بحوالى ستة عشر قرنًا، ونظن أن زيادة التسلل الأجنبى بسبب الضغط فى اسيا، كان سببًا فى دخول الدلتا أول الأمر، ثم تسربوا منها إلى داخل البلاد فى مجموعات صغيرة أو كبيرة، وبدهى أن التسلل لا يقاوم حين تكون فى البلاد حكومة مركزية متعطلة، وكانت هذه هى الحال وقت ذاك[٢].

وتقدم لنا تحذيرات «إيبو ـ ور» صورة لهذا التسلل، حيث يقول: «ما الذى جعل الأرض الحمراء (الصحراء) تنتشر فى طول البلاد وعرضها، خربت الأقاليم وجاء الهمج الأجانب إلى مصر... لا يوجد فى الحقيقة أناس فى أى مكان... ويمشى ذو الأخلاق الريمة وهم محزونون لما أصاب البلاد، أصبح الأجانب أناسًا فى كل مكان، لماذا لم تصبح أرض المراعى فى الدلتا مكانًا مرهوبًا، إن سرّ الأرضى الشمالية أصبح معروفًا، انظر: إنها أصبحت فى أيدى أولئك الذين لم يعرفونها، وصار الأجانب مهرة فى أشغال الدلتا[٣].

وهكذا تثبت هذه الكلمات التدرج من تطفل الدخلاء، إلى حدوث الاضطراب، ثم أخيرًا الاندماج، واستيعاب البلاد لهم، فلقد أصبح الآسيويون مع مضى الزمن مصريين، وأخذوا يزاولون أعمال سكان الدلتا[٤].

(1) H. Frankfort, op.cit., p. 95.
(2) W.C. Hayes, The Scepter of Egypt, I, p. 135-136.
(3) A.H. Gardiner, The Admonitions of An Egyptian Sage, Leipzig, 1909, p. 37-38.
(4) J.A. Wilson, ANET, p. 442.

أما عن الغزو الجنوبي، والذي يقدمون له من أدلتهم، مجموعة من تماثيل أبو الهول وجدت في تانيس بالدلتا، كما أن دماء ملوك الأسرتين الحادية عشرة والثانية عشرة بها دماء نوبية[١]، فربما كانت هذه التماثيل ترجع إلى فترة أخرى من فترات التاريخ المصري القديم وحتى لو كانت ترجع إلى هذه الفترة التي نحن بصددها، وأنها وجدت في مدينة «الكاب»، وأن دماء ملوك الأسرتين الحادية عشرة والثانية عشرة بها دماء نوبية، وإن هذه التماثيل لهؤلاء الملوك، فالرد على ذلك أن منطقة الكاب منطقة مصرية، وهي المحافظة الثالثة من محافظات الصعيد، من ناحية الجنوب، وكانت عاصمتها «نخن» (البصيلية) ـ والتي تقع عبر النهر تقريباً، وهي في نفس الوقت كانت عاصمة مصر العليا فيما قبل التوحيد ـ ثم إن «نبوءة نفرتي» تروى عن «أمنمحات الأول»، مؤسس الأسرة الثانية عشرة، إنه ملك من الجنوب، يدعى «إميني» ابن امرأة من «تاستي»، طفل من «خن نخن»، و«تاستي» اسم أول محافظات الصعيد من الجنوب، وكانت عاصمتها «إليفانتين» (جزيرة أسوان)، وكان معظم سكانها من العنصر النوبي[٢]، فإذا أضفنا إلى ذلك أن «أمنمحات» ولد في «نخن» على الأغلب[٣]، فربما أمكن القول أنه مصري من مدينة «نخن» (البصيلية)، وأمه من إليفانتين (أسوان) ومن ثم فهو مصري من أم نوبية، ورث الدم المصري عن أبيه، كما ورث الدم النوبي عن أمه، هذا إذا سلمنا بأن أمه من النوبيات القاطنات في مقاطعة «تاستي» (إليفانتين)، أضف إلى ذلك أن المنطقة شمال أسوان، وحتى نهاية المحافظة، بحكم أنها تجاور بلاد النوبة، كانت ـ وظلت وحتى بناء السد العالي ـ على اتصال بشرى ببلاد النوبة.

وهكذا فإن الدليلين يكادان يتركزان في منطقة «نخن ـ الكاب» (أي البصيلية ومجاوراتها عبر النهر)، مما يجعلني أتردد كثيراً في قبول هذه الغزوة، ومن ثم فالرأي عندي أن ملوك الأسرتين الحادية عشر والثانية عشرة، إنما هم من هذه المنطقة، وأن سحنتهم القريبة الشبه بسحنة النوبيين طبيعية فيهم ـ بخاصة إذا سلمنا بأن أم «أمنمحات الأول» نوبية، هذا فضلا عن أن الدماء

(1) W.M.F. Petrie, A History of Egypt, I, 1924, p. 126.

(2) A.H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, p. 128.

(٣) نجيب ميخائيل، المرجع السابق، ص ٣٢٠.

العربية فى أهل المنطقة الحاليين، ربما أبعدتهم كثيراً عن هذه السحنة، وأما الغزو الليبية، فربما كان اعتماد «بترى» فيها على أن الغزاة كانوا ملتحين بلحى وشوارب قصيرة، كما يبدو من الخراطيش[١]، إلا أنه لا توجد أدلة تؤكد انتساب ملوك إهناسية إلى الأصل الليبى، فليس فى أسماء أولئك الحكام ولا فى أسلوب حكمهم ومظاهره، مما يشير إلى بعد أصلهم عن مصر، وقد يكون لموقع المدينة أثره فى زعم الرواة والمؤرخين، فهى إنما تقع فى مكان كانت القوافل تفضل النزول فيه عند الوادى، أو الخروج إلى الواحات، وهى بذلك كانت أول حاضرة تطالع الوافد من صحراء الغرب، وفيها نزلت تلك القبيلة الليبية التى خرج منها «شيشنق الأول»، مؤسس الأسرة الثانية والعشرين، ولعل تلك الواقعة قد أثرت فى أصحاب الرأى القائل بالرجوع بأصل حكام إهناسية إلى واحات الصحراء الغربية[٢]، وهكذا لا يوجد دليل مادى أو أدبى قاطع يؤكد تلك الغزوة.

---

(1) W.M.F. Petrie, A History of Egypt, I, London, 1924, p. 129.

(٢) أحمد بدوى، فى موكب الشمس، الجزء الثانى، القاهرة ١٩٥٠، ص ١٧-١٨.

الباب الثالث

الأحداث السياسية

فى عصر الثورة الاجتماعية الأولى



الفصل الأول

الأسرتان السابعة والثامنة

(١) الأسرة السابعة

يجمع المؤرخون - أو يكادون - على أن عصر الثورة الاجتماعية الأولى - أو عصر الانتقال الأول - إنما يشمل الأسرات: السابعة والثامنة والتاسعة والعاشرة، وإنه ينتهي في أيام «منتوحتب الأول» (نبت حبت رع)، الذى يكتب له نجحاً بعيد المدى في القضاء على الفوضى، وإعادة توحيد أرض الكنانة من جديد - كما فعل سلفه البعيد مينا من قبل - ويذهب «سير آلن جاردنر» إلى أن العقدة الحقيقية في الأمر عقدة تأريخية، فهناك خلاف كبير بين المؤرخين عن طول هذه الفترة، ولئن اتفقت معظم الآراء الحديثة على تقدير الفترة من عهد الملكة «نيتو كريس» إلى نهاية حكم الملك «منتوحتب الأول» بمائتين إلى مائتين وخمسين عاماً، فهذا لا يعدو أن يكون مجرد تخمين[1].

وعلى أية حال، فهناك من يقدر عصر الثورة الاجتماعية الأولى، والذى يبدأ منذ أخريات الأسرة السادسة (حوالى عام ٢٢٨٠ق.م)، وينتهى بقيام الدولة الوسطى (حوالى عام ٢٠٥٢ق.م) - أى أن عصر الثورة استمر (حوالى ٢٢٨ عاماً) فى الفترة (٢٢٨٠-٢٠٥٢ق.م).

هذا ويذهب المؤرخ المصرى السمنودى «مانيتو - أو مانتون» (حوالى ٣٢٣-٢٤٥ق.م) إلى أن ملوك الأسرة السابعة، إنما هم «سبعون ملكاً»، حكموا سبعين يوماً فى «منف».

ويرجح «وليم هيز» (١٩٠٣-١٩٦٣م) أن هذا إنما هو حكم طارئ، اتخذ من منف مقراً له، ليحل محل الملكية المنهارة فى أخريات أيام الدولة القديمة، ولعله حكومة خاصة شكلت من مجلس شورى، أعضاؤه من الصفوة الممتازة من الحكام الذين عاشوا من سلالة ملوك الأسرة السادسة، أو من كبار الموظفين وحكام الأقاليم، الذين كونوا من أنفسهم هيئة حاكمة يطلق على كل واحد من أولئك السبعين لقب ملك أو حاكم، غير أن هذا

(1) A.H. Gardiner, op.cit., p. 102.

النوع من الحكم الذى لم يعهده القوم، لم يجد منهم قبولا، فلم يعش أكثر من سبعين يوما[١].

وعلى أى حال، فسواء أصح هذا، أم أن حكم الأسرة السابعة في منف لم يزد عن عدة شهور[٢] أو أنها حكمت سنوات سبع[٣] أو جتى خمس وسبعين سنة[٤] فإن كل هذا إنما يشير إلى الفوضى التى عمت البلاد، وإلى أن القائمين بالأمر فيها لم يكونوا على قوة تمكنهم من تدعيم حكمهم واستقراره، اللهم إلا إذا كانت فترة حكمها خمسة وسبعين عاما، حكمها خمسة ملوك، ففى هذه الحالة تكون فترة الحكم مناسبة، وأيا ما كان الأمر فإن هذه الأسرة ذهبت - سواء بعد حكم طويل أو قصير - دون أن تخلف من ورائها شيئا يذكرها، أو يذكر الناس بها.

---

(١) أحمد فخرى، مصر الفرعونية، القاهرة ١٩٧١، ص ١٦٣؛ وكذا:
William C. Hayes, The Scepter of Egypt, I, New York, 1953, p. 136.

(٢) أحمد فخرى، المرجع السابق، ص ١٤٦.

(3) J. Vercoutter, L'Egypte Ancience, Paris, 1963, p. 66; W.S. Smith, CAH, I, part 2, Cambridge, 1971, p. 197.

(٤) يرى «سمث» أن الأسرة السابعة حكمت فى الفترة (٢١٨١-٢١٧٢ق.م) وأن ملوكها هم:
١- نفر كارع الصغير. ٢ - نفر كارع نبى. ٣ - جد كارع شماى.
٤ - نفر كارع خندو. ٥ - مرى إن حور. ٦ - نفر كامين.
٧ - نى كا رع. ٨ - نفر كا رع تيريرو. ٩ - نفر كا حور.
انظر: J. Vercoutter, op.cit., p. 66; W.S. Smith, CAH, I, part 2, p. 197.

(٢) الأسرة الثامنة

قامت الأسرة الثامنة في «منف» - فيما تروى بردية تورين - وقد دفن أكثر ملوكها في «سقارة»[١] الجنوبية - على مقربة من هرم «بيى الثاني» -.

غير أن هناك من يذهب إلى أنها قامت في الصعيد الأعلى، وكان «كورت زيته» (١٨٦٩-١٩٣٤م) صاحب فكرة قيام الأسرة الثامنة في مدينة «قفط» - على مبعدة ٢٢ كيلا جنوبي قنا، وهي الآن إحدى مراكز محافظة قنا -.

هذا وقد اعتمد ذلك - في رأيه هذا - على المراسيم المشهورة التي وجدت في معبد الإله «مين» بقفط، والتي منحها آخر ثلاثة من ملوك هذه الأسرة للأسرة الحاكمة هناك[٢]، وأنها حكمت البلاد من «قفط» (جبتو حيتيو = كبتوس)، طوال عشر سنوات على رأي، واثنتى عشرة سنة على رأي آخر، وأربعين سنة على رأي ثالث[٣].

---

(١) سقارة: أهم مناطق جبانة منف، وتقع على حافة الصحراء الغربية على مبعدة حوالي ٢٥ كيلا جنوبي هضبة الجيزة، ويغلب على الظن أنها اشتقت اسمها من الإله المصرى القديم «سوكر» إله الموتى، وتنقسم إلى سقارة الشمالية وسقارة الجنوبية، وتمتد بطول الصحراء عدة كيلو مترات في مواجهة منف، وتعد من أغنى المناطق بالآثار - سواء ما اكتشف منها، أو مازال مطموراً تحت الرمال - وأما أهم آثارها، فهرم زوسر المدرج، وأهرامات الأسرتين الخامسة والسادسة، والتي أشهرها أهرام: وناس وتتي وبيى الأول، إلى جانب مصاطب الرجال الموظفين والنبلاء، والتي من أشهرها مقابر «بتاح حتب»، «وتى» «ومرروكا» و«كاجمنى» و«محو»، وأخيراً فهناك السرابيوم أو مدفن العجول ومقابر من العصر الباكر، وجبانات من العصر المتأخر، والعصر اليوناني الروماني. (الموسوعة المصرية، ٢٧١/١-٢٧٢).

(2) W.C. Hayes, Royal Decrees From The Temple of Min at Coptos, JEA, 32, 1945, p. 3-23.

(٣) ذكر مانيتو أن عدد ملوك الأسرة ١٨ ملكاً، ولكنه لم يذكر أسماءهم، وذهبت قائمة أبيدوس إلى أنهم ١٧ ملكاً، وحفظت بردية تورين أسماء لثمانية، وأما قائمة سقارة فقد تجاهلت الملوك من بعد «بيى الثاني»، وحتى أول الأسرة الحادية عشرة، وقد رتب «سمث» ملوك الأسرة الثامنة كالتالي:

١ - واج كا رع بيى سونب ٢ - نفر كامين آنى ٣ - كا كارع أبى
٤ - نفر كا رع ٥ - نفر كا حور ٦ - نفر كامين
٧ - نى كا رع ٨ - نفر كا رع ترور ٩ - نفر كا حور
١٠ - نفر كا رع بيى سونب ١١ - نفر كا مين عنو ١٢ - كا كارع أبى
١٣ - واج كا رع شع باور ١٤ - نفر كا حور ترى باور ١٥ - نفر كا رع (دمج إيب تاوى)

انظر:

W.S. Smith, op.cit., p. 197-200; W.C. Heyer, The Scepter of Egypt, I, 1983, p. 134.

هذا ويذهب «هانزشتوك» إلى أنه منذ عهد «جد كا رع شماى» - الملك الثالث من الأسرة السابعة - قامت الأسرة الثامنة فى «قفط» أو «أبيدوس»(١) ومؤسسها «نشر كا رع»، كما بدأت أسرة أخرى فى «إهناسية»، وهى الأسرة التاسعة(٢)، ولعل الجديد فى رأى «شتوك» أنه جعل الأسرات : السابعة والثامنة والتاسعة، تكاد تعاصر بعضها البعض الآخر، غير أن هذا الاتجاه لم يقبله إلا الدكتور «أوتو»(٣).

هذا وقد أثبتت «وليم هيز» منذ عام ١٩٤٦م، أن الأسرة الثامنة من منف، وأنها لم تحكم سوى فترة قصيرة، وأن هذا الحكم إنما كان فى «منف» وليس فى «قفط»(٤)، وأنه لا يوجد أى سند لما ذهب إليه دارسو التاريخ المصرى القديم من أن الملوك الذين أصدروا المراسيم الخاصة بمعبد الإله «مين» فى «قفط» - والتى كشفت عنها ريموند فيى فى ١٩١٠/ ١٩١١م(٥) - كانوا أعضاء فى أسرة مالكة فى «قفط» نفسها، أو فى أبيدوس(٦) بسبب وجود أسمائهم فى قائمتها(٧).

ويذهب «هيز» إلى أن المراسيم إنما قد أرسلت من العاصمة «منف» إلى حكام «قفط» الأقوياء، والذين كانوا على صلة من نوع ما بفرعون، فقد تكون صلة مصاهرة - كما يبدو من بعضها، وقد تكون صلة ولاء كالتى تربط حكام أسيوط بفراعين إهناسية، ولعل مما يؤيد هذا الفرض الأخير، أن هذه المراسيم، إنما كانت من نوع الامتيازات التى اعتاد الملوك الضعاف منحها للحكام الأقوياء ليضمنوا ولاءهم، وهكذا كانت هذه المراسيم لمصلحة الأساس الجنزى لمعبد الإله «مين» فى مدينة «قفط»، ولمصلحة الأسرة الحاكمة فى «قفط» كذلك(٨).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة هنا إلى أن الكثير من ملوك الأسرة

---

(1) W.S. Smith, op.cit., p. 198-199.
(2) H. Stock, Die Erste Zwischenseit Aegyptens, Rome, 1949.
(٣) أحمد فخرى، المرجع السابق، ص ١٦٤؛ W.F. Albright, BASOR, 119, 1950, p. 29.
(4) JEA, 32, p. 3-23.
(5) R. Weill, Les Decrets Royaux de l'Ancien Empire Egyptien, Paris, 1912.
(6) JEA, 32, 1946, p. 3; W.C. Hayes, The Scepter of Egypt, I, p. 135.
(7) H. Stock, Die Brste Ewisedenseit Agyptens, Rome, 1949.
(8) W.C. Heyes, The Scepter of Egypt, I, 1953, p. 136.

الثامنة إنما قد حملوا أسماء بعض ملوك الأسرة السادسة، فوجود لقب «نفر كا رع» الذى كان اسماً للملك «ببى الثانى» - إما ككل أو كجزء فى ألقاب ستة من الأسماء التى تقدمها قائمة أبيدوس - إنما يبين مدى إحساس تمسك هؤلاء الحكام الصغار بأكثر فراعين الأسرة السادسة توقيراً واحتراما[١]، هذا إلا أنهم قد دفنوا، أو عملوا على أن يدفنوا فى سقارة الجنوبية، على مقربة من هرم «ببى الثانى»[٢].

ولعل هذا كله هو الذى دفع «إدوارد مـاير» إلى أن يرى فى أولئك الحكام ورثة شرعيين لملوك الأسرة السادسة، وإن ذهب أستاذنا المرحوم الدكتور أحمد بدوى - طيّب الله ثراه - أن إقبال هؤلاء الحكام على هذا اللون من الأسماء، إنما كان بهدف سياسى، قصد به إرضاء الساخطين من منف - كما فعل ملوك إهناسية، وبعض ملوك الهكسوس - ومن ثم فإن قائمة سقارة قد أهملتهم، مما يدل على أنها قد اعتبرتهم غير شرعيين، لبعدهم عن البيت الحاكم أو خروجهم عليه[٣].

ويذهب «وليم هيز» إلى أن «نفر كا رع» - مؤسس الأسر الثامنة - إنما كان ابناً أو حفيداً للملك «نفر كا رع» - ببى الثانى، والملكة «عنخس إن ببى»، وكان يسمى الصغير بالمقارنة بأسلافه السابقين الذين انتحل اسمهم، وأنه واحد من ثلاثة ملوك ذكروا فى بردية تورين، حيث خصص له مدة حكم قدرها أربع سنوات، وهى أطول فترة لواحد من الثلاثة، وقد بنى هرمه بسقارة الجنوبية وسماه «بقاء حياة - جد عنخ - نفر كا رع»، وقد دفنت فيه أمه أو جدته «عنخس إن ببى» فى تابوت حجرى مقصب، وأمدها بلوحة من الحجر عليها اسمه[٤].

وهكذا نرى أن ملوك الأسرة الثامنة يحاولون الانتساب - بحق أو بغير حق - إلى ملوك الأسرة السادسة ليسبغوا على ملكهم الصفة الشرعية، بصفتهم خلفاء شرعيين لأسلافهم، كما حاولوا الاعتماد على بعض الأسر القوية فى الأقاليم فصاهروهم كما منحوهم بعض الامتيازات، وقد كشف

(1) A.H. Gardiner, op.cit., p. 108.

(2) W.C. Heyes, op.cit., p. 136.

(٣) أحمد بدوى، فى موكب الشمس، الجزء الثانى، ص ١٣.

(4) W.C. Heyes, The Scepter of Egypt, I, p. 135.

«ريمو فيي» في عام ١٩١١/١٩١٠م في مدينة «قفط» عن مرسوم أصدره الفرعون «نفر كا حور» (نترى بارو)، ومحفوظ الآن بمتحف المترو بوليتان في نيويورك، وقد جاء فيه: «إلى المحبوب من الإله، الأمير بالوراثة، ربيب الملك شيماى، وقد ختم في حضرة الملك نفسه، وأن زوجته ابنة الملك الكبرى، محبوبة الملك الوحيدة، والتي لها أسبقية على كل النساء، ثم يعين قائد الجنود «خرودونى» (تشورتى) لحراستها، وهكذا يعطى هذا المرسوم الأولوية لزوجة «شيماى» على جميع النساء، كما يلقب المرسوم هذه السيدة بلقب «ابنة الملك الكبرى»[١].

وهناك مرسوم آخر يسجل تعيين ابن «شيماى» المدعو «إيدى» حاكماً على الأقاليم السبعة الجنوبية من أقاليم الصعيد، بعد وفاة أبيه شيماى، والذى كان يحكم الأقاليم الاثنين والعشرين من مصر العليا من غير الملك «نثرى باور»، وقد جاء في هذا المرسوم «إلى الحاكم، رئيس الكهنة إيدى، لقد عينت مشرفاً وحاكماً ورئيساً للكهنة في مصر العليا، من النوبة جنوباً، وحتى إقليم سنتروم (ديوسبوليس بارفا = هو الحالية على مبعدة ٥ كيلا من نجع حمادى) شمالا، في مكان والدك، محبوب الإله، الأمير بالوراثة، رئيس مدن الهرم، الرئيس المبرور، الوزير، حارس المحفوظات الملكية، حاكم مصر العليا رئيس الكهنة شيماى، ليس لأحد في الادعاء ضده»[٢].

ومن عجب أن هذه المراسيم لا تظهر لنا الفوضى التي سادت البلاد وقتئذ، بل ليس في واحد منها ما يشير، من قريب أو بعيد، إلى القلق أو الاضطراب السياسي، وإن استطعنا أن نخرج منها باللهفة البائسة من جانب الملك، بغية استرضاء عظيم معين من عظماء الصعيد الأقوياء[٣].

ولعل من الأهمية بمكان أن بعضاً من الباحثين إنما يرى في وجود أسماء ذات طابع سورى من أمثال «خندو» أو «خندى» عل خاتم اسطوانى أو «ترور» على جعل أو في نص متأخر، أن الأسرة الثامنة أسرة غير مصرية، وأن ملوك الأسرتين التاسعة والعاشرة المصريتين هم الذين أزاحوا هؤلاء

(1) ASAE, LV, p. 174; A.H. Gardiner, op.cit., p. 108; W.C. Heyes, JEA, 32, 1945, p. 14.

(2) W.C. Heyes, JEA, 32, 1946, p. 16.

(3) A.H. Gardiner, op.cit., p. 109.

الحكام السوريين الذين كونوا الأسرة الثامنة، وأن هناك مقاومة حدثت، وأنهم تحصنوا في «أتريب» في بنها الحالية) كعاصمة مؤقتة لهم، وأنهم استقدموا عن طريق وادى طميلات عدداً من القبائل الجوالة في الصحراء والذين هم أنفسهم على علاقة نسب وثيقة بهم[١].

على أن «وليم هيز»، إنما يذهب إلى أنه على الرغم من أن بعض الأسماء من طراز آسيوى، فإن الأسرة الثامنة ليست من أصل اسيوى، أو على الأقل فمن المحتمل ألا تكون كذلك[٢].

وعلى أى حال، فإن أمور البلاد على أيام الأسرة الثامنة إنما هي جد قلقة، ففي الدلتا كانت عصابات البدو، وقطاع الطرق، الذين تسللوا إلى البلاد منذ أخريات أيام «بيى الثانى» قد أصبحوا يتجولون فى كل الدلتا، وقد انقطعت أخبارها المباشرة عنها، أما البعثات إلى سيناء لاستخراج الفيروز، فقد توقفت ولم تستأنف حتى قبيل أيام الأسرة الثانية عشرة[٣]، وأما فى الصعيد الأقصى فقد كانت الأمور غير مستقرة، ذلك لأن سلطان «قفط» لم يجد قبولا حسناً من حكام الأقاليم الجنوبية الثلاثة، والتى تكون الآن محافظة أسوان تقريباً (البصيلية وإدفو وأسوان) فقامت الحرب هناك وإن انتهت بانتصار «طيبة» و«قفط» وغلبتهما على «عنخ - تيفى» الذى ناصبهما العداء[٤].

وانتهت الأسرة الثامنة دون أن ندرى كيف انتهت على وجه اليقين، وتصبح البلاد أقساماً ثلاثة، ففى الشمال كانت جحافل الآسيويين، وفى الجنوب التفت البلاد حول أمراء «طيبة»، وليس «قفط»، وإن كنا لا نعرف كيف اختفى حكام «قفط»، وهم الذين كانوا أصحاب الجاه والسلطان فى المقاطعات الجنوبية، وربما كان ذلك بعد هزيمتها لأمير نخن «عنخ - تيفى»، أما فى مصر الوسطى، فقد انتهز حكام إهناسية فرصة ضعف الملك «دمج إيب تاوى» - آخر ملوك الأسرة الثامنة - وأقاموا بيتاً جديداً للحكم فى إهناسية، قدر له أن يحكم البلاد فى الأسرتين التاسعة والعاشرة، وعرف فى التاريخ باسم «العصر الإهناسى»[٥].

(1) H.Frankfort, JEA, 12, 1926, p. 98.
(2) W.C. Heyes, The Scepter of Egypt, p. 136.
(3) A.H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, p. 110.
(4) J. Vandier, Moalla, Cairo, 1950.
(5) W.S. Smith, CAH, I, part 2, 1971, p. 198.



الفصل الثانى

العصر الإهناسى (الأسرتان التاسعة والعاشرة)

(١) الأسرة التاسعة:

كان مؤسس الأسرة التاسعة هو «خيتى» الأول (مرى - إيب رع)[١]، ويبدو أنه بدأ حكمه بنوع من الشدة التى قصد بها تأييد ملكه، والذود عنه، ورددت الأجيال شدته وضخمت فيها، حتى أننا نرى «مانيتو» يصفه بأنه من بين التسعة عشر ملكاً إهناسياً، والذين حكموا (٤٠٩) عاماً، كان «خيتى الأول» أبعث للرعب من كل من سبقوه، وأنه كان يفعل الشر فى مصر كلها، ولكنه وقع بعد ذلك فريسة الجنون، وافترسه تمساح[٢]، وربما كان «مانيتو» صادقاً فيما رواه عن قسوة «خيتى» (إختوى)، فظروف البلاد ربما هى التى دفعته إلى ذلك، فالبدو يتحكمون فى الدلتا، وحكام الصعيد يتنافسون فيما بينهم على السلطان، وهو نفسه محاط بمنافسين حاقدين، وربما كان ذلك هو السبب، وربما لأن شهرته بالقسوة أتت لأن الذين نافسوه كثيرين، ولأنه وصل حين تخلف الزعماء جميعاً.

وعلى أى حال، فإن «مرى إيب رع» (المحبوب من قلب الأرضين) لم يتردد - تأكيداً لدعواه - فى أن يظهر نفسه بألقاب فرعونية كاملة، ولابد أنه كانت له صفات شخصية غير عادية، استطاعت أن ترتفع به إلى هذا المستوى العالى، وليس لدينا مما يؤكد وجوده سوى موقد نحاسى فى اللوفر، وعصا للتوكؤ من الأبنوس، عثر عليها فى «مير» (مركز القوصية، بمحافظة

---

(١) اختلف المؤرخون فى ترتيب ملوك الأسرة التاسعة، فذهب فريق إلى أنهم:
١ - واح كا رع. ٢ - مرى إيب رع. ٣ - نب كا رع. ٤ - مرى كا رع.
وذهب آخرون إلى أنهم:
١ - مرى إيب تورى. ٢ - واح كا رع. ٣ - نب كاو رع.
وذهب فريق ثالث إلى أنهم :
- مرى إيب رع (خيتى الأول). - اسم ملك مهشم. - نب كاو رع (خيتى الثانى).
- سنوب. - خيتى (ربما خيتى الثالث). - ثم أسماء مهشمة لا يمكن قراءتها. انظر:
A.H. Gardiner, op.cit., p. 112; E. Drioton et J. Vandier, L'Egypte, p. 629; H. Geuthier, Le Livre des Rois d'Egypte, I, Cairo, 1907, p. 184-210.

(2) F. Daumas, Le Civilization De L;Egypte Pharaonique, Paris, 1965, p. 575; A.H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1964, p. 575.

أسيوط)، ثم أشياء أخرى قليلة الأهمية[١]، منها قطعة فى صندوق عاجى، مع نقوش طمعت بأحجار نصف كريمة، اكتشفتها بعثة متحف المتروبوليتان في «اللشت»[٢] (إيثت تاوى = على مبعدة ١٨ كيلا إلى الجنوب من منف)، هذا وقد عثر للملك مرى إيب رع» على مجموعة من النصائح، منها قوله: «على من يريد أن يعيش آمنا أن يكون مستعداً للحرب».

وهناك شك فى أن حكمه قد امتد إلى الدلتا، التى بقيت فى قبضة الآسيويين أما فى الجنوب فقد امتدت نفوذه حتى «ثنى» (أبيدوس)، وإن وجد اسمه فى نقوش عند الشلال الأول[٣]، ورغم أن هناك من يرى فى ذلك دليلا على امتداد نفوذه حتى أسوان، فإن أمراء طيبة إنما قد تزعموا الأقاليم الجنوبية ضده، حتى نجحوا آخر الأمر فى القضاء على البيت الإهناسى كله، مؤسسين الأسرة الحادية عشرة.

وهناك اختوى آخر، لقب نفسه «نب كاو رع» نعرفه عن طريق ثقل ميزان، عثر عليه «فلندرز بترى» فى «بشيوم» (تل الرطابة)[٤]، فضلا عن ورود اسمه فى الأعمال القصصية المصرية القليلة التى بقيت لنا كاملة، وهى «قصة الفلاح الفصيح»، والتى تروى قصة فلاح من الواحة المتاخمة لوادى النطرون، كان قد اغتصب حماره، وكذا بضائعه، وهو فى الطريق إلى إهناسية، ولكنه قذف بشكواه إلى مولى السارق فى فصاحة دفعت إلى احتجازه، حتى تتم كتابة توسلاته وعتبه ولومه وسبابه، كى يدخل السرور إلى نفس الملك «نب كاو رع»[٥].

(1) ASAE, 10, 1910, p. 185; W.C. Hayes, op.cit., p. 143; H. Gauthier, op.cit., I, p. 504.

(2) W.M.F. Petrie, A History of Egypt, I, London, 1924, p. 131-132.

(3) A.H. Sayce, Letter From Egypt, in The Academy, 41, 1892, p. 333; W.C. Hayes, op.cit., p. 143.

(4) W.M.F. Petrie, Rec. Trav, XL, p. 188; A.H. Gardiner, op.cit., p. 112.

(٥) يجمع المؤرخون على أن قصة الفلاح الفصيح قد حدثت فى عهد الملك «نب كاو رع»، ولكنهم يختلفون فى مكانه من العهد الإهناسى، فالبعض يرى أنه من ملوك الأسرة التاسعة، بينما يرى فريق آخر أنه من ملوك الأسرة العاشرة، بل إن هناك من يراه آخر ملوك العهد الإهناسى كله، وأنها كتبت فى عهد الأسرة الحادية عشرة على الأقل. (أحمد فخرى، مصر الفرعونية، ص١٧١؛ الكسندر شارف، تاريخ مصر، ص ٧٧؛ وكذا:
A.H. Gardiner, op.cit., p. 112; W.C. Heyes, The Scepter of Egypt, I, N.Y., 1953, p. 145.

وكان البيت الإهناسى يزداد ضعفاً على أيام الأسرة التاسعة، وفى نفس الوقت كان حكام الأقاليم يزدادون قوة، حتى جاء اليوم الذى زال فيه حكم هذه الأسرة وتلتها أسرة أخرى، هى «الأسرة العاشرة»[١]، أظهرت شيئاً من النشاط، وبدأ الظلام المخيم علي تاريخ مصر ينقشع رويداً، فنرى خلاله بعض أشباح تتحرك ثم نرى هذه الأشباح تتحول إلى قوى تتطاحن فيما بينها، وتدخل مصر مرة أخرى فى فترة استيقاظ[٢].

(٢) الأسرة العاشرة:

كان «مرى - حاتحور» هو مؤسس الأسرة العاشرة، وقد عرفناه من نص مشوه، عثر عليه فى محاجر «حتنوب»[٣]، وأما خليفته «نفر كا رع» فقد ورد اسمه فى بردية تورين، وأما ثالث ملوك الأسرة فهو «واح كا رع» (إختوى الثالث أو الرابع فيما يرى البعض)، وهو صاحب الإرشادات التى وجهت إلى الملك «مرى كا رع»، والتى تحدثت عن «الحرب الأهلية» بين طيبة وإهناسية، والتى دارت رحاها - فيما يرى القوم - على الأرض المقدسة فى «ثنى» (أبيدوس) بسبب النزاع على ملك الصعيد، وليس على أبيدوس فحسب، وانتهت بانتصار طيبة مؤقتاً، وخروج الأرض المقدسة من يد فرعون إهناسية.

وهناك ما يشير إلى أن أيام «خيتى الثالث» (واح كا رع) إنما كانت أيام حروب فهناك النزاع بينه وبين البدو الآسيويين والذى حاول فيه أن يطهر الذات من الأجانب المغتصبين، ويذهب البعض إلى أن الرجل قد كتب له نجحاً بعيد المدى فى تطهير الدلتا منهم[٤]، وإن ذهب فريقآخر إلى أن ذلك لم يتم إلا بعد توحيد مصر، وبناء حائط الأمير[٥].

(١) رتب البعض ملوك الأسرة العاشرة كالتالى، مرى حاتحور، نفر كا رع، واح كارع، مرى كارع، خيتى الخامس، وهناك بعض الملوك الذين حكموا فى عصر الثورة الاجتماعية الأولى، ولم يستطع المؤرخون تحديد مكانهم فى هذا العصر، وهم: إيمحوتب، إبى ، سخم كا رع، وأخيراً جسر - نوب.

(٢) أحمد فخرى، المرجع السابق، ص ١٦٩.

وتقع محاجر المرمر فى «حتنوب» على مبعدة ٢٧ كيلا فى الصحراء، شرق العمارنة، وكشف عنها «نيوبرى» عام ١٨٩١م، وبها كتابات من الأسرة الرابعة وحتى السادسة.

(3) R. Anthes, Die Felseniuschriften Von Hetnub, Leipzig, 1828, pl. 7,p. 14.

(٤) الكسندر شارف، المرجع السابق، ص ٧٤؛ إيتين دريوتون وجاك فانديه، المرجع السابق، ص٣٤٣.

(5) H. Frankfort, Egypt and Syria in The First Intermediate Period, JEA, 12, 1926, p. 99.

وعلى أى حال، فإن خيتى إنما يوجه النصح لولده بأن يكون مستعداً لكل احتمال، وأن يهتم بتحصين «منف» ولتسهيل المواصلات بينها وبين مقر الملك فى «إهناسية»، فعليه أن يقوم بحفر قناة (وربما جسر) طولها ٨٨ كيلا، لتربط المدينتين الواحدة بالأخرى، ولعل ذلك قد يشير إلى أن «منف» - رغم إقامة الملك فى إهناسية - إنما قد ظلت مركزاً للإدارة، ومستقراً للمقابر الملكية[١].

وجاء بعد «واح كا رع» واستقبلته مصر الوسطى بثورة ضده، وطبقاً لنص «ولاه «خيتى» - محافظ أسيوط، فقد قضى مؤقتاً على هذا التمرد، وأنه أراد أن يعبر عن شكره من أجل هذا التوفيق الكبير، فأمر بإجراء إصلاحات ضخمة فى معبد الإله «وب واوة» الإله «ابن آوى» معبود أسيوط[٢]، ويبدو أن «مرى كا رع» لم يعش بعد ذلك طويلاً، فودّع الدنيا بعد أعوام قلائل، ثم دفن فى منف، على مقربة من مقبرة الملك «تتى» من الأسرة السادسة فى هرم يسمى «إشراق مرى رع الدائم»، وفى هذا ما فيه من تحريف ضخم للحقيقة[٣] ولا يزال المتحف المصرى بالقاهرة يملك له تمثالا. ويبدو أنه لم يترك خلفاً يرث العرش من بعده فانتهت به الأسرة، وإن كان هناك من يرى أن «اختوى» (خيتى الخامس) قد خلفه على عرش إهناسية، وأنه لم يعش على العرش طويلاً، إذ عاودت جيوش طيبة هجومها فقضت على عائلة إهناسية، وأخضعت مصر كلها، وبدأت الأسرة الحادية عشرة عهداً جديداً وعادت مصر إلى وحدتها القديمة يحكمها ملك واحد، كما بدأت أيضاً الدولة الوسطى[٤].

(٣) الفوضى السياسية فى عصر الثورة الاجتماعية الأولى:

قدمت لنا الوثائق الأدبية الكثير من الأدلة على أن الشعب المصرى، إنما قد قام بثورة عاتية ضد الأوضاع السياسية والاجتماعية التى اشتد فسادها، ويفهم من الوثائق أن الثورة قامت فى العاصمة «منف» فى بادئ

(1) W.G. Hayes, op.cit., p. 144.
(2) A.H. Gardiner, op.cit., p. 114.
(3) W.C. Hayes, op.cit., p. 144.

(٤) أحمد فخرى، المرجع السابق، ص ١٧١.

أمرها، ثم سرعان ما انتشرت فيما وراءها من الأقاليم، وإن رأى البعض أن العمل الثورى إنما قد اقتصر على منطقة منف، وجزء من مصر الوسطى، وأن مصر العليا لم يصبها من الثورة سوء[١].

هذا وقد صاحب الثورة فى بدايتها كثير من العنف والرغبة فى التفتيت والانتقام فنزع الثوار عن الملكية ما بقى لها من قداسة، وأباحوا لأنفسهم نهب خزائنها، واقتحام دواوينها، وأضاعوا حرمة محاكمها، وألقيت قوانينها فى العراء، ومزقها العامة فى الشوارع، وانتشرت الفتن الداخلية، وفقد الناس الأمن والأمان، حتى خيل للقوم أن شعار الثورة ومنطقها قد أصبح «اهدم ما استطعت أن تضرب بمعولك، واقتل من تستطيع أن تقتله، وخذ كل ما تصل إليه يدك»[٢].

وهكذا بدأت الثورة عنيفة عتية، ويبدو أنه قد أعوزتها القيادة الرشيدة، ومن ثم فقد استغلها بعض الغوغاء، وأهل السوء، ويقدم لنا الحكيم المصرى «إيبو ـ ور» وصفاً لبدايتها، جاء فيه: «يقول حراس الأبواب: فلننطلق ولننهب، وتنحى الغسال عن حمله، وأعد صيادو الطيور أنفسهم للمعركة، وحمل آخرون من الدلتا الدروع»[٣]، وهكذا احتل الغوغاء مكاناً فى الثورة منذ قيامها، ومن هنا فقد غلب عليها التدمير والنهب وسفك الدماء، حتى أنها لم تترك أحداً دون أن تصيبه بشرها.

ويصف «إيبو ـ ور» تلك المرحلة العصيبة من تاريخ الكنانة فى قوله: «تدور البلاد كما تدور رحى الفخار، حقاً إن البلاد قد امتلأت بالعصابات، لقد شحبت الوجوه، وأصبح الرماة متحفزين فى كل مكان، لقد انعدم رجل الأمن، ولكن اللصوص فى كل مكان»[٤].

وهكذا عمت الفوضى البلاد حتى شملت مخازن الحكومة، ودواوين الدولة، فمزقت القوانين وديس عليها بالأقدام ولم ينج من تلك الفتنة الهوجاء موظفى الدولة ومحاكمها، يقول «إيبو ـ ور» : «وفى الحق، لقد

---

(١) إتيين دريوتون وجاك فانديه، المرجع السابق، ص ٢٤٠.
(٢) أحمد فخرى، المرجع السابق، ص ٢٢٢.
(3) A. Eman, op.cit., p. 94.
(4) J.a. Wilson, The Admonitions of Ipu - Wer, ANET, p. 441.

سلبت قاعة المحاكمة الفاخرة، وأصبح المكان السرى مكشوفاً، لقد فتحت الإدارات العامة، ونهبت قوانينها، لقد سلب الموظفون ونهبت قوائمهم، لقد دمرت سجلات كتبة المحاصيل، وأصبحت غلال مصر متاعاً مشاعاً، لقد ألقيت قوانين دار القضاء فى البهو، وديست فى الشوارع، ومزقها الرعاع فى الأزقة، لقد أصبحت قاعة العدل العظمى مكتظة، وأخذ القوم يروحون ويجيئون فى دور القضاء العظيمة»[1]، وضاعت هيبة الحكومة، وتجرأ الناس على موظفيها فقتلوهم، وعلى قضاتها فنفوهم فى الأرض، يقول «إيبو ـ ور»: «وذبح الموظفون، وألقيت أوراقهم فى العراء، وطرد قضاة البلاد»[2].

ويصور «نفرتى» البلاد، وقد عزّ فيها الأمن، وسادتها الحرب الأهلية، فيقول: «إن البلاد فى كرب وعويل، لقد حدث ما لم يحدث من قبل، سيجعل الناس أسلحة الحرب، حتى تعبث الأرض فى قلق واضطراب، وسيصنع الناس أسلحة من النحاس حتى يلتمسوا الخبز بالدم، ويضحكوا ضحكة الموت، لن يبكى الناس من الموت، لقد أصبح الأب خصماً، والأخ عدواً، وأخذ الرجل يقتل أباه، واختفى كل شىء طيب، وخربت البلاد، وأصبحت أملاك الرجل تغتصب وتعطى للغريب، وغدا المالك فى حرمان، والأجنبى فى شبع ورفاهية»[3]

ويضيف «إيبو ـ ور» : «لقد أصبح الرجل يذبح أخاه من أمه، انظر، إن الرجل يذبح بجوار أرضه، وأخاه يتركه دون عون لينجو بنفسه، لقد أصبح الرجل ينظر إلى ولد نظرته إلى عـدوه، ويذهب إلى حـقله، وهو مـسلح بدرع»[4].

وقد انتهت هذه الأحداث الدامية آخر الأمر إلى انهيار الحكومة المركزية، التى كان القوم يعترفون فيها بأن «الملك ـ الإله» إنما كان هو الأقل والأقوى، ورخص السر الغامض، سر الطبيعة الإلهية للملك من جراء التنافس على الحكم، يقول «إيبو ـ ور»: انظر: لقد وصل بنا الأمر إلى الحد

(1) Ibid., p. 442.
(2) A.H. Gardiner, The Admonitions of An Egyptian Sage, Leipzig, 1909, p. 10.
(3) A. Erman, The Literature of The Ancient Egyptians, London, 1927, p. 113-114.
(4) A.Erman, op.cit., p. 99; J.A. Wilson, op.cit., p. 442.

الذى جعل الناس يثورون ضد حية التاج... التى كانت تهدئ الأرضين، انظر: لقد عرف سر البلاد التى لا يعرف أحد حدودها، إن القصر الملكى يمكن أن يهدم فى ساعة، وتصبح أسرار ملك مصر معروفة»[١]، هذا وقد امتدت الاضطرابات من منف إلى الأقاليم حيث هاجم العامة هناك المسيطرين عليهم، وفعلوا ما فعله سكان العاصمة من تخريب وتدمير، وسلب ونهب، بل نادت كل مدينة «فلنطرد الأقوياء من بيننا»[٢]، كما امتنعت بعض الأقاليم عن دفع الضرائب إلى الخزائن الملكية، كما فعلت ثنى والفانتين[٣].

ويزداد الأمر سوءاً، وينحرف الثوار ويسيرون فى طريق العنف والقوة، ويسيئون إلى المواطنين، حتى الأبرياء منهم، بل لم تقف ثورتهم عند حد فى أذاها، حتى الأطفال الرضع نالهم منها عذاب أليم، يقول «إيبو - ور»: «حقاً لماذا يقذفون الجدران بأبناء النبلاء، فالأطفال الذين كان أهلهم يدعون ربهم من أجلهم، أصبحوا يلقون فوق الأكوام»[٤].

وتنقلب الأوضاع الاجتماعية فى البلاد رأساً على عقب «فيعز الأذلاء، ويذل الأعزاء، وتكتب الحاجة على الأغنياء، ويغتنى الفقراء، ويصور «إيبو - ور» هذه الحالة، وانقلاب أوضاع الطبقات، ويقارن بين ما كان فى الماضى، وما يحدث فى ذلك الوقت، وربما كان الحكيم المصرى من طبقة أرستقراطية، ولم يكن من الهين عليه أن تزول النعمة منها إلى غيرها أقل منها منزلة، فهو يقول: «انظر: لقد حدث هذا بين الناس، فمن لم يكن فى قدرته أن يقيم حجرة أصبح الآن يملك فناءً مسوراً، إن الفضيلات الشريفات يرقدن على الفراش الخشن، والأمراء ينامون فى المخزن، ومن لم يكن فى إمكانه أن ينام على الجدران أصبح صاحب سرير. انظر: إن الرجل الغنى أصبح يمضى الليل وهو ظمآن ومن كان يستجدى منه الحثالة أصبح يمتلك الجعة القوية»[٥]، وبلغ الأسى بالحكيم المصرى نهايته أسفاً على ما أصاب

(1) J.A. Wilson, The Admonitions of Ipu-Wer, ANET, 1966, p. 441.
(2) Sir Alan H. Gardiner, The Admonitions of An Egyptian Sage, Leipzig, 1969 p. 10.
(3) Ibid., p. 31.
(4) Ibid., p. 10.
(5) Ibid., p. 10.

البلاد من اضطراب، لا يعرف له علاجاً، فيفقد الأمل في إنقاذ شيء، ويزداد تأثره بالكارثة التي لحقت بالبلاد، حتى أنه يطلب من الآلهة أن تجعل نهاية الأمر، نهاية الحياة نفسها، فيقول: «ألا ليت ذلك يكون نهاية الناس، فلا يحدث حمل ولا ولادة، ليت العالم يتخلص من الغوغاء وتنقضي المشاحنات»(١).

ويتجه بعد ذلك نحو نفسه، فيوجه اللوم إليها، ويحملها جزءاً من الوزر الذي ارتكبه حين سكت على الشر، وامتنع عن أن يقول الحق، وتمنى أنه قال ذاك فنصح وانتصح وأنقذ نفسه وأنقذ أمته مما تعانيه من الآلام وذلك بقوله: «ليتني رفعت صوتي في ذلك الوقت، حتى كنت أنقذ نفسي من الألم الذي أنا فيه الآن»(٢).

ولم يقتصر «إيبو - ور» في توجيه اللوم على نفسه، بل وجه اللوم كذلك إلى الجالس على العرش حينئذ في تقريعات قاسية، ونقد لاذع، فيتهمه بأنه سبب الفوضى والاضطرابات التي سادت البلاد، ذلك لأنه، وإن كان قد أعطى السلطة والحكمة، إلا أنه قد بقى في قصره يحيط نفسه بمجموعة من رجاله، لا تنقل إليه إلا صوره غير حقيقية عن الأمور، حتى ساءت الحال، وفقد الناس الطمأنينة والأمن، حتى أنه إذا سار ثلاثة في الطريق فلا يعود منهم إلا اثنان، فالعدد الأكبر يقتل منهم أقل(٣) عدداً، ثم يقص عليه بلايا الناس، وأخيراً يبلغ به العنف أشده، حتى أنه يتمنى للفرعون نفسه أن يتذوق هذا البؤس بنفسه، وذلك حين يقول له «ليتك تتذوق هذا البؤس بنفسك»(٤).

(٤) الانهيار الاقتصادي في عصر الثورة الاجتماعية الأولى:

كانت الأحداث الدامية التي مرت بها البلاد، سبباً في الأزمة الاقتصادية الطاحنة التي صاحبت أيام الثورة الاجتماعية الأولى، ويفهم من الوثائق أن أسباب الأزمة الاقتصادية إنما يرجع إلى عدم استتباب الأمن،

(1) J. A. Wilson, op.cit., p. 442.
(2) Ibid., p. 412.
(3) A.H. Gardiner, op.cit, p. 84-85.
(4) J.A. Wilson, The Admonitions of Ipu - War, ANET, 1966, p. 415.

والامتناع عن زراعة الأراضي، فضلا عن امتناع بعض الأقاليم عن دفع الضرائب، وتعطيل الصناعة، وعدم القيام بالبعثات إلى سيناء، هذا إلى جانب انقطاع التجارة الخارجية، وضياع ثروات الدلتا التي أصبحت تحت أيدي الآسيويين.

كان اضطراب الأمن في البلاد من أسباب الأزمة الاقتصادية، فالناس لا يستطيعون أن يعملوا إلا إذا كانوا آمنين على أنفسهم وأموالهم، وقد فقدوا ذلك كله إبان الثورة، مما أدى إلى أن تعطلت الزراعة، حين امتنع الفلاحون عن زراعة الأرض، يقول «إيبو - ور» : «إن النيل يفيض ومع ذلك لا يقوم أحد من الفلاحين بحرث الأرض، لأن كل إنسان إنما يقول إننا لا نعلم ما سوف يحل بالبلاد»[1].

ويؤيد المتنبئ «نفرتي» وجهة النظر التي ذهب إليها «إيبو - ور» وإن كان يعلل امتناع الفلاحين عن زراعة الأرض - بجانب اضطراب الأمن - إلى عدم فيضان النيل، حيث يقول: «لقد جف نيل مصر، حتى ليخوضه الناس بالقدم، وسوف يبحث الناس عن الماء، لتمخر عبابه السفن، فإذا بهم يجدون أن الطريق قد صار شاطئاً، وأن الشاطئ صار ماء»[2].

وربما كان «نفرتي» إنما يعني أن اضطراب الأمن إنما قد أدى إلى عدم تطهير الترع، وحفر ترع جديدة، فضلا عن إصلاح الأرض البور التي كثرت نتيجة إهمال العناية بأمر الزراعة، وتحويل كثير من الأراضي الزراعية إلى أرض بور، نتيجة هجرة أصحابها لها أو تركها بدون زراعة لسبب من الأسباب وربما حدث انخفاض في النيل في تلك السنين القاسية، فساد ذلك - بجانب غيره - عن حدوث المجاعة التي تحدث عنها المتنبآن «نفرتي» و«إيبور - ور».

وينتهز حكام الأقاليم فرصة الاضطرابات فيستأثر أغلبهم بثروات أقاليمهم، كما فعل أمراء ثني وإليفانتين، يقول «إيبو - ور» : «لماذا لم تدفع إليفانتين وثني الضرائب، وهناك حاجة إلى الفاكهة والقمح، وكل أنواع

(1) A. H. Gardiner, op.cit., p. 10.
(2) A. Erman, op.cit., p. 113.

التجارة، وكل ما تنتجه الضياع، فما فائدة الخزانة بدون دخل»[1]، وزاد الطين بلة، أن القليل من الضرائب الذى كان يصل إلى الخزائن الملكية، إنما كان ملكاً مشاعاً لكل قادر على النهب، حيث دمرت سجلات كتبة المحاصيل، وأصبحت غلال مصر ملكاً مشاعاً»[2]، كما زاد عدد الموظفين المشرفين على جمع الضرائب بحيث أصبحت موارد الدولة لا تطيق مرتباتهم، هذا فضلا عن قلة فى الإنتاج، ومغالاة فى تقدير الضرائب، وتطفيف فى الكيل، يقول «نفرتى» : «لقد نقصت الأرض وتضاعف حكامها، وأصبحت الحقول عارية، ومع ذلك فضرائبها كثيرة وغلتها قليلة، كما صار المكيال كبيراً»[3].

وكان تعطيل الصناعة من أسباب الأزمة الاقتصادية الطاحنة، فقد تسببت أحداث الثورة، وما أدت إليه من اضطراب فى الأمن، إلى تعطل العاملين فى الصناعة، وساهم الأجانب فى الأزمة الاقتصادية، والقضاء على صناعة البلاد. «لا صانع يعمل، والعدو يحرم البلاد حرفها»[4].

وأدت أحداث الثورة الدامية إلى حرمان البلاد من دخل التجارة الخارجية التى كانت تجنى منها دخلا كبيراً، يقول «إيبو - ور» : «ما عاد أحد يبحر إلى جبيل، فما الذى سوف نفعله بشأن أخشاب الأرز، التى اعتدنا أن نصنع منها توابيتنا، والزيوت التى يحنط بها الأمراء، والتى كانت ترد إلينا من هناك، ومن كفتيو (كريت)»[5]، كما أن استيلاء الآسيويين على الدلتا إنما قد حرم البلاد من ثروتها، يقول «إيبو - ور» : «ما الذى جعل الأرض الحمراء (الصحراء) تنتشر فى طول البلاد وعرضها، خربت الأقاليم، وجاء قوم أجانب إلى مصر»[6]، كما تسبب الأجانب كذلك فى عدم استغلال مناجم سيناء، ومن ثم فإننا لا نرى سوى إشارة عن بعثات أرسلت لاستغلال بعض محاجر الصحراء الشرقية، أما استغلال المعادن - كما كان

(1) A.H. Gardiner, The Admonitiions of An Egyptian Sage, Leipzig, 1909.
(2) J.A. Wilson, The Admonitiions of Ipu - Wer, ANET, 1966, p. 442.
(3) A. Erman, op.cit., p. 114.
(4) A.H. Gardiner, op.cit., p. 10.
(5) Ibid., p. 32.
(6) Ibid., p. 36.

قبل عهد الثورة - فلم يعد إلا على أيام الأسرة الثانية عشرة[(١)].

ويصور الحكيم المصرى «إيب - ور» أحوال البلاد الاقتصادية، وانتشار المجاعات بين الناس، فيقول: «لقد أصبح الناس يأكلون الحشائش، ويشربون الماء، ولا توجد فاكهة، كما لا يوجد عشباً يأكل منه الطير، وقد أصبحت القاذورات تختطف من أفواه الخنازير، ولم يعد أحد يقول: هذا لك فخذه بدلا منى، لأن القوم صاروا جياعاً»[(٢)]، ويقول: «لقد ضاع محصول القمح وأصبح القوم لا يجدون لباساً أو عطوراً أو زيوتاً، وكل إنسان يقول لم يبق شيء، وأصبحت مخازن الحكومة خاوية، وقد ألقى حراسها على الأرض»[(٣)].

ويصور أمراء الأقاليم هذه الأزمة الاقتصادية فى نقوش مقابرهم مشيرين إلى جهودهم فى محاولة حلها، والقضاء على أسبابها، وهكذا رأينا الواحد منهم يحدثنا عن جهوده فى استتباب الأمن، وتطهير الترع، ومد المعونة للمعوزين، ولكن يجب علينا أن نأخذ ذلك بحذر، فهم كثيراً ما كانوا يبالغون فى نقوشهم هذه، فها هو «عنخ - تيفى» أمير «نخن» (البصيلية) يتحدث عن سنى المجاعة فى مقبرته فى المعلا» (فيما بين إسنا وأرمنت)، فيقول إنه مدّ خلالها مدن أخرى - إلى جانب مدينته - بالهبات والقمح، وقد امتدت دائرة نشاطه حتى مدينة «دندرة» - على مبعدة ٥ كيلا شمال غرب قنا، عبر النهر - وبذا أنقذ الصعيد الجنوبى الذى كاد يموت جوعاً، وكل رجل فيه كان يغتال أطفاله[(٤)].

وهناك «مرى» أمير دندرة على أيام الأسرة الثامنة، حيث تقدم لنا نقوش مقبرته سيرة عطرة لصاحبها، مملوءة بتقارير عن حكمته وعدله وعطفه على الفقراء والمضطهدين[(٥)]، وهناك مقبرة لرجل يدعى «نفر يو» من نفس المنطقة، يزعم فيها أنه قد أعطى الخبز للجوعان، والملابس للعريان، وأنه أغاث الرجل العظيم حتى انتهت سنة المذابح[(٦)].

(1) A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, 1964, p. 110.
(2) J.A. Wilson, op.cit., p. 412.
(3) A. Erman, op.cit., p. 99.
(4) A. H. Gardiner, op.cit., p. 111; J. Vendier, Le Tombe d'Ankhtifi A Moslla, Le Cairo, 1950
(5) Sir Alen H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1964, p. 111.
(6) W.C. Hayes, The Scepter of Egypt, I, New York, 1953, p. 138.

ونقرأ في نقوش مقبرة «خيتي الثاني» أمير أسيوط» على أيام الإهناسيين عن جهوده في القضاء على الأزمة الاقتصادية بأن قدم هدية لمدينته، وذلك بأن حفر ترعة ليروى الفلاحون منها أرضهم، ويسقوا زرعهم، ثم يقول: «إنني غني بقمح الشمال، حيث كانت الأرض في جفاف، وعندما شحت أقوات البلاد أمددت المدينة بالحبوب والخبز، وسمحت لكل مواطن بأن يأخذ نصيبه ونصيب زوجته، وقد أعطيت الأرملة وولدها، وتجاوزت عن الضرائب التي فرضها أبي، وملأت المراعي بالماشية»[1].

ويتحدث «أميني» أمير بني حسن، عن دور في القضاء على هذه المجاعة فيقول: «وعندما حلت سنوات المجاعة حرثت جميع أراضي الإقليم، من حده الجنوبي إلى حده الشمالي، وأبقيت الأهالي أحياء، وأعطيتهم طعاماً، حتى لم يوجد بينهم جائع واحد، وقد أعطيت الأرملة، كما أعطيت المتزوجة»[2]، وعلى نفس طريقة «أميني» يقص علينا جيرانه أمراء «حتوب» من أن الواحد منهم إنما كان قد «أنقذ الأرملة، وواسى المتألم، وأطعم الطفل، وعال مدينته في زمن القحط، وأطعمها أيام المجاعة، وهو الذي زودها بسخاء بلا تفرقة، فكان عظماء مدينته كغيرهم في ذلك[3].

(٥) الحرب الأهلية بين «إهناسيا» و«طيبة»:

لعل من الأهمية بمكان أن نقدم - بادئ ذي بدء - تعريفاً عن المدينتين المتحاربتين: إهناسية وطيبة:

(١) إهناسيا:

إهناسيا هذه التي قدّر لها أن تحكم مصر أثناء الأسرتين التاسعة والعاشرة، وفي العصر الذي عرف باسمها «العصر الإهناسي» إنما هي مدينة في مصر الوسطى، وتقع على الجانب الغربي لبحر يوسف، جنوب شرق الفيوم - في مقابل بني سويف - وعلى مبعدة ٨٨ كيلا، جنوبي منف.

---

(1) ARE, I, 1906, p. 181; J. Vandier, La Famine dans L'Egypte Ancienne, Cairo, 1936, p. 101F.

(2) J. Vandier, op.cit., p. 111.

(3) P.E. Newbery, Beni Hatsau, I, London, 1883, p. 27.

وكانت إهناسا تسمى في المصرية القديمة «نن ـ ني ـ سوت»، ويرجع أصل هذا الاسم إلى عصور ما قبل التاريخ، غير أن أقدم ذكر لها معروف لنا، إنما ورد في الدولة القديمة، وهو «ننو ـ نسوت»، وأما في العصر الوسيط الأول ـ عصر الثورة الاجتماعية الأولى ـ فهو «نن ـ نسوت»، ومعناه «مدينة الطفل الملكي»، وكانت كلمة «نسوت» قد نشأت في «إهناسيا»، كلقب للأمراء المحليين بها في عصور ما قبل التاريخ، ثم أصبح لقباً لملوك مصر العليا (الصعيد)، ثم لقباً لملوك مصر المتحدة[1].

هذا ورغم أنه لم يبق لنا «الخاف» واحد دليلا محلياً، ليكشف لنا عن أهميتها المبكرة[2]، فإن لها أهمية دينية خاصة، ففيها ـ طبقاً لأساطير القوم ـ أشرقت الشمس للمرة الأولى، في اليوم الذى خلقت فيه السماء والأرض، وفيها رفع «شو» ـ أحد آلهة نظريات الخلق في عين شمس[3]، وهو المتكفل بالفضاء والهواء والنور، وهو أخو «تفنوت»، وأبوهما «أتوم» ـ فصل دائرة السماء عن الأرض، وكانتا رتقاً وقت ذاك، وجعل الأرض يابساً وفيها هبطت «سخمت» (سخمة)[4] من سماء البلاد بأمر «رع»[5] لتهلك بني الإنسان، جزاءاً وفاقاً على ثورتهم على هذا الإله ـ حين بلغ من العمر عتياً[6].

وفي إهناسيا توج «أوزير»[7] ـ ذلك البشر المؤله أو الإله البشر ـ سلطاناً على الدنيا في مصر، ثم نودي من بعده، بولده «حور»[8] خليفة له، ووارثاً لعرشه، وفيها كان يقيم محطم العظام، باعث الرعب لكل روح شريرة في يوم الحساب ـ وهو أحد القضاة الاثنين والأربعين، الذين يجلسون في قاعة

(1) M.G. Mokhtar, Ihnasya El-Madinah, Cairo, 1957, p. 55-69.

(2) A.H. Gardiner, op.cit., p. 112.

(٣) انظر عن نظرية عين شمس لفكرة الخلق عند المصرى القديم: محمد بيومى مهران، الحضارة المصرية القديمة، ٢/٣٠٣-٣٠٩.

(٤) انظر عن المعبودة سخمت: محمد بيومى مهران، الحضارة المصرية القديمة ٢/٤١٦-٤١٨.

(٥) انظر عن «رع»: محمد بيومى مهران، الحضارة المصرية القديمة، ٢/٣٦٢-٣٦٧.

(٦) انظر عن أسطورة هلاك البشرية وإنقاذها: محمد بيومى مهران، الحضارة المصرية القديمة ١/٤٣-٥٠.

(٧) انظر عن «أوزير»: الحضارة المصرية القديمة، ٢/٣٤٩-٣٦٢.

(٨) انظر عن «حور» : محمد بيومى مهران، الحضارة المصرية القديمة ٢/٣٣٤-٣٤١.

العدل المزدوجة - كما يشير الفصل (١٢٥) من كتاب الموتى - وكانت تقيم في قلب المدينة «نخب - كاو» - إله الثعبان التي قطرت رحيق الإله[١].

وكان ذلك التاريخ المجيد - بجانب اضطراب الأحوال في العاصمة القديمة «منف» - مما جعل مؤسس الأسرة التاسعة، يتخذ من إهناسيا، عاصمة لملكه، ليكون بعيداً عن منف - مهب الفتن، ومبعث الاضطرابات الجامحة - هذا فضلا عن أن إهناسيا، على مقربة من «منف»، كما أنها تقوم مقام القلب من الوادي.

وكان معبود إهناسيا الرئيسي - رغم كثرة ما بها وما في مجاوراتها من آلهة - هو «حرشف» وترجع عبادته بها إلى عصور ما قبل التاريخ، وهو الذي قرنه الأغارقة، بمعبودهم «هرقل»، ومن هنا أخذت اسمها الذي عرفت به عند اليونان «هيراقليوبوليس»[٢].

(٢) طيبة:

اسم متأخر لمدينة الأقصر الحالية - وتقع على مبعدة ٦٧٠ كيلا جنوبي القاهرة - سبقه إلى الوجود اسم «ويسة» (واسة - واست - ويزة) بمعنى «الصولجان» وهو رمز الحكم والسلطان عند الفراعنة - وكان رمزاً لإقليم طيبة - الإقليم الرابع من أقاليم الصعيد -.

وأما اسم «طيبة» فربما يعني «الحريم أو الحرم للمعبود آمون»[٣]، وربما كان اشتقاقاً من «طيبة الإغريقية»، وذلك يرجع إلى طريقة الإغريق في عصورهم المتأخرة من إطلاق أسماء إغريقية لمناطق مشهورة لديهم على مناطق أجنبية لا يستطيعون نطق أسمائها، ولعل الذي دفعهم لاختيار هذا الاسم للمدينة (ويسه) بأكملها، وجود قرية صغيرة، على مقربة من «ويسة» تحمل هذا الاسم (طيبة) في العصور المتأخرة[٤]، وربما كان الاسم مصري

(١) نجيب ميخائيل، مصر، ٢٦٣/١.

(2) M.G. Mokhtar, op.cit., p. 128; E. Naville, Ehnasa, El Medineh, London, 1894.

(٣) عبد العزيز صالح، حضارة مصر القديمة وآثارها، ٣٤/١.

(٤) الكسندر شارف، تاريخ مصر، ترجمة الدكتور، عبد المنعم أبو بكر، القاهرة ١٩٦٠، ص ٥٨.

الأصل، وهنا، فأكبر الظن، أن يكون مرجعه إلى اسم أماكنها المقدسة «إبه»، وأن يكون مركباً من هذا اللفظ، وفي أداة التعريف «تى» بحيث يصبح الاسم كله «تيبه» (طيبة)(١).

هذا وقد نسبت «ويسه» إلى ربّها «أمون»(٢) - ربّ الدولة منذ أيام الدولة الوسطى (٢٠٥٢-١٧٨٧ق.م) فسميت «نوت أمون» أو «نه أمون» - أى مدينته - وتحور اسمها في العبرية إلى «نو» أمون، وفى الآشورية «ناى»، وفي القبطية «نه»، وترجم الأغارقة - عن شهرتها الدينية - باسم «ديوس بوليس ماجنا» - بمعنى «مدينة الربّ الكبرى»، ثم ذكروها باسمها الشائع، منذ عهد «هوميروس»(٣).

وأما اسم «الأقصر» - وهو جمع تكسير لكلمة «قصر» - فهو الاسم العربى للمدينة، ويرجع ذلك إلى أن العرب حين دخلوا المدينة - في عام ٦٤٢م - تخيلوا معابدها قصوراً، ثم قارنوا بين واحد من هذه المعابد، وبين «الخورنق»(٤) - قصر النعمان بن المنذر، أو النعمان الأول (٣٩٠-٤١٨م) - فسموا المعبد بذلك الاسم (الخورنق)، الذى حرف إلى «الكرنك»(٥).

ولعل من أهم آثار طيبة فى البر الشرقى (مدينة الأقصر) إنما هى: معابد الكرنك، ومعبد الأقصر، وطريق الكباش، والمسلات التى فى معبدى الكرنك والأقصر.

وأما فى البر الغربى - حيث كانت جبانة طيبة - وأهم الآثار هناك، إنما هى: معبد منتو- حتب الأول (نب حتب رع) الهرمى فى منطقة الدير البحرى(٦)، معبد حتشبسوت (معبد الدير البحرى)(٧)، تمثالا

(١) أحمد بدوى، في موكب الشمس، ٣٢١/٢.

(٢) انظر عن «أمون»: محمد بيومى مهران، الحضارة المصرية القديمة ٣٧١/٢-٣٧٨.

(٣) عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص ٣٤.

(٤) انظر عن «قصر الخورنق»: محمد بيومى مهران، تاريخ العرب القديم، الطبعة السادسة عشرة، الإسكندرية ١٤١٤هـ/١٩٩٤م، ٤٥٦/٢-٤٥٧.

(٥) نجيب ميخائيل، المرجع السابق، ص ٤.

(6) E. Naville, The XIth Dynasty Temple at Deir El Bahari, 3Vols., London, 190701913.

(7) A.F. Mariette, Deir El-Bahari, Leipzig, 1877; E. Naville, The Temple of Deir El Bahari, 7Vols., London, 1844-1908.

ممنون[١]، معبد الرمسيوم[٢]، معبد مدينة هابو (معبد رعمسيس الثالث)[٣] مقابر الملوك والملكات[٤].

هذا ولم تكن طيبة في عهد الدولة القديمة، أكثر من قرية قليلة الأهمية، تمتد على طول الضفة الشرقية للنيل، والواقع أنها ربما كانت أصغر أربع مدن صغيرة تضمها المقاطعة (الإقليم) الرابعة لمصر العليا (الصعيد).

وأما المدن الأخرى فهي:

١ ـ طود: على مبعدة ٣٢ كيلا إلى الجنوب الشرقي.

٢ ـ أرمنت: في مواجهة طود ـ عبر النهر تقريباً، وعلى مبعدة ١٥ كيلا جنوب الأقصر.

٣ ـ المدامود: على مبعدة ٣ كيلا، شمال طيبة، قرب الصحراء الشرقية.

وفي الأسرة الثامنة كانت طيبة إقليماً من أقاليم سبعة ـ تمتد من إليفانتين (أسوان) حتى «بارفا» (هو ـ على مبعدة ٥ كيلا جنوب غرب نجع

---

(١) انظر: سيد توفيق، أهم آثار الأقصر الفرعونية، القاهرة ١٩٨٢، ص ١٩٧-١٩٨.

(٢) معبد الرمسيوم: من أهم المعابد الجنزية في طيبة الغربية، وهو معبد ضخم شاده رعمسيس الثاني (١٢٩٠-١٢٢٤ق.م) وملأ واجهة صرحه (البيلون) بتماثيله الضخمة، وبه أعمدة شاهقة، كما يتميز كذلك بنقوشه البارزة، وأملاكه المتناثرة، هذا ويحيط بحرم الرمسيوم سور من اللبن، يضم ساحة واسعة، تشغل جانباً كبيراً منها مبان ثانوية ومخازن من اللبن، وعثر فيه على عدد كبير من البرديات، وأشهر معالمه المناظر الفلكية التي تزين سقف قاعة الأعمدة الصغرى، وأجزاء من تمثال لرعمسيس الثاني، يعد أضخم ما نحته المصريون. (الموسوعة المصرية ٢٥١/٢-٢٥٢؛ سيد توفيق، المرجع السابق، ص ٢٠١-٢٠٧).

(٣) انظر عن معبد مدينة هابو: محمد بيومي مهران، مصر والعالم الخارجي في عصر رعمسيس الثالث، ص ٢٥٨-٢٧٠؛ صبحي محمود مصطفى، دراسة تاريخية وأثرية لمنطقة مدينة هابو، الإسكندرية ١٩٨٥؛ سيد توفيق، المرجع السابق، ص ٢٠٨-٢١٧؛ وكذا:
A.H. Gardiner, JEA, XXIV, 1938, p. 177; W.F. Edgerton and J. Wilson, Historical Records of Ramesses, III, I, II, Chicago, 1936, p. 263, 339-344.

(٤) وانظر عن أهم آثار الأقصر:
سليم حسن، مصر القديمة، ١٣ جزءاً، القاهرة ١٩٤٠-١٩٥٩؛ عبد الغني صالح، حضارة مصر القديمة وآثارها، القاهرة ١٩٦٢؛ عبد الحميد زايد، مصر الخالدة، القاهرة ١٩٦٦؛ أحمد فخري، مصر الفرعونية، القاهرة ١٩٧١؛ سيد توفيق، أهم آثار الأقصر الفرعونية، القاهرة ١٩٨٢؛ محمد بيومي مهران، مصر، ١، ٢، ٣؛ الإسكندرية ١٩٨٨؛ محمد عبد القادر، آثار الأقصر، القاهرة ١٩٨٢؛ جيمس بيكي، الآثار المصرية في وادي النيل، الجزء الثالث، القاهرة ١٩٦٣.

حمادى ـ منحها الملك «نثر ـ بارو» إلى «إيدى بن شيماى»، وكانت كتلة واحدة تحت زعامة «قفط» ـ على مبعدة ٢٢ كيلا جنوب قنا ـ ثم انقسمت إلى فريقين، الواحد: ويضم طيبة وقفط في جانب، وإليفانتين وإدفو ونخن (البصيلية) في جانب آخر، ثم انتهى الأمر بانتصار فريق طيبة وقفط، ومن هنا بدأت طيبة تظهر، بينما أخذت «قفط» تختفي من ميدان الزعامة، وقد حدث هذا في عصر الانتقال الأول ـ على أيام الأسرة الثامنة أو العاشرة، على خلاف في الرأى، كما أشرنا من قبل عند الحديث عن مقبرة «عنخ ـ تيفى» أمير «نخن» (البصيلية).

ومن ثم فقد ظهرت طيبة في التاريخ الفرعوني ـ كعاصمة سياسية ودينية لمصر كلها ـ في مرحلتين، الواحدة: قصيرة، أثناء عصر الدولة الوسطى، والثانية : طويلة، أثناء عصر الأسرة الثامنة عشرة ـ باستثناء فترة من حكم إخناتون كانت العاصمة فيها مدينة العمارنة ـ وأوائل عصر الأسرة التاسعة عشرة ـ حتى الانتقال إلى «بر ـ رعمسيس» (قنتير الحالية) ـ غير أنها احتفظت دائماً بمكانتها الدينية، طوال العصور الفرعونية.

(٣) الحرب الأهلية:

كانت طيبة بدأت تأخذ زمام القيادة على أقاليم الجنوب، منذ أيام الأمير بالوراثة «أنتف الأول» (أنيوتف)، المولود من «إيكو» مؤسس سلسلة الملوك المعروفين باسم الأسرة الحادية عشرة، وهو نفس الأمير بالوراثة «أنيوتف» الذى نلتقى به في العصر المضطرب للملوك الذين يحملون هذا اللقب «والمذكورين في جدول الكرنك، وهناك ثلاث لوحات يمكن أن تعد وثائق معاصرة لهذا الأمير، يوصف في اثنين منهما ـ وربما آخر يحمل نفس اللقب ـ بأنه «الرئيس الأعلى لمصر العليا»، ويوصف في الثالثة بأنه «الرئيس الأعلى لمقاطعة طيبة»، وربما كان أكثر قبولا أن نفترض وجود سلف واحد فقط يحمل نفس اللقب، وأن «أنيوتف» هذا إنما هو «أنيوتف عا» (أنيوتف العظيم) الذى استطاع أن يخضع نواحى الجنوب من وراء حدود إقليمه، وإن لم يجرؤ على انتحال الملكية[1].

(1) A.H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, p. 117-118.

أما أول «أنيوتف» ملكى، فقد كان «سهر تاوى» (مهدئ الأرضين)، ويظن «هربرت ونلوك» (١٨٨٤-١٩٥٠م) أنه صاحب المقبرة الشمالية من مجموعة المقابر الثلاثة الكبرى ذات الطراز الخاص الذى كشف عنها فى السهل على خط وهمى بين معبد «مونت» فى الكرنك، والفتحة المؤدية إلى مقابر الملوك، وتسمى «الصف» لأنها ذات مداخل تجعلها تبدو كأنما هى محاطة بأروقة من ثلاث نواح، وربما كانت مقابر لهؤلاء الثلاثة الأوائل الذين يحملون لقب «أنيوتف» مادام من المؤكد أن إحداها ـ وربما كانت الوسطى ـ تخص «واح عنخ أنيو تف الثانى»[1].

وعلى أى حال، فلقد كان «سهر تاوى» أول حاكم طيبى أحسن فى تناسى القوة على أن يغتصب نوعاً من الملكية فى الجنوب، وإن لم يستطع هو ـ أو أحد خلفائه الثلاثة ـ أن يلبس التاج المزدوج وإن أسبغوا على أنفسهم لقب «نسوت بيتى»، الذى يمكن ترجمته إلى ملك مصر العليا والسفلى، وقد حفظ لنا اسمه «حور سهر تاوى»، (مهدئ الأرضين ابن رع، أنيوتف)، وهو ـ على أى حال، أول حكام الأسرة الحادية عشرة، الذين حكموا نصف البلاد، حوالى عام ٢١٣٤ق.م، أى قبل قيام الأسرة الثانية عشرة فى عام ١٩٩١ق.م، بحوالى ١٤٣ سنة كما أنه كان أول حاكم طيبى يكتب اسمه داخل خانة ملكية (خرطوش) كما أنه ظهر كثائر ومناهض لخصمه القوى فرعون إهناسية، إلا أن الاحتكاك الحربى بين طيبة وإهناسية لم يبدأ إلا فى عهد خلفه، واح عنخ أنتف (٢١٣٠-٢٠٨١ق.م)[2].

وكانت إهناسية تحس أن سلطانها على مصر لن يتم، مادام هناك أسيوى فى الشمال، وطيبى فى الجنوب، وكل منهما يحتل جزءاً من البلاد، وكانت طيبة بدورها تحس أن استقلالها لن يمكنها من زعامة الصعيد، والتحكم فى شئونه، مادامت تدين بالولاء لإهناسية، وتدفع لها الجزية، وكان كل من الفريقين يتربص بالآخر الدوائر، ويعمل على تجميع أنصار له،

---

(1) H. Winlock, The Rise and Fall of the Middle Kingdom in Thebes, N.Y., 1947, p. 11.

(2) W.C. Hayes, CAH, I, part 2, 1971, p. 476; H. Winlock, op.cit., p. 10; R.O. Faulkner, The Rebellion in The Hare Nome , JEA, 30, 1944, p. 54-63.

وهكذا عمل الإهناسيون على ربط حكام الأقاليم بهم برباط الود، واتبعوا في ذلك سياسة بعض ملوك الدولة القديمة في تربية أبناء الحكام الأقوياء في قصورهم ليشبوا أوفياء لهم، ويحدثنا «خيتي» أمير أسيوط عن ذلك بقوله: «لقد كنت محبوباً من الملك، وثقة من أمرائه، وممجداً في مصر الوسطى، وقد أدى ذلك إلى أن أحكم وأنا طفل طوله ذراع، ورفع منزلتي في شبابي، وتعلمت السباحة مع أطفال الملك، وكنت شخصاً جاداً في حديثه، مبرأ مما يسيء سيده، الذى رباه طفلا، وسعدت أسيوط بحكمي، وشكرت إهناسية الإله بسببي، وقالت مصر الوسطى والدلتا : تربية ملك»(١).

وحاولت طيبة بدورها أن تجمع الأحلاف من حولها وربما نجحت في ذلك بعض الشيء، ولكنها اعتمدت أكثر ما اعتمدت على حصانتها، وعلى صلابة رجالها الصعايدة، وعلى إذكاء روح الأمل فيهم.

وبدأ التنافس بين إهناسية وطيبة في صورة خفية أول الأمر، ثم سرعان ما اتخذ صورته المكشوفة بعد ذلك، إذ قامت بين الفريقين المتنافسين معارك دارت رحاها على صفحة الماء مرة وفي البر مرة أخرى ولعل السبب أن كلا من «خيتي» وأنيوتف» إنما كان يتطلع إلى «أبيدوس» كأنما هي من أملاكه الخاصة، فهي بالنسبة لملك إهناسية أو بالنسبة إلى مولاه «تف إيب» صاحب أسيوط، - قلعة باب الجنوب - وهي بالنسبة إلى أنيوتف، بوابة الشمال، ومنطقة أبيدوس هذه منطقة حساسة هي مركز القداسة لدى الجميع وإثارة الحرب على أرضها تدنيس يحمل وزره من يسعى إليها، ولعل هذا ما دعا «خيتي» إلى إظهار ندمه، وخاصة بعد نهب المقابر، وانتهاك حرماتها(٢).

بدأت إهناسية الحرب على طيبة، ويصف لنا «تف إيب» الذى كان قد خلف أباه «خيتي» في إمارة أسيوط، أول معركة بين جنود الصعيد الأقصى وبين قوات إهناسية، والتي يبدو أنه انتصر فيها، وذلك حين يقول: «لقد

---

(1) J.H. Breasted, Ancient Records of Egypt, I, Chicago, 1906, Parag, 413, p. 190.

(٢) عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص ٤٠٧؛ نجيب ميخائيل، المرجع السابق، ص ٢٩١؛ وكذا: R.O. Faulkner, JEA, 30, 1944, p. 61-63.

أتيت إلى المدينة وهزمت أعداء الفرعون، واقتفيت أثرهم إلى حصن رأس مصر العليا، وأعطانى الملك أرضاً كمكافأة»[1]، وقد تابع «انتف إيب» الحرب ضد أهل طيبة وحلفائهم حتى فروا إلى شرق البلاد، بينا اصطادهم آخرون فى الجنوب، مثل كلب الصيد الذى يقفز فى خطوات واسعة خلف غزال مذعور[2].

وهكذا هزم أمراء طيبة، وإن لم تكن هزيمتهم حاسمة، إذا احتاج الإهناسيون إلى عمليات حربية أخرى، مما اضطر «انتف إيب» إلى منازلة ثوار طيبة مرة أخرى فهو يقول : «قد جاء آخر كابن آوى، مع جيش آخر من حلفائه، فخرجت لملاقته، ولم أتوقف عن القتال حتى النهاية، واستخدمت الريح الشمالية كما استخدمت الريح الجنوبية.. وسقط فى الماء، وغرقت سفن أسطوله، وكان جيشه كثيران تهاجم بحيوانات مقدسة فتجرى، وذيولها إلى الأمام»[3]، وفى النهاية الن نقرأ: «وكانت البلاد فى فرح من جنودى، ولم تعد هناك بلاد أجنبية لا تخاف إهناسية، بعد ما رأت الدخان يتصاعد فى المقاطعات الجنوبية»[4]، ولعل من الجدير بالإشارة هنا إلى أن هذه الموقعة إنما كانت الأولى من نوعها فى التاريخ المصرى، ذلك لأننا لا نعرف معركة من قبل دارت رحاها على صفحة الماء.

وهناك إشارة بقيت لنا عن هذا الصدام فى أيام «واح عنخ» يفهم منها أن الجانب الطيبى إنما قد استطاع أن يسترجع أبيدوس، وأن يمد حدوده حتى الإقليم العاشر، أى حتى مدينة «واجت» (إفروديتوبوليس)، وهى «كوم أشقاو» الحالية على مبعدة خمسة كيلو مترات شرقى «مشطا» (بمركز طهطا محافظة سوهاج).

وعلى أية حال، فلقد كان من المنتظر أن يعود «واح عنخ _ أنتف» إلى طيبة، وأن ينتظر ما تقرره إهناسية بعد هزائمه السابقة، غير أن تائداً مثله، فيه عناد أهل الصعيد، وفيه صلابتهم، وفيه صبرهم على الكفاح _ لن يفسح من

(1) R. Winlock, The Rise and Fall of The Middle Kingdom in Thebes, N.Y., 1947, p. 14.

(2) E. Winlock, op.cit., p. 14; J.H. Breasted, Parag, 396, p. 182-183.

(3) J.H. Breasted, op.cit., I, Parag, 395, p. 183.

(4) H. Winlock, op.cit., p. 15.

الغنيمة بالإياب، ولن يستسلم عن استكانة وضعف وخنوع، ومن ثم فقد أعاد الكرة من جديد، حيث كتب له من النجح ما لم يكتب له من قبل، ونقرأ قصة نصر «واح عنخ» هذه في لوحته التي عثر عليها، «أوجست فريناند فرانسوا ماربيت» (١٨٢١-١٨٨١م) في عام ١٨٦٠م، ولكنه تركها في مكانها حتى عثر عليها «جاستون ماسبيرو» (١٨٤٦-١٩١٦م) في عام ١٨٨٢م، ثم جمع «دارسي» ما تبقى منها حيث حفظت بالمتحف المصرى بالقاهرة، وهي ذات شقين، الواحد ديني، والآخر سياسي، وفي الشق السياسي يخبرنا «حور واح عنخ، ملك مصر العليا والسفلى، ابن رع، أنيوتف الكبير»، كيف سقطت «ثني» وكيف دمرت تخومها الشمالية حتى إقليم إفروديتوبوليس، حيث يقول: «لقد نزلت بالوادى المقدس، واستوليت على إقليم ثنى، وفتحت كل حصونه، لقد جعلت ثنى بوابة الشمال، كما أن إليفانتين بوابة الجنوب»[1].

وهكذا استطاع «واح عنخ» أن يضيف إلى أملاكه مقاطعة «ثنى» وأن يوطد حدوده الشمالية عند «أفروديتوبوليس» (كوم أشقاو) في غربي النيل، وعند «بانوليس» (أخميم) في شرقي النيل، إلا أن الغنيمة الكبرى إنما كانت أبيدوس، ومعبد «أوزير» الذى يرجع إلى أيام الدولة القديمة، فضلاً عن مقابر الملوك الأوائل في الصحراء، فيما وراء أبيدوس[2] عند «أم القعاب» على مبعدة ٢ كيلا جنوب غرب معبد رعمسيس الثاني.

ولعل مما يؤكد اتساع الرقعة التي كان يحكمها، واح عنخ، ما تسجله الآثار التي خلفها عدد من الموظفين في إقليمه، ولعل أجملها ما تحمل اسم حامل الختم المدعو «تيتى» الذى يفخر أكثر ما يفخر بأنه عهد إليه إدارة الثروة الواسعة التي جئ بها لمولاه، من مصر العليا والسفلى، فضلا عما جئ به من رؤساء بلاد الصحراء[3].

وهكذا تنتهى المرحلة الأولى من النزاع بين طيبة وإهناسية بغلبة طيبة،

(1) W.C. Hayes, CAH, I, part 2, 1971, p. 477; W.M.F. Patrie, A History of Egypt, I, p. 126.
(2) H. Winlock, op.cit., p. 15-16.
(3) A.H. Gardiner, op.cit., p. 119; JEA, XVII, p. 55F.

وينتقل «واح عنخ» إلى جوار ربه، ويخلفه في زعامة طيبة ابنه «نخت نب نب نفرة، إنيوتف» ومعنى لقبه «قوى سيد البداية الجمية»، ولم يمكث في الحكم سوى سنوات ثلاث، ثم جاء من بعده «سمنخ إيب تورى» (منتو حتب الأول) ولقبه يعني «آمون راض» وكان المؤرخون يعتبرونه الملك السابق للفرعون «نب حتب رع» الذى كتب له نجحاً بعيد المدى في النصر على الإهناسيين والقضاء على ملكهم وإعادة توحيد البلاد كلها، وقد حدثت ثورة في العام الرابع عشر من حكم «سمنخ إيب تورى» في «ثنى» أدت إلى معارك جديدة، أودت بالملكية الإهناسية وقضت عليها، وإن كان النص النهائى إنما كان من نصيب «نبت حتب رع» [1].

هذا وقد توصل «هانز شتوك» [2] إلى ثلاثة ألقاب منفصلة، كانت تنسب من قبل إلى ثلاثة ملوك مختلفين، يحملون جميعاً لقب «منتو حتب» تخص في الواقع ملكاً واحداً فقط، ويعكس كل لقب منها مرحلة مختلفة من حياته، والواقع أن مثل هذا التغير الأساسى في الألقاب، إنما هو فريد من نوعه تقريباً في الحوليات الفرعونية، ولكن يحمل على تصديقه الأحداث الخطيرة الشأن التى يعكسها، ففى بداية حكم «منتوحتب الأول» ـ شأنه في ذلك شأن الحكام الأوائل في أسرته ـ اكتفى باسمه ورضى أن يطلق عليه «الحور سمنخ إيب تورى» (الذى يجعل قلب الأرضين يعيش)، وقد يعنى «ذلك الذى يحيى آمالهم»، وهناك لوحة في المتحف البريطانى تعد واحدة من الآثار القليلة التى تسجل هذا المظهر، وهى تشير إلى أنه في السنة الرابعة عشرة من حكمه ثارت «ثنى»، ربما أرادت أن تعطى الإشارة للملك التقدم شمالا.

وفى المظهر التالى، أردف «منتوحتب» اسم «نب حبت رع» إلى كنيته (لقبه العائلى)، وربما كان المراد من ذلك الإشارة إلى سيطرته التامة على مصر العليا، ولم يصلنا أى شيء مؤرخ من هذه الفترة، ولكن اللقب الحورى هنا يروى قصته، ومنذ العام التاسع والثلاثين ـ وربما قبل ذلك ـ استبدل اللقب الحورى إلى «سام تووى» (موحد الأرضين)، بينما ظل الاسم يقرأ

(1) J. Vercoutter, op.cit., p. 348.

(2) H. Stock, Mitt, Kairo, XIV, p. 42F.

«نب حبت رع» وإن كتب بعلامة الجداف، بدل أن يكتب بعلامة غير معروفة تماماً، وقد أدت هذه الحقيقة الأخيرة إلى الاسم النهائي الذى قرئ خطأ «نب خرو رع»، ونسب إلى «منتو حتب» آخر، يختلف عن الاثنين اللذين حملا اللقب السالف الذكر، وإذا نبذنا هذا الخطأ، فإنه بدلاً من الأسماء الخمسة التى تحمل اسم «منتوحتب» والذين يعدهم معظم المؤرخين فى الأسرة الحادية عشرة، سوف نعترف هنا بثلاثة فقط، ومن ثم فإننا سوف نتعامل مع أحداث الصدام فى عهد «سمنخ إيب توووى» و«نب حبت رع» على أنها قد حدثت فى عهد ملك واحد(١).

كان «مرى كا رع» وقد اعتلى عرش إهناسية بعد وفاة أبيه «خيتى» الذى ترك له تعاليمه المشهورة، كما كانت إمارة أسيوط قد آلت إلى «خيتى الثانى»، بعد وفاة أبيه «ثف إيب» أما فى طيبة فقد كان الحاكم فيها، «سمنخ إيب توى»، ويبدو أن ثورة عاتية قد استقبلت عهد «مرى كا رع»، ومن ثم نجد «خيتى الثانى» والى أسيوط - والذى ربما كان يشغل منصب القائد الحربى لمملكة إهناسية - يفاخر بأنه قد أدب مصر الوسطى، وأخضع الثوار، وأعاد النظام، وصفّى مياه مصر من الغيوم، وذلك حين يقول:

«أضاءت السماء، وأصبحت الأرض، كلها معه، وجاء أمراء مصر الوسطى وأقطاب إهناسية - إقليم سيدة الأرض - ليدفعوا العدوان، ارتعدت الأرض. واستولى الخوف على مصر الوسطى، وأصبح كل الناس فى رعب، وكانت القرى مذعورة، وداخل الرعب كل نفس، ووقع موظفو الفرعون فريسة للخوف، وأضحى المقربون فى إهناسية ضحية الذعر، واحترقت البلاد بسعيرها - ولم يكن هناك شيء أمام الأسطول الذى وصلت مقدمته إلى «شاس حوتب» (الشطب الحالية، على مبعدة ٢,٥ كيلا جنوبى أسيوط)، بينما كانت مؤخرته فى.... ولقد عادوا بالماء، ورسوا بأرض إهناسية، وجاءت المدينة فرحة بسيدها وابن سيدها، واختلط الرجال بالنساء والشيوخ والأطفال، ووصل ابن السيد إلى المدينة، ودخل بلاط أبيه، وأعاد هؤلاء الذين تركوا بيوتهم ودفن هؤلاء الذين لا أولاد لهم، سيد الأرضين، الملك «مرى كا رع»(٢).

(1) J. Vercoutter, op.cit., p. 348; A. H. Gardiner, op.cit., 120-121.
(2) J.H. Breasted, ARE, I, 1906, Parag, 401, p. 185-188.

وهكذا يبدو أن هناك ثورة استقبلت عهد «مرى كا رع»، وربما كانت الثورة التي حدثت في السنة الرابعة عشرة من حكم «سمنخ إيب تووى» في إهناسية، وربما كانت ثورة أخرى، ولكن ليس في الدلتا التي كان أبوه يخشى ثورتها، وإنما في قلب مملكته في إهناسية نفسها، فيما يرى جيمس نيكى، وربما في الأقاليم التي تمردت عليه، وبدأت تعلن العصيان، وربما كان هذا أو ذاك، وربما كان قد نجح في أن يهدئ الأحوال مؤقتاً[1].

لم تقدم لنا نقوش «خيتى» والى أسيوط صورة حقيقية عن الحالة في إهناسية وبين حلفائها، فليس صحيحاً كل ما ذكره، ولعله أراد بهذه الكلمات الحماسية أن يخفى الحقيقة المرة التي كانت تواجهه، وتنذره بأن حرباً شعواء سوف تندلع في عهد سيده، «مرى كا رع»، وليس صحيحاً كذلك أن كل زعماء مصر الوسطى كانوا في صف سيده، فهناك ما يشير إلى أن ولاء حكام أقاليم مصر الوسطى لقضية حكام إهناسية ليس فوق مستوى الشبهات، ففي مقابر «حتنوب» كتابات لا تهيل النعوت المليئة بالزلفى على الحكام الإقليميين فحسب، بل نجدها تصحب أسماءهم بصيغ التمنيات مثل «ألا فليعش إلى الأبد»، أو «حماية الحياة تحيط به مثل رع إلى الأبد»، وهي صيغ عرفناها - من قبل ومن بعد في أماكن أخرى - مقصورة على الفراعين دون سواهم، ولعل أعجب من هذا أن هذه الكتابات مؤرخة بسنى الحكم لأمراء الأقاليم، وليس للملوك المعاصرين، وهناك كتابتان من أقدمها تسجل العامين الثلاثين والعشرين للحكم على التوالى[2].

وهناك ما يثبت أن «الأشمونين» قد ثارت على الإهناسيين منذ عهد واليها «نحرى»، ففي نقش وربما كان من السنة السابعة، يتحدث فيه «كاى بن نحرى» عن الجنود الذين حلوا عن آخرين شتتو بسبب العصيان، ولقد جندت جنودها من الشباب لكي تكون قوتها كثيرة العدد، بدل الجنود الذين أصبحوا موظفين واستقروا في دورهم ولم يخرجوا للقتال في وقت الفزع من القصر ولقد أنقذت مدينتي في يوم الشدة من رعب القصر، وكنت قد حصنتها في يوم المعركة، وملجأها في شديت شا»، ويقول «دحوت نخت»

(١) محمد بيومى مهران، الثورة الاجتماعية الأولى في مصر الفرعونية، الإسكندرية ١٩٦٦، ص١٣٨-١٤٦.

(2) A.H. Gardiner, op.cit., p. 114.

أخو «كاى»، والمشرف على الأمور الدينية في الإقليم، في نفس السنة السابعة، «لقد كنت مواطناً شجاعاً، ضرب قوات الملك في يوم المعركة»[1].

وهكذا يعلن أمير مقاطعة الأرنب الحرب على الفرعون، ويفخر بأنه حمى مدينته من الفرعون نفسه، وإن كان عاد ثانية إلى خطيرة مولاه اسميا، وهكذا أفلت الزمام من أيدى ملوك إهناسية، ولم تعد سياستهم تجاه الأمراء ذات فائدة للحفاظ على عرشهم، وأصبح القضاء عليهم أمر وقت، وكان ذلك على يد «منتو حتب الأول».

وليس هناك شيء محدد تماماً عن الحملات التى استطاع بها، منتوحتب الأول استعادة التاج المزدوج، وتوحيد البلاد، والقضاء على الفوضى الداخلية الى بدأت فيها منذ نهاية الأسرة السادسة والتى فصلت البلاد إلى شمال وجنوب، ولكن مما لا شك فيه أن «منتوحتب الأول» قد بذل كثيراً من الجهد لإخضاع كل معارضة قامت فى طريقه، حتى انتهى الأمر باستيلائه على إهناسية، وبذلك استطاع أن يخضع الصعيد لسلطانه، وأن يستخدم اللقب الحورى «نب حدج» الذى يعنى «سيد التاج الأبيض»، ثم تابع جهاده فى سبيل السيطرة على الوادى كله، فطوى الدلتا تحت رايته، وبذا بدأ منذ العام التاسع والثلاثين - وربما قبله - فغيّر لقبه الحورى إلى «سام تاووى» (موحد الأرضين)، ثم اتجه بعد ذلك إلى تأمين حدوده، فحارب العدو فى الشرق والغرب، كما أخضع المنطقة جنوبى أسوان، ولم يحاول أن يصطدم بالأمراء الأقوياء فتركهم يحكمون أقاليمهم واكتفى منهم بالطاعة والجزية وحسن الولاء.

أما الأدلة الأثرية على ذلك كله فكثيرة منها تلك المقبرة التى عثر عليها «هربرت ونلوك» تضم جثث قرابة ستين جندياً، على مقربة من معبده فى طيبة الغربية، رأى فيهم «ونلوك» جنوداً وقعوا فى معارك ضد الشمال، وتدل أجسادهم على أنهم قتلوا عندما كانوا يهاجمون حصناً، وأن فريقاً منهم إنما قتل فى ساحة الوغى، بينما جرح الفريق الآخر من المهاجمين الذين كانوا فوق الأسوار، وحين هرب رفاقهم نزل رجال الحامية والتقطوهم

---

(1) R.G. Faulkner, JEA, 30, 1944, p. 61-63.

من شعرهم الكثيف، ثم ضربوهم بالعصى حتى قتلوهم ثم تركوهم فى ميدان القتال حتى نهشتهم جوارح الطير، وأخيراً تمكن «منتوحتب الأول» فى هجومه الثانى من جمع موتاهم وحملهم إلى قبر على مقربة من مدفنه الذى كان يجهزه لنفسه[(١)]، هذا ويرى الدكتور أحمد بدوى أنهم قتلوا أثناء مهاجمة القلاع الواقعة فى تخوم أبيدوس[(٢)]، ورأى «سير ألن جاردنر» أنهم ذبحوا دون شك فى معركة على مسافة لا تبعد كثيراً عن العاصمة[(٣)]، ورأى الدكتور عبد العزيز صالح أنهم استشهدوا فى معركة انفصالية ضد «منتو حتب» على مقربة من عاصمته طيبة، فوسدهم إخوانهم فى قبر كبير نحتوه فى الصخر على هيئة المغارة قرب القبر الذى أعده ملكهم لنفسه[(٤)].

كان «منتوحتب الأول» (نب حبت رع) أول ملوك الأسرة الحادية عشرة، الذى أصبح ملكاً حقيقياً على مصر كلها، ومن هنا فإن المصادر إنما تجمع على ذكر اسمه، فعلت ذلك بردية تورين وقائمة أبيدوس - ولعل ذلك هوالذى دفع البعض إلى اعتبار قيام الأسرة الحادية عشرة إنما كان فى عام ٢٠٥٢ق.م، أى منذ توحيد القطرين تحت زعامة «منتوحتب الأول».

هذا وقد احتل «منتوحتب الأول» مكانة عظيمة بين أقرانه من عظماء الفراعين، بوصفه واحداً من مؤسسى الدول فلقد اعترف كاتب قائمة الكرنك بالمركز الهام الذى ناله هذا الفرعون، بوصفه ملكاً على مصر كلها، ومن ثم فلم يكتف بوضع اسمه فى جزء آخر من قائمة الأجداد الصغيرة، غير الذى كان فيه أجداده الذين سبقوه مباشرة، بل إنما يصفه كذلك بأنه «الإله الطيب، ربّ الأرضين، ملك مصر العليا والسفلى، سيد القربان، نب حبت رع، المبرأ»، كما نجد اسمه كذلك فى قائمة الملوك بمقبرة «نترى» بسقارة، وقد ذكره «ترنو» فى قائمة أبيدوس، وتظهر مكانته بصورة بارزة فى الرمسيوم، فهناك نجد الملك «مينا» والملك «نب حيث رع» (منتوحتب

---

(1) R.E. Winlock, The Rise and Fall of The Middle Kingdom in Thebes N.Y., 1947, p. 29; H.E. Winlock, The Slein Soldiers of Neb-Hebet - Re, Mento - Hotpe, N.Y., 1945.

(٢) أحمد بدوى، فى موكب الشمس، الجزء الثانى، القاهرة ١٩٥٠، ص ٥٠.

(3) A.H. Gardiner, op.cit., p. 121.

(٤) عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص ٤٢٤.

الأول) والملك «نب بحتى رع» (أحمس الأول) يظهرون بوصفهم المؤسسين للدولة القديمة والدولة الوسطى والدولة الحديثة[١].

هذا وقد اتخذ «منتوحتب الأول» الألقاب التى تدل على أنه ملك مصر الحقيقى، فسمى نفسه «الحور» سما تاووى (موحد الأرضين) وصاحب الإلهتين سام تاووى، حور الذهبى، قا - شوتى، ملك مصر العليا والسفلى، نب حبت رع، ابن رع، منتو حتب الأول»، وهذه هى الألقاب الفرعونية الخمسة[٢].

---

(1) H.E. Winlock, op.cit., p. 31; W.C. Hayes, op.cit., p. 181; M.Cassirer, An Egyptian Funerary Stele with a Rare Title, ASAE, 52, 1954, p. 42-43.

(2) H.E. Winlock, op.cit., p. 30.



الباب الرابع

نتائج الثورة الاجتماعية



الفصل الأول
في المجال السياسي

قامت الملكية الفرعونية - منذ العهد الثيني[١] أو عهد التأسيس - على أساس ديني، فالملك فيها «إله» تكرم فأقام في أرض مصر ليحكمها وليسعد المحكومين من أبنائها، ومن هنا سيطر الفراعين على رعاياهم في دنياهم وآخرتهم، ثم ما تلبث الأمور أن تتغير، وتقوم الثورة الاجتماعية الأولى، ويتغير مركز الفراعين المؤلهين، وتصور تحذيرات «إيبو - ور» كيف هان شأن الفراعين، وكيف أصبحوا مجالا للنقد والتجريح المرير، بعد أن كانوا مجالا للتأليه والتقديس، حتى أن «إيبو ور» يتهم الملك بأنه سبب البلايا التي حاقت بالبلاد، ويتمنى له أن يتذوق منها[٢]، بعد أن كان أى فرد في البلاد - مهما علت مكانته - يفخر، إن كتب له هذا الفخر، بأنه قد سمح له أن يقبل قدم الملك، بدل أن يقبل الأرض بين يديه.

وفي العصر الإهناسي، ترى الفرعون نفسه يتطرق إليه الشعور بضياع الهالة التي كانت تسبغ على الملكية، فيعترف بخطئه وأن القصاص قد حل به، فعوقب بمثل جريمته، «إن مصر تحارب حتى في الجبانة، إني فعلت ذلك، وحدث لي ما يحدث لمن يخالف أوامر الإله، انظر: لقد حدثت كارثة

---

(١) نسبة إلى «ثني» عاصمة الإقليم الثامن (تا - ور)، وإحدى المدن الكبرى الثلاثة في عصر التأسيس (الأسرة الأولى والثانية)، وقد زالت «ثني» تماماً، ومن هنا كان اختلاف المؤرخين حول تحديد مكانها على وجه اليقين، وإن كان «هرمان كيس» يذهب إلى أنه إنما تقع بالتأكيد إلى الشمال من (أبيدوس) (جبانة ثني)، وفي مركز جرجا بالذات، وأن الاختلاف يجب أن يقتصر على التحديد الدقيق للمكان من هذا المركز، ومن ثم فقد ذهب رأى إلى أن «ثني» إنما تقع في مكان قرية «البربا» الحالية، على مبعدة خمسة كيلو مترات إلى الشمال الغربي من جرجا، غير أن هذا المكان لم يعثر فيه على آثار هامة تؤيد هذا الرأى، كما أنه يبعد نسبياً عن أبيدوس.
على أن هناك وجهاً آخر للنظر، يذهب إلى أن «ثني» إنما تقع في مكان قرية «الطينة» الحالية، بينما يتجه رأى ثالث إلى أنها عند «نجع الدير» - على الشاطئ الشرقي للنيل، جنوب جرجا، وعلى بعد قريب من نجع المشايخ وأما «سير ألن جاردنر» فإنه يميل إلى رأى مواطنه الأثري «سايس» الذي يذهب إلى أن «ثني» إنما هي «نجع المشايخ»، جنوب شرقي جرجا عبر النهر، وعلى أى حال، فإن «ثني» تقع في مكان لا يبعد كثيراً عن «جرجا» لأن إلهها «أنوريس»، غالباً ما يدخل في أسماء أعلام الجهة المجاورة، وهي نجع الدير، ونجع المشايخ.

(2) J.A. Wilson, ANET, 1966, p. 242.

في عهدي، غزى إقليم ثني بسبب ما فعلت، غير أني لم أعرف إلا بعد حدوثه، انظر: إن ما فعلته هو السبب فيما جوزيت به، فالضربة ترد بضربة أخرى»[١]، مما يدل على أن الهالة التي كان الفراعين يحيطون بها أنفسهم ـ أو يحيطهم بها شعبهم ـ قد ضاعت، وأن ذلك الحجاب الفاصل بين الفرعون الإله وبين العامة من شعبه، قد انهار.

هذا وقد دعا عصر الثورة إلى تطبيق العدالة الاجتماعية بين الناس جميعاً، وكان على الحكام أن يفعلوا ذلك، ومن هنا فقد رأينا بعض الفراعين إنما يتخذ عند جلوسه على العرش أسماء رسمية، تعبر عن رغبتهم في أن يكون العدل الاجتماعي هدفهم، وأن تكون «ماعت» ـ إلهة الحق والعدل ـ رائدهم، فإن ألقينا نظرة على أسماء ملوك الأسرة الثانية عشرة نرى «ماعت» تتكرر باستمرار، فيذكرون «ماعت» التي تعني الحق أو العدل، أو «ماعت» بمعنى الصادق أو العادل، وقد اتخذ «أمنمحات الثاني» اسمي «الذي يسره العدل»، و«ذو الصوت الصادق» أما «سنوسرت الثاني» فقد سمي نفسه «الذي يرفع شأن العدل»، وكان «أمنمحات الثالث»، «المنتمي إلى عدل رع»، وكان أمنمحات الرابع «رع هو الصوت الصادق»، وفي هذه الأسماء نرى شيئاً من مميزات ذلك العصر[٢].

وهكذا نرى أن الثورة الاجتماعية ـ رغم أنها أبقت على الملكية الإلهية ـ لم تترك الفرعون بكل ما كان له من ميزات، بل شاركه فيها الكثيرون، ولم يعد حكام الأقاليم ينظرون إلى الفرعون ـ كما كانوا ينظرون إليه من قبل ـ إذ عملت أحداث الثورة وعواملها على التقليل من قدسية الفرعون، كما رفعت شأن النبلاء وأصبح كل منهم يفخر بنفسه، ويثق في قدراته، فمن ذلك «عحا نخت» الذي يقول في نقش على مقبرته في البرشا (جبانة الأشمونين) «كنت إنساناً أدي الحق، ذرب اللسان بين الخصوم، تكلم بلسانه (أي بدون وحي من أحد)، وعمل بساعديه، متيقظاً لخطوات الأمراء، والذي يدخل أولا، ويخرج أخيراً، وكنت صاحب المشورة في استشارة الموظفين، المخلص «عحا نخت» «المبرأ»[٣]، ويفخر «إميني» أمير بني

(1) J.A. Wilson, ANET, 1966, p. 415.
(2) J.A.Wilson, The Burden of Egypt, Chicago, 1954, p. 133.
(3) P.E. Newberry and F. I. Griffith, El BErsheh, London, 1893, Tomb, 5, p. 32.

حسن، بأن كل ما يأمر الملك بعمله إنما يتم عن طريقه: «لقد كنت كحاكم لإقليم الوعل، كل أعمال بيت الملك تمر من بين يدى»[١].

وهكذا لم يعد الملك بعد الثورة، ذلك الإله المترفع الجبار، الحاكم فوق البشر، وإنما غدا إنساناً له ما للإنسان من ضعف ونزوات، وحاكماً يعمل لخير شعبه، ويعمل جهد طاقته على أن يكون دائم اليقظة والانتباه، حتى لا يؤخذ على غرة بيد آثمة، شأنه مع شعبه، وشأن شعبه معه، شأن أى إنسان من كافة البشر، قد يفعل الخير فيجد خيراً، وقد لا يجد سوى الشر.

وخلاصة القول، أن الملك الذى كان قبل الثورة إلهاً أكثر منه إنساناً، أصبح ، فيما بعد الثورة، إنساناً أكثر منه إلهاً، ذلك لأن ضعف الملكية فى العهد الإقطاعى وضياع قدسيتها، قد هبط بها كثيراً من عليائها، كما أن الدعوة إلى العدالة الاجتماعية أدت إلى ارتفاع شأن الشعب، ومن ثم فإن الفروق بين الملكية والرعية قد قلت كثيراً، أو لم تعد لها تلك الهالة القديمة التى كانت لها فيما قبل الثورة.

كانت نظرية تولى العرش فى مصر تجعل العرش وقفاً على من تكون أمه من نسل ملكى، وكذا يجب أن يكون أبوه، ولعل هذا هو السبب فى زواج الأخ بأخته، التى لجأ إليها بعض الفراعين، بغرض تأكيد صفاء الألوهية. ولغرض آخر، هو التقابل من عدد المتطلعين إلى العرش[٢]، أما الآن نجد أن «نفرتى» يصرح فى تبوءته بأن مليكه الجديد «ليس من سلالة البيت المالك القديم، فهو إذن ليس بإله - كغيره ممن سبقه من الفراعين الآلهة، وإنما هو «ابن امرأة من تاستى طفل من خن نخن»[٣].

هذا وقد رسم عصر الثورة صفات جديدة للحاكم الذى يجلس على العرش، فإن القوم - بعد أن سمعوا بأحوال الملكية المتسيطرة القديمة ، وبعد أن لمسوا أحوال الملكية المهلهلة الضعيفة ، وبعد أن جربوا سيطرة العوام - رأوا أن يكون الجالس على العرش رجلا يخدم مصالح الدولة، ويرعى شئونها، ويعمل على وحدتها. رجلا يمتلئ قلبه بحب رعاياه، والرغبة فى العمل من

(1) P.E. Newberry, Beni Hassan, I. London, 1890, p. 26.
(2) J.A. Wilson, op.cit., p. 96-97.
(3) A.H. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, 1964, p. 125.

أجل مصلحتهم، ومن ثم فقد اقتربت الملكية من الشعب ، وأصبحت تحس بإحساسه، وتهتم به، وتتفانى فى خدمته، يقول الملك الإهناسى: «اكسب إلى جانبك الجماهير، وابعد عنها اللهيب، فالشعب الغنى لا يثور، فلا تفقره حتى لا تدفعه إلى الثورة لأن الفقير هو الذى يخلق المتاعب... اعمل على غنى الفلاح وأهل المدينة»(١).

وطالبت الثورة الملوك بالتزام العدل بين رعاياهم، وحذرتهم من العقاب الخطأ، وإن اضطروا إلى ذلك فالضرب والحبس، وليس القتل، هو الطريق الذى يجب أن يسلكوه فى تقويم المعوجين من رعاياهم، اللهم إلا الخونة المتآمرين فإن دمهم مباح لأن جرمهم أشنع من أن تكون الرحمة سبيل الحاكمين فيه، ولهذا يقول الملك الإهناسى لولده «مرى كا رع»: «الزم العدل تخلد على الأرض، واحذر أن تعاقب خطأ، فالقتل لن يفيدك، بل عاقب بالحبس والضرب، وبذلك تزدهر أحوال البلاد، أما المتآمر، فالله يقدر خبثه، ويطلب دمه جزاء جرمه»(٢).

ونادت الثورة بأن صلاح الأمور فى البلاد إنما يأتى عن طريق حكومة صالحة، وإن انقسم مفكروها إلى فريقين، الواحد يرى أن ذلك يتأتى على يد جيل جديد من الموظفين الأكفاء الأمناء العدول، والآخر يرى أن ذلك يتأتى على يد ملك حازم مخلص عادل مجدد، ينقذ البلاد من الهوة التى تردت فيها.

وفى تعاليم «خيتى» معالم واضحة لفكرة الفريق الأول، الذى ينادى بتكوين جيل جديد من الموظفين الأكفاء الأمناء العدول، فالملك ينصح ولده بمبدأ يعتبر من أنبل المبادئ التى تمخضت عنها الثورة الاجتماعية، إذ يحثه على أن يقدر الفرد لذاته، وذلك بأن يبحث عن الكفايات الممتازة فى الأوساط الدنيا، وتكوين جيل جديد من هولاء ويحذره من أن يتخذ من الحسب والنسب أساساً للاختيار، وإنما الاختيار يجب أن يعتمد على الكفاية

(1) Francois Dumas, La Civilization de l'Egypte Pharonique, Paris, 1955, p. 394-395.

(2) J.A. Wilson, The Intruction for King Meri-Ka-Re, ANET, Princceton, 1955, p. 415.

الشخصية فحسب، ولعل هذا ما نسميه الآن بمبدأ تكافؤ الفرص بين جميع المواطنين[١].

ثم ينصحه بعد ذلك أن يجعل لموظفيه مرتبات موفورة، لأن العفة والكرامة وطهارة اليد واللسان، والنزاهة فى الحكم والقدرة على تنفيذ الأمور، لن تكون لرجل جائع يفنى نفسه تفكيراً فى الحصول على قوته وقوت عياله[٢].

غير أن ذلك وحده لا يكفى ، وإنما يجب أن يسانده حاكم عادل، ففى «قصة الفلاح الفصيح» ما يدل على أن ذلك العلاج وحده غير ناجع، فلقد وقع على مقربة من قصر فرعون فى مجاورات إهناسية، اضطهاد غاشم أقدم عليه موظف سيء الخلق فى ضيعة المدير العظيم لبيت الملك ، مما يدل على أن الوظيفة ذات المرتب الضخم لا تغرس فى نفس صاحبها العدالة، ولن تغنى الفقير شيئاً من اضطهاد رجال الحكومة له[٣]، وإنما يجب أن يصاحب ذلك حاكم قوى حازم يحمى الضعيف من عسف القوى، ويمنع تلك الطبقة من الموظفين التى تتخذ من صلتها بالحاكمين وسيلة لظلم الناس، وهكذا تدل قصة الفلاح الفصيح على مدى حاجة الدولة إلى حاكم قوى ، عادل حازم.

وهكذا يذهب «إيبو - ور» و«نفرتى» إلى أن صلاح الأمور سوف يأتى على يد ملك عادل، وأن ذلك الحاكم إنما قد حكم فى يوم من الأيام باسم إله الشمس «رع»، ولما كان «إيبو - ور» يرى فى سلطته المقدسة العصر الذهبى، فإنه يوازن بينه وبين الحاكم الغاشم، الذى ترزح البلاد تحت عبثه على أيامه، وهكذا ، فإنه يصف ذلك المنقذ، الذى يأمل الخير على يديه: «إنه يجلب البرودة إلى اللهب، إنه راعى الإنسانية، لا يحمل فى قلبه شراً، يقضى يومه فى لمّ شمل رعيته»[٤].

وأما نفرتى» الذى كتب نبوءته بعد الثورة، كدعاية للملك« أمنمحات

(1) A.H. Gardiner, The Instruction for King Merykare, JEA, I, 1914, p. 27.
(2) Ibid., p. 26.
(3) J.H. Breasted, ARE, I, p. 183.
(4) A. Erman, op.cit., p. 105-106; J.H. Breasted, op.cit.,p. 198.

الأول»، مؤسس الأسرة الثانية عشرة، والذى كان مجيئه هو الأمل الذى يتشده الحكيم «إيبو ـ ور» وقد سماه «نفرتى» «إمينى»، وهو اختصار مؤكد لاسم الملك أمنمحات الأول، إذ يقول «سيأتى ملك من الجنوب، يدعى «إمينى» ابن امرأة من تاستى، طفل من خن نخن، ـ يستقبل التاج الأبيض، وسيلبس التاج الأحمر، وسيسعد من يعيشون فى عصره، وهو ابن واحد منهم، اسمه خالد إلى الأبد[١]».

وأما الذين كانوا قد تآمروا على الشر، ودبروا الفتنة، فسيطبقون أفواههم خوفاً منه، وسيسقط الآسيويون بسيفه، والليبيون أمام لهيبه، وسيستسلم الثوار أمام غضبه، والعصاة أمام جلالته، وسيخضع المتمردون للصل الذى على جبينه، وسوف يبنى حائط الأمير حتى لا يدع الأسيويين يهبطون مصر، أملا فى الحصول على الماء لتشرب ماشيتهم، وستعود العدالة إلى مكانها، ويقضى على الظلم، وسيفرح من سيرى، ومن سيكون فى خدمة الملك»[٢].

هذان هما الرأيان اللذان نادى بهما المفكرون الاجتماعيون لإصلاح الأمور، والدخول فى عهد جديد، على يد جيل من الموظفين الأمناء الأكفاء العدول، أو على يد ملك حازم عادل مخلص ينقذ المجتمع مما هو فيه، والرأى عندى أن كلا الرأيين فى حاجة إلى الآخر حتى ينجح الإصلاح ذلك أن حكم الملك الحازم العادل لن يأتى بثماره المرجوة، ما لم يعتمد على طائفة من الموظفين الأكفاء الأمناء العدول ليقوموا بتنفيذ الأوامر الملكية العادلة، والعكس صحيح، فإن الموظفين الأمناء لن يتأتى إصلاح على أيديهم، إن كان على رأس الدولة ملك فاسد خانع، وهكذا لن يتم الإصلاح إلا على يد ملك حازم عادل، تسنده جمهرة من الموظفين الأمناء الأكفاء العدول[٣].

---

(1) A.H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, p. 126.

(2) A.H. Gardiner, JEA, I, 1914, p. 105.

(٣) محمد بيومى مهران، الثورة الاجتماعية الأولى، الإسكندرية ١٩٦٦م، ص ١٧٦-١٨٦.

الفصل الثاني
في المجال الاجتماعي

دعت الثورة الاجتماعية الأولى إلى «مبدأ تكافؤ الفرص» بين المواطنين جميعاً، ومن ثم فيجب أن يختار الحاكم أعوانه على أساس من كفاءتهم الشخصية، وليس على أساس من حسب أو نسب، يقول الملك الإهناسي لولده «لا تفرق بين ابن النبيل وبين ابن الفقير، وتخير الفرد بكفاءته الشخصية»[1]، ولعل مما يزيد أهمية هذا المبدأ، أن قائله ملك، وأن الموجه إليه ملك، وهذا يعني أن سياسة الدولة على أعلى مستوى فيها إنما تنادي بمبدأ تكافؤ الفرص.

وقد أدى هذا المبدأ إلى ظهور طبقة جديدة من الموظفين، لا تعتز بالحسب والنسب، وإنما تمجد العصامية، يفخر الواحد منها بأنه حر في رأيه، ويعمل بساعده، ويحرث بمواشيه، وينتقل بقاربه، يقول «ابن وجا»[2]، «كنت مواطناً نشطاً، ذا سمعة طيبة، عاش في أملاكه، وحرث بثيرانه، وسافر بسفينته ولم يكن ذلك وجدته في حيازة أبي المبجل «وجا» ويقول «حقا إيب» : «كنت مواطناً صالحاً يتكلم بفمه، ويعمل بساعده، وقد جعلت مدينتي قريبة مني، لقد كنت نبيلاً في طيبة، والساعد العظيم في «ختني ويت»، وقال الناس لقد أحرز الممتلكات بساعده»[3].

هذا وقد نادت الثورة بالمساواة التامة بين المواطنين في الحقوق والواجبات، وفي تعاليم الملك الإهناسي ما يدل على أن الناس سواسية أمام خالقهم، وأن للملكية واجبات توازي حقوقها، وأن كل راع مسئول عن رعيته، وأن نعم الله التي أسبغها على خلقه إنما هي لهم جميعاً، وأن رحمته إنما قد تداركتهم وهم ما يزالون أجنة في بطون أمهاتهم[4].

ولعل من أهم دواعي المساواة بين الناس «أن الله خلق كل إنسان مثل

---

(1) J.A. Wilson, ANET, 1955, p. 415.

(2) D. Dunham, Nega ed Der Stela of The First Intermediate Period, 1947, Pl. XXXII, p. 104.

(3) H.G. Polteky, The Stela of Heka - Yeb, JEA, XVI, 1930, p. 144.

(4) A.H. Gardiner, JEA, I, 1914, p. 34.

أخيه الإنسان، وأنه لم يأمرهم بالشرّ، وإنما نفوسهم هى التى وسوست لهم به، ولعل الجمع هنا بين المساواة وبين فعل الشر إنما ليشير إلى أن الفوارق الاجتماعية ليست من أمر الله، وإنما هى من شر بنى الإنسان، وأن المجتمع المثالى مجتمع يتساوى فيه جميع مواطنيه فى الحقوق والواجبات.

وهناك نص عثر عليه فى «متون التوابيت» جاء فيه: «إن الله خلق أشياء أربعة لمنفعة الناس، وساوى بينهم فيها، صنع الرياح ليتنفس منها كل إنسان مثل أخيه إبان حياته، وهذا أول الأفعال، وصنع مياه الفيضان العظيمة، وجعل فيها للفقير ما للعظيم من حق، وذلك ثانى الأفعال، وخلق كل إنسان مثل أخيه، ولم يأمرهم بفعل الشرّ، إلا أن قلوبهم قد انتهكت حرمة ما فعل، وذلك ثالث الأفعال، وخلق قلوبهم بحيث تفكر فى الغرب(الآخرة) لكى تقدم القرابين المقدسة لآلهة الأقاليم، وذلك رابع الأفعال»[١].

وهكذا نادت مصر - قبل ظهور المسيح عليه السلام، ودعوته السمحاء - بأكثر من ألفين من السنين، بالقضاء التام المطلق على الفوارق الاجتماعية بين بنى البشر جميعاً، ومن هنا كان هذا العصر من أهم العصور التاريخية فى مصر الفراعنة لأنه نادى بالقضاء على الفوارق بين الناس، ومن أسف أن مصر لم تسر فى هذا الشوط حتى نهايته، ربما لأن الوقت كان مبكراً جداً فى تاريخ العالم، ليصل أى شعب إلى تحقيق هذا العدل تحقيقاً تاماً، وربما لأن الظروف التى أحاطت بذلك العصر هى التى ألهمت مفكروه تلك المبادئ الخالدة، أما حين تتغير الأحوال، وتقوم الدولة الوسطى، وتؤدى رسالتها خير أداء، فيسود الأمن، ويعم الرخاء، فإن هذا المذهب القائل بمساواة كل رجل بأخيه، وإصرار الفلاح الفصيح على أنه يجب أن يكون لأفقر الناس حقوقاً طبيعية، فقد أصبحت أشياء باهتة وتنسيها الناس فى غمرة الرخاء الذى عمّ البلاد، ولم يعد فرعون فى حاجة إلى أن يقضى الليل ساهراً يحرس قطيعه، فلقد أصبح القطيع سميناً إلى الحد الذى تمنعه سمنته من أن يتحرك فيضل طريقه بعيداً عن العرش[٢].

(1) J.A. Wilson, Creation and Myths of Origins, All Man Created Equal in Opportunity, ANET, 1966, p. 7-8.

(2) J.A. Wilson, The Burden of Egypt, Chicago, 1954, p. 143-144.

هذا وقد نجح عصر الثورة الاجتماعية فى تحقيق العدالة الاجتماعية، فقصة الفلاح الفصيح تلح وبشدة فى طلب العدالة الاجتماعية، واعطاء الفقير حقه، ومن حسن الحظ أن مصير العدالة الاجتماعية لم يكن كمصير المساواة فى العصور التالية، فلقد استمر المصريون فى عهد الدولة الوسطى يؤمنون بالعدل الاجتماعى، وحقوق الفرد، وجهد الفراعين على رفاهية شعبهم، ونشر العدالة بين أفراده، فهناك نسخ من خطاب اعتاد الملك أن يوجهه مشافهة إلى وزيره الأعظم إبان تعيينه، ويرجع إلى الدولة الحديثة، ويقدم الدليل على أن أحلام «إيبو - ور» و«نفرتى» فى ظهور مخلص عادل، إنا قد تحققت فيما يتصل بالأخلاق الملكية، أو بعبارة أخرى أن روح العدالة التى كان يشعر بها المتنبئان قد وصلت إلى صاحب العرش، ثم سرت فى كيان حكومته.

وقد جاء فى الخطاب الذى وجهه الفرعون إلى وزيره: «إن الوزارة ليست حلوة بل إنها مرّة، إنها لا تعنى إظهار احترام أشخاص الأمراء والمستشارين، وليس الغرض منها أن يتخذ الوزير من الشعب عبيداً له، اعلم أنه عندما يأتى إليك صاحب مظلمة أو حاجة من الصعيد أو الدلتا، أو من أية قطعة من البلاد، فعليك أن تراعى أن يسير الأمر وفقاً للقانون، وأن يعطى كل ذى حق حقه»، ثم يقول «احترس من الذى يقال عن الوزير خيتى، إذ يحكى أنه جار فى حكمه على بعض ذوى قرباه، منحازاً إلى غرباء، حتى لا يقال عنه: إنه حابى ذوى قرباه خيانة منه، وعندما استأنف أحدهم الحكم الذى أصدره «خيتى» ضده، أصرّ على إجحافه لهم، إن ذلك أكثر من عدالة، فلا تنس أن تحكم بالعدل، لأن التحيز يعد طغياناً على الإله نفسه»(١).

ثم يقول له «عامل من تعرفه معاملة من لا تعرفه، والمقرب من الملك كالبعيد عنه، ولا تغضبن على رجل لم تتحر الصواب فى أمره، بل اغضب على من يجب الغضب عليه»، ثم يقول له : «لا تتوان قط فى إقامة العدل، وهو القانون الذى تعرفه، واعلم أنه جدير بالملك ألا يميل إلى المستكبر أكثر من المستضعف»(٢).

(1) J. H. Breasted, The Dawn of Conscience, New York, 1939, p. 209.
(2) Ibid., p. 210.

وهكذا نجد أن سياسة الدولة أصبحت تسير على مبدأ العدالة الاجتماعية، فالوزارة ـ أسمى المناصب وأرفعها شأناً ـ ليس الغرض منها تفضيل الأمراء والمستشارين على العامة من القوم، كما أنها ليست وسيلة لاستعباد الناس، وإنما هي وسيلة لنشر العدالة، وتنفيذ القانون على الناس جميعاً، دونما تفرقة بين قريب أو بعيد، فليس من العدل أن يظلم من له صلة بولى الأمر، كما أنه ليس من العدل كذلك أن يظلم الأقربون، وإنما العدل أن ينال كل ذى حق حقه، كما يجب أن يكبح ولى الأمر غضبه، حتى يستطيع أن يقوم بالعدل بين الناس بالقسطاس المستقيم، وهكذا نجد أن هذه الوثيقة الرسمية إنما تضغط بشدة وبإلحاح على تطبيق العدالة الاجتماعية بين المواطنين جميعاً، وهكذا تتحقق أحلام «إيبو ـ ور» إذ أن هذا الخطاب يعد بمثابة تصريح رسمى من رئيس الدولة إلى أكبر موظفيها يحوى المبادئ الرئيسة للعدالة الاجتماعية.

وهكذا تتصدر مصر مكاناً ممتازاً فى هذا المجال، فعندما تفحص قوانين حورابى، والتى ترجع إلى عصر تال، نجد أن إجراء العدالة إنما يشترط فيه الاتفاق بين الطبقات الاجتماعية، إنه عن نفس الجرم إنما تختلف العقوبة والأضرار طبقاً للطبقة الاجتماعية التى ينتمى إليها الفرد الذى وقع منه الجرم[١]، وفى تنصيب الوزير المصرى تمحى مثل هذه الفروق.والجميع يعاملون على قدم المساواة وعندما قال «أفلاطون» فى مقالته عن السياسة «الدولة تجسيم العدالة المنظم»، ربما لم يكن يعلم إلا قليلاً، أن مصر كانت قد اتخذت منذ ألف وخمسمائة سنة خلت، هذا المثل الأعلى، وحاولت أن تجعله حقيقة واقعة، أو أن هذا دليلا آخر على أن أفلاطون كان فى مصر، وأن ذلك رأياً استحوذ عليه هناك[٢].

---

(1) Theophile J. Meek, The Code of Hammurabi, ANET, 1966, p. 163-177.

(٢) جيمس هنرى برستد، تطور الفكر والدين فى مصر القديمة، ترجمة زكى سوسن، القاهرة ١٩٦١، ص٣٣٨.

الفصل الثالث

في المجال الديني

دفعت أحداث الثورة المصريين القدامى إلى أن يبدو آراءهم في العقائد التي كان يعتنقها السلف بالنقد تارة، والمديح تارة أخرى، وبالرغبة في التعديل - في بعض الأحايين - مرة ثالثة.

كان المصريون أول من فكر في معنى الحياة، فحوار «المتعب من الحياة مع روحه»[١] نموذجاً لذلك، إذ نرى صاحب الحوار (نسو) يفكر في الخلاص من الحياة، لأنها أصبحت - في نظره - لا تطاق، لما فيها من آلام ونكبات أحاطت به وبقومه، ويتناول «نسو» التساؤل عن معنى الحياة من ناحيتين، الواحدة تنطق بمعنى الحياة، إذا اختفى منها كل ما كان من شأنه أن يجعلها سعيدة، والأخرى أكثر عمقاً، وأوسع مدى، فلم يكتف الكاتب فيها باستمرار ذلك العراك بين الأفكار والرغبات، وإنما عمد إلى الموازنة بين وجهتي النظر المختلفتين اللتين سادتا الحياة في ذلك العصر، بينما نجد روح «نسو» تلتزم الدفاع عن متع الحياة الرخيصة، وتدعو ألا يفكر كثيراً في الآخرة، وأن يتقبل برضى كل ما تقدمه الحياة.

ويمثل الكاتب ذلك الفريق من المصريين الذين احتفظوا بجأشهم، والذين محصتهم الآلام والنكبات وطهرتهم من أدرانها، فأكسبتهم بصيرة، وزادتهم إيماناً بالآخرة، وبقيمة أعمالهم الصالحة في الحياة الدنيا، ومن ذلك يتضح أن ما حدث يتكرر في الإنسانية، وأن فرط النكبات والمساوئ الاجتماعية المنتشرة، وازدياد البلاء، يحدث أثراً مزدوجاً ففريق ممن تصيبهم النكبات - وهم الأكثرية - يجرفهم تيار الأحداث بينما يفترض أن تدعو تلك الأحداث إلى التبصر، وأحياناً إلى التشكك[٢].

هذا وقد نادى «إيبو - ور»، كذلك، بفكرة التخلص من الحياة وأن يكون ذلك نهاية الناس من الدنيا، «ألا ليت ذلك يكون نهاية الناس، فلا حمل ولا ولادة، ليت العالم يتخلص من الغوغاء، وتنقضي المشاحنات»[٣].

---

(1) J.H. Breasted, op.cit., p. 168-181; A. Erman, op.cit., p. 85-92.

(٢) نجيب ميخائيل، المرجع السابق، ص ٢٧٦.

(3) J.A. Wilson, op.cit., p. 412.

ولم يقتصر الأمر على التفكير في معنى الحياة، وتمنى الخلاص منها، بل إن الثورة إنما دعت فريقاً من الناس إلى الشك في الآخرة نفسها، ودعوة المترفين إلى التمتع بمباهي الحياة الدنيا، ما وسعهم إلى ذلك من سبيل، دونما قلق على الآخرة، وما يصيبهم فيها، لأنهم لا يعلمون عنها شيئاً، ذلك أن واحداً من الراحلين لم يأخذ معه شيئاً مما اقتناه في الدنيا، حين ذهب إلى الآخرة»[1].

هذا وكانت عصور ما قبل الثورة الاجتماعية الأولى، إنما تهتم ببناء وصيانة ضريح رائع يبقى خالداً على مرّ السنين، إذ أن ذلك، في نظر القوم، ضمان للخلود في العالم الآخر، بل إن فقدان القبر، إنما كان في عقيدة القوم، أكبر كارثة يمكن أن تحل بمصر، ومن ثم فقد اتخذها الملوك كأقسى عقاب لمن يمكن أن يشك في ولائه لفرعون حتى أن أحد الحكماء قد حذّر أولاده من هذا العقاب الأليم، إذ يقول«لا قبر لإنسان خارج على الملك، وإنما سيلقى بجثته في الماء»، وتقوم الثورة الاجتماعية وتبقى على هذا النصب، ومن ثم فإننا نرى الملك الإهناسي ينصح ولده بإقامتها «زين مثواك الذى في الغرب، وجمّل مقعدك في الجبانة»[2]، غير أن عصر الثورة لم يقتصر على الوسائل المادية كسبيل للسعادة في الحياة الثانية، وإنما أصبح للأخلاق في هذا العصر شأن عظيم في تقرير مصير الإنسان بعد وفاته.

وهكذا أصبحت الأهمية الكبرى للوصول إلى الخلد هو العمل الصالح، بعد أن كان ذلك من قبل الثروة والقربى من الملك الإله، وتقدم لنا الملك الإهناسي أمثلة كثيرة على ذلك، ففي تعاليمه التي وجهها لولده «مرى كا رع» حثه فيها على نبذ المادية في ثلاث فقرات «لا تكن شريراً، فالصبر خير، اجعل بيت ذكراك خالداً بحب الناس لك»، وعندما أراد أن يقارن ذلك العمل الأخلاقي ببناء بيت الذكرى، قال له «اجعل الناس يحبونك في الدنيا، فالخلق الطيب ذكرى للإنسان»، أما الفقرة الثالثة فتعلن صراحة أن الخلق الطيب أفضل من قرابين الأشرار، «إن فضيلة الرجل المستقيم أحب إلى الإله من ثور الرجل الشرير» (أى الثور الذى يقدمه

(1) Ibid., p. 467.
(2) A. Erman, The Literature of The Ancient Egyptians, 1927, p. 86.

كقربان)[١]، ويقدم صاحب قصة القروى الفصيح مثلا آخر، حين يحذر كبير حجاب القصر الملكي في جملة مقتضبة تحمل كل معاني التحذير من يوم الحساب «احذر فإن الأبدية تقترب»[٢].

هذا ويرى أمراء عصر الثورة الاجتماعية يفخرون بمراعاة العدالة وحب الفقراء والعناية بهم، فيذكر الواحد منهم بفخر أنه أنقذ الأرملة وواسى المتألم وأطعم الجائع، ولم يفرق بين رجل فقير، وآخر عظيم في شيء، وها هو «أميني» أمير بنى حسن يقول في نقش كتبه على مزار قبره «إنني لم أستعمل القسوة مع أية واحدة من بنات الأهالي، ولم أظلم أية أرملة، ولم أقبض على أي عامل، ولم أطرد راعياً، ولم يكن هناك رئيس أخذت منه عمالة أثناء العمل، وليس هناك فقير، ولا جائع في عصرى»[٣]، ويذكر «حقا إيب» حاكم أسوان «لقد أعطيت الخبز للجائع، والكساء للعريان، وأنعمت على البسطاء سراً، وأعطيت سلف القمح لمصر العليا، كما أعطيت الأقاليم الشمالية من شعير مصر العليا، وقدمت الزيت لإقليم «نخن»، بعد أن أخذت منه مدينتي حاجتها، وصنعت سفينة طولها أربعون ذراعاً، وكذا قارباً، لنقل الماشية، وتعدية من لا قارب له في فصل الفيضان»[٤].

ويفخر «خيتي» أمير أسيوط على عهد الإهناسيين بإدارته الحكيمة وما قدمه من خير لمحكوميه، فيقول «لقد قدمت هدية لمدينتي، عندما حفرت في الأرض الصالحة للزراعة، قناة عرضها عشرة أذرع، وقدمت أجوراً من الحبوب للساقين ليتولوا توزيع المياه وقت الظهيرة، وأمددت المناطق المرتفعة بالمياه، وحفرت نبعاً في الجبل الذى عزّ فيه الماء، وضمنت الحدود الزراعية، ورفعت علامات الحدود القديمة حتى أخذ كل مزارع حاجته من الماء، ونال كل مواطن نصيبه من ماء النيل، وكما أرضيت الجار سقيت جاره»[٥]

(1) J. Wilson, ANET, p. 417.
(2) A. Erman, op.cit., p. 123.
(3) P.E. Newberry, Beni Hasan, I, 1893, p. 27.
(4) H.J. Polotsky, JEA, 16, 1930, p. 194.
وانظر: محمد بيومى مهران، الثورة الاجتماعية الأولى، ص ١٨٦-١٨٨.
(5) J.H. Breasted, ARE, I, 1906, p. 188.

وهكذا اعتقد القوم أن على المرء أن يوجه عنايته لإقامة الشعائر الدينية لينال عطف الإله، غير أن ذلك لن يغني عنه من الله شيئاً، ما لم تسنده أعمال طيبة، وفي جملة الملك الإهناسي التي تنص على أن الإله يسر للخلق الفاضل أكثر من سروره بالقرابين الكثيرة، والتي تعد أجمل ما جاء في التفكير الخلقي في مصر الفرعونية في ذلك العصر المبكر، وفي هذه الجملة دلالة على أن للفقير ما للغني من حق في رعاية الله، ذلك لأن أكرمهم عند الله أتقاهم، وليس أكثرهم قرباناً، وهكذا فإن السعادة في الآخرة لم تعد تتوقف على قبر يبنى، أو قرابين تقدم، ولكنها أصبحت في العمل الصالح، والعدل بين الناس، والعطف عليهم والعناية بهم، وفي هذا يقول الملك الإهناسي «أقم العدل لتوطد به مكانتك فوق الأرض، وواسي الحزين، ولا تسيئن إلى الأرملة، ولا تحرمن رجلا من ميراث أبيه، ولا تضرن الأشراف في مراكزهم»[1].

وهكذا ظل المصريون، كما كانوا قبل الثورة الاجتماعية، يؤمنون بأهمية الوسائل المادية كطريق للسعادة في الحياة الآخرة، فالقبر الفخم والهبات الجنازية السخية من الأمور الهامة في ذلك، ولكن الثورة أضافت إلى ذلك، أن السعادة في الآخرة، لن تكون فقط بقبر يبنى أو قرابين تقدم بانتظام، أو بعطف من الملك ورضاه، وإنما السعادة في العالم الآخر بشيء أفضل من ذلك وأهم، بالعمل الصالح، فهو طريق النجاة من أخطار العالم الثاني، وهكذا تأتي لنا الثورة بما يعد من أنبل ما جاء به التفكير الخلقي أو الديني في مصر القديمة حين تؤكد مبادؤها بأن الآخرة إنما هي نتاج عمل الدنيا، وأن الذين اعتادوا عمل الخير في الدنيا، سوف يسلكون نفس الطريق، وسوف يجنون ثمرة عملهم هذا، لأن «الروح تذهب إلى المكان الذى تعرفه، ولا تحيد في سيرها عن طريق أمسها».

وهكذا تكشف الثورة للمصريين، منذ ذلك العهد البعيد، أن القيم الخلقية يجب أن تحل محل القيم المادية، وأن الإنسان إن أراد خلوداً في آخرته، وسعادة في حياته الثانية، فليسلك إلى ذلك سبيل الخير، ومن ثم فإن

(١) محمد بيومي مهران، المرجع السابق، ص ١٨٧-١٨٨؛ وكذا:
A.H Gardiner, JEA, I, 1914, p. 28.

مصر تكون أول أمة عرفت القيم التي في الإنسان العادى، ولم يقف الأمر في مصرعند هذا الحد، بل إن هذه المعرفة إنما كانت تهدف في محاولاتها إلى أن يتستع عدد كبير من الناس بحياة أفضل[1].

هذا وكان المصرى القديم يعتقد أن الميت سوف يحاكم أمام «إله الشمس»، وذلك استجابة لطلب أي إنسان كان الميت قد أخطأ في حقه وليس حسابا على شيء آخر، فإذا لم يطلب المتوفى المحاكمة بهذه الصدفة فمن المحتمل ألا يتعرض في الحياة الثانية لمحاكمة أخرى، ثم ما لبث أن ولدت فكرة محكمة أوزير التي تنتظر كل إنسان لتحاكمه على ما قدمت يداه من تصرفات وفقا لقواعد الأخلاق.

وهكذا فإننا نقرأ - ولأول مرة في التاريخ المصرى - عن وجود محكمة بعد الموت يقف الناس أمامها جميعاً يؤدون امتحاناً عسيراً عما قدموه في دنياهم، خيراً كان أم شراً، ولن ينجح في هذا الامتحان الإلهي أصحاب الثروة والجاه والأهرامات الشاهقة والقبور الفخمة وما يقدم لأصحابها من قرابين وأدعيات، وما أقام فيها من طقوس وصلوات وإنما سيكون النجاح فيها من نصيب أصحاب العمل الصالح وذوى النفوس الطيبة، ذلك لأن أعمال كل إنسان - أيا كان هذا الإنسان - ستوضع مكدسة بجواره، وستقرر المحكمة مصير الموتى أجمعين، وهكذا أصبح من مستلزمات ذلك العهد أن المرء لابد وأن يجتاز امتحاناً عسيراً أمام هذه المحكمة لينال السعادة المتشردة في العالم الآخر.

وفي تعاليم الملك الإهناسي إشارة إلى ذلك، حيث يقول لولده : «إنك تعلم أن القضاة الذين يحاسبون المذنب لا يرحمون الشقي يوم المحاكمة، وتسوء العاقبة إن كانت التهمة من الواحد العاقل (ربما تحوت الذى يدير المحاكمة يوم القيامة)، لا تضع ثقتك في طول السنين، فهم ينظرون إلى فترة المحاكمة، وكأنها ساعة، ثم يبعث المرء ثانية بعد الموت، وتوضع أعماله بجانبه كأكوام، لأن الخلود مثواه هناك في العالم الآخرة، الغبى من لا يهتم بذلك، أما من يأتي يومئذ دون أن يرتكب إثماً، فإنه سوف يعيش هناك كما يعيش الأبرار المتوفين، سادة الأبدية».

(١) محمد بيومى مهران، المرجع السابق، ص ٢١٤-٢١٥؛
J. Wilson, The Burden of Egypt, p. 114, ANET, p. 415.

وهكذا يحذر فرعون إهناسية ولده، من يوم الحساب، من يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون، ولا جاه ولا سلطان، لأن من سيحاسب الناس إنما هو الواحد العاقل، كما يحذره من أن يغتر بطول السنين، لأنها في نظر قضاة الأبدية وكأنها ساعة مما يعد القوم، وأنه سوف يجد هناك أعماله كلها مكدسة بجواره «من يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره». وهكذا تكون نتيجة المحاكمة، فمن يصل إلى الآخرة، وقد عمل الخير في دنياه، فإنه سيثوى هناك مرحاً مع الأبرار المتوفين، ومن لا يكترث بنتائج هذا اليوم فهو غبيّ أحمق، وسيكتب عليه سوء المصير[1].

هذا وقد تصوور القوم أن «أوزير» إنما سيكون سيد مملكةالموتى، والمشرف على حساب الميت، هذا وقد صور كتاب الموتى، من عهد الدولة الحديثة، المحاكمة أوضح تصوير، وعبّر عنها باللفظ والصورة، فهناك ما يمثل أوزير جالساً على عرشه في أحد جانبي بهو العدالة، وأمامه أبناء حور الأربعة (إيمسي وحابي ودواموتف وقبح سنواف)، فضلاً عن ملتهم الموتى، وهو حيوان هجين له رأس تمساح وصدر أسد وعجز فرس النهر.

وفي الجانب الآخر يتقدم الميت تتلقاه آلهة الحق والعدالة وفي الوسيط ميزان ينصب ويوضع في إحدى كفتيه قلب المتوفى، باعتباره مصدر النية والمشاعر والضمير، بينما تصور في الكفة الأخرى (ريشة)، ترمز من حيث اللفظ إلى كلمة «ماعت» بمعنى العدالة، وترمز من حيث الصورة إلى دقة الوزن وحساسيته، ويجرى الحساب، كما قلنا آنفاً، في حضرة أوزير، رب الآخرة، وبحضور اثنين وأربعين قاضياً يمثلون أرباب عواصم الأقاليم، ويتحقق حور وأنوبيس من صحة الوزن، بينما يقوم على تسجيل الحسنات والسيئات تحوت، رب الحكمة والكتابة، فيسير على لوحة بنتيجة الوزن ونتيجة دفاع المتوفى عن نفسه أمام أربابه وإلهه الأكبر، وحينئذ يتحدد مصيره، فإما إلى جنات ذات بحيرات وغدران وزروع ترتفع سنابلها إلى سبعة أذرع، وإما إلى جحيم تتنوع فيه صور الحرمان والفزع وأذى الوحوش والحيات والثيران.

---

(١) محمد بيومي مهران، المرجع السابق، ص ١٨٨-١٨٩؛ ٤١٤-٤١٦؛

A.Erman, op.cit., p. 77; I, J.H. Breasted, The Dawn of Conscience, p. 250.

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أنه على المتوفى أن يتقدم بدفاعين، الواحد عن نفسه، وهو دفاع عام، والآخر عن كل من القضاة باسمه وصفته وأن يبرئ نفسه أمامهم من اثنين وأربعين خطيئة، وما يقوله في دفاعه الأول : «إننى لم أقترف اثما ضد البشر، ولم أفعل شيئا تمقته الآلهة، ولم أسع بأحد عند رئيسه، ولم أجوع أحدا، ولم أدع أحدا يبكى، ولم أقتل، ولم أحرض على القتل، ولم أسبب لأحد ألما، ولم أحيف من خبز الآلهة، ولم أستلب طعام الأبرار، ولم أفسق في المكان الطاهر لإله مدينتى، ولم أستعمل مكيالا منقوصا ولا ذراعا نقص الطول، ولم أزيف فى أبعاد الحقل، ولم أزد مثاقيل الميزان، ولم أزحزح لسان الميزان، ولم أسلب اللبن من فم الطفل، ولم أسرق الماشية من مرعاها، ولم أصد طيور الآلهة، ولا الأسماك من بحيراتهم، ولم أمنع ماء الفيضان فى وقته، ولم أسد على الماء الجارى، ولم أؤذ قطعان المعابد، ولم أعترض إرادة الإله».

وأما الذنوب التي ينكرها الميت فى دفاعه الثانى، فمنها أنه لم يسرق طعاما، ولم يذبح الثيران المقدسة، ولم يسترق السمع، ولم يصم أذنيه عن كلمات الحق، ومن ثم يقترف ما يقدم عليه، ولم يتكلم كثيرا بلغو، ولم يجهر بصوته، ولم يسئ إلى الملك ولا إلى الإله.

وهكذا استطاع المصريون القدامى أن يقتربوا إلى حد ما من المبدأ الذى قررته كتب السماء، وهو أن الآخرة نتيجة عمل الدنيا، فمن عمل صالحا فلنفسه، ومن أساء فعليها.

ولكن هناك أمورا هدمت ذلك المبدأ النبيل، أو على الأقل أوجدت ثغرة فيه، ولعل أهم تلك الأمور أنهم استمروا على اعتقادهم القديم فى أن العوامل المادية كإقامة القبور الفخمة والإنفاق عليها بسخاء، إنما يضمن سعادة المتوفى فى العالم الآخر.

ومن هنا نرى الملك الإهناسي ينصح ولده بأن يزين مثواه الذى هو فى الغرب، فهو الشيء الذى تركن إليه قلوب أهل الاستقامة، ومنها كذلك انتشار السحر وزيادة الاعتماد عليه فى عالم الآخرة، ومن ثم فقد لجأوا إلى التعاويذ التى رأوا فيها حماية للمتوفى من الأخطار التى تحف به فى الآخرة،

أو على الأقل تزوده فى آخرته بما هو فى حاجة إليه من نعيم، فانتهز الكهنة تلك الفرصة لابتزاز أموال الناس حباً في الكسب الذى كان يأتى إليهم بهذ الطريقة السهلة، وضاعفوا أخطار الآخرة بدرجة كبيرة، وادعوا أنهم يستطيعون إنقاذ الموتى فى كل موقف حرج بتعويذة خاصة تنجيه من ذلك الخطر حتماً، وبذا يضمن المتوفى قبوله خلقياً عند المحاكمة فى عالم الآخرة.

ومنها امتزاج أفراد الشعب بعد موتهم بربّهم «أوزير» وكان ذلك من شأنه القضاء على الهدف من المحاكمة، ذلك أن الديموقراطية، التى نادى بها عصر الثورة الاجتماعية لم تكن وقفاً على الحياة الدنيا، وإنما تعدتها إلى الحياه الثانية، ومن ثم فقد شارك العامة الفرعون فى مصيره الأخروى، فكما أن الفرعون سيصير «أوزيراً» فى الآخرة، فقد اعتقد كل فرد أنه سيكون كذلك «أوزير»، فما كاد الحى ينتهى إلى الآخرة حتى يحمل أوزير وصفاته، فيرعى جسده حارس الموتى «أنوبيس»، وتحنو عليه ربة السماء «نوت»، وتبكيه أختاه إيزة ونفتيس، ويقوم إلى جواره ولده ليدفع عنه شر المعتدين وأذى الكائدين، ثم يقوده فى موكب النصر والرحمة إلى مكانه من السماء.

وما يكاد ركب التاريخ يصل بأيامه إلى مطلع الحياة من أيام الدولة الوسطى، حتى تصبح هذه العقيدة واضحة بينة فيما انتشر على توابيت الموتى من تعاويذ ورقى مختلفة تشير كلها إلى أن الناس قد تساوت مقاديرهم فى هذه الدنيا، فأصبحوا فى عالم القبور سواء، ذلك لأن مجرد الامتزاج بأوزير أصبح كفيلا بأن يحقق براءة الميت، وأصبح كل ميت يلقب بـ «المبرأ».

ولم يكن هناك مجال للاعتراف بأى ذنب اقترفه فى حياته، إذ كان عليه، كما رأينا أنفاً، أن يعلن براءته من كل ذنب وخطيئة، وأن يدعى لنفسه سلسلة طويلة من الفضائل والأعمال الحسنة، وهكذا أدت مساواة كل ميت بالإله أوزير، وامتزاجه به إلى براءة صورية ضيعت الغرض من المحاكمة، وأصبح الاهتمام بالسحر والشكليات شائعاً.

وهكذا أدت كل هذه العوامل دوراً هاماً فى القضاء على الهدف من المحاكمة، وجعلت منها شيئاً يمكن التخلص منه بوسيلة أو بأخرى، ومع ذلك فلا نستطيع أن ننسى أن المصريين فى تلك الفترة المبكرة من تاريخهم

نسبياً، استطاعوا أن يصلوا إلى هذا المستوى من التفكير الديني والخلقي، فقد أصبح للأخلاق في نظرهم شأن عظيم في تقرير مصير الإنسان بعد الموت، بعد أن كان ذلك وقفاً على الوسائل المادية، وعلى مقدار صلة المتوفى بالملك الإله ورضاه عنه[١].

تم بحمد الله

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين
والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا وجدنا
محمد رسول الله ﷺ، وعلى آله الطيبين الطاهرين

---

(١) محمد بيومي مهران، المرجع السابق، ص ١٨٩-١٩٠؛ ٢١٦-٢١٧؛ أحمد بدوي، المرجع السابق، ص ٧٠-٧١؛ محمد أنور شكري، المرجع السابق، ص ١٧٤-١٧٦؛ وكذا:
J.H. Breasted, op.cit., p. 268.
وانظر : الترجمة العربية (برستد، فجر الضمير، ص ٢٦٦-٢٩٠)



المراجع المختارة

أولا ـ المراجع العربية

١ ـ القرآن الكريم.
٢ ـ كتب الحديث الشريف
٣ ـ التوراة
٤ ـ الإنجيل
٥ ـ الدكتور إبراهيم زيادى، ملامح جغرافية جمهورية مصر العربية، الإسكندرية ١٩٩٣م.
٦ ـ الدكتور أحمد بدوى، فى موكب الشمس، الجزء الأول، القاهرة ١٩٤٦م.
٧ ـ الدكتور أحمد بدوى، فى موكب الشمس، الجزء الثانى، القاهرة ١٩٥٠م.
٨ ـ الدكتور أحمد سليم، دراسة تاريخية للحضارة المصرية أثناء الأسرة الأولى والثانية، الإسكندرية ١٩٧٧م.
٩ ـ الدكتور أحمد سليم، دراسة تاريخية لنشأة الأسرة الثالثة وتطورها السياسى والحضارى، الإسكندرية ١٩٨١ .
١٠ ـ الدكتور أحمد صبحى منصور، مصر فى القرآن الكريم، القاهرة ١٩٩٠م.
١١ ـ الدكتور أحمد فخرى، الأهرامات المصرية، القاهرة ١٩٦٣م.
١٢ ـ الدكتور أحمد فخرى، مصر الفرعونية، القاهرة ١٩٧١م.
١٣ ـ الدكتور أحمد فخرى، تاريخ الحضارة المصرية، العصر الفرعونى ـ الأدب المصرى، القاهرة ١٩٦٢م.
١٤ ـ الدكتور أحمد محمود صابون، دراسة تاريخية للإقليم الثالث: «نخن ـ نخب»، الإسكندرية ١٩٨٤م.
١٥ ـ الكندى (عمر بن محمد بن يوسف)، فضائل مصر، القاهرة ١٩٧١م.
١٦ ـ الدكتور رشيد الناضورى، جنوبى غربى آسيا وشمال أفريقيا، الإسكندرية ١٩٦٥م.
١٧ ـ الدكتور رمضان عبده، تاريخ مصر القديمة، الجزء الأول، القاهرة ١٩٨٨م.
١٨ ـ الدكتور سليم حسن، مصر القديمة، الجزء الأول، القاهرة ١٩٤٠م.
١٩ ـ الدكتور سليم حسن، مصر القديمة، الجزء الثالث، القاهرة ١٩٤٠م.
٢٠ ـ الدكتور سليم حسن، الأدب المصرى القديم، الجزء الأول، القاهرة ١٩٤٥م.

٢١ ـ الدكتور سيد توفيق، أهم آثار الأقصر الفرعونية، القاهرة ١٩٨٢م.
٢٢ ـ الدكتور عبد الحميد زايد، مصر الخالدة، القاهرة ١٩٦٦م.
٢٣ ـ الدكتور عبد العزيز صالح، حضارة مصر القديمة وآثارها، القاهرة ١٩٦٢م.
٢٤ ـ الدكتور عبد المنعم أبو بكر، تاريخ الحضارة المصرية: العصر الفرعوني ـ النظم الاجتماعية، القاهرة ١٩٦٢م.
٢٥ ـ الدكتور محمد إبراهيم بكر، صفحات مشرقة من تاريخ مصر القديمة، القاهرة ١٩٨٤م.
٢٦ ـ الدكتور محمد أنور شكرى وآخرون، حضارة مصر والشرق القديم، القاهرة.
٢٧ ـ الدكتور محمد بيومى مهران، حركات التحرير في مصر القديمة، القاهرة ١٩٧٦م.
٢٨ ـ الدكتور محمد بيومى مهران، الثورة الاجتماعية الأولى فى مصر الفرعونية، الإسكندرية ١٩٦٦م.
٢٩ ـ الدكتور محمد بيومى مهران، مصر، الجزء الأول، الإسكندرية ١٩٨٨م.
٣٠ ـ الدكتور محمد بيومى مهران، مصر، الجزء الثانى، الإسكندرية ١٩٨٨م.
٣١ ـ الدكتور محمد بيومى مهران، مصر، الجزء الثالث، الإسكندرية ١٩٨٨م.
٣٢ ـ الدكتور محمد عبد القادر، آثار الأقصر، القاهرة ١٩٦٢م.
٣٣ ـ الدكتور نجيب ميخائيل، مصر والشرق الأدنى القديم، الجزء الأول، الإسكندرية ١٩٦٢م.
٣٤ ـ الدكتور نجيب ميخائيل، مصر والشرق الأدنى القديم، الجزء الثانى، الإسكندرية ١٩٦٢م.
٣٥ ـ الدكتور نجيب ميخائيل، مصر والشرق الأدنى القديم، الجزء الخامس، الإسكندرية ١٩٥٩م.

ثانياً ـ المراجع المترجمة إلى اللغة العربية:

٣٦ ـ أدولف إرمان، ديانة مصر القديمة، ترجمة عبد المنعم أبو بكر، القاهرة ١٩٥٢م.
٣٧ ـ أدولف إرمان وهرمان رانكة، مصر والحياة المصرية فى العصور القديمة، ترجمة عبد المنعم أبو بكر، القاهرة ١٩٥٣م.
٣٨ ـ الكسندر شارف، تاريخ مصر، ترجمة عبد المنعم أبو بكر، القاهرة ١٩٦٠م.
٣٩ ـ ألن جاردنر، مصر الفراعنة، ترجمة نجيب ميخائيل، القاهرة ١٩٧٣م.

٤٠ ـ إيتين دريوتون وجاك فانديه، مصر، ترجمة عباس بيومي، القاهرة ١٩٥٠م.

٤١ ـ جون ويلسون، الحضارة المصرية القديمة، ترجمة أحمد فخرى، القاهرة ١٩٥٦م.

٤٢ ـ جيمس بيكي، الآثار المصرية في وادى النيل (٤ أجزاء)، ترجمة شفيق فريد ولبيب حبشي، القاهرة ١٩٨٧/٦٣م.

٤٣ ـ جيمس هنرى برستد، فجر الضمير، ترجمة سليم حسن، القاهرة ١٩٥٦م.

٤٤ ـ جيمس هنرى برستد، تطور الفكر والدين في مصر القديمة، ترجمة زكى سوس، القاهرة ١٩٦١م.

٤٥ ـ مرجريت مرى، مصر ومجدها الغابر، ترجمة نجيب ميخائيل، القاهرة ١٩٥٧م.

ثالثا ـ المراجع الأجنبية:

46. Barguet, (P.), Le Temple d'Amon -Re A Kamak, Cairo, 1962.

47. Baikie (J.W.), A History of Egypt, I, London, 1928.

48. Breasted, (J.H.), A History of Egypt, N.Y., 1946.

49. Breasted, (J.H.), Ancient Records of Egypt,1-2, Chicago, 1906.

50. Breasted (J.H.), The Dawn of Conscience, N.Y., 1939.

51. Cerny, (J.), Ancient Egyptian Religion, London, 1952.

52. Daumas, (F.), La Civilisation de L'Egypte Pharaonique, Paris, 1956.

53. Dunham (D.), Naga - ed - Der Stelea of the First Intermediate Period, 1937.

54. Dunham (D.), The Baographical Inscriptions of Nekhebu, JEA, 24, 1948.

55. Drioton (F.) et Vandier, Egypte, Paris, 1962.

56. Erman, (A.), The Literature of The Ancient Egyptians, London, 1927

57. Faulkner, (R.), The Rebellion in The Har - Nomo, JEA, 30, 1944.

58. Gardiner, (A.H.), Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1961.

59. Garidner, (A.H.), A Stela of The Earlier Intermediate Period, JEA, 8, 1922.

60. Gardiner, (A.H.), The Admonitions of An Egyptian Sage, Leipzig, 1909.

61. Gardiner, (A.H.), The Instruction for King Mery Ka Re, JEA, 1, 1914.

62. Gardiner, (A.H.), The Story of Eloquent Peasant, JEA, 9, 1923.

63. Garinder, (A.H.), The Prophecy of Neferti, JEA, I, 1914.

64. Griffith (F.L.), Beni - Hassan, London, 1883-1900.

65. Hayes, (W.G.), The Scepter of Egypt, I, N.Y., 1953.

66. Hayes, (W.G.), The Coptes Decrees, JEA, 32, 1946..
67. Kees (H.), Ancient Egypt, London, 1961.
68. Mokhtar (M.G.), Ihnasya El-Medinah (Heracleopolis Magna) Its Importance and Its Role in Pharaonic History, Cairo, 1957.
69. Newberry (P.E.) and Griffith (F.L), El-Bersheh, London, 1895.
70. Petrie (W.M.F.), A History of Egypt, I, London, 1924.
71. Poltsky, (H.G.), The Stela of Heka - Yeb, JEA, 16, 1930.
72. Wilson (J.A.), The Burden of Egypt, Chicago, 1954.
73. Wilson, (J.A.), The Protests of The Eloqunt Peasnt, in ANET, 1966, p. 407-410.
74. Wilson, (J.A.), A Dispute Over Suicide, ANET, 1966.
75. Wilson (J.A.), The Admonitions of Ipu - Wer, in ANET, 1966.
76. Wilson (J.A)., The Prophecy of Nefer - Rohu, ANET, 1966.
77. Wilson (J.A.), The Inscription For King Meri - Ka Re, in ANET, 1966.
78. Winlock, (H.E.), The Rise and Fall of The Middle Kingdom in Thebes, N.Y., 1940.



المؤلف فى سطور

دكتور

محمد بيومى مهران

أستاذ تاريخ مصر والشرق الأدنى القديم

كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

١ - ولد فى البصيلية - مركز إدفو - محافظة أسوان.

٢ - حفظ القرآن الكريم، ثم التحق بمدرسة المعلمين بقنا، حيث تخرج فيها عام ١٩٤٩.

٣ - عمل مدرساً بوزارة التربية والتعليم (١٩٤٩-١٩٦٠).

٤ - حصل على ليسانس الآداب بمرتبة الشرف من قسم التاريخ بكلية الآداب - جامعة الإسكندرية عام ١٩٦٠.

٥ - عين معيداً لتاريخ مصر والشرق الأدنى القديم بكلية الآداب - جامعة الإسكندرية عام ١٩٦١م.

٦ - حصل على درجة الدكتوراه بمرتبة الشرف فى التاريخ القديم من كلية الآداب - جامعة الإسكندرية عام ١٩٦٩م.

٧ - عين مدرساً لتاريخ مصر والشرق الأدنى القديم فى كلية الآداب - جامعة الإسكندرية عام ١٩٦٩م.

٨ - عين أستاذاً مساعداً لتاريخ مصر والشرق الأدنى القديم فى كلية الآداب - جامعة الإسكندرية عام ١٩٧٤م.

٩ - عين أستاذاً لتاريخ مصر والشرق الأدنى القديم فى كلية الآداب - جامعة الإسكندرية عام ١٩٧٩.

١٠ - أعير إلى جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض فى الفترة ١٩٧٣-١٩٧٧م.

١١ - عين عضواً فى مجلس إدارة هيئة الآثار المصرية فى عام ١٩٨٢م.

١٢ - عين عضواً بلجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة فى عام ١٩٨٢م.

١٣ - أعير إلى جامعة أم القرى بمكة المكرمة فى الفترة ١٩٨٣-١٩٨٧م.

١٤ ـ عين رئيساً لقسم التاريخ والآثار المصرية والإسلامية فى كلية الآداب ـ جامعة الإسكندرية (١٩٨٧-١٩٨٨م).

١٥ ـ اختير مقرراً للجنة العلمية الدائمة لترقية الأساتذة المساعدين فى الآثار الفرعونية وتاريخ مصر والشرق الأدنى القديم (١٩٨٨-١٩٨٩م).

١٦ ـ عين أستاذاً متفرغاً فى كلية الآداب ـ جامعة الإسكندرية فى عام ١٩٨٨م.

١٧ ـ عضو لجنة التراث الحضارى والأثرى بالمجالس القومية المتخصصة.

١٨ ـ عضو اللجنة الدائمة للآثار المصرية فى هيئة الآثار.

١٩ ـ عضو اللجنة العلمية الدائمة لترقية الأساتذة المساعدين فى الآثار الفرعونية وتاريخ مصر والشرق الأدنى القديم.

٢٠ ـ عضو اللجنة العلمية الدائمة لترقية الأساتذة فى الآثار الفرعونية وتاريخ مصر والشرق الأدنى القديم.

٢١ ـ عضو اللجنة العلمية الدائمة لترقية الأساتذة المساعدين فى التاريخ.

٢٢ ـ أشرف وشارك فى مناقشة أكثر من ٥٥ رسالة دكتوراه وماجستير فى تاريخ وآثار وحضارة مصر والشرق الأدنى القديم فى الجامعات المصرية والعربية.

٢٣ ـ أسس وأشرف على شعبة الآثار المصرية بكلية الآداب ـ جامعة الإسكندرية منذ عام ١٩٨٢م.

٢٤ ـ شارك فى حفائر كلية الآداب ـ جامعة الإسكندرية فى الوقف ـ مركز دشنا ـ محافظة قنا، (فى عام ١٩٨٠/١٩٨١م)، وفى «تل الفراعين» مركز دسوق ـ محافظة كفر الشيخ فى عام (١٩٨٣/٨٢م).

٢٥ ـ عضو اتحاد المؤرخين العرب.

٢٦ ـ عضو مجلس إدارة إتحاد الآثاريين العرب.

٢٧ ـ عضو نقابة السادة الأشراف بجمهورية مصر العربية.

مؤلفات

الأستاذ الدكتور

محمد بيومي مهران

أستاذ تاريخ مصر والشرق الأدنى القديم

كلية الآداب ـ جامعة الإسكندرية

(أ) دراسات تاريخية:

أولا ـ في تاريخ مصر القديم (رسائل علمية):

١ ـ الثورة الاجتماعية الأولى في مصر الفرعونية، رسالة ماجستير، الإسكندرية ١٩٦٦

٢ ـ مصر والعالم الخارجي في عصر رعمسيس الثالث، رسالة دكتوراه — الإسكندرية ١٩٦٩

ثانيا ـ دراسات في تاريخ اليهود القديم:

٣ ـ التوراة ـ مجلة الأسطول ـ العدد ٦٣. — الإسكندرية ١٩٧٠

٤ ـ التوراة ـ مجلة الأسطول ـ العدد ٦٤. — الإسكندرية ١٩٧٠

٥ ـ التوراة ـ مجلة الأسطول ـ العدد ٦٥. — الإسكندرية ١٩٧٠

٦ ـ قصة أرض بين الحقيقة والأسطورة، مجلة الأسطول، العدد٦٦ — الإسكندرية ١٩٧١

٧ ـ النقاوة الجنسية عند اليهود(١)، مجلة الأسطول، العدد ٦٧ — الإسكندرية ١٩٧١

٨ ـ النقاوة الجنسية عند اليهود(٢)، مجلة الأسطول، العدد٦٨ — الإسكندرية ١٩٧١

٩ ـ أخلاقيات الحرب عند اليهود من التوراة، مجلة الأسطول، العدد ٦٩ — الإسكندرية ١٩٧١

١٠ ـ التلمود، مجلة الأسطول، العدد ٧٠ — الإسكندرية ١٩٧٢

ثالثا ـ دراسات في تاريخ العرب القديم:

١١ ـ الساميون والآراء التي دارت حول موطنهم الأصلي — الرياض ١٩٧٤

١٢ ـ العرب وعلاقاتهم الدولية في العصور القديمة — الرياض ١٩٧٦

١٣ ـ مركز المرأة في الحضارة العربية القديمة — الرياض ١٩٧٧

١٤ ـ الديانة العربية القديمة — الإسكندرية ١٩٧٨

١٥ ـ الفكر الجاهلي — القاهرة ١٩٨٢

رابعاً ـ دراسات فى تاريخ العراق القديم:

١٦ ـ قصة الطوفان بين الآثار والكتب المقدسة	الريـــاض ١٩٧٦
١٧ ـ قانون حمورابى وأثره فى تشريعات التوراة	الإسكندرية ١٩٧٩

خامساً ـ سلسلة تاريخ وحضارة مصر والشرق الأدنى القديم:

١٨ ـ حركات التحرير فى مصر القديمة	القاهــــرة ١٩٧٦
١٩ ـ إخناتون : عصره ودعوته	القاهــــرة ١٩٧٩
٢٠ ـ مصر، الجزء الأول، الطبعة العاشرة	الإسكندرية ١٩٨٨
٢١ ـ مصر، الجزء الثانى، الطبعة العاشرة	الإسكندرية ١٩٨٨
٢٢ ـ مصر، الجزء الثالث، الطبعة العاشرة	الإسكندرية ١٩٨٨
٢٣ ـ الحضارة المصرية القديمة، ج١ ، الطبعة الخامسة	الإسكندرية ١٩٨٩
٢٤ ـ الحضارة المصرية القديمة، ج٢ ، الطبعة الخامسة	الإسكندرية ١٩٨٩
٢٥ ـ تاريخ العرب القديم، ج١ الطبعة السابعة عشرة	الإسكندرية ١٩٩٤
٢٦ ـ تاريخ العرب القديم، ج٢ ، الطبعة السابعة عشرة	الإسكندرية ١٩٩٤
٢٧ ـ الحضاة العربية القديمة، الطبعة الرابعة	الإسكندرية ١٩٩٤
٢٨ ـ بلاد الشام	الإسكندرية ١٩٩٠
٢٩ ـ تاريخ السودان القديم	الإسكندرية ١٩٩٤
٣٠ ـ المغرب القديم	الإسكندرية ١٩٩٠
٣١ ـ العراق القديم	الإسكندرية ١٩٩٠
٣٢ ـ التاريخ والتأريخ	الإسكندرية ١٩٩١
٣٣ ـ أرض الميعاد	الإسكندرية ١٩٩٨
٣٤ ـ بنو إسرائيل، الجزء الأول، طبعة ثالثة	الإسكندرية ١٩٩٩
٣٥ ـ بنو إسرائيل، الجزء الثانى، طبعة ثالثة	الإسكندرية ١٩٩٩
٣٦ ـ بنو إسرائيل، الجزء الثالث، طبعة ثالثة	الإسكندرية ١٩٩٩
٣٧ ـ بنو إسرائيل، الجزء الرابع، طبعة ثالثة	الإسكندرية ١٩٩٩
٣٨ ـ بنو إسرائيل، الجزء الخامس، طبعة ثالثة	الإسكندرية ١٩٩٩
٣٩ ـ حضارات الشرق الأدنى القديم، الجزء الأول	الإسكندرية ١٩٩٩
٤٠ ـ حضارات الشرق الأدنى القديم، الجزء الثانى	تحت الطبــــع

سادساً ـ معجم المدن الكبرى فى مصر والشرق الأدنى القديم:

٤١ ـ الجزء الأول، مصر	الإسكندرية ١٩٩٩

٤٢ ـ الجزء الثانى ـ الشرق الأدنى القديم — تحت الطبع

(ب) دراسات إسلامية:

أولاً ـ سلسلة دراسات تاريخية من القرآن الكريم:

٤٣ ـ الجزء الأول ـ فى بلاد العرب، طبعة ثالثة — الإسكندرية ١٩٩٥

٤٤ ـ الجزء الثاني ـ في مصر، طبعة ثانية — الإسكندرية ١٩٩٥

٤٥ ـ الجزء الثالث ـ في بلاد الشام، طبعة ثانية — الإسكندرية ١٩٩٥

٤٦ ـ الجزء الرابع ـ فى العراق، طبعة ثانية — الإسكندرية ١٩٩٥

ثانياً ـ سلسلة فى رحاب النبىّ وآل بيته الطاهرين:

٤٧ ـ السيرة النبوية الشريفة ـ الجزء الأول — بيروت ١٩٩٠

٤٨ ـ السيرة النبوية الشريفة ـ الجزء الثاني — بيروت ١٩٩٠

٤٩ ـ السيرة النبوية الشريفة ـ الجزء الثالث. — بيروت ١٩٩٠

٥٠ ـ السيدة فاطمة الزهراء — بيروت ١٩٩٠

٥١ ـ الإمام على بن أبي طالب (الجزء الأول) — بيروت ١٩٩٠

٥٢ ـ الإمام علي بن أبي طالب (الجزء الثانى) — بيروت ١٩٩٠

٥٣ ـ الإمام الحسن بن علي — بيروت ١٩٩٠

٥٤ ـ الإمام الحسين بن علي — بيروت ١٩٩٠

٥٥ ـ الإمام علي زين العابدين — بيروت ١٩٩٠

٥٦ ـ الإمام جعفر الصادق — تحت الطبع

ثالثاً ـ سلسلة الإمامة وأهل البيت:

٥٧ ـ الإمامة — بيروت ١٩٩٣

٥٨ ـ الإمامة والإمام علي — بيروت ١٩٩٣

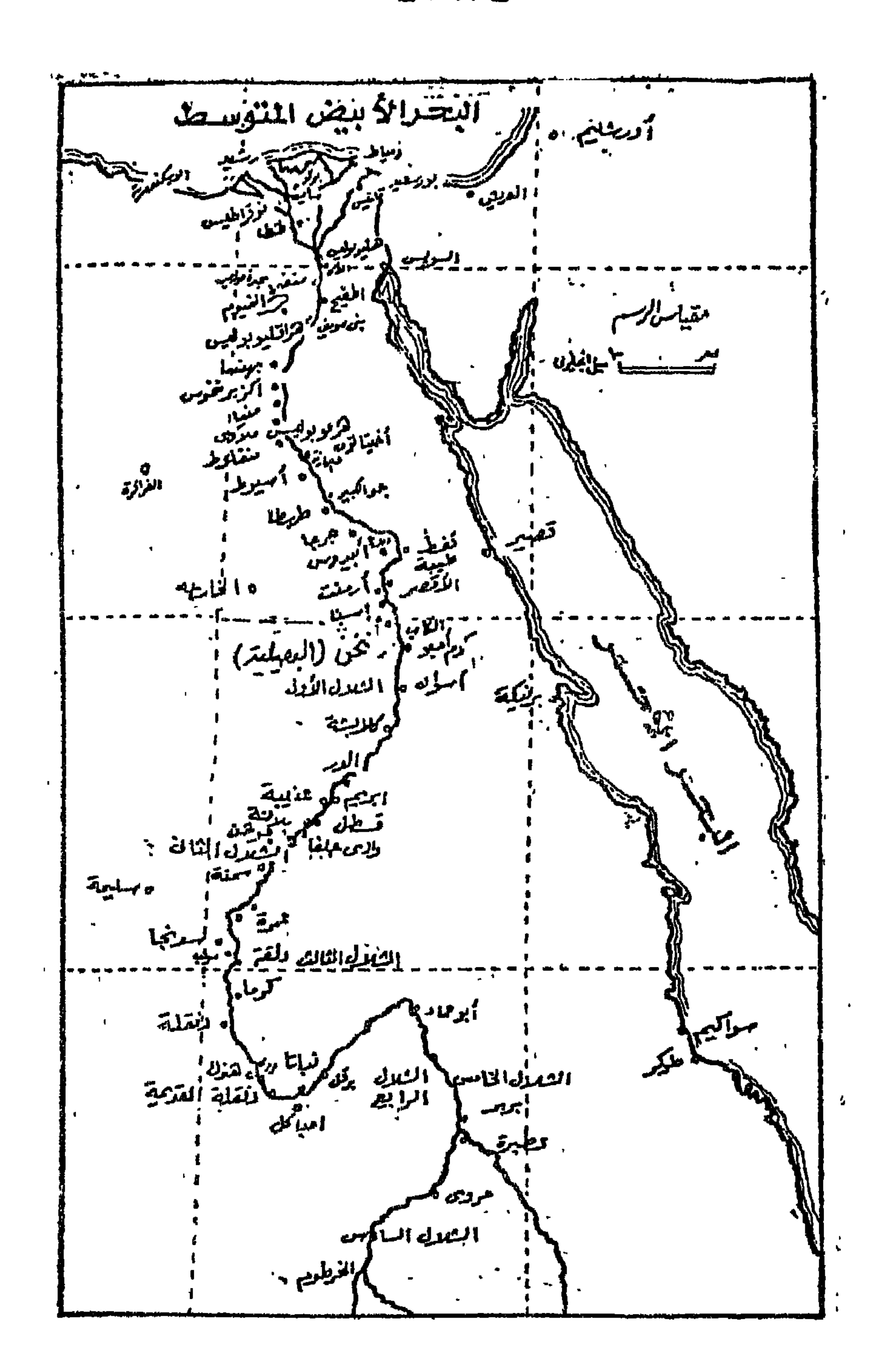
٥٩ ـ الإمامة وخلفاء الإمام علي — بيروت ١٩٩٣

(ج) مقالات فى مجلة كلية الآداب ـ جامعة الإسكندرية:

٦٠ ـ دراسة حول التأريخ للأنبياء ـ العدد ٣٩ — الإسكندرية ١٩٩٢

٦١ ـ الإعجاز فى القرآن ـ دراسة فى الإعجاز التاريخى، العدد ٤٠ — الإسكندرية ١٩٩٣

٦٢ ـ النقاوة الجنسية عند اليهود، العدد ٤٦ — الإسكندرية ١٩٩٧


البحر الأبيض المتوسط
أورشليم
دمياط
رشيد
الإسكندرية
العريش
السويس
منف
الفيوم
بني سويف
أسيوط
منفلوط
الفرافرة
الخارجة
الأقصر
أرمنت
إسنا
قفط
طيبة
أسوان
الشلال الأول
كوم أمبو
القصير
برنيكة
الشلال الثالث
كرمة
دنقلة
دنقلة القديمة
أبو حمد
الشلال الرابع
الشلال الخامس
بربر
عطبرة
الشلال السادس
الخرطوم
سواكن
طوكر
مقياس الرسم

فهرس الموضوعات





